أرواح لا تنام

خيري حمدان

رواية



أرواح لا تنام

أرواح لا تنام

خيري حمدان

إلى الشاعر ديمو إيفانوف

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٢/١١/٤١٢٧)

أرواح لا تنام - خيري حسن أحمد حمدان.

دار البيروني للنشر والتوزيع

الطبعة العربية الأولى - ٢٠١٦

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٦٨-٨٩-٤ (ردمك)



شركة دار البيروني للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)
ص.ب، ١٨٢٢١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس، ٩٦٢٦٤٦٥١٠٠٤+
Email:beyrouni.publisher@gmail.com

(ألا نعاقب الورد حين نحرمه شوكه)

لكلّ حكاية ورواية قصّة، ولروايتي هذه قصّة امتدت أحداثها لسنوات طويلة.

كان هناك أديبان، أنا والشاعر البلغاري ديمو إيفانوف، هو متمرّد على واقعه الاشتراكي والقمع الفكري ومبدأ حكم الحزب الواحد المستبدّ، وأنا فلسطيني الجنسية أجنبيّ المقام، أمتهن الحياة في البلد الذي احتضنني. هو وسيم، بوهيميّ، متصوّف المشاعر، إنسانيّ المآل، وأنا هادئ مستقرّ معذّب بطريقتي الخاصة. هو يعمل في صبّ الحديد والمعادن، ينفجر وقصائده حين يهرب إلى ربيع الحياة مع إحدى صديقاته الكثيرات، وأنا أمضي معظم وقتي متقلّبًا بين كتب الأدب والرياضيات.

جاءني يومًا، وجهه أصفر ممتقع وقال:- قد أموت نهار اليوم.

ضحكتُ بملء فمي، وأصيب هو بسكتة قلبية في منزلي كادت تودي بحياته، نام الليل كلّه، لم أدرك خطورة الموقف سوى في اليوم التالي. سألته حانقًا:- لماذا لم تخبرني؟ كان بإمكاني إحضار طبيب. أجاب مبتسمًا:- كانوا سيقضون عليّ في المشفى، ألا ترى لعنة الاستبداد؟ حتى المرأة باتت مخبرة لا تتوانى عن تقديم التقارير بحقّ زوجها وأبنائها، والرجل لا يتردّد لحظة واحدة عن الإيقاع بأصدقائه وبعض أفراد عائلته، تحوّلنا إلى دولة بوليسية، اذهب بعيدًا عن هذا العالم يا صديقي.

بعد يومين أحضر لي وصيته، ضحكتُ أنا العابث مجدّدًا، رميتُ بها في عمق أدراجي، وصحت ساخرًا:- أنتَ مجنون.

العام 1989، انقلاب أبيض على الحكم في صوفيا، وبداية الانتقال إلى اقتصاد السوق. أفواجٌ كبيرةٌ تهاجرُ هربًا من الفقر ورماديّة الحياة إلى الغرب، وديمو يسافر إلى نيوزلندا، لماذا هذا البلد تحديدًا؟ ربّما من أجل امرأة. هذا ليس مهمًا الآن. سنوات قليلة تمضي على عجل. قلبه يخونه ثانية، هذه المرّة أصرّ القلب على

التوقّف طويلا طلبًا للراحة. حين بحثوا بين أوراقه وجدوا بعض العناوين، ومن بينها عنواني واسمي، كنتُ قد ابتعدت عن صوفيا آنذاك محاولا التماهي مع جذوري العربيّة. قامت الدولة النيوزلندية بدفنه رسميًا لعدم وجود أيّ قريب أو صديق للشاعر الذي مضى وحيدًا عن هذه الدنيا. حين علمت بالأمر تفقّدت تلك الوصيّة التي تركها لي ديمو قبل وفاته بسنوات، لكنها كانت قد اختفت مع جزء كبير من أوراقي وكتبي، وكنتُ دائم التنقل والترحال، وربّما ما زلت كذلك، كأنّ هناك ما يربطني بفطرة الغجر.

أنّبني ضميري طويلا وحرمني الراحة، خاصّة وأنّي لم أقرأ ما جاء في تلك القصاصة من الورق. قرّرتُ أن أكتب حياته بقلمي اعتذارًا لديمو، ولجميع الذين حُرِموا من حريّة الكتابة والتعبير من الكتاب والأدباء والشعراء. هذه حياته بجموحها وتألّقها وشرودها بين أيديكم، أكتبها بمداد الروائي وحربته كي يدرك القارئ المنحى الذي سلكته الدول الاشتراكية ما بعد مرحلة التحول.

الكتاب الأول

النبيه

أدركتُ بأنّي قد أفلستُ تمامًا. كالعادة، ضربتُ جيبي بأطراف أصابعي، سمعتُ صوتَ ما تبقّى من بعض قطع المال المعدنيّة ومفتاح. غريب، ما الذي يفعله هذا المفتاح في جيبي؟ تركتْه لي تانيا كي أتمكّن من فتح باب البناية الخارجيّ، لأنّ معظم الأجراس الخارجيّة لا تعمل. كانت قد أشفقت عليّ من شدّة البرد في الخارج.

أقمتُ علاقة عاطفية مع تانيا منذ شهرين، أمِلَت المسكينةُ أن تدوم هذه العلاقة طويلا. في الفترة الأخيرة طلبت منّي عدم استخدام الواقي خلال ممارسة الجنس، لأنّها وحسب قولها غير قادرة على الحمل بسهولة. أنا بالطبع وافقت على الفور، لأنّي في الحقيقة عقيم. حيواناتي المنوية ضعيفة وغير قادرة على إخصاب بويضاتها، لذا لم يبقَ أمامي سوى العبث واللهو ومراقبة طموح العزيزة تانيا يومًا ما بالزواج.

رميتُ المفتاح في أقرب حاوية للنفايات "هذا خطأ"، أدركتُ هذا على الفور، "يومًا ما، وربّما في إحدى الليالي الشتويّة الباردة، سأحتاجُ إلى بعض هذه المفاتيح، لكنّي آنذاك، كنتُ أسعى إلى الحريّة المطلقة. لا وعود، لا مفاتيح، لا التزامات".

كنتُ جائعًا للغاية، معدتي تتقلّص وتصدرُ أصواتًا غريبة. لم أتناول منذ الصباح سوى كعكة مالحة وكوبًا من الشاي. كان هذا كافيًا لإيقاظ وحش الجوع والرغبة الجامحة في تناول كمية كبيرة من الطعام، والبردُ في الخارج يحتاجُ إلى سعرات حرارية كبيرة لمواجهته وتحمّله.

دخلتُ إلى أحد المقاهي، جلستُ في نهاية الصالة حيث مكاني المحبّب المألوف، وضعت معطفي وقبّعتي جانبًا. الجوّ بارد خلال النهار، لم تتوقّف السماءُ عن قذف حبيبات الثلج الكثيفة. بعد لحظات، قَدِمَتْ كاتيا إلى طرفي، نَظَرَتْ إلى عينيّ مباشرة. ابتسمتُ لها طويلا، لكنّي فضّلتُ الصمت وأخيرًا سمعتُ صوتها

الدافئ يهمس:- كيف أساعدك يا نيكولاي؟ أنا أيضًا لا أملك المال، لا أستطيع إعالتك كلّ يوم يا عزيزي.

- أنا جائع يا كاتيوشا، أرجوك.

- أرجوكَ أنتَ أن تفهمني. لا أقدر على السرقة، أنا مهدّدة بالطرد.

أدركتُ على الفور أنّها غير قادرة على مساعدتي في هذا اليوم، لكنّي على ثقة من قدرتي على تجاوز هذه المحنة.

- أحضري لي فنجان قهوة مع قطعتين من شطائر الجبن وقطعة جاتو محلاّة، صدّقيني، أملكُ اليومَ ثمن كلّ هذا. بقيت كاتيا تحدّق في عينيّ غير مصدّقة، وأنا أبادلها النظرات بغباء.

- هل أنتَ متأكّد؟

- طبعًا متأكّد. ضربتُ جيبي بأطرافِ أصابعي لطمأنتها، وضَحكتُ بأعلى صوتي. كنتُ أملكُ ما يعادل دولارًا واحدًا فقط، وهذا لا يكفي ثمن قطعة الجاتو المحلاّة. أضفت مبتسمًا:- عزيزتي كاتيا، يا كاتيوشا الغالية. هزّت رأسها بأسى، وسجّلت طلبي ثم أضافت قائلة.

- نيكولاي، لا أملك سوى القليل من المال الآن، ولكن عند نهاية ورديتي سأحصل على المزيد. قاطعتُها بحدّة وقلت لها بأنّي قادر على دفع هذا الطلب المتواضع. أخيرًا ذهبت كاتيا لتحضر لي ما أريد.

فتحت مسودّة الرواية التي بدأت كتابتها في تلك الأثناء. كنتُ قد أنجزتُ قرابة مئة وعشرين صفحة، شعرتُ بصعوبة العودة إليها، لأنّي غالبًا ما أنسى بعض الأحداث بل وحتّى أسماء شخصيات محورية، كأنّ الرواية نصٌّ مفتوح، تتجاذبُ الأحداث وتختلط في ملاحمَ لا تنتهي. لا بدّ أنّ الصيغة النهائيّة للرواية ستكون مبهمة للغاية. بعد قليل أحضرت كاتيا طلبي. وضعت الصحون وفنجان القهوة بتأنٍ أمامي.

- أنتِ رائعة يا كاتيا.

عندها أفسحت كاتيا المجال لشبح ابتسامة لترتسم على تضاريس وجهها. كانت تتمنّى أن أستمرّ بمناداتها باسم الدلال "كاتيوشا". في تلك اللحظة، بدوتُ كعاشق وانساب الكلام من فمي:- يا إلهي، ما أجمل يديك، حضورك الأنثوي يحمل عناوين الإبداع يا عزيزتي.

- أنت شقيّ يا نيكولاي، لا أحد يقدر على مجاراتك في إطراءاتك.
- يا للأسف، هل هذا رأيك الخاصّ بشخصي المتواضع؟
- شهيّتك اليوم قويّة، ما الذي فعلته ليلة البارحة؟ اشرب قهوتك قبل أن تبرد.

فكّرت قليلا قبل البدء بمهاجمة الطعام أمامي. أفضّل شطائر الجبن، لهذا سارعتُ بتناول الحلوى ليبقى الطعم المالح في فمي. نظرتُ إلى الباب الخارجي عندما انتهيت من التهام الوجبة المتواضعة، لأرى صديقي الإيطالي كريستيان يدخل، والى جانبه بالطبع الحسناء اللعينة سيلفيا:- - لقد حلّ الفرج أخيرًا.

صِحْتُ بأعلى صوتي "كريستيان، صديقي العزيز". حين التقت أعيننا، لم تملك كاتيوشا نفسها عن الضحك، ثمّ غمزت بطرف عينيها.

- نيكولاي بلحمه وشحمه، أنت ما زلت على قيد الحياة؟ اقتربوا من مائدتي، دعوتهم للانضمام وبالطبع جلسوا دون تردد.

عزيزتي سيلفيا، هل يُعْقَلُ أنّك لم تسأمي هذا الشاب بعد؟ أنت تولينه اهتمامًا كبيرًا على أيّة حال. بدأتُ حديثي محاولا أن أضفي جوًا من المرح.

- وأنت يا نيكولاي، ألن تتخلى قريبًا عن تهريجك هذا؟
- أنا أعشقُ التهريج كما تعلمين. أخبرني عن أخبارك يا كريستيان؟
- لديّ الكثيرُ من العمل في الآونة الأخيرة، أحاولُ ترجمة مادّة صعبة ومملّة للغاية، لكن لا توجد خيارات كثيرة ولا بديل عن العمل.

- السياسة مجدّدًا؟ سألتُه محاولا تجنّب نظرات سيلفيا.
- نعم، إنّهم يدفعون بسخاء.
- ما رأيك يا سيلفيا أن تتناولا معي بعض الفطائر والقهوة؟

كانت سيلفيا في تلك اللحظة مكفهرة ومزاجها حادّ للغاية، نظرتْ نحوي وبالأحرى نظرت من خلالي إلى نقطة ما في فراغ المكان، همهمت قائلة بأنها تفضّل شيئًا من الويسكي. في تلك اللحظة، شعرتُ بالراحة لأنّي حققتُ ما أصبو إليه، فأنا لا أملك ثمن الفطائر التي طلبتها فما بالك بالويسكي.

- أعتذر يا سيلفيا، لا أملك ما يكفي للويسكي يا عزيزتي.

عندها تدخّل كريستيان وقال بما لا يقبل الجدل:- لا تقلقوا أرجوكم. أتركوا لي حرية التصرّف، أرغب برفع نخبنا جميعًا، أنتم ضيوفي فلا ترفضوا دعوتي.

- لكن يا كريستيان..

حاولت رفض دعوته على دعوته، لكنّي سرعان ما لذتُ بالصمت، تصوّروا لو وافق الرجل، وترك الفاتورة بين يدي، عندها كنت سأفضّل أن تنفتح الأرض وتبتلعني.

بعد قليل أحضرتْ كاتيا المشروب، ملأت الكؤوس أمامنا، وضعت بعض المكسّرات، ونظرت إليّ طويلا، أدركتْ بأنّي قد وجدتُ ضالتي حين التقيت كريستيان، وأنّ جميع حلولي المتوفرة مؤخّرًا مؤقتة، وهذا ما زادها حزنًا وجمالا.

عليّ أن أجد عملا في أقرب وقتٍ ممكن، من الصعب أن أستمرّ في هذا النمط من الحياة. أنا فتىً قويّ ولن أستسلم بهذه السهولة، المصانعُ الثقيلةُ كثيرةٌ في ضواحي صوفيا، عادة ما أتمكن من الخلاص في اللحظة الأخيرة، لحظات قبل أن يصل النصل إلى أصل العظام، عندها أصبح شريرًا، وأنتزع لقمتي من فم الذئب بيدين عاريتين.

- ما هو مصير هذه الرواية يا نيكولاي، ألم تنتهِ من كتابتها بعد؟ سأل كريستيان والقلق بادٍ على تقاطيع وجهه. وقبل أن أجيبه، نظرتْ إليّ سيلفيا بعينين واجمتين، سألتني عن أمرٍ لا يعنيني البتّة. تذكرت الآن ما قالته لي ذات صباح.
- هل ستحضر معنا إلى الحفلة هذا المساء؟

لم أجبْها على الفور، وتملكتني رغبة بأن أصرخ في وجه كريستيان، "لماذا ربطت مصيرك بهذه الأفعى الجميلة يا رجل؟ سيلفيا قادرة على خلع سقف بيتك، لتبقى وحيدًا في فراشك في ليالي الشتاء الباردة".

- أعملُ جاهدًا على إنهاء هذا العمل الروائي، لا أدري لماذا تعقّدت الأمور إلى هذا الحدّ، أشعرُ أنّي غريبًا عنه، أنسى أبطالي، والأحداث التي أحبكها تبدو غريبة عنّي أيضًا، كلّما شرعت بالكتابة أجد نفسي مضطرًا لقراءة كلّ ما كتبت قبل ذلك. يبدو أنّ روايتي كتابٌ مفتوحٌ يا كريستيان.
- هل لديك أبطال محبوبون؟ هل تكره أحدهم وهم جميعًا صنيع يديك؟
- لا أبدًا، أحيانًا أجد نفسي مضطرًا لقتل أحد الأبطال، حين يصبحُ مزعجًا وغير مريح للنصّ، لكن هذه الإجراءات تأتي بعفوية ودون تخطيط مسبق.
- يقيم ألكسندر في المساء حفلا صاخبًا في منزله، صدّقني، حفلات ساشو* لا تفوّت. ما رأيك أن تشاركنا؟ قاطعتنا سيلفيا دون أيّ حرج.

شخصية هذه المرأة فريدة من نوعها، عنيدة حتّى الغثيان، لا تملّ ولا تسأم، تدرك أحتقاري لها، ربّما لهذا تفرض حضورها وتقاطعني في كلّ مناسبة ممكنة.

- أنتِ يا سيلفيا مغرمة بالحفلات، ولا تطيقين مرور يوم دون تسليط الأضواء عليك، ما دمت تصرّين على حضوري فسأكون أوّل المدعوّين.

---

* ساشو: اسم التحبب لألكسندر

استمرّت سيلفيا تنظر من خلالي، لم تتعدّ ردّةُ فعلها التي أظهرتها بسكبِ ما تبقّى من كأس الويسكي في جوفها، وسرعان ما ملأته مجدّدًا، كنتُ على ثقة من أنّها على وشك الانهيار، طبعها الحادّ سينهي لقاءنا بطريقة مأساوية في أيّة لحظة مقبلة.

- حاذري أن تثملي يا حبيبتي الصغيرة. قال كريستيان بصوته الدافيء، لكنّها أجابت بحدّة.

- ماذا لو سَكِرْت يا كريستيان، أنا في نهاية المطاف إنسان، والسكر ليسَ حِكْرًا على الرجال فقط.

شعرتُ في تلك اللحظة برغبة شديدة بصفعها، لكنّي أمسكت، شعرتُ بالشفقة على الرجل ذي القلب الكبير الذي يجلس قبالتي. كيف استطاع احتمالها طِوالَ هذه السنين، الحبّ يعمي العقل قبل القلب.

- سيلفيا أنت غير قادرة على احتمال وطأة الكحول، تبدين شرسة وقبيحة حين تثملين، لهذا من الأفضل أن تتوقّفي عن جرع الويسكي كأنّه ماء حميم.

كنت حادًّا في ملاحظتي، بل حاولتُ في الواقع تحدّيها وليتني لم أفعل.

نظرت إليّ والشررُ يتقادحُ في عينيها، بدت مصرّة على تنفيذ ما عزمت القيام به، جرعت كأسين آخرين من الويسكي، أشعلت سيجارة، أركنت مرفقها على الطاولة أمامها، وقالت:- إلى متى ستعيش حياتك على حساب كريستيان الخاصّ؟

الإهانة التي وجّهتها لي كبيرة للغاية، لم أكن قادرًا على الصمت من ناحية، كما وجدتني في حيرة، كيف أردّ على وقاحتها المفرطة، خاصّة وأن كريستيان أصيب بالحرج كذلك؟

- اللعنة يا سيلفيا، هذا يكفي، أرجوك. انفجر كريستيان في وجهها صائحًا.

حين يفقدُ كريستيان القدرة على التركيز تبدو اللكنة واضحة في حديثه، وهو الأجنبيّ الغريب عن اللغة السلافية، لكنّ الكلمات خرجت من فمه واضحة، كأنّه حرص على عقابها بطريقته الخاصّة، لم تتمالك سيلفيا أعصابها، انزاحَ مرفقُها عن الطاولة، سقط الجزء العلويّ من جسدها فوق المائدة ورطم رأسُها الصحنَ أمامها. رفعتْ رأسَها غاضبة، وقالت ساخطة:- أنا ذاهبة إلى المرافق.

لم تزِدْ عمّا قالته كلمة واحدة.

- عودي لرشدك يا عزيزتي، اغسلي وجهك بالماء البارد.

حين وقفت على قدميها، ضربت بطرف يدها كأس الويسكي أمامها، فوقع على الأرض. ملأ صوت الانكسار فضاء المكان وفجّر معه الهدوء الذي كان ينعم به المقهى في ذلك الصباح الباكر. كلّ هذا لم يثنِها عن عزمها، مضت بكلّ هدوء إلى المرافق الصحيّة دون أن تعتذر.

بعد قليل حضرت كاتيا، وبدأت تجمع كِسَرَ الزجاج في المكان.

- مقرف.

كانت تلك الكلمة الوحيدة التي تفوّهت بها، لم تُضِفْ على ذلك شيئًا. صحيح أن تصرفات سيلفيا عدائية، لكنها اعتادت هذه الممارسات في المقاهي والحانات الرخيصة التي تقدّم الكحول.

- أرجوكِ، دعيني أدفع ثمن الفوضى التي لحقت بالمقهى.

قال كريستيان خَجِلا.

عندها لم أمتلك نفسي، وصرختُ في وجهه:- لماذا تصرّ على اقتناء هذه الحثالة في بيتك يا صديقي؟

نظر إليّ كريستيان فَزِعًا وقال:- لقد تحدّثنا بهذا الشأن من قبل يا نيكولاي، أحبّ هذه المرأة دون حدود أو تكلّف. أحبّها دون تصنّع، أعشقُ

جنونها وحدّة طباعها، ولا أقدر على الوجود دون حضورها الدائم في حياتي كلّ يوم وكلّ لحظة.

- أنتَ حالة ميئوس منها يا صديقي، اللعنة.
- نعم، هذه عبارتك المفضّلة. أخبرني على أية حال، كيف تسير أمورك الحياتية؟ حسنًا، وبكلّ صراحة، كيف تسير أمورك المالية؟
- ألا ترى بأنّ نهاري يبدو غريبًا بعض الشيء؟ سأقول لك السبب الذي يدعوني للتفكير بهذه الطريقة. جميع الذين التقيتهم اليوم مهتمّون بأحوالي المالية. جميعكم تريدون أن تعرفوا حجم الأوراق المالية الموجودة في محفظتي يا كريستيان..
- مفهوم، اتّصلْ بأنطونيو، يقوم هذه الأيام بتصوير دراما سينمائية، من الممكن أن تحصل على أحد الأدوار الصغيرة، ميزانية الفيلم جيّدة، أعتقد أنّك ستحصل على مردود جيد.
- لا أدري كيف أردّ لك هذا الجميل يا كريستيان. أشكرك، أنا مدين لك.

بعد قليل عادت سيلفيا، كانت قد غسلت وجهها بالماء البارد، وأخذت تعود تدريجيًا لطبيعتها. وكان لقاؤنا العابر في هذا المقهى الصغير قد وصل إلى نهايته.

***

سئمتُ الصخبَ والضجيج الذي يضفيه ألكسندر على حفلاته، لكنّي أعلم أيضًا بأنّي سأقابل شخصيات مثيرة في منزله، كما إنّ الطعام والشراب لا ينقطع ولذيذ للغاية. طعامُ مطابخه يناسبُ عضلات معدتي المرنة، وغالبًا ما أجد سقفًا أمضي تحته سواد الليل.

بدأتُ استشعرُ ثقل السنين على جسدي، كم أرغب أن أستقرّ في مأوىً آمن ألوذ إليه كلّ مساءٍ. مكانٌ لي وحدي، أقبلُ حتى بغرفة على السطوح، أو

بحاوية قديمة على حافة الطريق، بضعة أمتار فقط تكفي لضمّ جسدي وكتبي وأشيائي القليلة المتناثرة، هل هذا كثير؟

كاتيا غالبًا ما تشفق عليّ، تتركني أرتاح قليلا في بيتها عند ساعات الظهر، بينما تقضي وقتها بغسل الصحون وتقديم الوجبات السريعة للزبائن، عندها أسارعُ للاستحمام، ونيل قسط وافر من الراحة. كلّ شيء في بيتها الصغير مرتّب، بعيدًا عن الفوضى، وهذا ما كان يساعدني غالبًا على كتابة بضع صفحات في روايتي التي سئمتها وسئمتني.

أعطتني كاتيا مفتاح بيتها، طلبتْ منّي أن أتركه قبل عودتها وأن أضع المفتاح في صندوق البريد، كنتُ متعبًا نهار ذلك اليوم بعد أن امتصّت سيلفيا كلّ رغبة لديّ للعمل والحياة والكتابة. سيلفيا تمتلكُ طاقة سلبية تكفي لإجهاض رحلة فضائيّة محمولة على أجهزة دفع ذاتية عملاقة. هكذا خلدتُ للنوم بعد أن شعرت بالأثر السحريّ الذي تركه الماءُ الساخن في روحي وجسدي. ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى غِبْتُ في نومٍ عميق، كنتُ مجرّد جسد بالٍ يشخرُ كقطار قديم يعمل على الفحم الحجري.

استيقظتُ وجرسُ الباب يرنّ بشكل متواصل، نظرتُ إلى الساعة، أدركتُ بأنّي قد نمتُ طويلا، ولا بدّ أن كاتيا قد عادت من العمل.

أفسدتُ حياة هذه الفتاة بأنانيّتي المفرطة. غالبًا ما أتجنّب البقاء مع كاتيا تحت سقفٍ واحد، لأنّها تعني لي الكثير، كيف يمكنني اختزال كيانها لمجرّد جسد ولذّة عابرة؟

سرعان ما ارتديتُ بنطالي وكنزتي الصوفية، وضعتُ ردائي على كتفي وتأهّبتُ لمغادرة المنزل على الفور. فتحتُ الباب وكانت تقفُ هناك مرتبكة.

- أنا آسف يا كاتيا لقد نِمْتُ طِوال الوقت.
- لا بأس، يمكنك تناول فنجانٍ قهوة بصحبتي، لستَ في عجلةٍ من أمرك على ما يبدو؟

في تلك اللحظة، شعرت بالدنيا تدور بي ومن حولي، لديّ رغبة كبيرة بشرب القهوة والتهام سيجارتين دفعة واحدة، برفقة المرأة التي أتمنّى أن تكون آخر شخص تراه عينيّ قبل أن أفارق الحياة. عدتُ إلى الجنّة، خلعتُ معطفي بينما غابت كاتيا في عالمها الأنثويّ، تنقلتْ ما بين الحمام والمطبخ، عادت بعد قليل تحملُ بين يديها القهوة والحلوى، وابتسامتَها.

- ورديّة صعبة على ما يبدو يا كاتيوشا؟ سألتُها متعاطفًا.
- لا جديد، لقد تعوّدت على هذه الوضعية، أطنانٌ من الملاعق والصحون وما شابه لا تنتهي في مجلى المقهى. ما أن أنتهي من غسلها حتى تتضاعف طلبات الزبائن، وجميعهم في عجلة من أمرهم.
- لماذا لا يوظفّون المزيد للتخفيف من وطأة العمل؟
- نعم، طاقم العمل غير مكتمل، زميلتاي تغيّبتا عن العمل لأسباب صحية، هكذا هو الحال في فصل الشتاء، لا أدري لماذا لا أصاب أنا الأخرى بفيروس يقعدني في البيت لأيام؟ حتّى المرض يجافيني. وأنتَ أمضيت الوقت كلّه في النوم.
- نعم، هذا صحيح، لقد نمتُ كما لم أفعل من قبل. بالمناسبة، ما رأيك لو ترافقيني إلى حفل هذا المساء؟ حفلٌ ينسيك كلّ همومك اليومية، أنتِ بحاجة لتغيير هذه الرتابة القاتلة يا صغيرتي.
- لا يا عزيزي، تستطيع أن تغادر لحفلك وقتما تشاء، أمّا أنا فسأضع قدميّ في وعاء كبير مليء بالملح والماء الساخن، أنا بحاجة ماسّة للراحة ولن أغادر البيت هذا المساء، هناك الكثير من المسلسلات التافهة على شاشة التلفزيون الوطني في هذه الأوقات. سأنام أمام التلفاز.

أشعلتُ سيجارة وتجنّبتُ النظر إلى عينيها مباشرة، لديّ إحساس بأنّنا عائلة واحدة، وهذا ما زاد من إحساسي بالحرج. شعرتُ برغبةٍ شديدةٍ بمغادرة المكان

على الفور. وفي الوقت نفسه، وجدتُ صعوبة شديدة بصدّ رغبتي العارمة لتقبيل شفتيها وضمّها إلى صدري. بإمكاني امتلاكها على الفور، دون أن أنتظر خلعَ ملابسها، دون أيّ تردد أو ممانعة من طرفها. يا إلهي، تلك هي رغبتها المجرّدة أيضًا، قرأتُ ذلك في عمق عينيها. شربتُ آخر قطرة من قهوتي، أشعلت سيجارة أخرى كما وعدتُ نفسي، ووقفتُ على الفور.

- كاتيا، أنتِ أجملَ مصادفات حياتي، أقسم أنّي أقول الحقيقة.
- هل أنت واثق مما تقول؟ أغمضتْ عينيها كأنّها مخدّرة تنتظر منّي القبلة الموعودة، إذا لم يكن أكثر من ذلك.

هذا ما فعلت تمامًا، طبعتُ على خدّها قبلة بريئة، لامستُ شعرَها الأسودَ اللامع بطرف أصابعي، وانطلقت مغادرًا دون أن ألتفت إلى الخلف.

- ربّما..يومًا ما. التفتّ إليها وابتسمتُ قائلا:- من يدري؟ يومًا ما..

من السهل جدًا التواصل معها، كلمة واحدة، إشارة عابرة كافية لتدرك على الفور ما يجول في خاطري. كيف ستتطوّر العلاقة بيننا يا كاتيا؟ من السهل أن نبدأ قصة حبّ جميلة، لكنّي في تلك اللحظات كنت بحاجة للحرية بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. حرية فكريّة، دون أسئلة والتزامات شخصيّة، دون لومٍ أو تأنيب ضمير، دون ضرورة للعودة إلى أحضان امرأة في ساعة محدّدة من الليل أو النهار. كنتُ مصرًا على الحفاظ على استحقاقاتي هذه، وفي الوقت نفسه، لا أمتلك خيارات كثيرة. أعرف أنّ عاطفتي جيّاشة. يمكنني كذلك إشباعَ رغباتِك الجنسيّة بين الحين والآخر. هل يكفي هذا لإرضاء امرأة من الطراز الذي تنتمين إليه؟ مستحيل. إذا اقتربتُ من عالمها العاطفي، فستجرفني أنوثتها بكلّ سهولة، ستلاحقني أينما توجّهت، ستجعلني جزءًا من عالمها الخاص، لن تتنازل عنّي، لن توافق على مشاطرتي مع أخريات. عليّ أن أعترف بأنّي أرتعدُ خوفًا من سطوتها، وأسمع جيّدًا صوتًا داخليّ يصرخ، "اهرب يا نيكولاي، لا تلتفت إلى الخلف أبدًا".

وجدتُ نفسي وحيدًا في الخارج، الطقسُ باردٌ للغاية، لكنّ السماء توقفت أخيرًا عن الجودِ بندف الثلج، سيارات أمانة صوفيا تعمل على تنظيف الشوارع من الثلوج، تقذفُ بها بآليات متخصصة إلى أرصفة الشارع دون أن تولي اهتمامًا بالمارة.

تذكرتُ بأنّي أمتلك بطاقة مغناطيسية، لدي بعض الرصيد، ألقمتُها الهاتف العمومي، وطلبت رقم أنطونيو.

- برونتو. قال أنطونيو بصوته الرخيم الهادئ

- لا يمكن لغير نيكولاي أن يتسبب بإزعاجك في مثل هذا الوقت. هل لي أن أسأل إذا كان بإمكاني المشاركة في فيلمك يا أنطونيو؟

- نعم، أحتاجك للمشاركة في إحدى اللقطات المأساوية، وأنتَ أفضل من يقوم بها. سأنتظرك غدًا في استوديوهات (بانكيا)، أعتقد أنك تعرفُ جيّدًا أين تجدني

بالطبع، أعرف المكان يا أنطونيو إلى الغد، تشاو

سارعتْ بإنهاء المكالمة، الهواتف الخلوية تبتلع البطاقات المغناطيسية، ومعها ذهب كامل الرصيد، لم يبقَ في بطاقتي سوى القليل. لكنّ الوقتَ قد حان للعبث، إنّها الحفلة ذاتها، التي دعتني إليها سيلفيا لأكثر من مرة.

الكسندر شابٌ ثري، يحبّ تنظيم الحفلات في فيلته الشهيرة في منطقة دراغاليفسكي، الواقعة بالقرب من جبل فيتوشا البركاني الخامد. يعشقُ أمسيات الفرح الصاخبة. في الواقع أجده غريب الأطوار. يظهر أحيانًا للملأ كفنان تشكيلي، يدعي امتلاك موهبة فطرية، لكنّ الزمن خانه وتاهت موهبته في مهب الريح. أنا شخصيًا لم أتعرف عن قرب على فنه، ونادرًا ما شاهدتُ لوحة له، معظم حاشيته مولعون بفنه وموهبته، أمّا أنا فكنت مهتمًا بمعرفة مصدر ثروته وهو الذي ما زال في مقتبل العمر. من الصعب أن يتمكن شاب كالكسندر، الذي لم يتجاوز الثامنة والعشرين من جمع كلّ هذه الملايين.

ألكسندر يحبّ دعوة الفنانين والكتّاب من حوله. ليُضفي على نفسه هالة من الروحانية، وليبدو في أعين الآخرين بمثابة مدافع ومحامٍ عن الفنّ والثقافة. تعتبرُ عزبةُ ساشو أو قصرُه الصغير مصدرًا للضجيج والإزعاج خلال ساعات الليل، لكنّ مساحة الأرض التي يملكها كبيرة، والفيلة شبه معزولة عن المحيط الخارجي، كما إنّ منظر الحرس مفتولي العضلات، كافٍ لردع أيّ كائن حيّ عن تقديم شكوى سوى لخالقه. خلافًا لتوقّعاتي وجدتُ المكانَ هادئًا على غير العادة ذاك المساء. يبدو أنّي قد وصلتُ مبكّرًا. ضغطتُ جرس الباب دون تردّد، ودلفتُ إلى الداخل. تفاجأتُ حين شاهدتُ عددًا كبيرًا من الشبّان يجهّزون مكبّرات الصوت والأجهزة الموسيقيّة استعدادًا لليلة أخرى معربدة ومتوحّشة.

- نيكولاي، أهلا صديقي. أين اختفيت طِوالَ هذه المدّة، لم أرك منذ زمن بعيد؟

صاح ألكسندر ضاحكًا ومدّ يده مصافحًا. عانقني الرجل بحرارة، ربّت على كتفي، ودفع بي إلى مركز الحديث، حيثُ تجمهر الكثيرُ من (الأصدقاء)، كنت أعرفُ معظمَ روّاد المكان، لكنّي لم أشاهد سيلفيا وكريستيان بين الحضور. من الواضح أنّهم سيحضرون في وقتٍ لاحق، ليس قبل أن تضعَ سيلفيا عدّة طبقات من مستحضرات التجميل، وليس قبل أن تبدّل ثوب السهرة عدّة مرّات أمام المرآة. لن تحرّك مؤخّرتها الجميلة قبل أن تحرق قلب كريستيان. في الحقيقة، كان كريستيان يفكّر برأسه الصغير القابع بين فخذيه، وهذا ما يقرّبه يومًا بعد يوم إلى حافة الجنون.

الجوّ حارّ في الداخل، خلعتُ معطفي وعلّقته على المشجب في مدخل المنزل، حييت بعض المعارف، محاولا أن أبدو مرحًا، تحصّلتُ على نبيذ أحمرَ في كأسٍ كبيرة، وأخذت أتذوّق طعمه ورحيقه النافذ، هذا النوع النادر وثمين يصعبُ أن تجده لدى العائلات التقليديّة، لكنّه متوفّر لدى ألكسندر بكثرة. بإمكان هذا الرجل ممارسة الحياة برفاهية دون حدود.

جلستُ في مكانٍ اخترتُه عشوائيًا دون أن أعير أيّ اهتمام للأجسادِ البشريّة المتراقصة من حولي. في لحظة خاطفة تذكّرتُ كاتيا حين تركتُها عند عتبة بابِ بيتِها الصغير كفتاة يتيمة مفجعة برحيل آخر من تحبّ. ما سرّ كلّ هذا الحزن المقيم في عينيها؟ مجرّد عواطف جيّاشة يا نيكولاي، هذا كلّ ما في الأمر. لا تحمّل الأمورَ أكثرَ من طاقتها. انظر من حواليك، المكانُ مليءٌ بالحسناوات، نساءٌ ظمأى للغرام والهوى، دَعْك من كاتيا، وانهل من نبع الحياة.

- بصحتك؟

همست المرأةُ الجالسة إلى جانبي، تبدو في الثلاثين من عمرها، شقراء ونظراتُ عينيها توحي بالجرأة. التفتّ نحوها ورفعت كأسي:- بصحتك، أنا نيكولاي.

- ميلِنا. مدّت يدها الصغيرة مصافحة، وأضافت:- النبيذ فاخر، أليس كذلك؟

- نعم، في منتهى الروعة. أخبريني يا ميلِنا ما هي اهتماماتك؟

- أعمل سكرتيرة، أحبّ الشِعر، وأحاول كتابته بين الحين والآخر.

- صحيح أنّ ساشو خبير بأمور البشر، يعرف من يدعو إلى حفلاته، يعرف كيف ينتقي أصدقاءه أيضًا.

- نعم، معظم الحضور أشباه مثقّفين، كتّاب وشعراء وفنانين.

- هذا ليس بالأمر السيّء، لكلّ قطار حمولته.

شعرتُ بسهولة التعامل مع ميلِنا هذه، فهي تحسن الاستماع وتتحدّث بطلاقة، دون مجاملات أو مقدّمات.

- وأنت سيد نيكولاي، ماذا تعمل؟

كنت سأبدو مغفّلا وغبيًا إذا أخبرتُها بأنّي أكتب رواية، هذا كلّ ما أقوم به الآن. لا يمكن أن تكون كتابة رواية مهنة، ما دامت هي تعمل سكرتيرة، إذن فأنا أعمل في صبّ الحديد والمعادن المنصهرة.

- أعمل في كريميكوفسكي [1].
- واو! هذا يتطلّب بذل جهدٍ جسديّ كبير.
- نعم، بهذا أتمكّن من الحصول على أوقات فراغ طويلة للغاية. أعمل لأسبوع في صبّ الفولاذ، ثمّ أرتاح في الأسبوع الثاني. هكذا تتاح لي الفرصة لكتابة الشعر والأدب. مثلك تمامًا.
- هذا رائع، يعجبني كثيرًا هذا النمط من الرجال. أنا مطلّقة، باختصار أنا حرّة، لديّ الكثير من الوقت. أوقاتُ الفراغ تكاد لا تنتهي في عالمي.
- ما رأيك لو نلتقي في إحدى الأمسيات.

ميلِنا مستعدّة لقبول الدعوة، لا تنقصُها الثقة والوقاحة أبدًا، نظرتْ إليّ وقالت حالمة وبصوت واعد:- هذه الليلة أنّا حرّة تمامًا، لا داعي لإضاعة الوقت. أدعوك لقضاء ما تبقّى أمامنا من الليل في بيتي.

لتحيا الهرمونات، مرّة أخرى سقفٌ مجانيّ وعواطف عاصفة دون حساب. يبدو إنّها متعطّشة للجنس، هذا ليس بالأمر السيىء. اختراعُ الواقي عبقريّة فذّة، في تلك اللحظة شعرتُ بأنّي قد أصبحت سلعة رخيصة للغاية. هل يُعْقَل أن أوافق على النوم مع صاحبة أوّل ثوبٍ تُرفعُ أطرافُه، ما دام لديها المأكل والمأوى؟ أنطونيو قادرٌ على أن يوفّر لي ما يكفي لسدّ حاجتي لمدّة شهر أو شهرين. لكن ما العمل بعد ذلك؟ يبدو أنّ ما تحدّثتُ عنه قبل قليل بخصوص كريميكوفسكي، سيتحقّق في القريب العاجل. كنت أعرف نظام العمل في هذا المجمّع الصناعيّ العملاق، وأنا على ثقة من شعوري بالاستقرار والأمان في مثل هذا المكان، فأنا

[1] كريميكوفسكي*: مجمّع صناعي عملاق، يقع بالقرب من صوفيا.

وفي نهاية المطاف وحدة إنتاج لا أكثر ولا أقل، موجةٌ في بحرٍ متلاطم، قطرةُ ماء في مستنقع، رقمٌ وطنيّ في بلدي. وفي نهاية ورديتي. سأذهبُ لمحاسَب القسم، لينفحني أجرًا ليس بالقليل.

- نيكي [2]، هل لي برقصة لو سمحت؟

وقفتُ على الفور، وضعتُ يدي على خصرها، وسرعان ما لامست شفتاها عنقي، حاولتُ الابتعاد قليلا، هذه المرأة مصّاصة دماء محترفة، في تلك اللحظة نظرتْ إليّ بحيرة، عندها لم أجد بدًّا من تسليم نفسي. ضممتُها بشدّة إلى صدري، ألم أقل لكم بأنّي بضاعة رخيصة للغاية، من السهل أن تتمكّن منّي سكرتيرة. أدركتُ أيضًا بأنّي على وشك المضيّ معها حتّى النهاية إذا قبّلتها. شارفتِ الأغنيةُ على الانتهاء. تبعتها أخرى أكثر ديناميكيّة، لم يكن هناك ضرورة لمعانقتِها أكثر من ذلك، أملكُ ما يكفي من الوقت للتفكير جيّدًا قبل المضيّ معها حيث تشاء. عدت إلى مكاني، بينما استمرّت ميلِنا بالرقص، وكانت تكثر من النظر إليّ. تعمّدتُ رسمَ ابتسامة عريضة على وجهي في كلّ مرّة تلتقي فيه أعينُنا. وكانت تبدو من تلك المسافة القصيرة في منتهى الجمال والتألق.

بعد قليل، حضر مضيفي ساشو، ملأ الكأسين بنفسه ورفع نخب صداقتنا.

- بصحّة هذه اللحظات التي لا تعوّض أبدًا. كيف حالك يا نيكي؟
- بخير، أشكر اهتمامك يا ساشو.
- أرجو أن تخبرني قبل أن تغادر المنزل، أريد أن أسألك عن بعض الأمور المشتركة.
- حسنًا، كما تشاء، هل ما زلت تمارس هواية الرسم؟

---

[2] نيكي: اسم التحبب من نيكولاي .

- آه، إذا كان لا بدّ من الصراحة، ليس لديّ الكثير من الوقت في الآونة الأخيرة، العملُ يأخذ منّي الوقت كلّه. لكنّي أجد الشجاعة أحيانًا لمداعبة فرشاة الرسم. قال ساشو فخورًا.
- لا بدّ من إقامة معرض لهذه اللوحات يا صديقيَ
- لا تبالغ يا نيكي! إنّها مجرّد هواية، لا أعتبر ما أقوم به إبداعًا يستحقّ إقامة معرض. ربّما نلتقي في إحدى أمسيات السبت أو الأحد لتبادل الحديث عن الفنّ وهمومه. والآن أعذرني. فلديّ الكثير من الالتزامات. كما ترى ضيوفي كُثر، والمجاملة ضروريّة. هذه إحدى لعنات العصر. الحفلة في منتهى التألق، متّع نفسك.

أخيرًا حضر كريستيان وسيلفيا. يا إلهي، كم تبدو جميلة ومميزة بين كلّ هذه النسوة. سيلفيا ملكة، إلهة قادمة من أعماق الحضارات الغابرة، وتدرك اللعينة قدرتها على ليّ أعناق الرجال أينما حلّت. لكنّها في الوقت نفسه، شيطانٌ يرتدي فستان. لاحقَتْها نظراتُ الرجال بشهوة جارفة، أمّا نظرات النساء فكانت مليئة بالحسرة والغيرة والحسد. الرجالُ يراقبون كلّ حركة تقوم بها، وأعينُهُم تحدّق في صدرها العاري حتى منبع الثديين، جسدٌ يَعِدُ بالكثير من المفاجآت، خاصّة عندما تنحني لسببٍ أو لآخر. اعتادت سيلفيا أن تكون مركزَ اهتمام الحضور، لذا لم تفوّت أيّة مناسبة للظهور والمشاركة في الحفلات الصاخبة.

- أخيرًا ظهرت يا كريستيان.
- هل اتصلت بأنطونيو؟
- نعم، غدًا سأقابله في بانكيا، عرض عليّ أحد الأدوار الثانويّة. شكرًا لك يا صديقي.
- تتحدّثون دائمًا عن العمل، رجال. قاطعتنا سيلفيا، كان من الواضح أنّ مزاجها جيّدٌ خلال الأمسية.

- هناك الكثير من النبيذ والشمبانيا، لماذا لا تملئين كأسك يا جميلتي؟ قلت مشجّعًا.

أبدت رغبة كبيرة بالاستماع إلى اعترافي بجمالِها الصارخ، ابتسمت وانطلقت منها ضحكة دلالة على رضاها الكامل عن نفسها. كريستيان يشعر بالفخر أيضًا حين يرافقها، لا شكّ أنّ الكثير من الرجال يحسدونه، باستثنائي طبعًا، وكانت هي تدرك ذلك جيّدًا. ذهبتْ سيلفيا لإحضار بعض الطعام والشراب. نظرتُ إلى كريستيان وقلت له ضاحكًا:- جميلة ومزاجيّة يا صاحبي.

- نعم، لكلّ شيء ثمن.

- أنتم الإيطاليّون معروفون بدمائكم الحارّة، ومزاجكم العاصف، كيف تمكّنتْ منكَ سيلفيا طِوالَ هذه المدّة؟

- لم تحظَ بمعاشرة الإيطاليات، لو فعلت ذلك، ربّما ستغيّر رأيك بسرعة.

- نعم، لا بدّ أنّ الأمر كذلك. النساءُ متشابهات في العديد من القضايا. لكن، كلّ واحدة منهنّ تحتفظ بحضور ورونق مميّز، أقدّم لك ميلِنا، سكرتيرة تمتلك أصابع من الحرير الخالص.

كانت تقف أمامنا مباشرة، تحدّق بي عاشقة مدلّهة. اقتربت منّا ومدّت يدها لتصافح كريستيان الذي سارع بتقبيلها بأدب، فهو يتقنُ أصولَ بروتوكولات التعامل واحترام الآخرين.

- أهلا عزيزتي، أنا كريستيان.

من الصعب المضيّ في المحادثات الجانبيّة، بعد رفع صوت الموسيقى إلى أقصى درجة ممكنة. سارع كريستيان للانضمام إلى حسنائه ليُظهرَ مهاراته في فنون الرقص، فهو يتقن التانغو والسالسا وغيرها من أنواع الرقص اللاتينيّ، أمّا ميلنا فسارعت للالتصاق بي، وفاجأتني حين أدخلت لسانها في جوف فمي، لتقطف قبلة أقلّ ما يمكن أن يُقال بأنّها شريرة. كانت على وشك الانفجار، وغير قادرة على الانتظار حتى نهاية السهرة، يبدو أنّها تعرف جيّدا كافّة خفايا المنزل، سحبتني

من يدي وجرّتني إلى إحدى الغرف النائية. أغلقت الباب خلفها، خلعت ملابسها على الفور وأبقت على الداخليّة منها، لم أفكّر كثيرًا في تلك اللحظة، تعرّيت وحاولتُ خلعَ ما تبقى من لباس على جسدها الرقيق بعنف. وحين وصلت لحمّالة الصدر، مانعت وأبعدت يديّ برقّة.

"لا بأس يا سيدتي، حافظي على صدرك، ما دام الطريق مفتوحًا إلى جحيم الجسد".

كنتُ ممتنًا للموسيقى الصاخبة القويّة، لأنّ ميلِنا صرخت بملء صوتها من حمّى الشهوة طِوالَ الوقت. بلغت قمّة متعتها بضع مرّات، قبل أن أدرك ما الذي أفعله مع تلك المرأة في هذه الغرفة الخاطئة. أنا الذي أخشى عادة العلاقات السريعة العابرة، أكرّر الغلطة للمرّة المئة أو أكثر، كنتُ على ثقة من فشل هذه العلاقة حتّى قبل أن أشرع بارتداء ملابسي. لماذا نسيت استخدام الواقي، أتمنّى ألا تكون مصابة بمرض معدي. انتهى كلّ شيء بسرعة، تمامًا كما تبدأ الحياة سعيرها كلّ صباح.

- كنتَ أكثر من رائع أيّها العاشق.
- ما برجك يا ميلِنا؟
- السرطان.
- حسنًا، دعينا نعود إلى الحضارة ثانية، لكن أخبريني قبل ذلك بالله عليك، هل أنت نظيفة، أقصد..غير مصابة بمرض معدٍ أو ما شابه؟
- اضطررتُ لإجراء عمليّة جراحيّة قبل بضعة أشهر، لذا أجروا لي كافّة الفحوصات الطبية الممكنة. أؤكد لك بأنّي نظيفة وخالية من جميع الأمراض الجنسيّة. أرجو أن تكون أنتَ كذلك مُعافى.

شعرتُ بالطمأنينة فأنا أجري فحوصات طبية دوريّة، ببساطة لا أثق برفيقاتي، وغالبًا ما أنتقل من طيرٍ لآخر خلال أيام أو أشهر. ارتدينا ملابسنا وعُدنا إلى الصالة حيث الضجيج وعربدة الموسيقى والقهقهة والضحك المتقطّع،

تناولنا بعض الطعام والشراب، وجلسنا في مقاعدنا السابقة. في تلك الأثناء، كانت سيلفيا وكريستيان يرقصان في منتصف المكان. شعرتُ بالدوار، وأخذ الصداع يهاجم رأسي، نظرت لميلنا وسألتُها:- ما طبيعة العملية التي أجريتها إذا لم يكن الأمر سرًّا؟

- أرجوك، لا أريد التحدّث عن هذا الآن.
- لماذا؟ دعينا نعتمد الصراحة منذ اللحظة الأولى.
- بتوتر ملحوظ: أرجوك يا حبيبي، لا أريد التحدّث عن هذا الموضوع. اتفقنا؟

- أدركت سرّها بعد لحظات، ألقيت على صدرها نظرة خاطفة، وأدركت هي حركة رأسي والمكان الذي استقرّت عليه عيناي. هذا هو السبب الذي منعها من خلع حمالة صدرها، لم يكن لها صدر، استأصل مبضعُ الجرّاح ثدييها كما هو الحال مع ملايين المصابات بسرطان الثدي. هذا يوضّح عطشها للجنس والحنان.
- نيكي؟
- لا بأس يا عزيزتي، كلّ شيء على ما يُرام.

عادة ما تصبحُ المرأةُ شديدة التحسّس حين تفقد أحد رموز أنوثتها، وميلنا ليست استثناءً. المشكلة أنّي تحوّلت لهدف مباشر لردود فعلها العاطفية، ومخزنًا لتفريغ شحناتِها الذاتيّة السلبيّة المتراكمة، كانت تهدف لامتصاص كياني كما تفعل الأفاعي المعمّرة، وعليّ أن أعوّضها عمّا فقدته مؤخّرًا من مشاعر الدفء والحبّ. هذا حقّها ما دمتُ قد وافقتُ على التوحّد مع جسدها قبل دقائق معدودة، لكنّي بالرغم من ذلك، أجدُ الثمنَ باهظًا. كنتُ بحاجة لإقامة علاقة عاطفيّة، لكن ليس بهذا التعقيد. يبدو أنّ علاقاتي التي أقمتُها مؤخّرًا غير موفّقة. لا أجد تفسيرًا منطقيًا لهذه الرغبة الهائلة لامتلاك الآخر. أرفضُ أن أكون مُلكًا لأيّ شخص مهما كان قريبًا وعزيزًا على قلبي.

- نيكولاي، تبدو سارحًا طِوالَ الوقت، أرجو ألا تكون رفقتي عبئًا عليك؟

- لا، أبدًا يا ميلِنا، أنتِ في منتهى اللطف، كنتِ لبؤة قبل قليل! غمزتها وابتسمت.

- هل يعجبك أن أكون لبؤة في الفراش؟ ضَحِكَتْ، من الواضح أنّ إجابتي كافية لإرضاء غرورها. هدفي أن تشعر بأنّها مصدر إلهام، وقادرة على إشباع شهوة رجل يحمل اسم نيكولاي.

- اعذريني، لا بدّ من الذهاب لدورة المياه.

نظرتُ إلى ساحة الرقص، رأيتُ كريستيان يراقص ضيفة شابّة، أمّا سيلفيا فكانت قد اختفت عن المكان.

المنزلُ كبيرٌ والغرفُ كثيرة متفرّقة على طول مداخله. هناك بضعُ حمامات ودوراتُ مياه. معظمُها مشغول، فتحتُ باب إحدى الغرف، شعرتُ بصدمةٍ لا توصف حين شاهدتها، تلك المرأة التي تحالفت مع الشيطان. سيلفيا، مستلقية على ظهرها، مفرجة فخذيها، ومن فوقِها مضيفُنا ساشو يشخرُ بكلّ ما أوتي من رجولة وعنفوان. لوهلة من الزمن، لجزءٍ لا يكاد يُذكَر من عمر الثانية، التقت أعيُننا، أغلقتُ البابَ على الفور، ساشو لم يلحظ وجودي، عندها وُلِدَ بيننا سرّ ثقيل، نحن اللذان نكنّ عداء لا يخفى على أحد في علاقتنا المتوتّرة. هذه العاهرة لا تقيم أيّ اعتبار لتفاني كريستيان. القانون لا يحمي المغفلين، كريستيان يستحقّ هذا المصير وهذه الخيانة. لكن، من أكون أنا حتى أحكم على الفتى، كلّ إنسانٍ يحمل مصيره على كتفه ويسير نحو جنّته أو جحيمه. قبل ألفي عام، حملَ المسيحُ صليبه على كتفيه وسار نحو الخلاص الأبديّ.

تعلمُ سيلفيا جيّدًا ما تقومُ به، تدركُ أنّ كريستيان لعبة بين يديها، عاشقٌ تسري في عروقه دماءٌ إيطاليّة، وتفاخرُ بين قريناتها بامتلاكه وطاعته. من ناحية أخرى، ساشو بمثابة الرجل الناجح، صاحبُ المال والجاه والإمكانات غير المحدودة. هذه المعادلة مناسبة لها، ولن تتخلّى عن أحدهما مهما حدث.

شاهدتُ في نهاية الممرّ بابًا خلفيًا، يؤدّي للحديقة ومن هناك، دلفتُ إلى الفضاء الخارجي والحريّة المنشودة. قابلتُ أحد معارفي، طلبتُ منه أن يحضرَ معطفي من داخل القصر، لم يتردّد لحظة واحدة عندما قرأ آيات الألم تتفاعل في عينيّ، لم يطرح مزيدًا من الأسئلة، أحضر معطفي، ربّت على كتفي واختفى في باطن خليّة النحل، حيث تقاطعت حيواتُ الكثيرين من روّاد المكان في تلك الأمسية.

وضعتُ المعطفَ على كتفي وسرعان ما وجدت نفسي في شوارع دراغاليفسكي المُقْفِرَة، أوديتُ بجميع خططي لقضاء ليلتي تحت سقف ساقطة أو امرأة عابرة. غريب؟ لم أكن رخيصًا إلى هذا الحدّ. لكن، ماذا يمكنني أن أفعل في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟

بالرغم من كلّ ذلك، شعرتُ بالسعادة. أنا الآن رجلٌ حرّ ويمكنُني النومَ تحت جذع شجرة، المتجمّد مع أغصانها في انتظار الربيع الذي لا بدّ أن يحلّ في سماء حياتي ذات يوم. وضعتُ يديّ في جيبي محاولا سرقة بعض الدفء من بطانة الصوف، وهناك، وجدتُ قطعتين من الأوراق الماليّة من فئة الخمسين ليفا؛ قلّبتهما بين يديّ بدهشة، لا يمكن أن يفعل ذلك سوى شخص واحد اسمه (ساشو). شكرًا لك أيّها اللصّ الشريف، شكرًا لك أيّها العاشق.

* * *

استأجرتُ غرفة في أحد الفنادق الرخيصة الواقعة على شارع "ماريا لويزا". غرفة صغيرة بسرير قديم يحدثُ صريرًا كلّما تقلبتُ فيه. أعجبني منظرَ العالم الخارجي البانوراميّ من الشباك المرتفع، الحَمامُ يرقدُ آمنًا فوق أسطح المنازل المجاورة، الترام المحمّل بالركّاب حتّى أبوابه الخارجيّة يطرقُ سكك الحديد ويملأ الفضاء ضجيجًا. ما أجملَ الحياة حين تجري من حولنا ونتذوّقها بجرعات صغيرة.

شعرتُ برغبة كبيرة بالكتابة في تلك اللحظة، تناولتُ الملف الورقيّ من سترتي، وكان قد تمزّق في أطرافه، لكن هذا لا يمنعُ من المضيّ بالكتابة على سطح

الأوراق الملساء. تعجبت قليلا، هل يمكن عرضَ هذه الرواية على أرفف المكتبات؟ ربّما، يومًا ما..من يدري؟

عدتُ مجدّدًا لأحد أبطال روايتي كتبتُ بضعةَ صفحاتٍ على عجل، انطلقت العبارات تلقائيًا لترتسم على الورق بحريّة، راقصة من شدة الفرح. لقد حقّقتُ إنجازًا كبيرًا، صدّقوني ممارسة الكتابة عزلة كبيرة بحدّ ذاتها.

شعرتُ برغبة عارمة للذهاب إلى دورة المياه المشتركة لغرف الطابق وشديدة البرودة، لم يكن هذا بحدّ ذاته المشكلة الأساسيّة التي واجهتني في تلك اللحظة. البرازُ يطفو فوق الحفرة الصغيرة، ملطّخًا جميع أنحاء المكان، أما الرائحة فحدّث ولا حرج! على أيّة حال، لم أتوقّع خدمة كبيرة مقابل ما دفعته من المال، 30 ليفا ما يعادل 21 دولارًا، هذا كلّ ما دفعته مقابل المبيت لليلة واحدة. أخيرًا وجدتُ طريقة ما للجلوس غير المتوازن معتمدًا على ركبتيّ لإخراج محتويات معدتي صعبة المراس. ليس لديّ خيارات أخرى، هذا هو المكان الوحيد الممكن استخدامه في تلك اللحظة، أدّيتُ الوظيفةَ العضويّة كاملة كي أرتاح. غدًا عليّ الذهاب إلى مشارف المدينة لمقابلة أنطونيو ومن الصعب الرضوخ لنداء الطبيعة بين أحراش جبل فيتوشا البركانيّ، وتحت أنظار طاقم المخرج أنطونيو.

يصعبُ عليّ تناول الطعام بيدي، بعد أن اتّسخت بشكلٍ مزري، لكنّي شعرت براحة كبيرة عندما وجدتُ في الجوار ماءً ساخنًا وصابونًا، بقيت أدلّك يدي حتى المرفقين وقدميّ حتى الركب. بعد ذلك قررت الخروجَ للتنزّه في الشارع إيّاه.

مساءً وفي هذا الشارع الرئيسيّ الذي يربط جزئي المدينة، تتسكع الغانيات جيئة وذهابًا، غامزات بأطراف أعينهنّ للتعريف بمهنتهنّ العريقة منذ أن غادرت البشرية الجنّة. نظرتْ إليّ إحداهنّ، أرسلتْ لي إشارات توحي بالإغراء والدلال الأنثويّ، أخذت تمصّ شفتيها وتدعوني بطرف سبابتها اليسرى. بعد ذلك، رفعت طرف تنورتها القصيرة جدًا ووضعت يدها بين فخذيها، لم تكن ترتدي ملابس داخلية، أشارت لعضوي وهمست قائلة.

- ايمكنك امتلاك كل هذا مقابل عشرون ليفا.

عرضٌ سخيّ دون شك، بائعاتُ الهوى في أوروبا الشرقية قادراتٌ على تقويض هذه السوق الرابحة في غرب أوروبا بأسعارهنّ المتدنّية، كانت على استعداد لقبول عشرين ليفات فقط. لكنّ آخر ما يشغلني في تلك اللحظة عروض الجنس الرخيصة. هناك أمورٌ أخرى تشغل بالي، رغم هذا، نظرتُ لعينيها الخضراء الواسعتين وشعرها الكستنائيّ الأجعد. وجهُها بدرٌ وشفتاها عذبة، امرأةٌ جميلة دون شك، ناولتها خمس ليفات ومضيتُ في طريقي. لا أدري لماذا فعلت ذلك، لست من المتسامحين جدًا، أدركُ جيّدًا أن كلّ إنسان يستحقّ طريقة حياته التي يختارها بمحض إرادته، وعليه تحمّل تبعاتها.

- بإمكانك الحصول على الكثير مقابل هذه الورقة النقديّة يا سيدي. دعني أروّح عنك، لا بدّ أنّ لديك ما يزيد عن حاجتك في لخزّان الحيوانات المنويّة، يمكنني التهامها بسرعة دون تقزّز.

شكرًا لكن نبعي جافّ الآن، دعيني وشأني أرجوك، أنا بحاجة للوحدة. ابتعدت تضحك وتتلوّى كأفعى، ثم انطلقت تبحث عن زبون آخر، وما أكثرهم في عتمة الشارع وزقاقه.

أشعرُ بحاجة للسكون، السكونُ الكونيّ المطلق، لا أمانع بالاستماع لنغم ما مصحوبًا بصوت الناي، الناي فقط. هناك بعض المؤلفات الموسيقيّة لموتسارت قادرة إلى يومنا هذا على تحديد نبضات القلب، ترتقي بنا لمسافات شاسعة في مدارات مستقلة. يمكنني البقاءَ هناك لأجلٍ غير مسمّى. يفقدُ الإنسانُ الإحساسَ بالزمن، عندما يتوافق مع ذاته الأخرى.

السكونُ المرجوّ مفقودٌ في هذا الشارع، الضجيجُ يملأ كلّ زاوية فيه صالات القمار الصاخبة، الترامُ المتهادي فوق سكك الحديد، غانياتُ الليل، الكلابُ الضالة وأعدادُها تتزايد يومًا بعد يوم.

لن أجد السكينة في مثل هذا الوقت، شعرتُ للمرّة الأولى بانتمائي إلى إحداثيات كونيّة مختلفة، وقد أنتمي إلى مرحلة تاريخيّة أخرى، ليس هناك فارق كبير إذا كانت هذه الحقبة في المستقبل أو جزءًا من الماضي السحيق، عندما كانت الكرة الأرضية خاوية لا تشتكي من الكثافة السكانيّة، وحين استوطنَ الإنسانُ بضعة دونمات من الأرض، ويضطرّ للسير لساعات طويلة كي يصل إلى أقرب جارٍ له في المنطقة، في تلك المرحلة كان الوقت كثيفًا وحضوره ثقيلا، والصباح يستمر لسنة كاملة أو يزيد؛ والمغيب يمضي حتى مشارف الموت.

عدتُ إلى غرفتي في الفندق التعِس، تملّكتني رغبةٌ بالكتابة، سوّدتُ بضع صفحات في روايتي الأبديّة، وكنتُ على ثقة من عدم قدرتي على إنجازها. قد أهدي المخطوطة لمتسوّل أو غريبَ ديار لينهيها، وهو قادر على التصرّف أفضل منّي بكثير. وقد أرمي بهذه الأوراق ذاتَ يوم في مهبّ الريح، ورقة إثر أخرى، سيكون من نصيب كلّ مارّ بضع صفحات، وقد تُشجّعُ هذه الخطوة كاتبًا موهوبا لوضع نهاية منطقيّة لروايتي.

ما إن وضعتُ رأسي على المخدة حتى ارتفع صوت صرير الأسرّة في الغرف من حولي، عادة ما يشغلُ الفندقَ الكثيرُ من تجّار الحقائب القادمين من رومانيا وألبانيا ومقدونيا ويوغسلافيا؛ ولا يفوّتون فرصة للاستفادة من خدمات فتيات الليل، كان وجودي وحيدًا في الفندق دون امرأة في هذا النزل أمرًا مستهجنًا من قبل الإدارة وطاقمه، بدوتُ غريبًا وشاذًا عن المألوف طِوالَ تلك الليلة.

هناك أيامٌ توصفُ بأنّها سيّئة، وليال لا تتوقفُ الكوابيسُ خلالها عن مهاجمة الضحية التي مثّلتها في هذا التوقيت بالذات. غريبٌ أمري. ما الذي يمنعُني من إلقاء جسدي المنهك إلى جانب ميلتا هذه الليلة؟ ما الغريب في الأمر إذا كانت هذه المرأة شديدة الحساسيّة ورومانسيّة وحالمة؟ أنا الذي اختلقتُ سرطان الثدي وقطعت ثدييها. ربّما أجرتْ عمليّة جراحيّة للزائدة الدوديّة أو ما شابه، لكنّي

رغمًا عن أنف الجميع، تركتُ دراغاليفسكي بعنادٍ وفخر، دون أن أعود لمضيفي، الذي شخر وجال وصال في تلك الليلة فوق سيلفيا.

حين التقت أعيننا، شعرتُ بها تدعوني للمشاركة في تلك اللعبة، لعبتُها الخاصّة التي أذلّت كريستيان. تمتّعت سيلفيا بكلّ ثانية، كأنّها تستهلك دون كلل محيطَ الزمان والمكان، كانت في تلك اللحظة تموت وتولد بين أحضان ألكسندر القوية.

تركتُ الفيلة الفخمة علانية، رغبتُ بأن أكون مختلفًا عن ذلك الجمع المتعطّش للحياة، ردّةُ فعلي تلك ليست أخلاقيّة، لكنّني شعرتُ بأنّي مجرّد نكرة، مراقبٌ لوتيرة الحياة المتفاعلة من حولي، كان بإمكاني أن أذوبَ في ذلك الحشدِ المتراكم من الأجساد المتعرّقة، أن أنهلَ من الخيرات الممتدّة على الأرائك والموائد، لهذا عليّ أن أصمتَ الآن، في الوقت الذي ينتفضُ فيه جسدُ جاري الألبانيّ، يحرقُ كيانَ غانية مقابلَ عشرة دولارات. ليس من حقّي أن أعترض، ففي نهاية المطاف كلّ يختارُ طريقة حياته الخاصّة، وهذا النزلُ الرخيصُ بيتُ دعارة مقنّع. لن أعود لقضاء ليلة أخرى هنا مهما حدث، أفضّل حرق جسدي على نارٍ هادئة في مكانٍ آخر. غبتُ في نومٍ عميق، وحلمتُ أنّي أغرقَ في المكان الآخر.

***

عيناي منتفخة، من الواضح أنّي أمضيتُ ليلة صعبة للغاية، تمكّنتُ من النوم في الساعات الأولى من الصباح، وكان الجنس هو العنوان المشترك بين روّاد غرف الفندق من حولي. لم تنقطع التنهّدات والحشرجات طِوال الليل، لو امتلكت كاميرا لتمكّنتُ من تصويرِ فيلم إباحيّ يحقّقُ أرباحًا كبيرة.

كنتُ في عجلة من أمري، أخشى التأخّر عن اللقاء المحدّد مع أنطونيو، الرجل الوسيم المهذّب، أنطونيو حريصٌ كلّ الحرص على إتمام جميع مهامّه بسرعةٍ ودقّة متناهية، يدركُ جيّدًا أهميّة الوقتِ ويسابقه على مدار الساعة.

- أهلا نيكولاي، حضرتَ في الوقت المناسب، أنتَ رائعٌ يا رجل.

- أهلا أنطونيو، هل أنت جاهز؟
- نعم، كلّ شيء جاهز، اذهبْ على الفور مع مصوّري، اسمُه أحمد، سيروقك التعامل معه كثيرًا، أحمد عراقيّ ويتقنُ بضعَ لغاتٍ عالمية، أنهى دراسة التصوير السينمائيّ في معهد الفنون العالي في صوفيا قبل سنوات، ويعمل لحسابي مؤسّستي.
- حسنًا سيّد أنطونيو، وما هو الدور الذي عليّ أن أقوم به؟
- مقطعٌ يتناول إحدى مراحل الحقبة الاشتراكيّة، على سبيل المثال، عدم القدرة على إيجاد عربة نقل دون الانتظار لساعات أحيانًا، تجسيدُ عدميّة الزمن وهكذا، تحرّك يا نيكولاي، ماذا تنتظر؟
- كما تشاء.

علينا مجدّدًا مسابقة الوقت، دون العودة إلى زمن الاشتراكيّة. أنطونيو يحبّ إنجاز الكثير من أفلامه في بلغاريا. غالبًا ما يبوح قائلا بأنّ البلغار تخلّوا عن بلادهم "لا يعرفون قيمة وطنهم، لهذا يهربون إلى الغرب." أمّا أنطونيو، فيستغلّ كل لحظة لقضائها في المنتجعات الشتويّة في بامبوروفو وبوروفيتس وجبل فيتوشا، لم يكن من عشاق الاستجمام على شواطئ البحر، لهذا يتجنّب زيارة البحر الأسود المكتظّ بالسيّاح صيفًا ويزوره أحيانًا في فصل الشتاء.

- نيكولاي. صاح أنطونيو قبل مغادرتي المكتب، كان يلوّح بمغلّف وأضاف مبتسمًا:- أجرك.

لم أصدّق عينيّ. ناولني المغلّف وعاد إلى عمله، نفحني أنطونيو أجري قبل أن أشرع بالعمل، يا له من يوم جميل، توقّعتُ الحصول على مئتيّ يورو. كلّ هذا المال مقابل التفوّه ببضع كلمات، والصعود والهبوط من عربة النقل لقرابة الساعة. تحيا السينما. قلت لأنطونيو بالإيطالية قبل أن أغادر مكتبه: غراتسيا أميغو ميو [3].
إلى اللقاء في الفيلم القادم.

[3] شكرًا يا صديقي

- لا بدّ أن تحضر حفل الافتتاح.

- طبعًا سأحضر.

وضعت المغلّف في جيبي الداخليّ وانطلقتُ بسيارة خاصّة طليت باللونِ الأصفرِ ورسم عليها نصوص مقتضبة، تشير إلى مرحلة الثمانينيّات من القرنَ الماضيَ. العدّادُ برتقاليّ اللون يقلبُ الأرقام الصغيرة ببطء واضح، كان بإمكاني التجوّل بهذه العربة طِوالَ النهار مقابل عشرة دولارات فقط، رحم الله أيام زمان. والعربة بالطبع من طِراز (لادا 5) الروسيّة الصنع، وكانت منتشرة إلى حدٍّ كبير في تلك الحقبة من الزمن.

وضع أحمد الكاميرا في صندوق العربة وجلس في المقعد الخلفي.

- مرحبًا..أنا أحمد.

- وأنا نيكولاي. مددت يدي مصافحًا.

- يمكنُنا التصويرَ في مركز المدينة لمدّة ساعة كاملة، وتحديدًا في شارع راكوفسكي وتقاطع شارع غراف إغناتييف، طلب أنطونيو من الشرطة تسهيل عملنا حتى لا نتسبّب بتعقيدات في حركة السير خاصّة في هذا المقطع الحيويّ من المدينة.

- صحيح، هذه المنطقة مكتظة وحيوية ليلَ نهار. بالمناسبة سيّد أحمد، أنت من العراق، أليس كذلك؟

- نعم، أنهيتُ دراستي من معهد الفنون العالي في صوفيا، قابلتُ أنطونيو بمحضِ الصدفة وبدأنا العمل المشترك. أنت تعرف طبيعة الأوضاع في العراق وهي في منتهى التعقيد مؤخّرًا، لذا تعذّر عليّ العودة والعمل هناك في الوقت الحاضر.

لم تكن لديّ أيّة رغبة في تلك اللحظة لخوض حوار سياسي قد لا ينتهي على خير، رغم اهتمامي بتطوّر الأحداث في منطقة الشرق الأوسط والمناطق الساخنة حول العالم، ويعدّ العراق من أكثرها حضورًا في الصحافة اليوميّة العالميّة.

تحسّستُ المغلّف وتملّكني فضولٌ لمعرفة محتوياته، أخرجته بحذر فتحته وتحسّست الأوراق النقدية الموضوعة بأناقة داخله. لم تكن مطويّة. ورقتان من فئة المئتي يورو وورقة من فئة المئة. 500 يورو مرّة واحدة، هذا أجرٌ كبير يا أنطونيو، لم أحلم حتّى اللحظة بمثل هذا السخاء. عليّ أن أقدّم أفضل ما لديّ، أعتقد أنّ الجهد الذي سأبذله اليوم لن يرقى لقيمة المبلغ الذي قدّمه أنطونيو.

شعرُ أحمد طويلٌ وأجعد، بشرتُهُ حنطيّة، طوله حوالي المتر وثمانون سنتيمترًا. هذا النمط من الرجال هو المفضّل للكثير من النساء الأوروبيّات.

ركّز أحمد الكاميرا عند ملتقى الشارعين راكوفسكي وغراف إغناتييف، ليس بعيدًا عن معهد الفنون العالي الذي أنهى دراسته فيه قبل سنوات، تجمّع عددٌ كبيرٌ من الفضوليين. شعرتُ للحظة بأنّي قد أصبحت نجمًا متميّزًا.

رغم أنّ التصوير قد تمّ في الجانب الأيمن من الشارع بالقرب من الرصيف، لتفادي إعاقة حركة المرور في الشارع، إلا أن الازدحام أصبح حقيقة، تعمّد سائقو العربات تخفيفَ سرعةِ مركباتهم لمشاهدة عملية التصوير، بل توقّف البعض بالكامل وأخذوا يحدّقون ببله لما يحدث، ممّا اضطرّ رجال المرور لاستخدام أساليب غير تقليديّة للتخفيف من الازدحام؛ لكنّهم تجنّبوا تحرير المخالفات واكتفوا بالتلويح بدفاتر غرامات السير.

دوري ثانويّ ومحدودٌ وسهل، أدخلُ إلى جوف عربة الأجرة وبعد ثوانٍ معدودة أخرج منها ثانية، ثمّ يتوقّف التصوير لتعود العربة إلى الخلف ونصوّرُ المنظر ثانية، هذه المرّة من داخل العربة، لتسجيل قسمات وجه سائق العربة الذي يبدو في معظم الأحيان نزقًا غاضبًا، وشبه معتذر عن خدمتي مردّدًا:- الا ترى بأنّي متوجّه للمرآب. أعدنا التصوير عشرات المرّات بحيث نغيّر سائقي العربة، والهدف بالطبع إظهار فشلي بإقناع سائقي عربات الأجرة بالتوجّه إلى المكان المطلوب. كانوا يصيحون في وجهي:- أعتذر، أنا في الاتجاه الآخر، أعتذر، انتهت ورديّتي.

هكذا كان الحال في ذلك العهد، عرباتُ الأجرة لا تكفي، وكذلك الخدمات والأوكسجين الذي يتناوله المواطن كلّ لحظة ليبقى على قيد الحياة. نقصٌ في ملابس الجينز وكميّات الموز التي تتوفّر بمناسبة حلول رأس السنة الميلاديّة، نقصٌ في الأجهزة الالكترونيّة والويسكي، الكتبُ الجميلةُ تختفي من المكتبات خلال ساعات من ظهورها، تشاهدُ طوابيرَ كبيرة ملتوية كلّما ظهر كتابٌ جديدٌ يستحقّ القراءة، وأحيانًا يجهلُ الواقفون في الطابور عنوانَ الكتاب الذي سيشترونه حين يتمكّنون من الوصول إلى حرم المكتبة، وإذا سألت أحدهم عن سبب وقوفه في الطابور وماذا سيشتري، ينظرُ إلى الآخر بجواره ويتمتم بنزق، "أنت كثير غلبة" أو "أخيرًا صدر الكتاب من المطبعة". يا له من إنجاز أن تقتني سلعة نادرة في الأسواق، ليتميّز الفرد ويشعر بالفخر. يا لها من أساليب لتخدير المشاعر، أن تنتظر لساعات كي تنال الجائزة، تدفع الثمن مسرورًا وتمضي ببطء بمحاذاة الطابور الطويل، تشعرُ عندها بأنّ مئات الأعين تراقب يديك، تسمعُ الآخرين يتحدّثون بهمس عنك، تشعرُ بحسدهم ينهشُ ظهرك. هنا تكمنُ اللذّة والتفرّد والإبداع، تحيا الاشتراكية.

تحيا الاشتراكية لكنّها سقطت، الآن تدرك كيف كان بإمكان المواطن أن يصبح مفيدًا للإنسانيّة لو استغلّ آلاف الساعات المهدورة للانتظار في طوابير عدميّة، بإمكانه أن يخترع شيئًا ما، أن يبدع مؤلّفًا علميًا أو أدبيًا، أن يصنع كرسيًا للجلوس عليه خلال هذا الانتظار.

صوّرنا المشهدَ عشرات المرّات، أعتقد أنّ الحضور قد أدرك معناه الخفيّ، وغاية أنطونيو من كلّ هذا، لا بدّ من مشاهدة الفيلم بعد أن يصبح جاهزًا للعرض.

انتهينا من تصوير المشهد بعد ساعات، هاتف أحمدُ أنطونيو وطلب منّي إثر تلك المكالمة البقاء لتصوير مشهد آخر، قال بأنّه ينتظر كميّات كبيرة من الفواكه والخضار لإنجازه. أخلى بعد ذلك سبيل سائقي عربة الأجرة الأربعة بعد أن دفع لهم مستحقاتهم، ثمّ عرض عليّ تناول بعض الحلوى في مقهى قريب حتّى يحين

موعد تصوير المشهد التالي. بالقرب مقهى "لوتشانو" الشهير، مقهىً دافئ ومريح، جلسنا بمحاذاة الواجهة الزجاجيّة الخارجيّة، لمراقبة شاحنة الفواكه المنتظرة.

- أنا صاحب الدعوة يا نيكي. كان أحمد مسرورًا للغاية من عملنا المشترك.
- نعم، وسأردّها لك في القريب العاجل، العملُ مع أنطونيو رائع للغاية.
- هذا صحيح، أنا أصوّر المشاهد القصيرة الصعبة، هناك طاقم كبير لتنفيذ وتصوير المشاهد العامة والخاصّة، هذا يناسبني تمامًا. الأدوارُ الصغيرة ذات طابع حميميّ.

طلب أحمد ثلاث قطع من الحلوى المنقوعة بالقطر وطلبتُ أنا فنجانَ قهوة وحلوايَ المفضّلة.

- أعشقُ الحلوى الغارقة بالقطر. قال أحمد بفمٍ مليء.
- أنا بدوري أجد بأنّ حلوى الغاراش المميّزة ملكة الحلويات دون منازع، أخبرني يا أحمد، ما الذي يجري في العراق؟

لاحظت حزنًا مقيمًا في عينيه، ربّما كان عليّ أن أترك شأن الوطن، فقد كنت على ثقة أنّ وقع الحنين ثقيل.

- دعنا من السياسة يا صاحبي، الآن ستصبحُ شاهدًا على عرض مجّاني شبيه بالسيرك العالمي.
- لماذا؟ ماذا ننتظر، ما الذي يمكن أن يحدث؟
- أنظر إلى الجانب الآخر للشارع، هل ترى الشاحنة الصفراء هناك؟
- نعم، هل ستشارك في الفيلم أيضًا؟
- طبعًا.
- ماذا تحملُ الشاحنة، هل هناك الكثير من المفاجآت؟
- تحمل الكثير من الموز والبرتقال والنقود بالطبع.
- يبدو الأمر مسلّيًا للغاية.

- النقودُ المتداولة هي نسخ من الأوراق النقديّة في العهد الاشتراكي. سنقوم بتوزيعها على الحضور لشراء الموز والبرتقال.
- باختصار، ستوزّعون مجّانًا محتويات الشاحنة من الفاكهة.
- طبعًا، خلال الأعياد كانت هذه الفواكه تختفي من الأسواق خلال ساعات معدودة، كان بإمكان المواطن شراء اثنين أو ثلاثة كيلوغرامات منها فقط. سيحاول أنطونيو محاكاة ممارسات الحياة الاشتراكية في هذه المقاطع من الفيلم.
- نظرًا للفقر الذي انتشر بعد الانفتاح وخلال المرحلة الانتقالية أعتقد بأنّ الجموع ستتقاتل فيما بينها للحصول عليها.
- هذا هو الهدف، إعادة تصوير ذلك الواقع بأمانة.
- لا تنسَ أنّ الحياة لم تكن باهظة الكلفة وخاصّة موارد الطاقة.
- لأنّها كانت تقدّم بأسعار منخفضة بدعم من الاتحاد السوفييتي، هذا وضعٌ غير طبيعيّ يا نيكولاي، انتهى وقت الخدمات المجانيّة، ولن تحصل دولة على النفط والغاز مجانًا أو مقابل موقف سياسي، لكلّ شيء ثمن في هذه الحياة، العجزُ الاقتصاديّ خلال فترة الحكم الشموليّ في أوروبا الشرقية كان طيّ الكتمان، والمطّلعون على هذا الشأن يعدّون على أصابع اليد الواحدة.
- يبدو كأنّكم تصوّرون فيلمًا وثائقيًّا؟
- لا، لكن الأحداث تدور في تلك الحقبة.
- ما هو دوري الآن يا أحمد؟
- نيكولاي، أنت نذير شؤم، كاد أحمد أن يقع من شدّة الضحك، لم أملك نفسي أنا أيضًا لمجاراته في نوبته الهستيريّة تلك، وكأنّه يضحك للمرّة الأخيرة. أخذ روّاد المقهى ينظرون إلينا بدهشة، وسرعان ما ارتسمت الابتسامات على وجوههم.
- ماذا تعني بأنّي نذير شؤم؟

- لم تتمكّن من الصعود إلى عربة أجرة، لن تتمكّن من شراء بعض الموز والبرتقال أيضًا. هذا هو دورك يا عزيزي، تفضّل ورقتين من فئة الخمس ليفا.

صمتَ أحمدُ ولم يكمل جملته، كان يريد أن يقول "يمكنك أن تمسح مؤخّرتك بهذه الأوراق" لكنّه أحجم في اللحظة الأخيرة عن ذلك. لأنّ الأوراق النقدية تحمل رمز الوطن وشعار الدولة، وأحمد ينتمي لحضارة أخرى عريقة ومختلفة عن الحضارة الأوروبية. لذا، أعتقدَ بأنّي سأفهم الدعابة باعتبارها سخرية من وطني. وأخيرًا اكتفى بالقول ساخرًا:- يمكنك أن تلقي بهذه الأوراق في سلّة المهملات لأنّ قيمتها الماديّة صفر، وفي نهاية المقطع عليك أن تنظر إلى الكاميرا، يعني إليّ، وتشتمني بكلّ ما أوتيت من قوّة. يمكنك أن تعبّر عن غضبك وحنقك كيفما تشاء، يمكنك كذلك تحطيم علب الفواكه الخشبيّة الفارغة، لا تخش رجال الشرطة، هم اليوم أصدقاؤنا.

مزاج أحمد رائع في ذلك النهار الشتويّ البارد ويتشوّق للبدء بتصوير المناظر المثيرة القادمة. حضر رجلا شرطة وقال أحدهم بمرح:- والآن، ماذا ننتظر وما هو المطلوب منّا؟

- نحن بصدد توزيع كميّات كبيرة من الموز والبرتقال. قال أحمد مبتسمًا. تبادل الشرطيان نظرات استفهام طويلة، وسرعان ما أضاف أحمد قائلا:- المطلوب منكم الحفاظ على النظام خلال عملية التصوير وستحصلون على علبة كبيرة من الموز والبرتقال.
- رائع، أخبرونا عندما تجهزون للعمل.

شرحنا بكلمات مقتضبة للجمهور الذي تحلّق من حولنا طبيعة المشهد الذي سنقوم بتصويره، قمنا بعد ذلك بتوزيع الأموال، وأقمنا سوقًا صغيرة مرتجلة، رفعنا خيمة بيضاء تحمينا من المطر والبرد، أنزلنا صناديق الفواكه من الشاحنة وكدّسناها حول الخيمة.

- أتمنّى أن تبقى السماء طيّعة، لا تنزلي حمولتك الواعدة من الأمطار يا سماء حتى ننتهي من التصوير. قال أحمد وصاح بصوت جهور:- جاهز للتصوير، حان وقت الموز يا عالم. بسرعة تشكّل طابور طويل وملتوٍ أمام الخيمة البيضاء المفتوحة، سمعت صوت الباعة يصيحون.
- لا تتدافعوا، لدينا ما يكفي من البرتقال والموز، لو سمحتم. سيّدتي، على مهلك، التزمي دورك من فضلك.
- لا، هذا غير صحيح، لا يوجد ما يكفي لإرضاء الجميع، أنظر للطابور أمامك، هذا جنون، تُرى ماذا سيحصل إذا نفقت البضاعة خلال وقتٍ قصير؟ همستُ للباعة الذين كانوا يكيلون الفاكهة بالميزان أمامهم.
- لا بدّ من إرضاء أكبر عدد ممكن من النّاس.
- يا لها من مسخرة، بإمكان أيٍّ منّا شراء الموز والبرتقال في أيّة لحظة من النهار أو الليل. قال البعض وابتعدوا مسرعين عن الطابور.

نعم، كانوا على حقّ، بدأ الجمعُ بالتشتت والابتعاد عن مكان التصوير. لقد تغيّر الزمان والمكان وأصبح للوقت قيمة تفوق القيمة الكامنة للمادة المعروضة مجانًا.

- نيكي، لماذا فعلتها يا سافل؟

الصوتُ مألوفٌ للغاية، رغم أنّي لم أتوقّع إهانة، كانت بالقرب منّي تهمس في أذني. التفتّ إلى الخلف ورأيتها، إنّها ميلِنا. يا إلهي كم كانت جميلة في ضوء النهار، مغطّية رأسها بقبّعة بيضاء. تقاطيعُ وجهها دقيقة وكأنّها رُسمت بريشة إلهية. ميلِنا ماهرة في استخدام الماكياج وقد بدت الألوانُ على وجهها في منتهى التناسق.

- ميلِنا، كم أنا سعيد برؤيتك ثانية.

- أصحيح ما تقوله يا نيكولاي؟ أنتَ أوّل رجلٍ يهرب منّي بعد أن ولجني بساعات. هل تظنّني محرمة ورقية تستخدم لمرّة واحدة ثمّ تُلقى في سلّة القمامة؟ تحدّث، أجب، لماذا تصمت الآن؟
- هذا ليس الوقت أو المكان المناسب لهذا الحديث.
- بل على العكس. أنت أهنتني، أنا لست عاهرة أو بائعة هوى، أنا لست منشفة تمسح بها قذارتك.
- أنسيتِ أنّكِ أنتِ التي سحبتِني من يدي إلى تلك الغرفة، بعد وصولي إلى المكان بوقتٍ قصير؟
- لأنّي أمتلكُ الشجاعة للتعبير عن مشاعري عكسك أنت.
- وأنا لم أعدكِ بشيء على الإطلاق، أنا إنسان حرّ.
- بل جبان، أنت رجل جبان. بالمناسبة، لم أنته منك بعد..
- ميلِنا، أرجوك، آخر ما أحتاجه الآن فضيحة في شوارع صوفيا، كما ترين أشارك في تصوير فيلم. أرجوك من كلّ قلبي أن تنتظري حتى الانتهاء من التصوير، وبعدها لكلّ حادث حديث.

فتحت ميلِنا حقيبتها النسائية وأخرجت منها سروالها الداخلي، قطعة رقيقة شفّافة من القماش موصولة بخيط مطاطيّ.

- هذا سروالي الداخليّ، أرتديته تلك الليلة، خذه، ماذا تنتظر؟ حاولت ميلِنا أن تحشر سروالها في فمي.
- سحبتُ سروالها من يدها ووضعته في جيبي خجِلا، بينما استمرت في هجومها صائحة:- ستجد عليه بقايا سوائلنا. كن على ثقة يا نيكي، لن أتركك وشأنك بعد اليوم، حتى تشرح لي ماذا تريد ولماذا تصرّفت بتلك الطريقة يا جبان. أريد أن أعرف كلّ شيء عنك، ماضيك وحاضرك ومستقبلك، أنت منذ اليوم مُلكي.

- لا تستعجلي الأمور، أنا رجل دون آفاق، أمّا ماضيّ فمبروك عليك، لم يبقَ أمامكِ سوى هذه اللحظة، وأنت الآن تسرقينها.
- ما دمت تكتب رواية فهي المستقبل، دعني أقرأ ما كتبت، أشتهيكَ أيّها الغبيّ، لا بدّ أنّي قد أصبت بالجنون، كيف سوّلتْ لكَ نفسُكَ بالهرب منّي؟
- لم أتوقّع ردّة فعلك هذه يا ميلِنا وإلا لما غادرتك، لم يكن هناك ضرورة للهرب يا عزيزتي، لا أدري حقيقة ماذا يمكنك أن تجدين في عالمي. أنا مجرّد من أيّ طموح، أنا مفرغٌ ومعطوب، غير قادر على الاستمرار خطوة أخرى إلى الأمام.
- دعني أقيّم أمرك بنفسي، أنا قادرة على استشعار جيناتك يا نيكي، إحساس المرأة لا يخيب أبدًا.

أوشكت عملية البيع على الانتهاء، لم يتبقّ سوى بضعة صناديق من الفاكهة، قام بعض موظفي أنطونيو بنقلها إلى المكان الذي حدّده الشرطيان.

- هيّا يا نيكي، جهّز نفسك، لقد حان دورُك. صاح أحمد بعصبيّة واضحة.
- أنا جاهز منذ القرن الماضي، دعنا ننهي هذا المشهد يا أحمد.
- أنطونيو في طريقه إلينا.

حسنًا يا أصدقائي، أنا نذيرُ شؤم كما قال أحمد ضاحكا قبل قليل، أمضي معظم وقتي مُعدمًا دون نقود، ونادرًا ما أجد سقفًا يظلّني لفترة طويلة من الزمن، لم يتغيّر هذا الوضع منذ أن وعيتُ الحياة. والآن، يتوجّب عليّ أن أقوم بهذا الدور اللعين أمام أنظار القاصي والداني، أمام هذه المرأة الهستيريّة. ميلِنا سكرتيرة عزيزة النفس كما تدّعي، يصعب عليها قبول هروب رجل من عالمها بعد أن اغتصبته بلحظات. توجّهتُ نحو الباعة وصحتُ بملء صوتي.

- لا بدّ من الحصول على بعض الموز والبرتقال، أرجوكم لقد وعدتُ أبنائي، هذا كلّ ما أريده الآن، هل هذا كثير؟

- أعتذرُ يا رفيق لقد نفق كلّ شيء كما ترى.
- صدّقني، أنا أملك ما يكفي من المال، أنظر، لديّ عشر ليفا كاملة لا تنقص سنتًا واحدًا.
- أنتَ تملكُ النقود ونحن لا نملكُ ما نقدّمه لك مقابلها يا رفيق.
- أرجوك يا فتى، أنا لا أريدُ الكثير. ركلتُ الصناديقَ الفارغة أمامي، وشعرت بالدمع يملأ حدقتيّ عينيّ.
- على مهلك يا رجل، لا بدّ أنّ هناك المزيد في الأسواق الرئيسيّة الأخرى.
- انتظرتُ ثلاثَ ساعات كاملة، انتظرتُها لأرسمَ ابتسامة على وجوه أطفالي. عليكم اللعنة جميعكم، أريدُ الحصول الآن على طلبي يا سفلة. جمعتُ هذه النقود منذ أسبوع، والآن تقولون بأنّكم غير قادرين على تلبية حاجتي. لماذا لم أولد قردًا في إحدى الغابات الاستوائية؟ لماذا لم أولد فوق شجرة موز؟ أنا أختنق، أحتضر، اذهبوا إلى الجحيم فهناك متّسع لكم جميعًا.

غمزني أحمد مشيرًا إلى أنّ اللعبة قد انتهت ولا داعي للاستمرار أكثر من ذلك. انتهى التصوير، لكنّي مضيتُ صارخًا:- أنا لا أخشى نظامَكم المزيّف، يلعن أبو أمّهاتكم، أنا لست نذير شؤم، أنا لست نكرة.

- انتهينا يا نيكولاي، الكاميرا توقّفت عن التصوير، يعني زوّدتها، خلص. قال الرجل الذي كان يمثّل دور البائع خلف الميزان.
- نعم، انتهى كلّ شيء بالنسبة لكم، لكنّ لعبتي بدأت اعتبارًا من هذه اللحظة.

ابتعدتُ مسرعًا عن المكان، شعرتُ بحاجة ماسّة لمساحة أكبر من الحرية، بعيدًا عن هذه الجمهرة الغبيّة من المتفرّجين، كنتُ أرغبُ بالابتعاد عن الصناديق الفارغة والإحساس العميق بالفشل والإحباط. لم أتوقّع أن يؤثّر بي هذا الدور الصغير إلى هذا الحدّ، كأنّهم حرموني من شيء عزيزٍ في حياتي، القدرةَ على أن أكون ذاتي دون رتوش. لا أدري لماذا تدفق كلّ هذا العنفوان من أعماقي. السينما قادرة على فعل الأعاجيب، أدركت ذلك إثر هذه التجربة العابرة.

- نيكي، يا له من دور. سأعمل على ترشيحك للحصول على جائزة الأوسكار لأفضل دور ثانويّ. قال أحمد مبتهجًا.
- لا يا أحمد، صدّقني، لم أكن أمثّل وتلك هي المأساة، لقد لعبتُ ذاتي.
- حتّى وإن كان ما تقوله صحيحًا، فهذا رائع، يصعبُ على الكثير من الممثّلين المحترفين تقمّص شخصيّة أبطالهم إلى هذا الحدّ.
- أنا بانتظار جائزة الأوسكار كما وعدت. والآن اسمح لي أن أقدّم لك خطيبتي ميلِنا، امرأة عنيدة مثلي تمامًا، لا تتنازل عن حقّها مهما كان الثمن.
- أهلاً سيدتي، أنا أحمد، لم أكن أعلم أنّكِ خطيبة نيكولاي.
- وأنا كذلك، لا أدري متى أصبحت خطيبته، لتكن مشيئة نيكولاي ما دام يرغب بذلك.
- أنطونيو يدعونا لتناول العشاء في المطعم الروسي الذي يقع في أسفل الشارع..
- أعرف أين يقع المطعم الروسي، سأحضر مع ميلِنا في وقتٍ لاحق يا أحمد، شكرًا للدعوة. لدينا عملٌ لا بدّ من انجازه، أعتقد بأنّي استحققتُ أجري على هذا الدور الثانويّ.

شددتُ ميلِنا من يدها وابتعدنا عن الشارع الذي شهد مشاهد فشلي ولقائي المفاجئ بميلِنا. الضجيجُ مرتفعٌ ومن الصعب الاستماع لصوتي الخاص.

- أريد أن أعقد صفقة معك يا نيكولاي. لم أنبس ببنت شفة، وأصغيتُ صامتًا.

- ألا تريد الاستماع لعرضي؟ أريدك أن تبقى ملكي حتى الكلمة الأخيرة من روايتك، هذا هو العرض الوحيد الذي قد أقبله، يمكنك بعد ذلك أن تهرب منّي أو تبقى برفقتي إلى الأبد.

كانت ميلِنا حزينة، تفادت النظر إلى عينيّ حتّى أنهت حديثها، كأنّها تخشى ردّة فعلها الشخصية لهذا العرض الغريب.

- لماذا يا ميلِنا تصرّين على ربط حياتك بي، أنا رجل قاسٍ وعنيف في مشاعري وحياتي اليوميّة. أمسكتُها من ذراعِها ومضينا في شوارع العاصمة دون وجهة محدّدة.
- دعني أقيّم رجولتك لو سمحت، عدا عن هذا، قد أكون أكثر قسوة منك، أنت لا تعرف عنّي شيئًا بعد.
- حسنًا، اتفقنا، حتى الكلمة الأخيرة من روايتي، دون غيرة وفضائح في شوارع العاصمة. أصرّ على هامش من الحريّة الشخصيّة، هل هذا واضح يا صغيرتي؟ كان صوتي يحمل في تلك اللحظة نبرة تهديد، وقد أعجبني هذا الوضع.
- نيكي، أريد خاتم الخطوبة، بإمكانك الآن شراءه، هذا حقّي، أليس كذلك؟
- طبعًا يا ميلِنا، سأشتري لك خاتم الخطوبة.

هناك لحظاتٌ تنطبع عميقًا في ثنايا الذاكرة. تعرّفتُ على ميلِنا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، تمكّنت منها، حرقتُ جسدَها بين ذراعي، لكنّي لم أتمكن من الهرب بعيدًا عنها. والآن أقدّمُ لها خاتم خطوبة كطفلٍ مطيع أعلنُها خطيبتي، وبالأمس كنتُ أملكُ في جيبي ليفا واحدة وثمانين ستوتينكي، واليوم أشتري ذهبًا لامرأة أكاد لا أعرفها. سال الدمع سخيًّا من عينيها حين وضعت الخاتم في إصبعها، ميلِنا المرأة الظمأى للجنس والغرام ولذراعيّ رجل يطوّقانها خلال ساعات الليل الطويلة، تبكي كطفلة صغيرة من شدّة التأثر، امرأةٌ قفزت من غياهب صوفيا لتخطف نهاري وغدي.

- شكرًا، نيكي، أشعر الآن بأنّي أسعد امرأة على وجه الأرض.

خفق قلبي في كياني الغارق بالرومانسية. نظرتُ إليها طويلا، رأيتُها هذه المرّة من زاوية جديدة وغريبة. ميلِنا تقف أمامي عروسًا تنتظر أن أحملها إلى المذبح، إلى فراش الزوجيّة، إلى جنّة وهميّة خلقناها من أعماق العدم، وكلانا يدرك جيّدًا أنّ الأمور جدّ مختلفة عمّا تبدو عليه الآن.

الكتاب الثاني

العاشق

المطعمُ الروسيّ شهير بمأكولاته الفاخرة المميّزة، طاقمُ العمل منتقى بحرص لتلبية كافّة طلبات الزبائن مهما كانت غريبة وصعبة. لذا فإنّ معظم روّاده هم من مشاهير الفنانين ورجال الأعمال والسياسة، ويحجزون أماكنهم مسبقًا في قاعات وزوايا المطعم، وأسعاره كذلك لم تكن في متناول عامّة الشعب. أكثر ما أعجبني في إدارته هو الثنائيّ الموسيقيّ المكوّن من عازف بيانو وعازف كمنجة. عازفُ البيانو غجريٌّ رضع الموسيقى، عضلاتُ وجهه تهتزّ وشعرُه الكثيف يتقافز أثناء العزف، أمّا عازف الكمنجة فممتلئ الجسد، خدودُه مكتنزة وكرشه ممتدّ أمامه تغطيه ربطة عنق أنيقة، دائم الابتسام، مرح ويحسن الرقص مع كمنجته كأنّها حبيبة مدلّهة بين يديه. عزف الثنائي مقطوعة بكلّ الاحتمالات الممكنة، تسمعها في مدار "دو ميجور" ثم ينتقلان إلى "سي بيمول"، وهكذا تتراوحُ الأنغامُ صعودًا وهبوطًا وأنت بالكاد تقبض نفسك من شدّة التأثر. في النهاية وقبل الاستراحة بقليل عزفا ما تيّسر من أنغام الجاز، عندها تجلّى عازف البيانو كأنّ الملائكة قد أحاطت به من كلّ جانب، ترفعه بأجنحتها فوق البيانو وتدور به بسحر لا يخفى على المدعوّين. بعد هذه الوصلة الموسيقيّة المثيرة جلسا لتناول مشروبهما ونيل قسط من الراحة. كثيرًا ما يأتي إلى مائدتهم بعض روّاد المطعم لتحيّتهم ولتقديم عروض لإحياء حفلات موسيقيّة أو للترحيب وإبداء الإعجاب، كما تركت إحدى السيّدات رقم هاتفها للاختلاء بعازف البيانو لاحقًا والاستماع إلى ألحانه الأخرى بين أغطية الفراش.

اختار أنطونيو تحديدًا هذا المطعم، حجز الصالة الداخليّة الرئيسيّة بأكملها لطاقمه ولضيوفه، كانت الأجواءُ صاخبة وأريحيّة. عازفُ البيانو كيريل صاحب المزاجِ المتمرّد تألّق في تلك الليلة، وعزف بعض أعماله الخاصّة، عزف لذاته، وليس مقابل أجر. أمّا الطعام فوفير والشراب حدّث ولا حرج.

جلستُ أنا وميلِنا في مكانٍ منزوٍ بعيدًا عن المائدة الرئيسيّة، كنّا نرغب في تبادل حديث مطوّل، لنسبر أغوارنا. تلكَ المرأة ليست مجرّد سكرتيرة عاديّة، فهي ذات خصوصيّة أنثويّة، على أيّة حال كان هذا رأيي دائما بكلّ امرأة جديدة أتعرّف إليها. لذا، من الأفضل أن أصمت وأستمتع بالأمسية، كنت قادرًا على التحدّث معها في كافّة المواضيع، تحدّثنا عن الفنّ والسينما والأدب وكرة القدم، وضعتْ فتاتي مرفقيها على المائدة وأخذتْ تدير خاتمها الذهبيّ بين أصابع يديها دون أن تشيح بنظرها عنّي طِوال الوقت.

- مرحبًا، مرحبًا ميلِنا.
- أهلاً عزيزي، أفتقدك.
- أنا هاهنا، أجلسُ أمامك، أسافرُ عبر عينيك. أعطِني يدكِ الصغيرة. أشعر أنّي أغرق في حبّك.
- نيكي، أرجوك، لا تتسبّب لي بالتعاسة، ليس الآن على الأقل.
- لماذا يا ميلِنا؟ غريب، جميع نسائي يطلبن منّي هذا في البداية. كوني ذاتك فقط، لا شيء غير هذا، كوني ميلِنا دون رتوش، مارسي الحياة على سجيّتها. هل هذا كثير؟ كلّ شيء نسبيّ وعابر. أنا وأنتِ وهذه الأمسية الجميلة، كلّ شيء عابر وتبقى الذاكرة. نحنُ الآن نبني وإيّاك ذِكرى لقاء وقصّة حبّ قد تطول أو تقصر، أحبّك يا ميلِنا، أحبّك بطريقتي الخاصّة.
- نعم، أفهم هذا. لكنّنا نحن النساء نتوق أحيانًا أن نصبح موضع كذب. ميلِنا، تمتّعي بهذه اللحظة، تبدو كأنّها خالدة، بصحّتك.

قرعنا الكؤوس، شربنا بعض النبيذ، شدّت يدي إلى طرف فمها، قبّلتْ أطرافَ أصابعي، شعرتُ برطوبة شفتيها ونفسِها المتسارع. في تلك اللحظة فاجأتني بدمعة حرقت طرف يدي وجزءًا من عالمي. لا أدري إذا كانت تلك الدمعة تعبيرًا عن فرحٍ أو حزن. لم يعد هذا بالأمر المهم على أيّة حال.

أنطونيو وقد ثمل، رفع الأنخاب الواحد تلو الآخر، فرحًا، يتوقّع نجاحًا كبيرًا لفيلمه القادم. بعد قليل أضاف أنطونيو بعض الكلمات باللغة الإيطالية وجلس، كانت لديه الرغبة بالرقص واللهو والتعبير عن فرحه العارم. والآخرون يبادلونه المشاعر وسرعان ما شبكوا أيديهم ليرقصوا على ألحان يونانية، حجلَ أنطونيو ودار حول كأس أمامه، ثمّ وضعه على جبينه ورفع رأسه دون أن يسكب قطرة من محتوياته، هذا الرجل بارعٌ في الرقص، وبعد قليل دخل إلى المطعم كريستيان وسيلفيا. لم يكن من المتوقع أن تفوّت سيلفيا مثل هذه الفرصة للظهور مجدّدًا بكامل حليها ورونقها، لتأخذ دورها مجدّدًا في مركز الحدث.

- تشاو كريستيان. صاح أنطونيو واندفع لمعانقته، ساعد كريستيان صديقه أنطونيو في تنفيذ القضايا الفنّيّة وما يلزم من ديكورات أفلامه، كما ساعده في تجهيز الملابس الخاصّة لبعض الأدوار التاريخية. جلس كريستيان وسيلفيا ليس بعيدًا عنّا، نظرتْ إليّ الأخيرة باهتمام كأنّها ترغب بأن تبوح لي بشيء ما، كأنّها ترغب بأن تصرّح "أنا أعرف بأنّك تعرف، أعرف أنّك شاهدتني وساشو في تلك الغرفة وهو يعتليني، دعوتك يا نيكولاي لكنّك رفضت، هذه مشكلتك بالطبع. لأنّي وباختصار لا أبالي برأيك وبراي الآخرين، وسأفعلها ثانية". غريبٌ أمر هذه المرأة، اعتقدت أنّ العلاقة ما بين سيلفيا وكريستيان تمضي إلى نهايتها الحتميّة، لكنّها تجدّدت وعلى وشك أن تقضي على كريستيان.

تبادلنا معهما الحديث لبعض الوقت، ثمّ غادرتُ وميلِنا المكان على عجل. كنّا في حاجة ماسّة للتوحّد والعناق، وكنتُ في أمسّ الحاجة للنوم أيضًا، حتّى وإن كان نومًا متقطّعًا لإرضاء رغبات ميلِنا الجنسية. لكلّ شيء ثمن، لكنّ أوّل ما طلبَتْهُ حين وصلنا إلى شقّتها كان مخطوطة روايتي.

- أعطِني روايتك لو سمحت.

أخرجتُ من جيبي الداخليّ ملفًا قديمًا مطويًا بشكلٍ سيّء للغاية، وضعته أمامها. مسحته بكفّها محاولة أن تستعيد شكله الأصليّ. بدأتْ على عجل بالتهام كلّ كلمة، ظننتُها في البداية ستقفز بلهفة بين أحضاني، لكنّها جلست في أريكتها،

وضعتْ أمامها بعض القهوة وغرقت في القراءة دون أن تعيرني أدى انتباه. قالت ولم تنظر إليّ:- نيكي، إفعل ما تريد، هناك قهوة وبيرة وبعض الطعام في الثلاجة. لا تقاطعني حتى أنتهي من قراءة الملف.

ليس لديّ ملابس أو حقائب فأنا مشروع رحيل متواصل. تركتُ لدى أحد الأصدقاء كلّ ما أملك في دنياي، حقيبة صغيرة تحوي بعض الملابس والكتب. كنتُ في حيرة من أمري، ألم يحن الوقت لأرسي في ميناء ما، هنا أو هناك؟ أرغب باستبدال ملابسي وجلدي، أتمنّى أن تفوح منّي رائحة عطرة طيّبة طِوالَ الوقت، خاصّة وأنّ الصابون رخيص الثمن. أتعبتْني طريقة الحياة هذه. أتعبني التشرّد والركض من حضن امرأة إلى أخرى. لكن، كم من الوقت ستطول علاقتي مع ميلِنا؟ لا يمكن لأحد أن يتنبّأ بذلك. أريد الحصول على وظيفة ثابتة كي أتمكّن من استئجار مكان متواضع، لا تزيد مساحته على خمسين متر مربّع، أركن إليه عظامي المتعبة كلّ مساء.

وجدتُ فوق الثلاجة بعض البسكويت والحلوى، أخرجت علبة بيرة من الثلاجة وجلست قبالتها، كانت في الأثناء تبتلع كلّ كلمة كتبتُها دون ملل، ورقة إثر أخرى، أمسكتْ بالقلم ونظرت إليّ قائلة:- نيكي، رائع، لكنّك تنسى أسماء أبطالك وتخلط بينهم. مرّة إيفان وأخرى يظهر بطلك باسم آخر، يجب أن تحافظ على هويّات أبطالك وشخوص روايتك حتى النهاية.

- أنت محقّة يا عزيزتي، الأخطاء نتيجة للكتابة في أوقات متباعدة. هذه مشكلة، وعليّ إعادة النظر في هذا الملف.

أرجوك، اسمح لي بترتيب هذه الفوضى ، أقصدُ الأسماء فقط.

- طبعاً يا عزيزتي، يمكنك القيام بذلك.

ما إن سمعتْ ميلِنا كلماتي حتى سارعت بشطب بعض المواقع في ملف الرواية وتصحيح أخرى. أخبرتُها بأنّي أفضّل متابعة بعض البرامج على إحدى القنوات الفضائية.

- تريد أن تشاهد مباراة كرة قدم بالتأكيد. لا بأس يا نيكي، أنا أكره القدم والركض الحثيث خلف كرة. أحبّ التنس الأرضيّ، هناك بالطبع كرة أيضًا، صغيرة، لكنّ التنس يتميّز بخصوصيّة فنيّة تظهر شخصية المتباري بشكلٍ مثير. يدان وجذع ونظرات تقابل يدين وجذع وتأهّب، منتهى التألق.

تنقلت ما بين القنوات الرياضية لكنّي لم أعثر على مباراة مثيرة. لذا، تركته وبقيت أحدّق في نقطة ما خلف الجهاز.

- نيكي. نادتني مجدّدًا دون أن ترفع رأسها عن كومة الأوراق بين يديها.
- نعم يا عزيزتي، هل هناك ما يقلقك؟
- هل تستغرب عدم خلعي لحافظة الصدر؟
- المرأة ليست مجرّد ثديين. قلتُ لها دون تردّد. في تلك اللحظة كنتُ صادقًا معها، بعد لحظات من التفكير الجادّ شعرتُ بالسخط وقلت لذاتي "اللعنة، الثديان مهمّان للغاية، أنا كاذبٌ ومتملق ولن أتردّد عن امتصاص حلمتي امرأة على الفور إذا ما أتيحت لي الفرصة لذلك. سؤالُها غبيّ، كان عليها أن تترك كلّ شيء على ماهيّته، لتسبح في التيار المواتي دون أسئلة وتعليقات غبيّة. بإمكانها بعد حين التخلّص من عاهتها، فالطبّ الحديث قادر على صنع المعجزات، خاصّة وأنّها ما زالت في عنفوان الشباب".
- تعالي إلى أحضاني يا ميلِنا، دعكِ من هذه الرواية الآن، أرجوك.
- بإمكاني أن أنهيها يا نيكي.
- سأكون شاكرًا يا عزيزتي، سئمتُ العودة مرارًا لهذا النص الطويل وقراءة ما كتبته كلّما رغبت بالكتابة. أمسكتُها من يديها بعنف، كأنّي أخشى هربها، ضاعت أصابع يدي في خصائل شعرها. شفتاها منفتحتان ورطبتان، عيناها تلمعان برضا وتحفّز. قبّلت وجهها، جبينها، أصابع يديها، رقبتها، لم أترك جزءًا من جسدها دون أن أحرقه، وميلِنا تطلب المزيد.

- بصفتكِ خطيبَتي اسمحي لي بجملكِ بين يديّ كهديّة من سماء صوفيا إلى عشّ دافئ؟ هل لديك مانع يا عزيزتي؟
- أنا لك حتى نهاية الدنيا وما بعد ذلك.

استمرّت لعبة الغرام هذه أكثر من اللازم، كنت أرغب في ترويضها عاطفيًا، بقيتُ أداعبها حتى بعد أن انتهينا من ممارسة الجنس لعدّة مرّات تلك الليلة. أخيرًا نامت بين أحضاني كطفلٍ رضيع تلقّى للتوّ طعامه وحمّامه الدافئ. سحبتُ ذراعي من تحت رأسها وذهبتُ إلى غرفة الجلوس، شربتُ ما تبقّى من علبة البيرة وقررتُ الاستحمام. الماءُ الساخن كفيلٌ بإيقاظِ حواسّي بعد أن فقدتُ الرغبةَ بالنوم، كنتُ فزِعًا ومستثارًا من المستجدّات في حياتي، كلّ شيء يحدث بسرعة دون تخطيط مسبق.

أمضيتُ وقتًا طويلا تحت دفق تيار الماء، كنت أرغب بالإبقاء على الهدوء في منزل ميلِنا، لكنّ حضورَ رجل في بيت امرأة يصعبُ أن يمرّ دون ضجيج وتذكير دائم باحتياجاته الصغيرة والعابرة، وهذا أقصى ما تتمنّاه امرأة جميلة وحيدة، امرأة تتمتّع بروحٍ فنّانة عذبة حانية. المرأة المعنيّة هي ميلِنا بكلّ تأكيد.

جلستُ على المقعد الوفير وأخذتُ أدندن أغنية عزيزة على نفسي، نظرتُ إلى ملفّ الرواية أمامي فأصابني فضول، تُرى ما الذي شطبته وأضافته ميلِنا، لقد قرأتُ جزءًا كبيرًا من الرواية، ودوّنتُ بعض الملاحظات في أكثر من موضع، كانت محقة في كلّ ذلك. أمسكتُ بالقلم وشرعت بالكتابة بنهم غير مسبوق وتسارع، كأنّي أخشى انفلاتَ الأفكارِ من ذهني. هذه المرّة لم أخطئ أسماء شخوص روايتي. بدأتُ أستشعرهم وأعيش يومياتهم، كأنّي أكتب سيرة أطفالي، أولئك الذين ولدوا والذين سيولدون، والوقتُ يمضي مسرعًا دون أن أشعر بالملل

أو التعب أو النعاس، لديّ رغبة كبيرة بالكتابة والمضيّ بالرواية حتى النهاية، أو على الأقلّ إعادة الحياة إلى أبطالي المنسيين وإطلاق سراحهم لمصارعة الحياة.

استيقظتْ ميلِنا خلال ساعات الليل الطويلة، ذهبت إلى دورة المياه ثمّ حضرت لطرفي، جلستْ في حضني وقرفصت واضعة رأسها على صدري. سألتني متثائبة:- أنا سعيدة لأنّك عدت للكتابة، كم الساعة الآن؟

- قرابة الثالثة صباحًا.
- الوقتُ متأخّرٌ للغاية، ربّما استعجلنا الصباح يا نيكي. على أيّة حال، يمكننا النوم لبضع ساعات أخرى، ما رأيك؟
- نعم، هذا ما سأقوم به بعد قليل، ما زالت لديّ رغبة كبيرة بالكتابة، اذهبي أنت للنوم فأمامك نهار طويل من العمل المكتبيّ وسأحضر أنا بعد قليل.

تثاءبتْ عدّة مرّات وأخيرًا قبّلت رأسي ووجنتي وفمي وقالت:- أريدك أن تنهي روايتك هذه الليلة، هل هذا واضح؟ تصبح على خير.

- تصبحين على خير.

شعرتُ بالتعبِ يحاصرُ كلّ خلايا جسدي بعد أن خلدت ميلِنا للنوم بوقتٍ قصير. يوم التصوير الذي قضيته بمعية أحمد ترك أثره بشكلٍ واضح على وعيي الآن. كتبتُ قرابة عشر صفحات، عندها شعرت بعينيّ تنغلق، أخذَ القلمُ يفقد القدرة على متابعة السير على متن الورق. تركتُ كلّ شيء على حاله وذهبتُ إلى الفراش، حيث كانت ميلِنا تشخرُ بطريقة مضحكة للغاية. "مرحبًا يا ميلِنا وتصبحين على خير". كانت تلك المرأة تائهة في أحلامها الأنثويّة، أرغبُ باحتضانِها وملامسة جسدها البضّ الدافئ تحتَ الأغطية، أرغبُ نزعَ ثوب نومها الأثيريّ الشفّاف، أرغبُ الولوجَ في جسدها والبقاء هناك ما طاب لذاكرتي ذلك، لكنّي أحجمتُ في اللحظة الأخيرة. هاجمني طيف كاتيا دون سابق إنذار.

لماذا حضرت كاتيا الآن إلى مجسّاتي الرجوليّة وأنا على أهبة الاستعداد لغزو امرأة سخيّة عبقة، لماذا حضرتِ الآن يا كاتيا؟ على أيّة حال تصبحنَ على خير يا امرأتيّ العزيزتين.

أنا على قناعة بأنّي لن أجد ميلِنا حين أستيقظُ عند منتصف نهار اليوم الثاني ترقد إلى جانبي، ولم يبقَ على موعد استيقاظها للاستعداد للعمل سوى ساعات معدودة، وأنا مرشّح للنوم ربّما حتّى المساء، عندها سيحينُ موعد عودة ميلِنا من العمل، سأحضّر العشاء احتفاءً بها وسأشعل بعض الشموع.

* * *

تركتْ ميلِنا لي ملاحظة على الطاولة الصغيرة، وجدتُها حين استيقظتُ مكتوبٌ عليها "أحبّك، أترك مفاتيح الشقّة تحت تصرفّك". أخذتُ المفاتيح وانتابتني موجة من الحزن. بالأمسِ رميتُ مفاتيحَ تانيا في أقرب حاوية، والآن تقدّم لي ميلِنا مفاتيح شقّتها الخاصّة. لكن السؤال الذي يقلقني هو، "ماذا أريد أنا بالذات؟ ما طبيعة الحياة التي أبحث عنها؟".

شعرت بأنّي آخذٌ في تكوين اسم ما في عالم الأدب، الرواية جيّدة وذات مضمون عميق، وأدرك جيّدًا صعوبة كسب المال من الكتابة والتأليف. في أحسن الأحوال سأصبح مشهورًا في الأوساط الأدبية، وقد أتمكّن من الحصول على بعض الأرباح من حقوق النشر والترجمة. لكن هذا لا يكفي لتحقيق الحدّ الأدنى للعيش الكريم المستقل.

بردت القهوة. نظرتُ إلى الساعة، كانت تقارب الثالثة بعد الظهر، شربتُ قهوتي الباردة، تناولتُ ما وجدتُ من بقايا الطعام، وسارعت بالذهاب إلى شارع راكوفسكي، هناك حيث صوّرنا بالأمس المقطع البائس. شعرتُ برغبة لمقابلة أحمد، تذكّرت ذاك الحزن في عينيه ليلة البارحة. هذه المرّة لا أثر للحشود في ساحة راكوفسكي، لا كاميرات تصوير ولا أضواء. الجوّ بارد وكئيب للغاية. سأتناولُ

اليومَ حلوى غاراش مجدّدًا في المقهى ذاته. مضيتُ إلى هناك دون تردّد، ودلفت إلى المقهى الدافئ، ولم أفاجأ حين شاهدتُ أحمد داخل المقهى.

- أحمد، مرحبًا، كيف حالك يا صديقي؟

- أهلا نيكي، اجلس لو سمحت.

كأنّي قابلت رجلاً آخر، حزينٌ ومنغلقٌ على نفسه، عازفٌ عن الحياة. توقّعتُ أن يكون قد أفرط بالشرب في حفلة البارحة، لكن شيئًا آخر قد حدث لم يصرّح به بعد. طلبتُ فنجان قهوة كبير على أن تغطّيه كميّة من الرغوة الممزوجة بالحليب، وقطعة الحلوى التي وعدتُ بها معدتي.

- أحمد، لديك ما تخفيه، أخبرني، ماذا هناك؟

عندها سالت من عينيه دمعتان كبيرتان. الرجال يحسنون البكاء أيضًا.

- أحمد، أنت تبكي؟

أمسك أحمد نفسه ونظر إليّ مطوّلا وقال متأثرًا:- سأخبرك بحكاية يا نيكي، قرّرتْ إحدى العائلات المكوّنة من والدين وستّة أطفال مغادرة بغداد والتوجّه إلى الأردن للبقاء هناك حتّى انتهاء الحرب وأعمال العنف في العراق، لم يتوقّعوا أنّ الطريق ستكون صعبة وطويلة، لم يساورْهم الشكّ بأن الطريق مليئة بالمفاجآت والأخطار. وضعوا أثناء مسيرتهم تلك علمًا أبيضَ فوق عربتهم، لم يتبقّ سوى القليل للوصول إلى الحدود الأردنية، ظنّوا بأنّهم قد فلتوا من مصيدة الحرب، لكنّ طائرة استطلاع تمكّنت من اكتشافهم، نسوا في تلك اللحظة قرار حظر التجوّل، ورغبتهم القصوى لا تتعدّى الابتعاد عن ساحة الحرب وممارسة حياة طبيعية، بضعة كيلومترات فقط ويصلون إلى منطقة الأمان. لكنّ صاروخًا ذكيًا وجد طريقه إلى العربة وفجّرها.

- هذه العائلة المسافرة نحو الموت هي لأحد أقربائك، أليس كذلك؟

- في العربة الخلفية يسافر ابنِ عمّي الذي اتصّل بي من عمّان، أخبرني أنّ كلّ أفراد عائلة أخي علي قد قُتلوا بصاروخ موّجه، احترقت العربة بمن فيها، لم

يجدوا بعد الحريق سوى جثثًا مشوّهة. هذا كلّ ما تبقّى من عائلة أخي يا نيكولاي.

- يصعبُ عليّ التعليق على هذه المأساة وأعتذر. لم أجرؤ على لمس فنجان القهوة أو الحلوى بعد أن قصّ عليّ أحمد تلك الحادثة.
- لأيّ طائفة تنتمي يا أحمد؟ هل أنتَ شيعيّ أم سنّي أو صدّامي؟
- أنا عراقيّ، لا ذنب لي سوى هذا.
- وماذا ستفعل بعد هذه الحروب، هل ستستمر بالعمل مع أنطونيو في صوفيا أو روما أو باريس ربّما؟
- بل سأعودُ إلى وطني. غادرتُ العراقَ قبل خمس عشرة سنة، يقتلني الحنين، يجبرني على معايشة كوابيسي طوال الوقت.
- أحمد، حتّى في مدينتي صوفيا غالبًا ما أشعر بالغربة والاغتراب. صدّقني أفهمُ تمامًا ما تشعرُ به، همّنا مشترك إلى حدٍّ بعيد.
- هل ترغب بالتنزّه قليلا في الهواء الطلق، الهواء البارد منعش، أعرف هذا الشعور من تجاربي الذاتية.
- يكفي أن ترافقني حتّى موقف الترام بعد تناول الحلوى.
- لا، ليست لديّ رغبة بتناول أيّ طعام.
- آسف، أثقلتُ عليكَ بهمومي يا نيكي وأفسدتُ شهيّتك. لديّ رغبة باجترار آلامي وحيدًا، لكنّك ظهرتَ في التوقيت المستحيل.
- يسرّني أن أبقى إلى جانبك في مثل هذه اللحظات. كلٌّ منّا يحتاجُ بين الحين والآخر للبوح بمكنون الصدر، دعنا نذهب، نحنُ لها.

انطلقنا في شارع غراف إغناتييف نحو شارع فيتوشا الرئيسيّ المضيء الصاخب طِوال الوقت. هناك سيستقلّ أحمد الترام رقم (7) تجاه شارع بلغاريا حيث يعيش في شقّة مكوّنة من غرفتين ومطبخ ودورة مياه.

- -هل تعيش وحدك؟
- هناك فتاة اسمها مارغريت، علاقتنا ليست جدّيّة لكنّها كافية لقتل الوحدة، تعيش معي منذ ستّة أشهر.
- لا بدّ أنّها جميلة، هل أنتَ سعيد معها؟

كنت في حيرة من أمري، عمّا نتحدّث يا أحمد؟ آثار الصدمة الكبيرة التي ألّمت به واضحة في عينيه. يبدو مكفهرًا وتقاطيعُ وجهه حادّة المعالم، ما يكفي للتذكير بأصوله الآسيويّة. الأجواءُ خانقة وأنا في عجلة في أمري لفراق الرجل، حزنه سيستمرّ لأيامٍ طويلة وأنا أختنق بدوري لأنّي لا أملك الوسيلة لمساعدته.

- لا أريد الالتزام بمشاريع جديدة مع أنطونيو. سأسافرُ إلى العراق قريبًا. كما إنّ وطني ليس بالمكان المناسب لمرغريت في الوقت الراهن لهذا أخبرتك أنّ علاقتنا ليست جادّة.

وصلنا أخيرًا لمحطة الترام وانتظرنا بصمت قدوم الترام رقم (7). أخيرًا لاحت القاطرات تتماوج فوق سكّة الحديد كأفعى.

- أراك قريبًا يا أحمد، هنا في الجوار أليس كذلك؟

لم يجب أحمد بشيء، صعد إلى الحافلة، أمسك بقضيب الحديد في منتصفها قريبًا من المدخل، الكثير من المقاعد فارغة، لكنّه فضّل الوقوف، أشار لي بيده مودّعًا، أغلقت أبوابُ الترام بالهواء المضغوط وابتعدت العربات المجرورة عن الأنظار.

والآن إلى أين؟ جميعُ الطرق تؤدّي إلى الوحدة. لماذا يتوجّب عليّ أن أكون مختلفًا عن الآخرين؟ من الممكن أن أكون مهندس برامج، أو حتّى سائق حافلة ترام. كلّ هؤلاء يعيشون يومياتهم بهدوء، أدركُ أنّ الحياة لا تخلو من المشاكل العابرة، لكنّها قابلة للحلّ، هؤلاء غير مطالبين بحلّ مشاكل الإنسانيّة وتبعات الاغتراب والهجرة والحروب، هؤلاء غير مطالبين بحلّ مشاكل التصحّر وشحّ المياه وتقلّص طبقة الأوزون.

ميلِنا تفهمُني وتدركُ همومي الفكريّة والأدبيّة. ربّما كانت قادرة على قراءة أفكاري أيضًا، لكنّ كاتيا بدورها قادرة على تحسّس كلّ نبضات قلبي، تعرفُ جيّدًا متى يتسارع، تعرفُ طعمَ شفتيّ دون حتّى أن تقربهما. إحداهما تحبّني بوعيها والأخرى تحبّني بكلّ جوانحها. المعذرة يا كاتيا، قد ترسي مراكبي يومًا ما عند شواطئك الجميلة، جسدي الآن بحاجة لعنفوان ميلِنا. كنتُ أحدّث نفسي في طريق العودة وأردّد مقولتي "لماذا لم أولد إنسانًا عاديًّا للغاية؟".

- ميلِنا، سنسافر إلى مدينة بلوفديف، أتأتين معي يا عزيزتي؟
- سأسافرُ معك حتّى آخر الدنيا يا نيكي، لكن لماذا بلوفديف؟ لماذا الآن؟
- أسئلتك كثيرة يا صغيرتي، سنقومُ بنزهة قصيرة، هذه مناسبة لمشاهدة آثار المدينة القديمة. ما رأيك؟

لم تكن هناك ضرورة لإقناعها بمرافقتي، صعدنا إلى القطار صباح اليوم التالي وانطلقنا إلى مدينتي المفضّلة بلوفديف. السفرُ بالنسبة لي ضروريّ لأنّه يزيل الغبار المتراكم بين ثنايا روحي. هناك سحرٌ خاصّ في عمليّة الهرب من الحياة اليوميّة بين الحين والآخر. راقبنا رؤوس الجبال والأحراش المكتظّة بالأشجار، السفوحُ الذهبيّة تناجينا وتنادينا، إنّها الطبيعة بكلّ جبروتها وحضورها. حياة المدينة تحاصرُني في إطارٍ زمنيّ محدّد قاتل، لكنّ السفر يقدّم لي هديّة زمنيّة تستمر لبضع ساعات. ليتأخّر القطار قدر ما يشاء، هذا يعودُ للمهندس ولعوامل خارجة عن إرادتي، عدا عن كلّ هذا، يمكنني التعرّف على شخصيّات جديدة، وتناول مواضيع مختلفة ليست في البال أو الحسبان. أعشقُ حالة السفر، حتّى ميلِنا بدت أجمل من أيّ وقتٍ مضى خلال السفر:- شكرًا للدعوة يا نيكي.

- أحبّ مراقبتك وأنت جالسة أمامي، قبّلت وجنتها وصمتنا.

بعد ثلاث ساعات تقريبًا وصلنا إلى مدينة بلوفديف، لم أخبرها حتّى تلك اللحظة بالسبب الرئيسي الذي دعاني للقيام بتلك الزيارة. قرّرنا بداية تناول

الطعام في أحد المطاعم القريبة من محطّة القطارات، ثمّ انطلقنا للتنزّه في أروقة المدينة القديمة المرتفعة والمشرفة على مركز المدينة. شربنا القهوة في إحدى الاستراحات، غادرنا بعد ذلك المدينة الحجريّة تجاه مركز المدينة، تنزّهنا وراقبنا الحياة تمضي بهدوء. بعد أن شعرنا بالتعب توجّهنا إلى فندق تريمونسيوم لنيل بعض الراحة. حجزتُ شقّة واسعة وصعدنا متعانقين، كنّا قد قرّرنا قضاء الليلة هناك، ما إن دخلنا عتبة الشقّة حتى أخذتُها بين ذراعيّ، شفتايَ تاهت في شفتيها، عضضتُ لسانها، قبّلتها طويلا ويداي سافرت بين خصائل شعرها المترامية على كتفيها، ثمّ استقرّت على خصرها ومؤخّرتها، بعد لحظات تناثرت ملابسُنا في أنحاء صالة الجلوس وبدأنا عراكًا جنسيًّا غير مألوف.

- ماذا دهاك يا نيكي؟ أنا لا أشتكي فهذا ليس من عادتي، استمرّ، أرجوك لا تتوقّف، أدخل بي حتى الصباح إذا شئت. أنا لك يا حبيبي، اليوم وغدًا. أنا لك. أخيرًا أصبنا بإرهاق أودى بنا إلى عالم النوم مبتلين وعاريين.

مضى على نومنا ساعتان، استيقظتُ كالملسوع، ارتديتُ ملابسي على عجل، تركتُ رسالة قصيرة لميلنا أخبرتها بأنّي سأغيبُ عن الفندق لبضع ساعات وفي المساء سنشاركُ في احتفال مميّز ينظّمه الفندق.

ليودميلا والصغيرة ديانا كانتا بانتظاري في بهو الفندق. من هي ليودميلا؟ إنّها إحدى نسائي، أقمتُ معها علاقة عاطفيّة قبل سنوات، انتهى كلّ شيء ولم يبقَ من هذه الحكاية الصغيرة سوى ديانا، وما إن وقعتْ عينا الصغيرة عليّ حتى ركضت لترمي بنفسها في أحضاني.

- بابا، أين اختفيت طوال هذا الوقت يا أبي؟
- قبلتُ وجنتيها ورفعتُها عاليًا بين يدي.
- كم كبرتِ يا ديانا، تبدين أجمل مع مرور الوقت يا شقيّة.
- ماذا أحضرت لي يا بابا؟
- الآن سنشتري أشهى المأكولات وأحلى الألعاب في المدينة، ما رأيك؟

نظرت إليّ ليودميلا وقالت:- أمامك ساعتان فقط، أرجوك لا تتأخر، لديّ الكثير من المشاغل.

ازدادت الخلافاتُ بيننا بعد أن حملت ليودميلا، كنتُ أعرف جيّدًا استحالة أبوّتي لديانا، لأنّي عقيم، لكنّها وبعد ولادتها أخذت تناديني بحنان واشتياق "بابا". فضّلتُ القبول بالأمر الواقع، رضيتُ أن ألعبَ دوري الإنسانيّ. لم أرغبْ بكسرِ شوكة الصغيرة ديانا، لأنّها حقيقة في أمسّ الحاجة لهذه الكذبة. ومع مضيّ الوقت أخذتُ أشعرُ بأنّي والدها الحقيقي، بدأتُ أراها قريبة، أحتاجُها وأحتاجُ قربها ورفقتها أينما ذهبت، إلى المدرسة والمتنزّهات والحدائق العامّة وحدائق الحيوانات، أتوقُ لرفقتها لمشاهدة أفلام الأطفال ومسارح العرائس. أريد أن أكون إلى جانبها، أمسكُ يدَها حين تزفّ إلى عريسها، لأقدّمها رمزًا للسعادة والمحبة، انا والدُ هذا الملاك الصغير ولست بنادم.

لا تكفي ساعتان. لهذا قرّرتُ تقديم كلّ ما يمكنني للصغيرة ديانا، أنوي تحويل كلّ ثانية مشتركة بيننا إلى ذكرى ومعايشة جميلة. توجّهنا فورًا إلى الشارع الرئيسيّ الطويل في مركز المدينة حيث المحالّ التجاريّة والمقاهي وأكشاك الحلوى والألعاب وهناك توّقفنا.

- ما رأيك لو نبقى هنا لمشاهدة هذه الألعاب الغبيّة القبيحة، أنظري ما أكثرها.
- ليست قبيحة يا بابا، أنت قبيح. تركتْ يدي ونظرتْ إليّ منزعجة وغاضبة.
- طبعا ليست قبيحة، تعالي معي لنختار أجملها.

لم أتوقّعْ أن نتأخر كلّ هذا الوقت في محلّ الألعاب، وما أكثرها فوق رفوفه. احترتُ مع ديانا، ماذا نختار بين كلّ هذه الألعاب؟ اختارت الصغيرةُ دبًا كبيرًا ذا زغب بلون الكريم، ثمنُه جميلٌ أيضًا "87 ليفا". دفعتُ لموظفة الصندوق وطلبتُ منها الاحتفاظ بالدبّ حتى الانتهاء من النزهة. غضبتْ ديانا لأنّنا لم نأخذ الدب الكبير معنا، لكنّها فرحت حين دخلنا إلى أحد المقاهي، اشتريتُ لها الكثيرَ من الحلوى وكلّ ما تشتهي نفسها، ولم أنسَ االمشروبات الغازية التي يحبّها الصغار.

مضينا بعد ذلك قليلا في الشارع الرئيسيّ، سمعتها بعد قليل تقول بحزن:- بابا، أشعر بالبرد.

أخذتُها بين ذراعيّ وعدنا أدراجنا نحو محلّ الألعاب، أخذنا الدبّ الكبير، بدونا مضحكين للغاية ونحن نحمله كأنّه طفلٌ ثالثٌ يرافقنا بصمت. في طريق العودة اشتريتُ لها من أحد الأكشاك شالا زهريًا لففتُ به جيدها وسرعان ما وصلنا إلى الفندق حيث كانت في انتظارنا ليودميلا. تركتني ديانا وركضتْ نحوَ أمّها صارخة.

- انظري يا ماما، اشترى لي بابا دبًّا جميلا، أنا أحبّ والدي.

نظرتْ إليّ ليودميلا بعطف وابتسمت.

- أنت رائع يا نيكي، لقد أدخلت الفرح إلى قلبها، شكرًا يا عزيزي.

- ديانا تستحقّ أكثر من هذا بكثير، فهي فتاة رائعة. بالمناسبة، أرجو أن تقبلي هذا المبلغ الصغير كي تتمكّني من شراء بعض ما تحتاجينه من متطلّبات الحياة. مئة ليفا ليست بالمبلغ الكبير، لكن إمكانيّاتي لا تسمح بأكثر من هذا.

تناولتْ ليودميلا المال بصمت، طبعتْ على وجنتي قبلة وطلبتْ من ديانا وداعي:- قولي للبابا مع السلامة يا ديانا.

قفزتْ ديانا إلى أحضاني فرحة، كانت تنظر إلى عينيّ وصاحتْ بصوتِها الطفوليّ ببراءة:- عُد إلينا قريبًا يا بابا، لا تغِب عنّا طويلا.

- أعدُك بذلك يا صغيرتي، إلى اللقاء.

قبّلتُها وربّتّ على ظهرها وكتفيها الصغيرتين، أنزلتُها من أحضاني وسارعتْ بدورها لتمسكَ يدَ أمّها وابتعدتا بعد قليل، استمرّتْ ديانا تنظر تجاهي ما بين الحين والآخر ملوّحة بيدها حتى اختفتا عند زاوية الشارع. لم تكن ميلِنا تعرف شيئًا عن هذا اللقاء، ولم أخطّط أنا بدوري لهذا السيناريو وبهذه الطريقة. في الواقع، يصعب عليّ التخطيط لأيّ مشروع حتى وإن كان متواضعًا. لكنّ ليودميلا وديانا بقيتا سرّي وحكايتي الجميلة. قد يحينُ الوقتُ يومًا ما لأخبر ميلِنا

بذلك، لا توجد حاجّة ملحّة الآن لأخبرها بتفاصيل حياتي. من يدري، قد تصبح يومًا ما جزءًا من عالمي الخاصّ.

* * *

المجمّع "كريميكوفسكي" هو خلاصي المنتظر، كنت قد أمضيتُ أسبوعي الأوّل في ذلك المجمّع الصناعيّ العملاق، العملُ شاقّ ومرهقٌ للغاية، وهذا ما يعجبني، بل هذا ما كنت بحاجة إليه طِوالَ الوقت، الإرهاقُ أفضلُ الحلول للأرق والقلق النفسيّ الذي يلازمني طِوالَ الوقت. كنّا نلعب الورق في المدينة السكنيّة الصغيرة التابعة لكريميكوفسكي، وأحيانًا نلعبُ الشطرنج، ونتحاورُ في العديد من القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة حتّى وقتٍ متأخّر من الليل. من جهة أخرى لحصل على دخل ماديّ جيّد للغاية مع نهاية كلّ أسبوع، نظرًا لطبيعة العمل المضني في المجمّع. يتمثّلُ عملي هناك بصبّ المعادن المنصهرة، ما يتطلبُ البقاءَ في ظلّ أجواء حارّة للغاية تصلُ لمعدّلات غير مألوفة، لكن دون شكوى.

سيحينُ موعد إجازتي في الأسبوع المقبل، وسأمضي أوقاتًا جميلة وحميمة مع معشوقتي ميلِنا، في البداية عارضتْ سيّدتي فكرة إقامتي وعملي في المجمّع الصناعي لكنّها في نهاية المطاف احترمتْ رغبتي بتحقيق الاستقلال المادي، حتّى وإن كان ثمن هذا فراقٌ لأيّام معدودة وإرهاق جسديّ متواصل. في الواقع أدمنتُ الحياة معها، وكنتُ أتشوّق للحظة التي أعود فيها إلى أحضانها. أخابرُها بضعة مرّات خلال اليوم الواحد، وكثيرًا ما تسألني عن الجديد في روايتي الطويلة، لكنّ الأمورَ بهذا الشأن تبدو مختلفة ومعقّدة، أقصدُ أنّي قد تمكّنتُ أخيرًا من الكتابة ومتابعة روايتي يوميًّا، أصبح لروايتي وجهَها الخاصّ وحضورُها الدائم في حياتي. أصبح لروايتي حضورًا مميّزًا كما كانت تحبّ أن تعيد وتكرّر ميلِنا.

مضى الأسبوعُ وقدّمتُ لميلِنا عشرين أو خمس وعشرين صفحة جديدة من روايتي، اشتريتُ لها بالطبع لوحًا كبيرًا من شوكولا "ميلكا" السويسرية المحشوّة بالبندق، فهي تعشق هذا الصنف من الشوكولا، وفي طريق العودة اشتريتُ من البقّالة زجاجةَ نبيذ وبعضَ الفاكهة، ومضيتُ بعد كلّ هذا الشوق لعشّها الدافئ.

عادة ما تكون ميلِنا في المنزل في مثل هذا الوقت، لكنّي فضّلتُ هذه المرّة، وقبل أن أضعَ المفتاحَ في الباب، الضغطَ على الجرس. من يدري، قد أفاجأ يومًا بمنظرٍ مفجعٍ يوقفُ تبضَ قلبي، خاصّة بعد أن أخذت أتغيّب عنها لأيّامٍ طويلة. ماذا لو ظهر لي رجل عارٍ ينزفُ عرقًا وقد وضع منشفة حول خصره ليخفي عورته. بالطبع لم يحدث شيءٌ من هذا القبيل، لكنّ مخيّلتي الخصبة هيّأت لي هذا المشهد المستحيل. فتحتْ ميلِنا البابَ وجذبتْني من عنقي إلى داخل شقّتها وتاهَ لسانُها بعد لحظاتٍ في فمي.

- أفتقدُك أيّها الأبله، كأنّي لم أركَ منذ سنة يا نيكي.

- تغيّبتُ عنكِ أسبوعًا واحدًا فقط يا ميلِنا، أنا أيضًا أفتقدك.

قبّلتها وسارعتُ بإخراجِ لوحَ الشوكولا، تناولتْه بسرعة، أزالتْ عنه ورقَ السولوفان الفضّيّ وأخذتْ تقضمُه بشرهٍ واضح.

- ازداد وزني بضعة كيلوغرامات منذ رافقتك يا نيكي، تحيا الشوكولا المحشوّة بالبندق.

وضعتْ قطعةً صغيرة في فمي واستمرّت بالتهام ما تبقى مبتسمة وضاحكة.

هل كتبتَ شيئًا في روايتنا يا حبيبي المكافح، يا ساكب المعادن المنصهرة؟

- نعم، كتبتُ ما يكفي لإسكاتِكِ ساعة من الزمن يا حبيبتي، سأدخلُ للاستحمام، يمكنُك خلال ذلك قراءة ما كتبت في الأسبوع الماضي، أخبريني قبل ذلك، هل صوفيا قادرة على الوجود دون تواجدي اليوميّ في شوارعها وزقاقها؟

- لا أدري، لكن كريستيان اتّصل بي اليوم مرتين، قال إنّه بحاجة ماسّة لرؤيتك.

- هل عرفتِ سبب إلحاحه؟

- لا، ولكنّ القلق كان باديًا في صوته كأنّه فقد عزيزًا على نفسِه.

- لقد فقد وعيه منذ أن رافق تلك الأفعى سيلفيا، هل ترك رقمه؟ أكره استعمال الهواتف.
- نعم، ترك رقم هاتف منزله الأرضي ورقمه الجوّال أيضًا.

يبدو أنّ شيئًا ما قد حدث على جبهة كريستيان وسيلفيا، يغفرُ الفتى كلّ خطاياها مقابل أن تبقى برفقته، ولا يهدأ أبدًا إذا لم يتمكّن من رؤيتها كلّ يوم. هي بدورها تدركُ نقاطَ ضعفِهِ ومدى تعلّقه بها، وتستغلّ هذا الوضع وقتما تشاء.

ما زلتُ أراها بأمّ عيني كيف كانت تئنّ تحت ألكسندر في حمّى ذروة المتعة التي استشعرَتْها رافعة ساقيها في فضاء الغرفة. الأسوأ في هذا المشهد الجنسيّ هو عدم مبالاتها بالكامل حين شاهدتني أراقب عبثها في عتمة تلك الليلة.

سأتّصل به في وقتٍ لاحق هذا المساء، لا بدّ من النوم لبضع ساعات قبل ذلك، كي أستعدّ لمزيد من الثورات العاطفيّة ومشاهد المشاحنات المتواصل بينهما. لماذا لا أتّصل به الآن؟ لا داعي للتأجيل. فعلتُ ذلك على الفور، اتّصلت برقمه المنزلي وما أن رنّ الهاتف حتى رفع كريستيان السماعة وصاح ملهوفًا:- سيلفيا؟

- كريستيان، أنا لست سيلفيا، ما الذي يحدث يا صديقي؟
- نيكي، أحمد الله لاتصالك. منذ أيام وأنا أعيش في وحدة قاتلة يا رجل، لا أدري ما أفعل، أكادُ أصابُ بالجنون. يجب أن أراها، تلك المرأة، سيلفيا يا نيكي. يجب أن أجدها وإلا..
- منذ متى اختفت؟
- منذ ثلاثة أيام، ثلاثةُ أيام كاملة بطولها وعرضها ودقائقها الطويلة، تدقّ ثانية إثر أخرى في شرايين قلبي.
- على رسلك يا رجل. هل تعرف الأماكن التي يمكن أن تتواجد فيها؟
- لو أعرف أنّها قد لجأت إلى جهنّم لقفزت إليها دون تردّد، يا له من سؤال..

- حسنًا يا كريستيان، أريدُ منك الآن أن تهدأ قليلا، سنبدأ بالبحث عن سيلفيا وسنجدها، أعدك بذلك. لكن لا بدّ أنّ هناك أسبابًا أدّت لهروبها. هل يوجد رجلٌ آخر في حياتها؟
- نيكي، اخرسْ أرجوك واحضر إلى طرفي الآن.
- لقد وصلتُ للتوّ من كريميكوفسكي، أريدُ أن أستحمّ وأرتاح قليلا، لقد قضيتُ أسبوعًا مضنيًا للغاية يا كريستيان.
- إذًا سأحضر أنا إلى طرفكم.
- كريستيان، ستأتي لطرفنا لاحقًا، أمّا الآن فانتظرني حيث أنت، أنا قادم. هل تسمعني؟ لا أريدُك أن تغادر البيت وأنت في هذه الحالة، انتظرني أنا قادم.

أغلقتُ الهاتف غير مصدّق ما يحدث، الكثيرُ من النساء يهربْنَ من بيوت ذويهنّ وأزواجهنّ وعشاقهنّ، ما الجديد في الأمر؟ كلّ يوم تخونُ آلافُ النساء أزواجهنّ دون مبرّر، يقعُ الطلاقَ ويذهبُ كلٌّ في سبيله. هروبُ سيلفيا مجرّد مسألة وقت لا أكثر.

- هل حدثَ مكروهٌ لكريستيان؟ سألتني ميلِنا بقلقٍ واضح.
- نعم، حدثَ الأسوأ يا عزيزتي، يبدو أنّه على وشكِ فقدان عقله في القريب العاجل، بعد أن هربتْ سيلفيا من حياتِه دون سابق إنذار. غيابُها تركَ أثراً مفجعًا في نفسه ووعيه.
- وأنت، ماذا تتوقّع أن يكون وَقْع هذا الأمر عليه؟ إنّه عاشق حتى النخاع يا نيكي. سيلفيا تعني كلّ شيء في حياته، هي المحرّض لديه للفرح والحياة. هل ستذهب لزيارته الآن؟
- نعم، لا بدّ من ذلك.
- ربّما عليك أن تدعوه لزيارتنا أيضًا، هو في أمسّ الحاجة لرفيق الآن.

- نعم، كريستيان يرغب بذلك، على أيّة حال لا تستعجلي الأمور يا ميلِنا، كريستيان سيمضي ليالٍ طويلة في هذا المنزل على ما أظنّ، لن أتركه في هذه اللحظة الحرجة.
- كيف فعلتها وهربت تلك الأفعى؟
- قد تكون في أيّ مكان، هي قادرة على القيام بأيّ شيء دون تردّد.

دخلتُ إلى الحمّام وأمضيتُ بعضَ الوقت تحت دفق المياه الدافئة، كنت في تلك اللحظة بحاجة أن أنسى كافّة مشاغلي وهموم الدنيا والغريبين كريستيان وأحمد. أحدُهُما فقد نصفَ أقربائه في حرب بشعة، والآخر خسر كلّ عقله من أجل ساقطة. يبدو أنّ العالم قد أصبح قرية صغيرة، هذا ليس بالأمر المريح إطلاقًا، لا بدّ أنّ مواطنا بلغاريًا في هذه اللحظة يعاني هو الآخر في مكانٍ ما من حمّى اللقاء أو الوداع، الحدودُ على الخارطة الدولية باتت ألمنا المشترك وهمّنا الأوحد.

ليبقَ هدير الماء المتساقط فوق أنحاء جسدي، يغسلني ويغسل همومي وخطاياي. استهلكت الوضعية الجديدة التي وجدتُ نفسي في خضمّها كلّ طاقة حياتي الممكنة حتى أدقّ التفاصيل، كأنّه قد ترتّب علينا أن نلتهم قطعة حلوى كبيرة دون مراعاة لكافّة المحسّنات الغذائيّة كالبهار والأملاح وما شابه. حتى القيّمين على هذه الدنيا لم يأخذوا برأينا حين عجنوا خبز الحياة لامًا، نجد أنفسنا مجبرين على ازدراد اللقمة إثر الأخرى حتى نهاية المطاف.

- هل ستبقى طويلا في الحمّام يا نيكي؟ كأنّ صوت ميلِنا قادمٌ من عالم آخر.
- سأخرج حالا.

أنهيت الحمّام، وضعتُ منشفة كبيرة حول خصري وخرجتُ لأفاجأ برؤية ميلِنا مرتدية ثيابها وجاهزة لمغادرة المنزل، أدركتُ بأنّها تنوي الذهاب معي لرؤية كريستيان.

- لا يا ميلِنا، سأذهب وحدي لرؤيته، أنا على ثقة بأنّه يرغب بالمكوث عندنا لبضعة أيام، ستسنحُ لكِ الفرصة لمحادثته ومواساته، لكنّي الآن مضطرّ للتعامل معه بأسلوب رجوليّ يفهمه كلانا بعيدًا عن دموع النساء. أريدُ أن أحفظ ماء وجهه وكرامته يا عزيزتي، هل هذا كثير؟
- لا تتأخّر أرجوك، إذا دعت الضرورة أحضره معك. يبدو أنّه مصابٌ بأزمة نفسية حادّة.
- كما تشائين يا عزيزتي، رغم أنّي أرغب قبل ذلك..
- لو سمحت يا نيكي، كيف يمكنك التفكير بالجنس في مثل هذه اللحظة؟ لدينا ما يكفي من الوقت فيما بعد. أعدك يا شقيّ.

ارتديتُ ملابسي على عجل، ذهبتُ لرؤية صديقي الجريح والمعذّب كريستيان. إذا كان لا بدّ من الصراحة، لم تكن لديّ رغبة بالمضيّ بعيدًا في هذه الحكاية العاطفيّة وفي هذه اللحظة بالذات من حياتي. حافظتُ على استقلالي الكامل وتجنّبتُ الارتباطَ مع أيّ شخصٍ، ولم أثق بامرأة مهما كانت قريبة إلى قلبي، لم أكن قادرًا على الوفاء والإخلاصِ لحبّ لفترة طويلة من الزمن. هكذا أنا ولا يمكنني أن أتغيّر. يبدو أنّي قد وصلت أخيرًا إلى بيت كريستيان.

- اللعنة على كلّ نساء الأرض يا كريستيان، كيف سمحت لنفسك أن تسقط إلى هذا الدرك يا رجل؟

القلبُ لا يختار عشقه وسيّدته، إذا وقع المحظور عندها لا تنفع النصيحة أو الملامة، ويبقى الهيام والبحث عن الذات في مرآة الحبيب الشغل الشاغل. قد يبدأ الصراع ما بين العقل والعاطفة في إحدى المراحل المتأخّرة. وجدته مهزومًا وحيدًا ومتقوقعًا على نفسه مفترشًا الأرض، نظرَ إليّ بعينين حزينتين وفارغتين كالزجاج.

- نيكي، سيلفيا اختفت من بيتي ومن حياتي أيضًا.

أخذتُه بين يديّ وساعدتُه على الوقوف والجلوس على أحد الكراسي.

- هل سبقَ أن اختفت من البيتِ بهذه الطريقة يا كريستيان؟ قد تكون سافرتْ لرؤية أهلها.
- لا يا نيكي، سيلفيا من مدينة بيرِنك التي لا تبعد عن صوفيا سوى ساعة من الزمن.
- ما الذي يمنعك من الاتصال بأهلها، طباعُ النساء غريبة، يختفين دون مبّرر منطقيّ أو سابق إنذار، ثمّ يظهرنَ كأنّ شيئًا لم يحدث.
- ليس لدى أهلها تلفون أرضيّ ولا أعرف هاتفهم الجوّال، أتّصلُ برقم واحد طِوال الوقت، لكن يبدو أنّ فاتورته لم تدفع. أنا أعرفُ منزل أهلها، قمنا بزيارتهم أكثر من مرّة.

إنّه صديقي وقد ساعدني دائمًا حين تطلّب الأمر ذلك، والآن جاء دوري لأقف إلى جانبه، قد أتمكّن من إخراجه من حالة الهوس، وبصفته أجنبي أجده يعاني أكثر من اللازم.

- إذن لننطلق نحو مدينة بيرِنك، أليس كذلك يا كريستيان؟ لكن دعني أتصّل بميلِنا قبل ذلك فهي تشعر بقلق كبير.

اتّصلتُ بها وأخبرتُها بأنّي سأتأخر لبعض الوقت، لأنّنا سنتوجّه لبيرِنك مسقط رأسِ سيلفيا، قد تكون في هذه اللحظة تتسكّع في شوارع المدينة، من يدري؟ في الواقع لم تكن ميلِنا راضية عن قرارنا المفاجئ هذا، لكنّها في الوقت نفسه لا تملك القدرة لمنعنا عن المضيّ إلى هناك.

انطلقنا بسيارة كريستيان، لم أسمحْ له بقيادتها فقد كان مرتبكًا، ومن الخطر جلوسه خلف المقود. يلزمُنا ما يقرب نصف ساعة تقريبًا للخروج من حدود العاصمة والتوجّه إلى بيرِنك، كريستيان يجلسُ طِوالَ الوقتِ إلى جانبي كمومياء لا يحرّك ساكنًا، يراقبُ الطبيعة وسماءَ تشرينَ الثاني المكفهرة من خلال عينيّ سيلفيا الغائبة. لا وسيلة في تلك اللحظة لإعادة هذا الرجل إلى الحياة والواقع مجدّدًا، لأنّه فقد القدرة على ممارستها بحيويّة وانطلاق، اختفت تلك الابتسامة الساحرة عن

وجهه، بدا الفتى أكبرَ من كريستيان الذي أعرفه بعشر سنوات. أدركُ جيّدًا ما كان في انتظارنا هناك في المنزل القرويّ النائي، وأعرف أنّ ميلِنا غير موجودة بالطبع، لكنّها محاولة لتبديد الغيوم المتراكمة في سماء كريستيان البائس.

أخيرًا وصلنا المدينة المترامية الأطراف، أهلُ سيلفيا يعيشون في حيّ داسكالوفو في منزل مكوّن من طبقتين، إضافة للكثير من الحدائق الجميلة والأشجار العارية من الأوراق خلال شتاء بلغاريا القارس، كنتُ قد عشتُ سنة كاملة في مثل هذا المنزل، بعيدًا عن سباق الحياة المهووس في صوفيا العاصمة. أمّا في منزل ميلِنا فعلى الأرجح سنمضي هناك ما يقارب الساعة أو أقلّ من ذلك.

- هل تعرف أين منزلها يا كريستيان؟

- بعد الشارع الثالث إلى اليسار.

حدّدَ موقعَ المنزل بعينيّ صقر جريح يبحثُ بلهفة عن ضحيّته، عيناه تتحرّكان في كلّ الاتّجاهات، أخيرًا توقّف نظره على حديقة وشرفة واسعة عامرة بنباتات شتويّة، لمعت عيناه وعاد ما يشبه الحياة إلى جسده النحيل. توقّفتُ على الفور أمام منزل حبيبته. خرجَ كريستيان مسرعًا من السيّارة وهرع ليضغط بشكلٍ متواصل على جرس الباب الخارجيّ. كان يبدو كالشبح حين نظرتُ إليه من الخلف.

- كريستيان، ارفع يدك عن جرس الباب، لا يجوز إزعاج الآخرين بهذه الطريقة الهستيرية.

نظر إليّ والفراغ يقطنُ عينيه.

بعد قليل ظهرتْ والدةُ سيلفيا. الشبهُ واضحٌ بين الأمّ وابنتها. ورغم سنّها المتقدّمة إلا أن لمحة من الجمال ما زالت واضحة في تقاطيع وجهها الصافي الهادئ كمعظم نساء القرى، عدا عن أنّها تتمتّع بجاذبيّة واعتداد كبير بالنفس.

- كريستيان يا عزيزي. أنا سعيدة برؤيتك، تفضّل، ادخل أرجوك. نظرتْ إليّ متفحّصة وأضافت قائلة:- أنا إيلينا والدة سيلفيا.

دخلتْ قبلنا وأشارت بيدها مرحّبة. الأثاثُ منتقى بعناية وتناسق، والبيتُ نظيفٌ تفوح من أنحائه رائحة طيّبة.

- أخبروني في البداية، ماذا سيشرب ضيفاي الكريمان؟

- فنجان من القهوة سيّدتي ولكريستيان قهوة أيضًا.

ذهبت المرأة للمطبخ لتحضير القهوة، نظرتُ لكريستيان قائلا:- أريدك أن تعرف أنّ سيلفيا ليست هنا يا صديقي.

- هل أنت واثق من كلامك؟

- طبعا، لكن يمكننا أن نعرف شيئًا من والدتها بهذا الخصوص.

بعد قليل دخلت إيلينا تحملُ بين يديها صينيّة وعليها فناجين من القهوة والسكّر وبعض الحلوى ودلّة قهوة ساخنة يرتفع منها بخار عبق ومنعش. وضعت الصينيّة أمامها وصبّت القهوة في الفناجين الصغيرة وقدّمتها لنا، ولم تتخلّ عن ابتسامتها طِوالَ الوقت. يبدو أنّ زيارتنا أخرجتها عن الرتابة اليوميّة وأضفتْ على نهارِها حيويّة غير متوقّعة.

- أما زلت تشرب القهوة بقليل من السكّر يا كريستيان؟

- نعم سيّدتي، أشكرك على حسن الضيافة.

وضعتْ في فنجان كريستيان نصف ملعقة من السكّر ثمّ نظرتْ إليّ مستفسرة.

- ملعقتان سيّدتي، أنا أحبّ السكّر والحلوى. ابتسمتْ ووضعت السكّر في فنجاني كما طلبت، ثمّ دفعت بالحلوى أمامي. كانت حذرة في حركاتها كأنّها ممثّلة تستشعر طنين الكاميرا، وتحسنُ قراءة الأفكار وتفهم لغة الروح والمشاعر.

- إذا كان لا بدّ أن أكون صريحة معكم يا شباب، أنتم تُشعروني بالخوف، ربّما عليّ أن أسأل سؤالكم. أين سيلفيا؟ لماذا لم تحضر معكم؟ الجوابُ واضح، ما

دمتم قد حضرتم إلى هذا المكان النائي البعيد عن صخب صوفيا دون سيلفيا، فهذا يعني أنّكم تبحثون عنها هنا. أخبرني يا كريستيان، منذ متى اختفت سيلفيا؟

- اختفت دون سابق إنذار قبل بضعة أيام، دون خلاف أو شجار. لم تترك رسالة ولم تخابرني بعد اختفائها، لا شيء سوى الصمت..إيلينا، أكاد أجنّ يا سيدتي، ماذا يمكنني أن أفعل؟ كيف أستردّها؟ قال كريستيان مستجديًا.

- اتّصلت بي قبل أسبوع تقريبًا، قالت بأنّها ستسافر في رحلة إلى جزر القمر. رحلة عمل على ما أعتقد يا صغيري. ذكرتْ شيئًا يتعلّق بمعرض لوحات فنيّة. لم أسألها عن التفاصيل. قالت أيضًا بأنّها ستحضر لطرفي قبل القيام بتلك الرحلة، يبدو أنّك لا تعرف شيئًا يا كريستيان، ماذا يا عزيزي، ما الذي طرأ على علاقتكما؟ لماذا أدارت لك ظهرها؟ كيف يمكن لسيلفيا القيام بهذه الخطوة دون أن تخبرك؟

كانت إيلينا حريصة على احترام مشاعر كريستيان، لكن لم يكن هناك بدًّا من جرحها. جاء وقعُ كلماتِها كالصاعقة على صديقي الذي أجاب وهو يشعر بالذنب:- لم تخبرْني بمشاريعها يا غاليتي، لم تخبرني بشيء يا إيلينا.

توضّح كلّ شيء. اللوحاتُ والمعارضُ الفنيّة في جزر القمر، كلامٌ فارغٌ يا كريستيان. لكن هناك ما يقارب الحقيقة في هذه الحكاية، ألكسندر مهتمّ باللوحات الفنيّة وكثيرًا ما يشارك في المعارض الفنية الدوليّة حسب ما يدّعي. هذا هو التفسير المنطقيّ الوحيد لاختفاء الاثنين وليس سيلفيا وحدها. رحلة سيلفيا باهظة الثمن، رحلة جنس مدفوعة للمتعة ولممارسة حياة بهيميّة خالية من أيّة شروط أو قيود. مجرّد سباق جنسيّ في الفندق وعلى الشاطئ يا ساذج. هذا ما يحدث الآن في الوقت الذي تذوي فيه يا صاحبي. للأسف لن يتمكّن كريستيان من إدراك هذه الحقيقة رغم أنّ الكثيرين يعرفونها، ولن أكون أنا الشخص الذي يخبره بذلك. من جهة أخرى لست واثقًا من فرضيّتي، قد يكون هناك رجلٌ آخر في حياتها سوى الكسندر، من يدري؟

- ربّما تحتاج للوحدة والانزواء لبعض الوقت، أعتقد أنّها تحبّك كثيرًا ولن تتخلّى عنك أبدًا. دعها تهيمُ على وجهها قليلا يا كريستيان. لا يمكنك إجبارها بالدوران في أفقك طوال الوقت.

قالت إيلينا محاولة التخفيف عنه قدر الإمكان، لكنّ كريستيان في تلك الأثناء كان يتواجد في عالم آخر، لم يكن هناك مجال للتعليق على كلمات إيلينا. تركته سيلفيا وحيدًا، طارت ولن تعود بالبكاء والتحسّر.

* * *

ميلِنا ترغب بمعرفة كافة التفاصيل بخصوص رحلتنا إلى بيرنِك، رغم تعبي الشديد وشعوري بالغثيان من هذه المأساة. لم تدعْني وشأني بل استمرّت ملحّة لمعرفة أدق التفاصيل، عصرتني كحبّة ليمون. بعد أن انتهيت من قصّ كلّ ما حدث كلمة إثر أخرى، سألتني عن تفاصيل مغايرة كتقاطيع وجهه حين أدرك كريستيان إنّها ليست بين أهلها. بدأت أعصابي تثور ولساني يتعثّر. أدركُ جيّدًا أنّ الفضول الأنثويّ بلا نهاية، خاصّة فيما يتعلّق بقصص الحبّ والغرام وما شابه. اضطررتُ للاتّصال به لاحقًا، علمتُ أنّ أحمد قد ذهب لزيارته، عندها شعرنا بشيء من الطمأنينة وسرعان ما سألتني قائلة،

- نيكي، هل تحبّني حقًّا؟ نظرت إلى عينيّ برجاء.

- أنظري لإصبعك يا عزيزتي، أنت تحملين خاتم خطوبتنا، عربون محبّتنا، ألا يكفي كلّ هذا الحضور في حياتك يا ميلِنا؟

كانت تلك الثورة العاطفيّة بديهيّة ومفهومة بالنسبة لي بعد اختفاء سيلفيا من حياة كريستيان، كأنّ ميلِنا تخشى أن ألعب دور سيلفيا، لكنّ هذا التعلّق المفاجئ بات يقلقني. لم أتعوّد من قبل شرح عواطفي ولعب دور العاشق، ليس لديّ الوقت لكلّ هذا الهراء. أنا دائمًا في عجلة من أمري.

كريستيان على النقيض منّي، عاطفيّ ورومانسيّ، ما جعله محبوبًا لدى النساء، لكن ليس بالنسبة لسيلفيا المتسلّطة في علاقاتها العاطفيّة. شخصيًا أعتبر

اختفاء امرأة من حياتي بداية للاحتفاء بأخرى، لكن الأمر مختلف فيما يتعلّق بكاتيا.

أمضينا وقتًا طويلا متعانقين، انتظرتُ حتى نامت لأنسلّ من أحضانها الخانقة.

- أشعرُ بالخدر يهاجم ذراعي، تأفّفتُ متألّمًا، ثمّ مضيتُ إلى غرفة الجلوس حيث الرواية بانتظاري. من الواضح أنّها لم تفتحها ولم تقرأ صفحة جديدة فيها. الأسباب واضحة بالطبع، كريستيان مجدّدًا هو النجم الحاضر في يومياتي، سئمت ضعفك يا صديقي. سرعان ما فتحت الصفحة الأخيرة ومضيت أكتب وأضخّ الحياة في شخصيات روايتي الذين أخذوا يتراقصون ويشتمون ويحاربون الملل والجمود. لكنّ النعاس سرعان ما داهمني، جررت نفسي إلى غرفة النوم وألقيت بجسدي إلى جانبها دون حراك.

بقيتُ في الفراش حتى ظهر اليوم التالي، وحين استيقظتُ من نومي كانت ميلِنا قد اختفت من المنزل، ذهبتْ إلى العمل كالعادة، فيما دلّة القهوة تفوح وتغري بارتشاف السائل المنعش الأسود. آه، كم أعشق النساء اللواتي يسهرن على راحتي. أدرتُ التلفاز، ظهر شون كونري وكريستوف لامبير، نجوم هوليوود مجدّدًا، الفيلم رائعٌ لكنّي لم أتمكّن من معرفة اسمه حتى نهاية العرض، ثمّ كتبت لعدّة ساعات متتالية، حتى أخذت معدتي تتمرّد. الجوعُ يحاصرُني، ذهبتُ إلى المطبخ لابتلاع ما تيسّر من الطعام. فضّلتُ قلي بيضتين مع الجبنة، التهمتها على عجل، ثمّ صببتُ القهوة وعصيرَ البرتقال وجلستُ أمام التلفاز ثانية.

توقّعتُ حضور ميلِنا حوالي الساعة السابعة مساءً، لم تكن لديّ رغبة بالخروج طِوالَ النهار. فضّلتُ البقاء في أجواء المنزل لممارسة الكسل والعبث والكتابة بعد أن أمضيتُ أسبوعًا مضنيًا في كريميكوفسكي. لم ألمس ميلِنا في الليلة الماضية، كان التعب قد تغلّب على لهفتي وشهوتي. لا بدّ أنّها ستهاجمني عند الباب الخارجي للمنزل حال عودتها، هذا إذا لم يلاحقنا اسم كريستيان مجدّدًا. أنا مدينٌ لميلِنا لأنّها شجعتني كثيرًا للاستمرار بعملي الروائي، بثّت الحياة في جميع أبطال

روايتي. شعرتُ أنّها قد أصبحت جزءًا من روايتي. نعم، أريد أن أكتبها، وكانت تلحّ عليّ بالمسارعة للانتهاء من هذه الدوّامة، وهي تعرف جيّدًا حجم رغبتي بالتخلّص من شخوصها، بل ورغبتهم أيضًا بالتخلّص منّي. كأنّ الحياة غير المرئية والمتفاعلة بين دفّتي الكتاب باتت مربكة وثقيلة. عدا عن كلّ هذا وجدت نفسي في حيرة بخصوص عنوان الرواية، هل أبقيه على حاله أم أغيّره. أخيرًا قرّرت أن أبقي على العنوان الذي لازمني طِوال الوقت.

نظرتُ إلى السماء في الخارج، الأجواءُ مشمسة، فتحتُ الشبّاكَ على مصراعيه وشعرتُ بالحياة تدبّ في أوصالي. لا بدّ من الخروج واستغلال هذه الهديّة السماويّة. نزهة قصيرة في شوارع صوفيا قادرة على إعادة الحيوية لخلايا جسدي. ارتديتُ السترة الشتوية وخرجت نحو الحياة. "اخرج يا كريستيان من قوقعتك، اغرف من نبع الحياة، لماذا لا تفعلها يا رجل؟ يا لك من مغفّل وعاشق وأبله". كان من المفترض أن أطرد اسمه من مذكّرتي لكنّه يلاحقني أينما ذهبت، لم أتوقّع أن يتحوّل كريستيان إلى كابوس دائم في حياتي خلال الأيام القليلة القادمة. تنقّلتُ بين شوارع صوفيا على غير هدى، لمجرّد الرغبة بالمشي وقتل الوقت وتحريك أطرافي التي تخشّبت من وقع الشتاء الطويل.

– مرحبا نيكي، أين اختفيت يا رجل؟ نظرتُ إلى الخلف ورأيت صديقًا قديمًا يهشّ لي.

– رومِن، أهذا أنت يا شقيّ؟ أنتَ على قيد الحياة.

– نعم، بل وأفضل من أيّ وقت. مضى وقتٌ طويل منذ قابلتك للمرّة الأخيرة، أخبرني ما جديدك؟

يا له من سؤال، غالبًا ما يتحدّث رومِن بعفويّة ساخرة ولاذعة، تدلّ على ذكائه الحادّ. قد يكون سؤاله بريئًا وعابرًا، لكن ما الذي فعلتُه حقيقة بحياتي حتّى هذه اللحظة؟ هل أسير في الطريق الصحيح؟ أنا الذي أفتقر لهدف واضح، حطّت رحالي الآن عند ميلِنا، وربّما أنتقل غدًا لأعيش عند كاتيا، من يدري؟ أحيانًا

أمتلكُ ألفَ ليفا ويزيد، وأحيانًا أخرى يخلو جيبي من المال. هل هذه هي الحياة التي أتمنّاها حقيقة؟ لا أدري، يصعب عليّ الإجابة على هذا السؤال في الوقت الراهن.

- أنا بخير يا صديقي. أخبرني عنكَ أنت، ما الذي فعلته بحياتك؟

- أعتذر يا نيكي أنا في عجلة من أمري، هذه بطاقتي ستجد عليها رقم هاتفي ومركز عملي، أعمل حاليًا في المركز الوطني لمكافحة الجريمة. اتّصل بي لنشرب كأسًا حين يتوفّر لديك الوقت.

سارع رومن بالاختفاء كما ظهر من المجهول، ربّت على كتفي ومضى في سبيله. هناك على بطاقته الخاصة قرأت الكثير من أرقام الهواتف ما بين سلكية وجوّالة. وضعتُ البطاقة في جيبي الداخلي واستمر تسكّعي العابث في شوارع العاصمة. لم يفاجئني نجاح رومن فهو شابّ طموح وجَهدَ لتحقيق إنجازاته المهنيّة، كما إنّ اعتداده بنفسه إلى هذا الحدّ مشروع للغاية، لكنّي في أعماق ذاتي أدرك عدم رغبتي باستعادة العلاقات مع زملائي القدامى في المدرسة. كانت مرحلة عابرة ومهمّة لكنّ ملامحها تغيّرت بالكامل في الوقت الراهن. ربّما أكون أنا من تغيّر، أنا من خان آمال وطموح فترة الدراسة، لكن لا عودة عن ذلك، لا تراجع عن نيكولاي الحالي. إنّه أنا كما أبدو. أعتقد أنّ علاقاتي ستنحصر بمجموعة محدّدة من الأصدقاء يمثّل الجزء الأكبر منهم عالم البؤساء.

تناولتُ على عجل ساندويتشا بالجبن، ثمّ سكبت في جوفي فنجانًا كبيرًا من القهوة وانطلقت عائدًا إلى المنزل. أقصد بيت ميلنا بالطبع. وجدتُها تطبع روايتي بتأنٍ وتركيز كبير على جهاز الحاسوب، ألقت عليّ نظرة خاطفة وقالت:- لا أستطيع أن أتوقّف عن الكتابة الآن، يمكنك تناول بعض الطعام إذا شعرت بالجوع، ستجد في الفرن دجاج بالبطاطس، ما زال الطعام ساخنًا.

- لقد عدتِ اليوم باكرًا..

- نعم، أنهيت عملي قبل الأوان، بالأحرى لم يكن لدينا الكثير من العمل، طلبتُ من رئيسي السماح لي بالمغادرة باكرًا، تحجّجت ببعض الصداع. لديّ رغبة بقضاء أطول وقتٍ ممكن برفقتك.

اقتربتُ منها وضعتُ يدي على كتفها، شعرتُ أنّي أعرفها منذ زمنٍ بعيد، أخذتْ ميلِنا تتدخّلُ في أدقّ تفاصيل حياتي اليومية، تتواجد في واقعي وقادرة على استشعار كافّة خلجاتي، هل هذا جيّد؟ أزحتُ يدي عن كتفها وانحدرتُ لملامسة أطراف جدائلها، عندها سارعت بتغطية صدرها عفويًا:- أحبّك يا ميلِنا كما أنتِ. همستُ في أذنها. كانت قد توقّفت عن الكتابة، أمسكتْ أصابعَ يديّ، وضعتْها فوق شفتيها، وقالت بحنان وامتنان.

- أخيرًا نطقت بكلمة السرّ يا نيكي. نادرًا ما يمتلك الرجال ما يكفي من الشجاعة للاعتراف بالحبّ. أتدري، أشعر بقلقٍ شديد على كريستيان، لأنّه وحيد ومعذّب، هاتفني اليوم وصوته يرتجف.

قبّلتُ شفتيها، جارتني في لعبتي دون تردّد لكنّها أحجمت في اللحظة الأخيرة قائلة:- أنا أيضًا توّاقة للتوحّد معك حتّى حدود الألم، لكن لدينا الوقت الكافي لذلك. كريستيان بحاجة ماسّة لك. قد يقدم على ما لا تحمد عقباه يا نيكي.

- هل ساءت حالته لهذا الحدّ؟

- نعم، فهو يمرّ بأزمة عاطفية قاسية، لا أريد أن أفكّر بالأسوأ، لكنّه قد يعرّض حياته للخطر في لحظة ضعف مقبلة.

قد تكون مخاوفها موضوعيّة، فكريستيان شديد الحساسيّة، والانتحار احتمال وارد ولا أستغربه بأيّ حالٍ من الأحوال. لكن ليس في الوقت الراهن.

- حسنًا، أنا ذاهب لرؤيته والاطمئنان على صحّته، هل تمانعين إذا أحضرته إلى هنا، أعتقد أنّه لن يمانع بالنوم على الكنبة في غرفة الاستقبال؟

- طبعًا يمكنه البقاء عندنا حتى تنجلي الأمور، ليس لديّ مانع.

وصلتُ إلى بيته في نصف ساعة، وأدركتُ على الفور أنّ جميع مخاوف ميلِنا في محلّها، فتح لي باب شقّته بصمت كأنّه لا يراني، عاد إلى داخل المنزل وجلس صامتًا أمام شاشة التلفاز. شعرُهُ جعدٌ لم يعرف الماء أو المشط منذ تركته بعد عودتنا من مدينة بيرنِك، عيناه منتفختان، لحيته بارزة، بدا في تلك اللحظة كأنّه يكبر كريستيان الذي عرفته بعشر سنوات ويزيد. هذا ليس كريستيان الأنيق، الوديع، المرح والوسيم.

- كريستيان يا صديقي، أنت تتعامل مع الأمور بطريقة مأساويّة وحادّة، هناك دائمًا منطقة وسطى ما بين الأبيض والأسود. ألا يمكنك أن تتناساها لبعض الوقت؟ أيّ امرأة أخرى ستفرح لأن تقع في حبال حبّك يا رجل. يكفي أن تتمنّى ذلك.

- لماذا فَعَلَتْها يا نيكي؟ ليتني أفهم السبب.

كنتُ أرغب في تلك اللحظة أن أخبره بأنّ سيلفيا مجرّد جسد شهواني شبق، وهي غالبًا على استعداد لرفع فخذيها لكلّ من يرغب. وتعرف كيف تستغلّ الرياح المواتية لسفن ألكسندر العامرة بكلّ ما تشتهي الأنفس.

- كريستيان، لا يمكن استجداء الحبّ يا صديقي، دعكَ أخيرًا من هذه المرأة اللعوب، استيقظ يا صديقي، هذا كابوس، لا بدّ من تجاوز هذه المرحلة.

- كان بإمكانها أن تصارحني إذا كنت قد أخطأت معها، أنا قادر على فهمها جيّدًا.

- الموضوع لا يتعلّق بك يا كريستيان، عالمها أخذ يتناقض مع واقعك ومفاهيمك للحبّ، أعرف أنّ هذا الفراق ليس سهلا بالنسبة لك.

كان كريستيان ينظر إليّ ببله طِوال حديثي، أخيرًا طفرت الدموع من عينيه. قسوة النساء بلا حدود. هذا الشاب خرج عن المألوف وهو في طريقه إلى الجنون، كلّ هذا من أجل عاهرة.

- هل أكلتَ شيئًا منذ البارحة؟ الصمتُ مجدّدًا كأنّي أتحدّث لجدار. سؤالي غبيّ، يبدو أنّه لا يحتاج لطعام ولا بدّ أنّه لم يتناول شيئًا منذ أيام.

- هيّا يا كريستيان، ستحضر معي، لن أتركك هنا وحدك. عندها وقف وانطلق نحو الباب الخارجي لشقتّه بالبيجاما وفي قدميه نعل منزليّ خفيف.

- لحظة يا صديقي، ما الذي تفعله يا كريستيان؟ ساعدته على ارتداء ملابسه، لم يمانع، كأنّي أتعامل مع طفلٍ صغير:- الآن يا كريستيان يمكنك ارتداء حذاءك الشتويّ الدافئ.

كان كريستيان في حالة مرعبة من عدم اللامبالاة، لم يعر واقعه أدنى انتباه. كان على استعداد للمضيّ معي عاريًا أو مرتديًا بيجاما سيّان. أدركت أنّ حالته ساءت بسرعة غير متوقّعة، كان قادراً فعلا على إيذاء روحه وجسده.

صمتنا طوالَ الوقت ونحن في طريقنا إلى منزل ميلِنا، لم يكن هناك أيّ جدوى من الحديث كأنّي أسير مع جثّة. شعرتُ بالغثيان والاختناق، وبرغبة كبيرة لاسترداد حريّتي، لم أكن مستعدًّا للاعتناء بشخصٍ آخر في هذه اللحظة، أنا الذي تهرّبتُ طوال حياتي من تحمّل المسئولية، باستثناء صغيرتي ديانا، لكن هذه قضيّة مختلفة. الحياة مغامرة متواصلة، وأحتاج لجهد كبير لتخليص كريستيان من شفا الهاوية المحدّقة وكان يسير تجاهها مباشرة.

وصلنا أخيرًا لبيت ميلِنا، فزعتْ حين شاهدتْ تقاطيع وجهه الحادّة وعينيه الغائرتين. حاوَلَتْ محادثته لكنه لاذ بالصمت. غمزتُها وعندها أدركَتْ مدى الدرك الذي هوى إليه الفتى.

- ادخل يا كريستيان، اجلس على الكنبة، أرجوك.

انتبه كريستيان لوهلة وسارع لخلع حذائه وسترته الشتويّة، كأنّه عاد للحياة مجدّدًا. وضعتُ سترته في خزّانة الملابس، ثمّ جلسنا حول الطاولة في غرفة الجلوس وكان الحرجُ رفيقنا الرابع.

- ميلِنا، أشعر بجوعٍ شديد، كريستيان أيضًا لم يتناول شيئًا منذ أيام.

سارعتْ ميلِنا بتحضير بعض الطعام ثمّ صفّت الأواني والصحون بالأطعمة الشهيّة. كانت الرائحة شهيّة للغاية، وكنت مصرًّا في تلك اللحظة على التهام كميّات كبيرة. سأغلق عينيّ إذا استدعى الأمر، كأنّي وحيدٌ في مطعمٍ مهجور. انقضضتُ كالمفجوع على الطعام، نظرتُ إلى صديقي الإيطالي، توقّفت عن مضغ الطعام، تناولت قطعة لحم طريّة وقرّبتها من فمه.

- هيّا يا صديقي، يمكنك الانتقام من قطعة اللحم هذه، أنا متأكّد من قدرتك على ذلك. لوّح بيده رافضًا لكنّي أصررتُ على المضيّ حتى النهاية بهذه اللعبة الصعبة، وضعتُ اللقمة في فمه، وبقيتُ أحدّقُ به غاضبًا ومتوتّرًا حتى وافق في نهاية المطاف على التهامها، وعلى الفور حضّرتُ قطعة لحم أخرى ووضعتُها مجدّدًا في فمه. ابتلعها، بكلّ بساطة، كريستيان جائع ومحرج.

كريستيان، ليس لديّ أيّ مانع من إطعامك كما يطعمُ الحمامُ صغارَه يا صديقي.

عندها انفرجت أساريره وبدأ يأكل بمفرده، شعرتُ به قد عاد إلى شخصه الذي ألفناه قبل رحيل سيلفيا من حياته. لكنّها عودة مؤقّتة، مجرّد ومضة في ذاك السرداب المظلم، لحظة صفاء روحي طارئة. وسيلفيا تمكّنت من قضم عضلة قلبه ككلب مسعور.

أنهينا وجبة العشاء وكريستيان يشاركُنا الحديث بكلمات مقتضبة بين الحين والآخر. تحدّثنا عن إيطاليا وصوفيا، عن جبل فيتوشا وبحيرة بنتشاريفو، عن منتجع بوروفيتس وعن النساء الجميلات، لكنّه سرعان ما تذكّر سيلفيا وأصيب بالكدر والهمّ مجدّدًا. فضلنا في تلك اللحظة تركه وشأنه. توقّعتُ أن ينام بسرعة، لأنّ جسده ضعيف ومنهك، خاصّة وأنّه قد شعر بالدفء والحنان بيننا. وهذا جلّ ما نقدر على تقديمه للفتى المولّه كريستيان.

- سأحضرُ لك غطاءً للنوم، نحن أيضًا بحاجة للراحة. لقد كان نهارًا عصيبًا. إذا أردت شيئًا آخر..

- لا أبدًا، لقد قدمتما لي الكثير، لا أدري كيف أشكركم على هذا الكرم. اشتدّت بي الحاجة لأن أجد نفسي بين الناس، بين الأصدقاء. سأتجاوز هذه المحنة، أحتاج فقط لبعض الوقت.
- أنا سعيد لسماع هذا، أنتَ وسيمٌ وطيّب القلب، لا بدّ أنّ هناك الكثير من الفتيات اللواتي يتمنين خطفَ ابتسامة وقبلة من فمك. سارعتْ ميلِنا بإحضار الملاءات والأغطية، وأصبحت الكنبة في غرفة الاستقبال سريرًا مؤقتًا لكريستيان. مضيتُ إلى غرفة النوم، خلعتُ ملابسي براحة ضمير، دسست ذاتي تحت الأغطية الدافئة وانتظرتُ بفارغ الصبر حضور المرأة التي كنتُ أشتهيها في تلك اللحظة.

* * *

حرصنا خلال الجماع على عدم إصدار الكثير من الحشرجة والأصوات المرافقة للنشوة حفاظًا على مشاعر كريستيان. أمضينا وقتًا طويلا في ممارسة الجنس، ما أن أفرغ حتى انتصب ثانية وثالثة. غريب، ما هذا الجوع الجنسيّ الذي أصابني تلك الليلة، وميلِنا لا تمانع، لا تمانع، وبدلا من الصراخ تعضّني، تمتصّ رحيق رقبتي وكتفيّ، تنشب أظافرها في ظهري. الهرمونات تتطاير في جميع أنحاء الغرفة، والملاءات مبتلة حدّ الغرق.

في صباح اليوم التالي اختفى كريستيان من المنزل، لم أشعر بالقلق إزاء ذلك بعد أن بدرت منه علامات الشفاء. للرجل حياته الخاصّة ولا يمكن إلزامه بالبقاء في هذا البيت طوال الوقت. عليه أن يعيش مأساته وآلامه حتى النهاية، قد يبدأ خلال ذلك بالعودة إلى رشده.

خلال الأيام التالية عشتُ دون هموم والتزامات أخلاقيّة، تركتُ نفسي لتيار الحياة يجرفني كيفما شاء. العمل الحثيث والكتابة الدؤوبة أينعت ثمارها، وأصبحت أرى بأمّ عيني أفق نهاية الحكاية. أحتاج لشهر أو لشهرين كي أضع

نقطة النهاية. ميلِنا فرحة لطموحي ونشاطي المفاجئ، وتنقل كلّ كلمة أكتبها في ملفٍ خاص في الحاسوب يحمل عنوان الرواية. في نهاية الأسبوع حزمت متاعي القليل للعودة لكريميكوفسكي. دار جدال طويل بيننا فقد كانت تصرّ على عودتي كلّ يوم من هناك، خاصّة وأن المسافة لا تتجاوز الساعة بالحافلات وما أكثرها، لكنّي أردتُ الحفاظ على هامش حريّتي وبقائي بعيدًا ومتوحّدًا في أثناء عملي الشاق في المصنع.

عادةً ما يكون اليوم الأول بعد انتهاء الإجازة متعبًا وصعبًا للغاية، لكنّ الأمور تتحسن بعد ذلك، وسرعان ما نتعوّد وتيرة الحياة في المجمّع الصناعي. تعرّفت على العديد من العائلات التي تعيش بشكلٍ دائم هناك، نتبادل الزيارات ونلعب الورق والشطرنج. كنت راضيًا عن حياتي بشكلٍ عام، وقادرًا على العودة مساء كلّ يوم لمنزل ميلِنا، لكنّ طبيعة العمل مرهقة للغاية وسأخلد للنوم فور عودتي لبيتها حارمًا نفسي من الكتابة، وقد أجد مشقّة بالاستيقاظ باكرًا صباح اليوم التالي للذهاب مجدّدًا للعمل. لا، هذا انتحار يا عزيزتي، لن أقدم على هذه الخطوة. هذا القرار جعلني أشعر بشيء من تأنيب الضمير، لهذا كنت أسارع للاتصّال بها لأكثر من مرّة خلال اليوم الواحد. أتّصل بها في المنزل وفي مكتب عملها. والسؤال يتكرّر ثانية "ستحضر قريبًا، أليس كذلك؟" لا شيء سوى هذا السؤال، وهو ليس عابرًا أو اعتباطيًا. أجيبها بأنّي أعود دائما لعالمها ولا وجوب للقلق. كنتُ حريصًا على الحفاظ على مشاعرها، لكنّي في الوقت ذاته أرفضُ أن تكون حياتي مرتبطة بالكامل بمفتاح شقّة، ولا عودة عن استقلالي المادي وهذا أمرٌ لا يقبل النقاش. لا عودة لحياة التسكّع والجيوب المثقوبة الفارغة. أريد أن أعيش فخورًا ومعتدًّا بنفسي، وأصرّ على أن تشعر ديانا كلّ يومٍ بطفولتها البريئة. تلك الصغيرة هي أهمّ أنثى في حياتي. في الوقت الحالي لا يوجد منافس لميلِنا كرفيقة فراش وعشيقة وربّما زوجة. سأعود إليها مع نهاية كلّ أسبوع، لنمارس الحياة بكلّ تفاصيلها المملّة.

مع مضيّ الوقت شعرتُ أنّ ميلِنا قد بدأت تتغيّر، اختفت اللوعة والانتظار المضني لعودتي، أصبحت أكثر برودة ولا تكترث كثيرًا لغيابي. سألتُها يومًا:- ما الذي يحدث بيننا يا ميلِنا؟ أراك تتغيّرين يومًا بعد يوم.

- تغيب عنّي أيامًا طويلة، يتملّكني الحزنُ إزاء ذلك..

- لا، ليس هذا هو السبب. هناك أمرٌ آخر يقلقك يا عزيزتي؟

صمتتْ قليلا، وقرأتُ في عينيها حديثًا ورغبة بالبوح:- نيكي، في الأسبوع الماضي، حضر كريستيان إلى هنا..أخبرتُه أنّك خارج المنزل ولن تعود قريبًا، لكنّ قلبي لم يطاوعني على طرده.

- أنت وهو، ميلِنا! صرخت مندهشًا وغاضبًا.

- بل اغتصبته، كان هو الأنثى تلك الليلة، وكنتُ أنا ثملة وحيدة وغاضبة منك. لا أدري إذا أدرك جنوحي ونزوتي، لأنّه بكى طويلا بعد ذلك. أدرك بأنّه لن يتمكّن من النظر إلى عينيك. منذ تلك الحادثة لم أره حتى الآن. هذا ما حدث في تلك الليلة الباردة الطويلة، لقد كان الشيطان نصيري..

- اخرسي أرجوك، لا أريد أن أسمع أكثر من هذا.

- هذا ليس كلّ شيء يا نيكي، أتظن بأنّه الوحيد الذي ركبني بعدك.

- ماذا؟ كنتُ مصعوقًا من اعترافاتها المفاجئة. نظرتْ إلى عينيّ مباشرة، ولم تكن لديها رغبة بالصمت أو الحفاظ على ما تبقّى من كرامتي المسفوحة. استمرّت بانفعال قائلة:- لماذا وضعتَ في إصبعي هذا الخاتم؟ الطريق من كريميكوفسكي إلى بيتي لا تزيد على ساعة واحدة بحافلة بطيئة عتيقة وصدئة. اللعنة يا نيكولاي، أنت أنانيّ ونرجسيّ.

- وضعتُ الخاتمَ في يدك تعبيرًا عن مشاعري الصادقة نحوك، لم أتوقع أن تضعي لي قرونًا بهذه السرعة يا ميلِنا.

- الأمورُ ليست بهذه البساطة، لا أرغبُ بالبقاء محطّة عابرة في حياتك.

- هل هذا يعني أنّ هناك آخر في حياتك؟
- لا، لا يوجد رجل آخر، أريدك أنت وحدك.
- على أيّة حال، يمكنك مضاجعة عابري السبيل في العاصمة وما أكثرهم.
- كنتُ صريحة معك أكثر من اللازم. لم يعد يهمّني رأيك بعد اليوم.

أعتقدتُ بأنّي أفهم النساء حتى تلك اللحظة، أعتقدتُ أنّ سلطتي بلا حدود على أرواح وأجساد النساء، لكن ها أنذا أجد نفسي ضعيفًا وعاجزًا عن امتلاك نفسي أمام امرأة بلا أثداء. أكثرَ ما فاجأني في هذه الدراما شبه العائلية ردّة فعلي القاصرة. كنت أنا الضعيف المكبّل، وجدتُ نفسي طِوالَ الوقت في وضعيّة الدفاع عن النفس. ألم يكن من الممكن أن أعبّر عن رفضي أو حتّى أن أصفعها وأمضي في طريقي؟ لا، لم أفعل ذلك. للمرّة الأولى تتمكّن امرأة من الانتصار عليّ في معركة الرجولة الأبديّة، كنتُ أنا الفارس المقهور، أقفُ أمامَها بلا حولٍ ولا قوّة، أتوسّلُ إليها وأتمنّى عليها ألا تطردني. سأصلحُ كلّ أخطائي. كانت هي الخائنة وأنا الذي يطلب الصفح والمغفرة من معذّبتي.

- والآن يا ميلِنا، ماذا سنفعل؟ لا أدري إذا كان بإمكاني تحمّل كلّ هذا العبء.
- لا تهجرني يا نيكولاي، أرجوك، ابقَ عندي هنا، أنا في أمسّ الحاجة إليك.
- بل أنتِ بحاجة لظلّ رجل لا يغادر بيتك مهما كانت مواصفاته. نظرت إليّ بغموض وقالت باسمة.
- لا داعي للمشاكسات واللعب بالنار، حضّرت لك الطعام الذي تشتهي.

- نعم، مشوي الدجاج والبطاطس في الفرن، الرائحة تملأ المكان. بدأت أفهم كريستيان في تلك اللحظة. لكن، لماذا استغلّ غيابي وفعلها مع ميلِنا؟
- نيكي، ستجد قرصًا مضغوطًا محمّلا بملف الرواية، كتبت المسودة ودقّقتها.

هل هذه إشارة لهجرها، وربّما محاولة للتقرّب منّي بعد العاصفة التي اختلقتْها ميلِنا، بدأتُ أشكّ في كلّ شيء. نظراتها، حركاتها، تصرّفاتها. لقد وجّهت لي صفعة غير متوقعة وضربة ممنوعة تحت الخصر، الخيانة مقيتة دائمًا بكلّ أشكالها. لكن من الأفضل لي أنا زير النساء أن أصمت وأبتلعها، لو لم تفعلها ميلِنا لفعلتها امرأة أخرى. هناك دائما المرّة الأولى.

قضينا سحابةَ النهار صامتين، لا أعرف ماذا أريد، هل أبقى في قلعتِها أم أبتعد؟ أمضيتُ الوقتَ أحدّقُ في شاشة التلفاز دون انفعال. شاهدتُ عمليّة قتل في أحد الأحياء الغنيّة في أميركا. أفرغ القاتلُ مخزنَ رصاص مسدّسه كاملا في جسد الضحيّة. القاتلُ يرغب بإبعاد المغدور عن سوق المخدّرات، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك برصاصة واحدة فقط. لماذا كلّ هذا العنف؟ ولماذا لم تعد هذه المناظر قادرة على إثارة مشاعر المشاهدين؟ أصبح القتل الوحشيّ أمرًا مألوفًا. قرّرتُ مغادرة المنزل لبعض الوقت، أحبّ التنزّه في مركز المدينة حيث الحياة والأضواء بغضّ النظر عن الطقس في الخارج. أنا لا أخشى الشتاء والبرد، وأجد دائمًا الوقت والإرادة للخروج والتنزّه. وما أن ابتعدتُ عن مدخل المنزل حتى أحاط بي مجموعة من الرجال، يرتدون أطقمًا رسمية سوداء. أخرجَ أحدُهُم بطاقة تحملُ صورته من جيبه الداخلي وقال:- مكتب مكافحة الجريمة المنظّمة. هل أنت السيد نيكولاي إيفانوف؟

- نعم.
- يجب أن تأتي معنا في الحال.
- هل لديكم أمر رسميّ بالاعتقال؟ رغم دهشتي وخوفي وجدتُ في نفسي القدرة على طرح السؤال.
- من الممكن أن نعتقلك بإحدى الطريقتين. أن تحضر معنا الآن معزّزًا مكرّمًا، أو أن نقذف بك في مؤخرة العربة، لعلك لا تختنق قبل وصولنا للمركز. نحن بحاجة لاستجوابك في بعض الأمور، لو سمحت.

- بماذا يتعلّق هذا الاستجواب؟ عاندتُ كثيرًا ولم أخضع لتهديداتهم.
- ستعرفُ كلّ شيء حال حضورك معنا إلى المركز.

هناك عاصفة قويّة قادمة في أفق حياتي وعليّ خفض رأسي قليلا وإلا. لم أعترض أكثر من ذلك، انطلقتُ مع الرجال الجسام نحو عربة متوقّفة في الجوار وسرعان ما غادرتُ المكان بسرعة كبيرة.

أبقوني في غرفة مغلقة تقع في الطابق الثالث للمبنى التابع للمركز الأمنيّ قرابة الساعة دون أن يعكّر خلوتي الإجباريّة أحد. لا شرطي ولا رجل مخابرات مدني، لا أحد. أخيرًا حضر رجلان وجلسا قبالتي، تعرّفتُ على أحدهم، كان هو نفسه الذي أبرز بطاقته ليس بعيدًا عن مدخل العمارة، بدأ الحديث قائلا:- أنتَ لست معتقلا، لكنّنا نتوقّع أن تقدّم لنا المساعدة في قضيّة أمنيّة هامّة للغاية.

- أرجو أن تتّصلوا برومِن نيكولوف ليحضر إلى هنا. أنا على استعداد للحديث معه فقط، هل هذا واضح؟ نظر أحدهم إلى الآخر وبدا الاهتمام على وجوههم. سأل الآخر بحذر:- أنت تعرف النقيب نيكولوف؟

- نعم، أعرفه جيّداً. أخبروه بتفاصيل القضية وليأتِ هو للتحقيق معي إذا لم يكن هناك بدًّا من ذلك. أؤكّد لكم بأنّي سألتزم الصمت أمام غيره. هيّا، أسرعوا قليلا يا أصدقاء، ولن أرفض فنجان قهوة ساخن. أنا على استعداد لقتل رجلي أمن من أجل فنجان قهوة. أصبحتُ في منتهى الوقاحة بعد أن تيّقنت من أنّ رومِن رجل هامّ في هذا المبنى. أدركتُ كذلك عدم وجود تهمة حقيقيّة موجّهة لي، لكن هناك قضيّة كبيرة تنتظر حلا قد أساعد في إيجاده.

حضر في وقتٍ لاحق صديقُ الدراسة القديم رومن نيكولوف. أنيقًا ومهذّبًا ولطيفًا، أخبروه بكلّ كلمة تفوّهت بها أمامهم. صافحني وجلس قبالتي مبتسمًا.

- عزيزي نيكولاي، اطّلعت على كافّة تفاصيل هذه القضيّة، نحن الآن نحقّق مع جميع معارف السيّد ألكسندر، لقد قُتِلَ بطريقة بشعة ليلة البارحة. هناك

بضعة احتمالات لاغتياله، وجدنا في ألبوم صوره الكثير من الفنانين والكتّاب والممثّلين، وحتّى بعضَ رجال الشرطة. وأنت بين هذه المجموعة؟

- مجرّد معرفة، صديق، مقرّب، أنا كاتب وأحبّ المشاركة في الحفلات التي يقيمُها ألكسندر. هذا صحيح لكنّي لا أعرف أكثر من ذلك. لا أدري ماذا يعمل ألكسندر وكيف جمعَ ثروتَه ومن أين حصل عليها. حسنًا، قد يكون خارج على القانون وإلا فمن أين له هذه الثروة الطائلة وما يزال في أوج شبابه؟ لكن، ما دوري أنا في كلّ هذا يا حضرة النقيب؟ من أين لي أن أعلم خفايا وأسرار كلّ إنسان قد أتعامل معه؟

- سيّد نيكولاي، ألم تلاحظ أمرًا غريبًا أو مريبًا في حياة ألكسندر؟ هل قام بتهديده أحد؟ هل كان يتصرّف بشكلٍ مريب؟ أخبرني بأيّ شيء قد يفيد مجرى التحقيق.

- لم أقابلْه منذ وقتٍ بعيد، الأمرُ المريبُ الوحيدُ الذي لاحظتُه هو لوحاتُه السخيفة. لوحاتٌ ذات قيمة فنيّة متدنيّة. الجميعُ يمتدحُ لوحاتَه وهذا أمرٌ مفهوم وطبيعيّ لأنّه يطعمُ الجميع، وسخيّ يا حضرة النقيب. لكنّه ليس فنانًا ولا يمتلكُ الموهبة والقدرة على الإبداع. اللوحات..

- استمر، ماذا بخصوص اللوحات؟

- بعضُها كان يختفي قبل نهاية الحفلات، أحيانًا يلجأ البعضُ لتمزيق أطرها في مكان خفيّ أثناء الحفلة. هل يعني هذا شيئًا؟

- تقصد بأنّ ألكسندر يخفي شيئًا في أطرها؟

- كالمخدّرات مثلا، أهذا ما تبحثون عنه؟ طِوالَ الوقت كانت المخدّرات أمام أعينكم. لم يعلمْ بذلك سوى المقرّبين من ألكسندر. الموزعون والمدمنون يشاركون بالعادة في هذه الحفلات، لا بدّ أنّ صورهم موجودة في الألبوم. هل كان وحيدًا عندما اغتيل يا رومن؟

نظر إليّ رومن مستغربًا، هو الذي لم يتعوّد يومًا أن يكون موضع استجواب.

- كان بمعيّة سيّدة شابّة، لم تصب بأذى وهي التي أبلغت عن الحادث.
- هل هي هنا في المركز؟
- أسئلتك كثيرة يا نيكولاي، لماذا كلّ هذا الفضول؟ ألا تعرف أنّ هذا خطر على الصحة؟
- رومِن، هل سيلفيا موجودة في المركز؟
- سيلفيا موجودة في المستشفى. يبدو أنّها قد تلّقت صدمة عصبيّة بعد أن شهدت اغتيال صديقها. رأت الدماء تنفرُ من أنحاء جسده. يبدو أنّك تعرفها جيّدًا؟
- أعرفُها جيّدًا، متى يمكنني زيارتها في المستشفى؟
- لا بدّ من استجوابها قبل ذلك، أنصحُكَ أن تبقى بعيدًا عنها في الوقت الراهن. هل تفهم ما أقوله يا نيكولاي؟
- نعم، أفهم جيّدًا. هل يمكنني الذهاب الآن؟
- نعم، لكن من الأفضل أن تترك عنوانًا أو رقم هاتف للاتّصال بك عند الضرورة. هذا إجراء رتيب ولا بدّ من القيام به.

كتبتُ له المعلومات التي طلبها على ورقة وناولته إيّاها، طواها ووضعها في جيبه الداخلي دون أن يعاينها وقال:- ابتعدْ عن هذا المكان بسرعة قبل أن يغيّر احدهم رأيه.

تركتُ المكان دون حتّى أن أصافحه، أوقفتُ عربة أجرة وانطلقت لمستشفى الطوارئ حيث من المتوقّع أن أجد سيلفيا. سألتُ الاستعلامات إذا كانت موجودة في أحد الأقسام، لكنّهم أخبروني بأنّه لا بدّ من ذكر اسمها الكامل. كان المناوب

في قسم الاستعلامات حادًّا معي بعض الشيء وهو محقّ بالطبع فهناك الكثير من الفتيات اللواتي يحملن اسم سيلفيا.

سيلفيا تسبّبت بكلّ هذه المتاعب. لو بقيت بمعيّة كريستيان، لما اضطرّ الأخير للبحث عن ميلِنا في منتصف الليل للشعور بالدفء والأمان ليريح رأسه على صدرها الظمئ الضامر. والآن أبحثُ أنا عن الخلاص في بيت عاهرة. لماذا كذب رومِن، سيلفيا كانت محتجزة في المركز. أنا متأكّد من ذلك. لكنّه رجل أمن ويعرف كيف يتصرّف مع لحوح مثلي، وتمكّن من التخلّص منّي بسهولة.

لم أتمكن من العثور على سيلفيا، لكن بإمكاني العثور على كريستيان. لا أدري عمّ نتحدّث. هل بقيت هناك مواضيع مشتركة بيننا؟ يمكنني أن أركله في خصيتيه مباشرة أو ألكمه بقوّة في وجهه الوسيم. يا للمفاجأة، اتّضح لي بأنّي غيورٌ للغاية.

كانت ميلِنا قد تمكّنت من نصب فخّ لي. لأنّ غيابي يعني إمكانيّة الخيانة، أصبحتُ الآن في حيرة من أمري. كنتُ قد تعوّدت أن أرمي مفاتيح شقق النساء وقتما أشاء ثمّ أدير ظهري لحبيبة اللحظة وأبتعد. لكنّ ميلِنا هي من قامت بهذه الخطوة الآن، سرقت منّي عنصر المفاجأة فبهرتني وغلبتني. ليس هذا فحسب، بل طبعت روايتي كاملة وحضّرت وجبتي المفضّلة. كلّ هذا دفعة واحدة. تركت لي حقّ الخيار، أن أبقى في عالمها أو أمضي بعيدًا. واخترت البقاء.

الكتاب الثالث

المجنون

انتظرتُهُ طويلا أمام مدخل المبنى الذي يسكنه، أخيرًا ظهر كريستيان من بعيد. يسير مهمومًا ببطء.

- كريستيان، أهذا أنت؟

لم أتمكن من معرفته في الوهلة الأولى. أسنانه مصفرّة، وجنتاه بارزتان من شدّة الضعف الذي ألمّ به. كان على ما يبدو بحاجة لمساعدة طبيّة عاجلة. بدأ يحكّ شعر رأسه الطويل الكثيف، وسرعان ما ذهلتُ حين شاهدتُه يرمي برماد سيجارته فوق رأسه كأنّها قد تحوّلت إلى منفضة.

- نعم، هذا أنا. ماذا تريد؟

- ما الذي تفعله بروحك يا رجل، لماذا تبتلع كلّ هذه السجائر؟

- لديّ الكثير منها، ما همّك أنت؟

أشعل كريستيان سيجارة من الأخرى قبل أن يطفئها بعقب حذائه. كان من الواضح أنّه قد حادَ عن طريق الصواب، أو في طريقه للجنون لا محالة. صعدنا إلى شقّته وجدتُ الوضعَ هناك مزريًا لا يُطاق. غرفةُ الجلوس تحوّلت إلى خزانة، وكان من الممكن مشاهدة قطع الملابس الوسخة مترامية في كلّ ركن من المكان، ملابس داخلية، جوارب، قمصان. كما شعرتُ بوجود رائحة حرق قائمة، سارعتُ للذهاب إلى المطبخ. يا إلهي، ما هذه المصيبة، دلّة القهوة كانت قد تفحّمت فوق الطبّاخ الكهربائي الذي أحمرّ كالجمر. هناك خطر كبير من اندلاع حريق. وضعتُ الدلّة في الماء البارد فارتفعت سحابة بيضاء وسُمع صوتُ تبخّر الماء الفوريّ فوقَ المعدن الساخن. هل حقيقة خانتني ميلِنا مع هذا الفتى، مع هذه الكتلة من الخراب الإنسانيّ؟ حتى وإن كانت كاذبة في ادّعاءاتها إلا أنّي ما زلت أشعر بالغيرة. عدتُ إلى غرفة الجلوس ولم يكن هناك أثرٌ لكريستيان. أين اختفى؟

خرجتُ من الشقّة ونظرتُ في جميع الاتّجاهات لعلّي أرى له أثرًا في ممرّات الطابق، لكن دون جدوى. لاحظتُ أنّ المصعد مشغولٌ طِوالَ الوقت، ينطلقُ للطابق العاشر ثم يعود على الفور للطابق الأرضيّ وهكذا لعدّة مرّات على التوالي. كريستيان استقلّ المصعدَ وأخذ يصعد به إلى الأعلى ثمّ للأسفل، يا لها من ورطة، هذا هو الجنون بعينه.

قبل ساعات استجوبوني في مركز مكافحة الجريمة عن رجل العصابات ألكسندر بعد أن اغتيل أمام أنظار سيلفيا. والآن أجدُ نفسي أعايشُ حالة متقدّمة من الجنون. ليس من الممكن البقاء مكتوفَ اليدين حيالَ ما يدورُ أمامي. مصير هذا الشاب أصبح بالكامل رهن إرادتي، وجدتُ نفسي بين نارين، نار الغيرة ونار الشفقة. لن تبقى هنا يا كريستيان في هذه الحفرة الشبيهة بالقبر. خلال ثوان معدودة تمكّنت من الهبوط للطابق الأول، وقبل أن يضغط كريستيان على الزرّ الكهربائي ليصعد ثانية للطابق العاشر فتحتُ بابَ المصعد، كانت لديّ رغبة حقيقيّة بركله وضرب رأسه بجدران المصعد، كنتُ حانقًا للغاية. من الصعب جدًّا التعامل مع هذه الحالات، لأنّ المرءَ يجهل الخطوة التالية التي سيقوم بها المصاب. المعتوه غير مسؤول عن تصرّفاته، لكنّه يحيّرك ويربكك بقدرته على المبادرات غير المسئولية. كريستيان بدوره كان ينظر إليّ بعينين فرحتين، بدا العطفُ واضحًا في أعماق حدقتيه. لا يمكنني ضرب هذا المخلوق، هذا مستحيل.

- هيا يا كريستيان، ستأتي معي.
- أنا جائع يا نيكي.
- طبعًا، سنتناول الطعام يا صديقي. قلبي يتقطّعُ إربًا من موجة الشفقة التي ألّمت بي في تلك اللحظة. سارعنا للذهاب إلى أقرب مطعم للوجبات السريعة، قدّمتُ له قطعة كبيرة من فطائر الجبن وقطعة بيتسا وكأسًا من الشاي. قد يكونُ مجنونًا لكنّه أكل كلّ شيء بسرعة كبيرة، شهيته مدهشة. أعترف أنّني لم أشاهد أحدًا يتناول الطعام بهذه الشراهة، أعدتُ الكرّة وسارع هو بدوره بتنظيف الصحون، أشعل بعد ذلك سيجارة، عبّ طويلا

من دخانها ثمّ أطلقه سحابة من حولنا. خشيتُ أن يعود لعفر الرماد فوق رأسه، لهذا جذبته إلى الخارج.

- على مهلك يا نيكي، كلّ شيء في جسدي يؤلمني، أنا لست مجنونًا يا صديقي.

- بل أقسم بالله العظيم أن أرسلك إلى مستشفى المجانين في منطقة الكيلومتر الرابع، ليس لأنّي أريد التخلّص منك، بل لأنّي أخشى عليك من نفسك يا كريستيان. أشعر بآلامك وأعلمُ جيّدًا إنّ شياطينك قد تجمّعت بعد أن تحرّرت. شياطينُك لن تتوقّف عن تعذيبك يا فتى.

أجبرته على الدخول إلى عربة الأجرة الواقفة بالقرب، همستُ للسائق بالعنوان، كأنّي أخشى سماعه.

- إلى هناك مباشرة. قال سائق العربة ضاحكًا.

- نعم، إلى هناك.

نظرَ السائقُ إلى كريستيان بريبة، وانطلقَ مسرعًا إلى العنوان الذي يعرفه الجميع:- هل التدخين مسموح في العربة؟

- كلّنا مدخّنون في هذا البلد. بصقَ السائقُ من الشبّاك بعصبيّة. لم ينتظرْ كريستيان الإذنَ ليشعلَ سيجارته التالية، نظر إليّ، لاح على وجهه شبح ابتسامة.

- يلزمني بعضُ المال في المشفى يا نيكي، أنا لا أحمل أيّ نقود.

- لا بأس يا كريستيان، ستحصل على المال بالطبع. لكن ماذا تقصد بهناك؟

- أعرف جيّدًا وجهتنا.

- يمكننا إلغاء هذه الخطّة، ما زال أمامنا الوقت الكافي للعدول عنها، القرار يعود لك.

- لا عودة إلى الوراء، أنا بحاجة ماسّة لعناية طبيّة ورقابة متخصّصة، أنا مدين لك بالكثير. أعتذر عن كلّ ما بدر منّي.

عمّاذا يعتذر كريستيان؟ بودّي لو أتمكّن من قراءة أفكاره.

- أنت تدخّن بكثرة، تحرقُ ما يزيد على ثلاث علب يوميًا. أسنانك على وشك التساقط، فمك تحوّل إلى منفضة وكذلك رأسك، عدا عن إتلاف رئتيك يا صديقي.
- هل تعتقد أنّ الزمنَ قادر على قلب وجهته، لماذا لا تسير العجلة إلى الخلف؟
- ولم كلّ هذه الأسئلة الآن، أعتقد أنّ الزمن يسير في اتجاهٍ واحد، لا أظنّ أنّ هناك من يعترض على ذلك.
- لديّ في البيت ما يكفي من النقود. احضرْ لي القدر الذي تجده مناسبًا لفترة بقائي في المستشفى. احضرْ لي أيضًا بعضَ الملابس الداخليّة وقميصًا وبنطالا. كما ترى يا نيكي أصبحتْ حياتي بأكملها بين يديك، لا أرغب أن يعرف أحداً بما آلت إليه حالتي. دَعنا نقوم بما يلزم بهدوء. أشعر بالخجل من ذاتي.
- أوقف الحارسُ سيّارة الأجرة عند مدخل المستشفى. سألنا إذا ما كان لدينا موعد مسبق؟ سارعتُ بدفع ورقة ماليّة مقنعة، قادرة على فتح جميع الأبواب المغلقة.
- لا، ليس لدينا موعد مسبق. لكنّي على يقين من قدرتك على المساعدة، أليس كذلك؟
- طبعًا، طبعًا، انتظروا هنا من فضلكم. وضعَ الحارسُ المالَ في جيبه وانطلق مسرعًا فوق الدرج المؤدّي للطابق الثاني من المستشفى. عاد بعد عشر دقائق وقال لي غامزًا بأنّ الطبيب في الانتظار، تبعناه إلى حيث أشار.
- لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار أنّ الطبيب مشغول للغاية، سيستقبلكم خارج نطاق برنامج عمله. قال البوّاب الحارس بصوت خفيض.
- طبعًا سيحصل على ما يلزم مقابل عمله الإضافي.

عبرنا في رواق طويل قبل أن نصل إلى مكتب الطبيب في نهايته. أشار لنا البوّاب الحارس "مساعد الطبيب" بالجلوس أمام عيادة الطبيب والانتظار، ثم عاد لمكان عمله.

الرواق مكتظ، هناك العديد من الرجال الذين يقطعونه جيئة وذهابًا. جميعهم يرتدون البيجاما وسترات شتويّة قديمة مستهلكة. أحدُ النزلاء نشطًا للغاية، يهرولُ في الممرّ الطويل ويحدّث نفسه طِوالَ الوقت. أصغتُ السمعَ علّي ألتقطُ شيئًا من الكلمات المتناثرة من فمه، سمعتُه يقول "يمكنني القيام بذلك بشكلٍ أفضل، من المفروض أن أقصّ المزيد من شعره". أخذ النزيلُ يقلّد حركات قصّ الشعر، كأنّه مزيّن يقف خلف كرسيّ الحلاقة. عندما وصل لمحاذاتي التقت أعيننا وعندها سألتُهُ مباشرة:- شعر من زيّنت اليوم؟

- ماذا؟ غريب. ألا ترى بأنّي ما أزال مشغولا بقصّ شعره. لم أنته بعد، صدّقني. لكن هل من المعقول ألا تعرف الشخصية العظيمة التي تجلس على كرسيّ الحلاقة أمامي باستسلام واضح؟ إنّه نابليون، نابليون بونابرت يا رجل. أنظر إلى صورته المعلّقة فوق رأسك، منذ أن توقّف عن الحضور لصالوني بدا منظره قبيحًا ومرعبًا. غريبٌ أمرُ هذه الدنيا.
- أنت لستَ مذنبًا بالطبع.
- طبعًا، لا أتحمّل أية مسؤولية. لكن لا بدّ لي من قصّ المزيد من شعره، ضميري يؤنّبني ويدي تأكلني، أتحسّسُ من العمل الناقص يا رجل.
- مسؤوليّة من تتحمّل في هذه اللحظة؟
- لا أدري، لماذا تطرح عليّ كلّ هذه الأسئلة؟ مضى الرجل مهرولا وأخذ يردّد مقلّدًا صوت المقصّ تستستستس، وأضاف بعد ذلك:- سأجده أينما كان، واجبي يفرض عليّ ذلك. ثمّ دعانا الطبيب للدخول إلى غرفة العيادة.
- طاب نهارك يا حضرة الطبيب. نعتذر لعدم حضورنا دون اتّصال مسبق، لكنّ الأمر في غاية الأهميّة ولا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك.

- تفضّلوا لو سمحتم، اجلسوا، قال الطبيب مرحّبًا.

لن أنسى ما حييت هذا الطبيب الذي أصبحَ جزءًا من مستشفى الأمراض النفسيّة. كان قد قصّ شعره وبدا ما تبقّى منه كأشواكٍ نافرة في جميع الاتّجاهات، كأنّه أصيب بمسّ كهربائي.

- ما هي الحالة. لكن وقبل ذلك لا بدّ من التعريف بنفسي، أنا الدكتور تودوروف.
- أهلا بك دكتور تودوروف، أنا نيكولاي وهذا صديقي كريستيان، إيطاليّ ويحتاج لرعايتكم في المستشفى. كريستيان يعمل كمترجم من وإلى البلغارية والإيطالية.
- شاركتُ قبل أشهر في مؤتمر علمي في روما، نظر الطبيبُ إلى كريستيان وأضاف:- كريستيان، كيف حالك يا فتى؟ أتمنى ألا يكون مكانك هنا بيننا.

هزّ كريستيان رأسه وتابع صمته دون أن يعير الطبيب أدنى اهتمام. نظر الدكتور إليّ وقال:- نعم، تفضّل سيّد نيكولاي. ما الذي تشكو منه ولنبدأ من طفولتك؟

لم ادرِ ما أقول! لكنّي تنحنحتُ وقلت بعصبية:- لست أنا من يحتاج للمساعدة بلْ صديقي كريستيان يا دكتور.

- نعم. أعتذر، أراه لا يرغب بالحديث، لهذا أتمنّى أن تخبرني أنتَ بعضَ ما تعرف عن صديقك.
- باختصار كريستيان يعاني من أزمة نفسيّة بعد أن هجرته صديقته. أؤكّد لك إنّ العلاقة بينهما جدّيّة وليست عابرة، هجرتُهُ فجأة دون سابق إنذار يا دكتور، ومنذ ذلك الوقت حتّى اللحظة بقي كريستيان أسير الصمت وانغلق على نفسه، أخشى أن يؤذي نفسه في لحظة شجن جيّاشة.
- هل حاول ذلك حتى الآن؟

- ترك دلّة القهوة فوق النار لما يزيد على الساعة، ولولا تدخّلي في اللحظة الأخيرة لاندلع حريق في المنزل. ويدخّن بكثرة بمعدّل ثلاث علب في اليوم، أسنانه تكاد تتساقط وصحته في تدهور مستمرّ.
- هذا يكفي يا نيكولاي. توضّحت الصورة الآن، كريستيان..أرجو أن تجيبني لو سمحت على سؤال هام؟
- اسأل يا دكتور، قال كريستيان متنهدًا.
- دعنا ننسى بلغاريا، دعنا ننسى حكايتك مع هذه السيّدة التي هجرتك وهربت بعيدًا مع رجل آخر. لنعد لطفولتك، هل عشت طفولة سعيدة دون مشاكل وانعطافات حادّة؟ هل كان والداك متفاهمين، دون فضائح كلاسيكيّة وصراخ وشدّ شعر؟
- لا يا دكتور، لم تصل الأمور حدّ الفضائح، لأنّ والديّ انفصلا في صغري. تمامًا كما هو حال آلاف العائلات في أوروبا.
- اعتقد انّكَ قضيت طفولتك متنقّلا ما بين بيت والدك ووالدتك؟
- بعد سنتين من الطلاق هربتْ والدتي من المدينة واختفت نهائيًا، قضيتُ سنوات الطفولة والشباب في كنف والدي.
- هل تزوّج والدك مجدّدًا؟
- لا بالطبع! كان مثاليًّا إلى حدٍّ بعيد، قدّم الكثير من أجلي، كانت له علاقات عاطفية عابرة بين الحين والآخر، فهو رجل على أيّة حال.

فاجأني كريستيان برغبته الكبيرة بالبوح والتعبير عن نفسه. إذًا، حضورنا لهذا المستشفى مفيدٌ للغاية. لم أعرف بالطبع جميع هذه التفاصيل من حياة كريستيان، ولم تكن هذه التفاصيل تعني شيئًا لو ظهرت ضمن مقاييس زمنيّة مختلفة عن هذا الواقع. لأنّ العائلات التي تنفصل ويتشتّتُ أفرادُها في أوروبا تعدّ بالآلاف يوميًا. ينفصلان تاركين خلفهم أطفالا أبرياء، منقسمون في حبّهم وانتمائهم ما بين منزلَيْن وعالَمَيْن. كلّ هذا في جوّ مشحون بالخلافات والخيانات

المستمرّة والعلاقات القصيرة الأجل، لكن في لحظة ضعف مفاجئة، ينفجرُ الوعيُ ليُخْرِجَ إلى السطح سمومًا ومخلّفاتٍ من احتياطيّ الطفولة، ينفرطُ عقدُ الحياة حين تنفصم العقدة الضعيفة فيه.

حكّ الطبيب رأسه وقال:- يمكن بالطبع مساعدة كريستيان، لكنّي أشكّ بوجود حاجة للعلاج السريريّ. على أيّة حال، ليبقَ تحت المراقبة لعدّة أيام، سأصرف له مضادًا للاكتئاب وفيتامينات منشّطة في الوقت الراهن. لا بدّ من دفع ثمن العلاج يا سيّد نيكولاي، يمكنكم تعبئة النماذج المطلوبة في الغرفة المجاورة.

أدركتُ عندها بأنّي قد بعثتُ بكريستيان لمستشفى الأمراض النفسيّة والمتخلفين عقليًا، في محاولة منّي لحثّ كريستيان على إدراك جنونه بنفسه، ليرى بأمّ عينه معنى الجنون الحقيقي في كلّ ما حوله. هذا هو كنه الصراع المحتدم في ذات الإنسان عندما يجد نفسه على المحكّ. يخوضُ الإنسانُ معركة في كلّ لحظة لإثبات وجوده وسط دوّامة لا تنقطع. دوامةٌ تأبى التوقّف عن ابتلاع الضحايا ليل نهار. كنت واثقًا من قدرته على تجاوز هذه المحنة، لا بدّ يا صديقي من عبور هذا الممرّ الطويل المظلم. حافظ على ما تبقّى من وعيك وروحك، عدْ لنا سليمًا معافى، وعندها لكلّ حادثٍ حديث.

- كريستيان، حان الوقتُ لنفترق يا صديقي. موعدُنا يوم غدّ. أرجو أن تهتمّ بنفسك، إلى اللقاء يا عاشق.
- أنا أثق بك يا نيكي. نظر إليّ الفتى ببراءة، يستجدي العطف كعادته. كان قد تمكّن بشكلٍ ما من الحفاظ على الطفل في روحه رغم عبث الحياة.
- كريستيان، أنت في تلك الليلة؟ كنتُ أريد أن أسأله عمّا حدث بينه وبين ميلِنا، لكنّي وجدتُ تصرّفي أنانيًا للغاية وفي نهاية المطاف فضّلت الصمت. حرّكتُ يدي بشكلٍ عفويّ وكأنّ المجنون في تلك اللحظة هو أنا، قلتُ بعد ثوانٍ محاولا أن أبتسم:- ليس بالشيء المهم، لا داعي للقلق.

انطلقتُ مبتعدًا في الطريق الترابيّة الضيّقة التي تذكّر الزائر ببؤس المكان، لم تكن لديّ رغبة بالعودة إلى الحضارة. رغبتُ بالتسكّع طويلا في اللامكان وخارج الزمن. بدأت الأحداثُ تتسارع في حياتي منذ تلك اللحظة، مشيتُ ما يزيد على خمسة كيلومترات حتى وصلتُ إلى جسر النسور، رغم الهواء الشتويّ البارد وعلامات التعب والإرهاق التي ألّمت بي. توقّفتُ أخيرًا لنيل قسط من الراحة في أحد المقاهي. طلبتُ قهوة وقطعة كبيرة من الحلوى، تناولتُها على مهل. عدتُ بعد ذلك إلى منزل كريستيان، جلستُ قليلا على الكنبة المريحة في غرفة الجلوس، ثمّ تفقّدت جميع الأجهزة الكهربائيّة بما في ذلك الغسّالة والفرن وحنفيّات الماء وكلّ ما قد يتسبّب بفيضان أو حريق أو كارثة منزلية. وجدتُ النقودَ التي ذكرها كريستيان بسهولة، لم يكن المبلغ صغيرًا أبدًا. بضعةُ آلاف من الدولارات ومثلها من العملة المحليّة، خبّأتها جميعُها في جيبي الداخليّ، خشيتُ المضيّ في الشوارع بكلّ هذا المال. فكرتُ طويلا في هذا الشأن. قررتُ أخيرًا استئجار صندوق ائتمان في أقرب بنك لحفظ المال حتّى خروج كريستيان من المستشفى. أبقيتُ معي ما يقارب ألف ليفا ليستخدمها كريستيان خلال فترة علاجه. تركتُ ما تبقّى من المال في البنك العقاري. لم أكن أثق بأحد فيما يتعلّق بالمال ولا حتّى بنفسي، للحظة شعرت بأنّي قد أصبحتُ مسؤولا عن حياته ومستقبله، كأنّي قد أصبحت بمثابة والده.

كانت ميلِنا في انتظاري كأنّ شيئًا لم يحدث، سألتني مبتسمة:- كيف حالك يا نيكي، أين اختفيتَ طِوالَ النهار؟

- أشعرُ بالتعب الشديد يا ميلِنا، اضطررتُ لإرسال كريستيان لمستشفى الأمراض النفسيّة والعقليّة في الكيلومتر الرابع، خشيتُ أن يعرّض حياته للخطر. لم أشأ إخبارها بتفاصيل ما حدث في مركز مكافحة الجريمة، واغتيال ألكسندر. كانت لديّ رغبة كبيرة بالنوم فقط دون استجواب طويل قد يمتدّ حتّى ساعات الصباح الباكر.
- ميلِنا أنا بحاجة للنوم يا صغيرتي.

- لا بدّ أنّك جائعٌ أيضًا.
- جائعٌ للنوم، لكن يمكنني تناول بعض الطعام على عجل، ثمّ أختفي في السرير. كانت ميلِنا تعرفُ جيّدًا أقصر الطرق إلى قلبي، إنّها غواية الطعام. تناولتُ الكثير منه ثمّ خلعتُ ملابسي وغبتُ في نومٍ عميق، استمعتُ لصوت شخيري المزعج، تمنّيتُ الالتزام بنوم هادئ ليطول دون أن أزعج نفسي بنفسي ودون أن أزعج الآخرين من حولي أيضًا.

* * *

استيقظتُ في وقتٍ متأخر من نهار اليوم التالي، توقّعتُ أن تكون ميلِنا قد غادرت المنزل للعمل، لكنّها لم تغادر البيت، ستبقى طبعًا لأنّها حصلت على إجازة، كانت على ما يبدو راغبة بتصفية جميع حساباتها معي.

- ألم تذهبي للعمل؟
- صباح الخير يا حبيبي، علينا أن نبدأ نهارنا بتحية الحبّ يا نيكي.
- صباح الخير، فاجأتِني بتخلّفكِ عن العمل. هذا كلّ ما في الأمر.
- تعوّدتَ على غيابي؟ بدأ صوتُها يتغيّر تدريجيًا.
- أرجو ألا تكوني متعبة أو مريضة.
- بل لديّ رغبة برؤيتك بهدوء دون أن أحسب للوقت ألف حساب. دون أن أستعجل الذهاب إلى السوق أو العمل، لهذا طلبت إجازة ليومين.

لم أشعرْ بحاجة للتوحّد يومًا ما كما في ذلك النهار. خطّطتُ لمراجعة الرواية وتحديدًا بعض ما جاء في نهايتها. أرغبُ بقراءة الأحداث التي مرّت بحياتي مؤخرًا، أنا بحاجة للصمت، وآخر ما أحتاجه قضاء 24 ساعة متواصلة مع ميلِنا. لم يكن السبب في ذلك خروجها عن المألوف في علاقتنا العاطفيّة، ولا حتى تلك القصّة المختلقة مع كريستيان كما يبدو. أعتقدُ أنّ آخر ما كان يفكّر به كريستيان آنذاك هو الجنس وتحديدًا مع ميلِنا، لكنّها محاولة منها للضغط والتلاعب بعواطفي. حتى لو فعلت ذلك مع كريستيان فسأعتبره اغتصابا لشخصه تمامًا كما

قالت ميلِنا. سأحاولُ جاهدًا تناسيه في الوقت الراهن. الأحاديثُ السطحيّة والمشاكلُ اليوميّة ستتسبّب لي بصداع وربّما بجلطة دماغية أو بذبحة صدريّة أو بإسهالٍ عاطفيّ. دعيني اليوم وشأني يا ميلِنا، كفاني مشاحنات يا عزيزتي.

- أراك غير مسرور بإجازتي. قالت بحزن وبرود.
- لا أبدًا، ما رأيك لو نذهب إلى المسرح؟ مضى وقتٌ طويلٌ دون أن نشارك في الحياة الثقافيّة في صوفيا.
- المسرحُ العسكري؟
- أو مسرح صوفيا الصغير (خلف القناة)، يقدّمون أيضًا عروضًا قيّمة.
- أقترحُ أن نخرجَ قبل موعدِ بدءِ العروضِ المسرحيّة لتناول القهوة في أحد المقاهي ثم نختار ما نشاء بعد ذلك، عرضٌ جديدٌ مختلف. أرجو أن تسامِحْني يا نيكي لقد تفوّهت بالكثير من الكلام الفارغ، لم أكن قادرة على التحكّم بأعصابي. انفعالي قبيحٌ للغاية. أعترف بذلك.
- أرجوكِ يا ميلِنا لا أرغب بالتعليق على ما حدث، لا يهمّني كثيرًا ما تفعلينه بحياتك الخاصّة، أنتِ حرّة بجسدك.
- تقصد أنّ خيانتي لا تعني لك شيئًا؟
- لا يمكنني تغيير ما حدث. سيبقى الشكّ قائمًا يا صغيرتي. تعرفين هذا جيّدًا، لقد جرحتِ كرامَتي في العمق، لا أدري ما الذي أفعله في هذا البيت بعد.
- هل يعني هذا بأنّك ستهجرني؟
- من جهة أخرى أنت محقّة، بإمكاني العودة إلى أحضانك كلّ يوم، لكنّي لم أفعل ذلك، أتعرفين لماذا يا ميلِنا؟
- أنت بحاجة لهامش كبير من الحريّة.

- ليس هذا فحسب. يصعبُ عليّ شرح ذلك، هناك قدرٌ كبيرٌ من العنادِ الغبيّ أيضًا. قررتُ أنّ هذه الطريقة مناسبة لكلينا. نحنُ الرجالُ نفكّر بطريقة غريبة وخاطئة كذلك.
- سأحاولُ جاهدة أن أفهمك. أنا طالبة مجتهدة، استمرّ بحديثك يا نيكي، لنرَ نهاية هذه الإرهاصات الفكريّة التي تعاني منها. ربّما نصل إلى ما بعد النهاية. المهمّ أن نفعل ذلك معًا.
- هل هذه دعوة للزواج؟ سألتُها ساخرًا.
- وهل نسيتَ أنّك قد وضعت خاتمًا في إصبعي؟ فعلتُ ذلك منذ وقتٍ ليس بالبعيد، ما رأيك لو نحاول الابتعاد عن صوفيا لعدّة أيام؟ يمكنُنا الذهاب إلى البحر. يمكننا الذهاب لسوزوبوليس أو إلى نيسيبر. جميعها تطلّ على البحر الأسود. قرى في منتهى الجمال والشاعريّة يا حبيبي.
- الآن، في مثل هذا الوقت من السنة؟ نحن في عزّ الشتاء يا ميلِنا. أؤكد لك أنّ مياه البحر باردة للغاية.
- أعرف جيّدًا شدّة برودتها، لكن يمكنك في الشتاء أن ترى البحر من زاوية مختلفة. البحرُ في الشتاء ليس للعامة، يتحوّلُ إلى لغزٍ يصعب فهمه بسهولة، لا تخشَ برودة المياه لأنّنا لن نستحمّ فيه بالطبع. لكنّنا سنتمتّع بوحشةِ الصخورِ العارية وانكسار الموج العاصف فوقها. تصوّر أنّ الشاطئ بأكمله لحسابنا الخاص، لنا وحدنا. سنحتلّ أجمل الشقق بثمن رخيص. أنا صاحبة الدعوة يا حبيبي.
- سأفكّر بالأمر، الموضوعُ يستحقّ المغامرة. أتعرفين يا ميلِنا، لو جاءت دعوتك قبل عشر سنوات لقبلت على الفور. في الواقع، غالبًا ما كنت أسافر إلى البحر في الشتاء، بل كنت أستحمّ في مياهه الباردة. المياه الباردة تهدّئ الأعصاب إذا كان لديك ما يكفي من الجنون والجرأة للقيام بذلك. عندها تصبح الحياة

اليوميّة بجميع مشاكلها وإحداثياتها خلف ظهرك وأنت تتحدّين البحر. يصبح الذهن صافيًا وتسمو الروح فوق الجسد.

- هل كتبت أشعارًا هناك؟

- كان لدينا الكثير من المشاريع الأدبيّة، اعتقدنا بأنّنا قادرون على غزو العالم والسيطرة عليه بسهولة. واعتقدنا أيضًا بأنّنا على وشك رفع الجبال من أمكنتها الراسخة في باطن الأرض. نعم يا ميلِنا، كتبتُ الكثيرَ من الأشعار هناك. كنّا مجموعة من الشباب، نتجنّب إقامة علاقات طويلة الأمد مع الفتيات كيلا نتقيّد بشروط عاطفيّة، نذهبُ أحيانًا للشوارع الخارجيّة المؤدّية للمدن المختلفة لنوقف سيارة والسفر إلى مكانٍ ما. لم تكن الجهة مهمّة أبدًا، الإسفلت الأسود رفيقنا ودليلنا. نقطع مئات الكيلومترات خلال ساعات معدودة، وأحيانًا نقطع عشرة كيلومترات فقط في اليوم الواحد إذا خاننا الحظّ، نتوقّف عند المخابز الالكترونية الكبيرة والعمّال يقدّمون لنا الخبز عن طيب خاطر. هكذا استمرّ ضياعنا وتيهنا ورحلاتنا المتهورّة للتعرّف على الذات لأسابيع طويلة. لم نكن نضع خططًا مسبقة أبدًا. أين سنذهب؟ كيف ولماذا وأين سنبيت في أثناء الليل؟ كلّ هذا كان مرفوضًا لدينا. لكنّ الأمور الآن تغيّرت كثيرًا يا ميلِنا. أنا أعاني من ارتفاع في ضغط الدم، أخشى الإفلاس لأنّي سأجوع حتمًا. لن تقف لي عربة بهذه السهولة خوفًا من قطّاع الطرق ومن تبعات المغامرة. لم تعد المغامرة أمرًا مرغوبًا به. عندما يتجاوز المرء الثلاثين يبدأ بالبحث عن الاستقرار.

- عندها يصبح معنى للحياة الزوجية، أليس كذلك يا نيكي؟ أعتقد أنّ مفهوم الأطفال يصبح كذلك ضرورة. الحياة معادلة غريبة يا حبيبي.

- ألم تفكّرين بالأطفال يا ميلِنا؟

- كيف لا؟ في الواقع تسبّب العلاج الكيماوي بالكثير من التعقيدات لوظائفي الأنثويّة. غالبًا ما أحلم بالأمومة. كانت حزينة للغاية وشعرتُ بالعطف نحوها.
- ميلِنا، سأذهب لشراء بعض المشروب. ما رأيك؟
- كونياك، أريد أن أشرب كونياك، اشتري سجائري المفضّلة أرجوك.
- حسنًا، كونياك وسجائر.

وقفتُ عند مدخل المبنى لبضع دقائق. لم أفكّر بشيء على الإطلاق، شعرتُ بالصفاء الروحي وأنا أراقب حبيبات الثلج الصغيرة تتساقط من كبد السماء، تسقط بحريّة ولا تخضع سوى لقوانينها الطبيعيّة فقط. تسقط على الأرض بهدوء وصمت مطلق. بعد ساعات سيُفاجأ النائمون حين يستيقظون بهذا الحجم الكبير من الثلج المتراكم. هناك ليس بعيدًا شاهدت اثنين يتعانقان ويغيبان في قبلة قد لا تنتهي خلال الدقائق القليلة القادمة. ربّما كانا على وشك الوداع أم أنّهما التقيا للتوّ؟

في الجوار دكّان صغير لبيع المواد الغذائية، أكتشفتُ أنّ التسوّق من المحلات الكبيرة غير ممتع لأنّه يحرمني من التفاعل مع الآخرين، المحلاتُ التجاريّة الكبيرة تجبرك على اختيار ما تريد من احتياجاتك ثمّ التوجّه إلى الصندوق لتدفع بصمت ثمن ما اشتريت وتمضي. لكنّ التسوّق من الحوانيت الصغيرة يشعرك بعلامات الفرح والتعب والإرهاق والحزن المرسومة على وجه صاحب المحلّ أو البسطة، تحدّثه في الشؤون العامّة بينما تطلب حاجتك من على الرفوف خلف البائع، وإلى جانبه وأمامه. للأسف، قريبًا سيختفي عددٌ كبيرٌ من هؤلاء الباعة بعد عولمة الاقتصاد وظهور سلسلة عملاقة من الأسواق التجارية.

مضيتُ نحو الدكان لكن سرعان ما توقفتْ عربةُ أجرة إلى جانبي، أخرج السائق رأسه منها وسألني:- عفوًا، هل يمكنك أن تدلّني على هذا العنوان لو سمحت؟

في تلك اللحظة غادر رجل آخر العربة من الجانب الآخر ودار حولها، لم أعره أيّ انتباه وكانت رغبتي منصبّة في مساعدة السائق.

- أنا لا أعيش في هذا الحيّ لكن ما رقم المبنى الذي تبحثون عنه؟ لم أتمكن من إكمال عبارتي بعد أن شعرت بفوهّة مسدّس تحفر ظهري. قال الآخر الذي استدار من خلفي بخفّة:- ادخل السيّارة بهدوء إذا كنت تريد البقاء حيًّا يا نيكولاي، هيا بسرعة.

دفعني إلى داخل السيّارة لأجد نفسي بين وحشين بشريين. لم يكلّفوا أنفسهم بمجرّد النظر إلى وجهي كأنّهم ينقلون شوالًا من القمح أو العدس أو البصل، لكن المسدّس بقي موجّهًا إلى وجهي طِوالَ الوقت. أخيرًا اقتنعتُ بأنّي قد اختطفت. وبقيَ السؤالُ يطرحُ نفسه مجدّدًا: لماذا اختطفت؟ هؤلاء مجرمون وليسوا أتباع مركز مكافحة الجريمة، أنا إنسان عادي ولا علاقة لي بعالم المال والجريمة. لماذا يخطفوني وليس هناك من يدفع قرشًا لفديتي؟ بقيتُ أفكّر بكلّ هذا حين شعرت بالظلمة تحيط بي من كلّ جانب. وضعوا عصبة فوق عينيّ، لم أجرؤ على الرفض والتمرّد. شدّوا العصبة لدرجة شعرتُ بعينيّ على وشك الانفجار، ورغم طاعتي العمياء، تلقيت ضربة حادّة في معدتي، كانوا محترفين ويعرفون كيف يلكمون، شعرت أنّ معدتي قد انقلبت وتملّكتني رغبة بالتقيّؤ. الألم حادّ، كأنّهم بهذا أرادوا إرسال إشارة بعنوان "نحن هنا." ثمّ انطلقت العربة بسرعة كبيرة.

لا بدّ أنّ لهذا علاقة مباشرة باغتيال اللعين ألكسندر؟ هناك الكثير من الأسرار التي تحيط بهذا الرجل. أسرارٌ بات من الواضح أنّها ستدفن معه. هم يعرفون الكثير ولهم أعين في كلّ مكان، يعرفون جيّدًا أنّي قد زرت مركز مكافحة الجريمة، يعرفون كلّ كلمة تفوّهت بها هناك، حتى أنت يا رومن؟ ما هو ثمنك يا صديقي؟ بضعة آلاف أم جزء من الغنائم؟ كانت الأفكار تتلاطمني في تلك الرحلة المظلمة، شعرت بأنّنا قد دخلنا طريقًا وعرًا للغاية، رائحةُ الهواء تشير إلى دخولنا لدغل أو لغابة. الطريق سيّئ والسيارة تتأرجح ذات اليمين واليسار. لا بدّ

أنّهم سيقتادوني لمكان مقفر كي يتمكّنوا من القيام بالتحقيق والتعذيب وربّما القتل أيضًا على طريقتهم الخاصّة.

قذفوني من العربة، خلتُ أنّي سأطير قبل أن أطأ على الأرض. بقيت مطروحًا لأتجنّب ركلة جديدة من مضيفيّ الكثر، أمسكوني من شعري وأوقفوني بسهولة. شعرت بفروة رأسي على وشك الانسلاخ، سالت الدموع سخيّة من شدّة الألم.

جرّوني بسهولة، لم أظهر أية مقاومة لتجنب لكمات وضربات عابرة وخارقة للجسد، في أثناء ذلك كانت العصبة ما زالت موضوعة على عينيّ. كنت أسقط على وجهي في الوحل ثمّ أقف على قدميّ محاولا السير إلى الأمام، لم تكن يداي مكبّلتين، لكنّي لم أحاول نزع العصبة عن عينيّ، وهذا لا يمنع من محاولتي لاحقًا. يريد الخاطفون أن أدرك مدى سلطتهم وسيطرتهم ونفوذهم الكبير. حسنًا، ليكن لهم هذا الآن. الألم لا يطاق، أشعر بالحنق والغضب والكراهية لضعفي وشعوري بالمهانة. كيف يمكن أن تتمّ عملية خطف مواطن في وضح النهار دون خوفٍ من عقاب.

انتصرَ منطقُ العضلات. من العبث التحدّث عن الرحمة والرأفة وحقوق الإنسان وما شابه ذلك في ظلّ قانون الغابة هذا. إذا تخطّى المواطن الخطوط الحمراء لا يلوم سوى نفسه حتّى وإن كان عابر سبيل، وليس له من الناقة سوى رسن.

- تحرّك يا منحط، تحرّك. زمجر أحدهم في أذني.

كلّ هذا مجرّد مقبّلات بالطبع. أمّا الوجبة الأساسية فهي على بعد دقائق وأمتار. رموا جسدي المنهك في غرفة ضيّقة، ورغم الجوّ البارد إلا أن أجواء الغرفة كانت خانقة، كما هاجمت حواسّي روائحُ أطعمة فاسدة. يبدو أنّهم يتخلّصون من النفايات في هذا المكان. أبعدتُ العصبة عن عينيّ، كانت مبتلّة بالعرق والدمّ الذي سال من جرح في حاجبي. الجوعُ يهرسُ معدتي، لكنّ القرف والغثيان سيطرا على

هاجس الجوع. ازدادت رغبتي بالتقيّؤ في هذا الجحر، وازدادت حدّة الرائحة الكريهة النتنة أيضًا، قد تكون حواسي مستثارة أكثر من اللازم، تحسّستُ رأسي وتيّقنت من وجود ورم. حاولتُ دعكَ المكان المتورّم لأتجنّب ازدياد حجمه ولأحرّك الدم في تلك المنطقة. لكنّي سرعان ما أحجمت عن ذلك بعد أن شعرت بوطأة الألم تزداد. كان رأسي قد ارتطم بحجر صلد أثناء سقوطي على الأرض بين أشجار الغابة.

- سأقاوم حتى النهاية، لن أستسلم بهذه السهولة. كنت مصمّمًا على الحفاظ على حياتي أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

* * *

تمكنتُ من الانتصار على الألم والشعور بالبرد الشديد الذي حلّ ضيفًا في ذلك الجحر. فتّشتُ المكان بحذرٍ وتأنّي، رغبة منّي معرفة كافّة تفاصيل المكان والاهتداء لقطعة معدنية أو خشبيةٍ قد تفيدني فيما بعد في محاولتي للهرب. ضربتُ الباب الخارجيّ للغرفة وتيّقنت بأنّ كتفي ستخلع قبله، لذا توقّفت عن تلك المحاولات الغبيّة. هذا مضيعة للوقت وضربٌ من المستحيل. نعم، لا بدّ من ملاقاة جلادي بعد قليل، يبدو أنّهم كانوا بانتظار شخصيّة مهمّة للتحقيق معي.

- قِفْ يا كلب. أتبعوا هذه العبارة بركلة قويّة.

توجّهنا للطابق الثاني من المنزل الكبير المنعزل في الغابة، أدخلوني بعد ذلك لغرفة مجهّزة بكلّ متطلبات العصر من حاسوب وهواتف وأجهزة تسجيل وبار. من الواضح أنّ الشخص الذي يعيش في هذا البيت غير راضٍ عن تصرّفاتي. طلبوا منّي الجلوس على كنبة عريضة، جلستُ بالطبع على طرفها كيلا يلحظني أحد. شعرتُ بالاسترخاء، كنت على استعداد للنوم في الحال حين دخل أخيرًا سعادته، زعيم العصابة المنتظر. رجلٌ طويل وقويّ البنية، لكنّ جسده ليس منفوخًا كباقي المصارعين الذين ينجزون المهمات القذرة في هذا النمط من العصابات. لاحت على وجهه شبح ابتسامة متهكّمة مرسومة بعناية. غاصت

نظراته في جميع أنحاء جسدي، قاسي بكلّ المعايير الممكنة. لهذا الشخص على ما يبدو حضورٌ ثقيلٌ للغاية. وعليّ أن أستعيد رباطة جأشي لأتمكّن من التعامل مع هذا الوحش ببنطال وقميص.

- أنت تعرفُ جيّدًا سبب إحضارك إلى هنا؟
- لديّ رجاء قبل ذلك لو سمحت، طلب إنسانيّ لا يحتمل الانتظار.
- تحدّث.
- مثانتي ستنفجر في أيّة لحظة، رموني في غرفة باردة فترة طويلة من الزمن، أرجوك، الألم يعصر كافّة أنحاء جسدي. دعوني أذهب لدورة المياه قبل أن أفعلها في ملابسي.

بقي يراقبني. ظننتُ بأنّه على وشك إطلاق الرصاص في وجهي. لكنّه عوضًا عن ذلك ابتسم وصفّق بيديه، دخل إلى الغرفة الرجلان الحديديّان وقال لهما بامتعاض واضح:- دعوه يذهب إلى دورة المياه واحضروا له قهوة بعد ذلك، بسرعة.

بوّلتُ طويلا، كيف يمكن للإنسان أن يخزّن هذا الكمّ الكبير من السوائل؟ شعرتُ براحة كبيرة بعد ذلك، لم أصدّق نفسي. غسلتُ يديّ ووجهي وعدتُ لوعيي ثانية. "أخطأتَ يا زعيم، لو كنتُ مكانك لما سمحت لغريمي أن يتحرّر من قيوده الفسيولوجية. كنت سأتركه مرتبكًا قلقًا، لن أسمح له بهذا القدر من الإنسانيّة حتى أحقّق غايتي. عدا عن كلّ هذا سيقدّمون لي القهوة". لم أحاول غسل الدم المتخثّر على رأسي وحاجبي. كان من المستبعد بالطبع أن أحرّك لديه المزيد من مشاعر الرحمة والرأفة، لكنّه سيدركُ على الأقل أنّ ضباعَه البشريّة قامت باللازم، ولا توجد حاجة لمزيد من الضرب. عدتُ للغرفة وكان في انتظاري فنجان قهوة حقيقيّ. شربتُ القليل ونظرتُ للزعيم المفوّض أمامي.

- ما الذي اعترفتَ به أمام المحققين؟ بدأ الحديث مباشرة في صلب الموضوع.

بإمكاني التلاعب معه كأنّنا أمام رقعة شطرنج، لهذا قررت البدء بعيدًا عن الموضوع.

- المحقّقون، قاموا باختطافي هم أيضًا، وجدوا صوري في ألبوم المغدور. يعرفون جيّدًا أنّي أزوره بين الحين والآخر. أنا واحد من مجموعة كبيرة تُسرّ لزيارته والمشاركة في حفلاته.
- حسنًا، سؤالي واضح، ما الذي قلته أمام المحققين؟ أجبْ باختصار.
- سألوني عن المخدّرات التي يتاجر بها ألكسندر، وإذا ما كنت أعرف شيئًا عن صفقاته المريبة.
- وأنت، بمَ أجبْت؟
- قلت ما يعرفه الكثيرون، أخبرتهم إنّ ألكسندر يحتفظ بجزء من المخدّرات في أطر اللوحات المعلّقة على جدران منزله.
- كذبتُ حين قلت إنّ الكثيرين يعرفون هذه الحقيقة. لا أعتقدّ أنّ أحدًا انتبه لهذا الواقع عدا عن المتورطين في هذه التجارة والمقرّبين من ألكسندر.
- هل سألوك عن قضايا أخرى؟
- نعم، سألوني عن أسماء روّاد المكان.
- يهمّنا معرفتهم، تحدّث..أخبرنا بالأسماء التي تعرفها.
- أذهب لدراغاليفسكي مع صديقتي، تعرفت عليها في الواقع هناك. أعرف كذلك الإيطالي كريستيان، هو على أيّة حال غير قادر على تحريك أنملة، يبدو أنّه قد جنّ تمامًا ويتواجد حاليًا في مستشفى الأمراض العقلية في ضاحية الكيلومتر الرابع. أصيب بلوثة حين خانته سيلفيا، خانته مع ألكسندر وغادرت البلاد برفقته، لم أشاهدها منذ أن افترقا. أعتقدُ أنّكم تعرفون أفضل منّي مصير سيلفيا، هذا بخصوص الأسماء.
- وماذا أيضًا؟

- لا شيء سوى هذا. يمكنكم ضربي حتّى العام المقبل، لكنّي لا أعرف سوى ما ذكرت. لا توجد إمكانيّة لمعرفة المزيد. ساشو اهتمّ بي كثيرًا لكنّه كان حذرًا للغاية في القضايا المهنيّة. حافظ على مسافة محدّدة يصعب تخطّيها مع المعارف والضيوف. أنا مجرّد كاتب وساشو يحبّ مساعدة الأدباء والفنانين، قبل أن..

خيّم صمت قاتلٌ على المكان استمرّ حوالي خمس دقائق كاملة حسبتُها الدهر كلّه. كان يقيسني ويكيلني بعينيه، تفحّصني من رأسي حتى أخمص قدمي، احتقرني لكنّي مع ذلك، شعرتُ أنّه آسفٌ على الوقت الذي أضاعه برفقتي. لا أدري ما كان يتوقّعه من مواطن عاديّ مثلي. أخيرًا خرق حاجز الصمت المضني وقال:- أنت لم تكن في هذا المكان أبدًا، انسَ بأنّك زرته، هل هذا مفهوم؟ اغرب عن وجهي الآن يا فتى. ابتعد عن هذا المكان.

هذا أقصى ما أحلم به، سررتُ لأنّهم لم يطلبوا منّي التعامل معهم لإنجاز بعض المهمّات. اقتنعوا أنّ وجودي على وجه الخليقة غير مهمّ كأنّي حشرة لا تستحقّ الدوس بالأقدام. كان عليّ أن أتحمّل العصبة المقيتة على عينيّ مجدّدًا. تذكّرني العصبة بجريتي، مضى ما يقارب 24 ساعة منذ اختطافي، يصعب عليّ تحديد الوقت بدقّة، لأنّي أمضيتُ معظم الوقت ملقىً في ذلك الجحر القميء المظلم.

رموني من العربة ليس بعيدًا عن الطريق الدائريّ المؤدّي لمركز المدينة، وسرعان ما ابتعدت العربة عن الأنظار بسرعة كبيرة كالعادة. عربة صغيرة على ما يبدو، ربّما استخدموا سيارة غولف المعروفة بمرونتها وقدرتها على رفع سرعتها خلال ثوانٍ محدودة. ملأتُ رئتيّ عميقًا بالهواء الطلق، أبعدتُ العصبة السوداء المقيتة عن عينيّ وتفحّصت المكان من حولي، ما أجمل الحرية، أخذ حضوري ووعيي وتوازني يعاودني تدريجيًا. الهواء نقيٌ في هذا المكان القابع على حدود المدينة. أدركتُ في تلك اللحظة تمامًا ما أريده كحدّ السيف. بدأت الحياة تأخذ بعدًا آخر، يبدو أنّ الإنسان يشعر بقيمة الحياة الحقيقيّة حين يوشك على مفارقتها.

أشعرُ الآن بمعنى الحريّة من الناحية البيولوجيّة، لأنّ انعكاسها على جسدي بدا واضح ومختلف عن أيّ شعورٍ إنسانيّ سابق. نجحتُ إذًا بالحفاظ على حياتي بعد أن تعرضتُ للاختطاف في مركز العاصمة صوفيا. ضُرِبْتُ وأُهِنْتُ دون ذنب أو سبب مقنع، لكن هذا هو ثمن تواجدي في أفق رجل ثَريّ جمع ماله بطرق مريبة، مع أنّ هذا السلوك بات مألوفًا في بلغاريا، وتكاد هذه التصرفات أن تصبح جزءًا من يوميّات الحياة، فرجال العصابات يعتبرون أنفسهم فوق القانون. طبعًا من الممكن اختفاء المُخْتَطَفْ بفتح الطاء إلى الأبد، لكنّي نجوت.

مشيتُ على الطريق الرئيسيّ لنصف ساعة تقريبًا، حتى وصّلت لأقرب محطة للحافلات العامّة. جلستُ تحت المظلة البلاستيكيّة في انتظار قدوم الحافلة، نظرتُ إلى السماء، النجومُ تلمع غامزة، يصعب مشاهدة هذا المنظر من مركز المدينة حيث الدخان الأزرق المتصاعد من عوادم العربات والازدحام والضجيج والسرعة في إنجاز كلّ شيء. يندرُ أن ننظرَ إلى السماء في عجالة الحياة، لكنّي امتلكتُ في تلك اللحظة الدهر كلّه. أخذت الرياحُ تحرّك بعض الغيوم المتراكمة وسرعان ما تشكّلت وجوهٌ وإحداثياتٌ متغيّرة لأجساد أسطوريّة ورؤوسٌ بقرون وأفواهٌ تطلق ألسنة من النار، استمرّ هذا التوحّد حتى وصلت الحافلة.

وقفت الحافلة بجلبة عند المحطّة المخصّصة، يبدو أنّ اسطوانات الكوابح مستنفذة وتحتاج للتغيير. صعدتُ واشتريت تذكرة من السائق. جفلَ الرجلُ حين شاهدني لكنّه باعني التذكرة وسارع بإغلاق الباب الذي يفصله عن الركّاب. خرقتُ التذكرة في الجهاز المخصّص وجلستُ في أحد المقاعد الخلفيّة. شعرتُ بأنّي على وشك الإغراق في النوم، لكنّي تركت إحدى عينيّ نصف مغمضة تحسّبًا لمفاجآت أخرى قد يخفيها القدر. قادَ السائقُ الحافلة بسرعة غريبة كأنّه يبحث عن ركابٍ آخرين سواي، كان على يقين بأنّي خارج على القانون، أخيرًا حصل على ضالته، بدأت الحافلة تمتلئ بالركاب، وبدوتُ بينهم شخصًا عاديًا غير مميّز وسط الزحام. تذكرتُ أموال كريستيان، بالكاد أمسكتُ نفسي عن الضحك، كيلا يظنّوني مجنونًا. كنتُ قد وضعتُ النقود في خزينة في البنك العقاري قبل

الاختطاف بساعاتٍ معدودة فقط. تحسّستُ جيبي الداخلي، الألفُ ليفا ما زالت هناك، وعليّ تسليمها لكريستيان في أقرب وقت ممكن. ربّما نسوا تفتيشي في ذلك الجحر، أم أنّ نقود الجيب لا تهمّهم كثيرًا، حتّى وإن وجدوا هذا المبلغ في جيبي فهو عمليًا لا يعني شيئًا مقارنة بالأموال والأرباح التي يدرّونها من تجارة المخدّرات وكلّ ما هو ممنوع.

كنّا قد وصلنا إلى مركز المدينة منذ وقتٍ بعيد، بدا لي المكان الذي توقّفت عنده الحافلة مألوفًا، عندها قررت مغادرتها، تسمّرتُ في مكاني لعشر دقائق دون حراك، هناك شيءٌ ما في هذا المحيط، الذي ما يزال يبدو مألوفًا وغريبًا، كأنّي فقدت جزءًا من ذاكرتي، هاجمتني ذكرياتٌ كثيرة، كأنّها استردّت عافيتها على حين غفلة، أدركتُ أخيرًا ما يربطني بالمكان، تمكّنت الذكرياتُ من الاصطفافِ لتشكّل من هذا المكان الحكاية، حكايتي.

يا لسخرية القدر، ألقيتُ في هذه الحاوية تحديدًا مفتاح منزل تانيا التي أصبحت هي الأخرى مجرّد طيف وذكرى عابرة. حاويةُ القمامة بعثت لحواسي رائحة امرأة ربّما ما زالت متعلّقة بي، متعلّقة بألمها وغرامها وتوقها لإنهاء قصّة حبّ ليست عابرة في حياتها. المعذرة يا تانيا، لم أتمكّن من إنهاء الحكاية، قطعتُها قبل أن تصل أوجها وحاوية القمامة أكبر دليل على أنانيّتي وقسوتي، في هذا المجمّع القذر تخلّصت من ضحكاتك وحضنك الدافئ وحبّك. المشكلة ليست في ضعفك، لا أبدًا، المشكلة تكمن هنا في قلبي ووعيي.

المقهى الذي تعمل فيه كاتيا ليس بعيدًا. أخيرًا خفق قلبي، لمع نجمُ كاتيا، ظهرت هذه المرأة في أفقي مجدّدًا كصرحٍ عملاق في حاضري ومستقبلي القريب وعلى بعد خطوات منّي. بإمكاني أن أعشق هذه المرأة دون تحفّظ وإلى ما لا نهاية. لم يكن هذا الشعور جديدًا بالطبع، لكنّي طِوالَ الوقت حاصرته وحظرته وخنقته بحجّة حرصي على حريّتي واستقلالي. هل يوجد إنسان حرّ بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى؟ غالبًا ما تكون الحريّة عبئًا وقيودًا قادرة بشكلٍ ما أن تحرّر قلب الرجل من مسؤولياته الثقيلة.

الطريقُ نحو منزل تانيا بات في عالم النسيان رغم أنّها تعيش على بعد خطوات. لكنّي وفي هذه اللحظة، لا أرى سوى طيف كاتيا في كلّ مكان من حولي، أراها وهي تعتذر قائلة: "نيكي، أنا لا أملك أيّة نقود، صدّقني. لا تحمّل الفاتورة أكثر من طاقتها"، وكانت تغضّ النظر إلى أخمص قدميها خجلا بعد ذلك. الإنسان سخيّ حين يقدّم آخر ملّيم يملكه في جيبه، من السهل أن تقدّم الآلاف حين تملك الملايين. كاتيا من النوع الأول. معدنها كريم، كاتيا قادرة على تقديم كلّ ما تملك من أجل من تحبّ، لكنّ هل أستحقّ أنا حقيقة كلّ هذا السخاء؟

قبل التفكير بلقاء كاتيا كان عليّ أن أجري مكالمة هامّة للغاية، لا بدّ من توضيح بعض الأمور لميلنا التي تشعر دون شكّ بقلق شديد إثر اختفائي المفاجئ. ولولا الاختطاف، لما وقفتُ الآن على بعد خطوتين من كاتيا التي تملك القدرة على حجب كلّ نساء الدنيا عنّي. تحيا الجريمة، إذا كانت هي ثمن عبوري إلى عالم كاتيا، يمكنكم خطفي ثانية وثالثة.

- مرحبًا ميلِنا..لماذا كلّ هذا الصمت؟
- آلو، أهذا أنت يا نيكي، يلعن كسّ أمك عاهرة يا ابن القحبة.
- لديّ ما يكفي من الأعذار يا عزيزتي، كنت..
- الموتُ فقط هو العذر الوحيد الذي يمكنه أن يشفع لاختفائك المفاجئ هذا.
- نعم يا ميلِنا، كنتُ بمحاذاة الموت طوال فترة غيابي.
- ماذا تريد يا نيكي؟ لقد تعبت من الجري خلفك.
- لماذا تجرين خلفي يا ميلِنا، الحبّ ليس ملاحقة. لديّ حقيقة أسبابي الخاصة التي توضّح أسباب غيابي، لم أحاول الهرب منك. ما رأيك لو نلتقي لبعض الوقت لتوضيح هذه الأمور؟

سمعتُها تبكي عبر سمّاعة الهاتف، تبكي بحرقة من جوّانية قلبها، وصوتها يرتجف. قالت أخيرًا:- أنا لم أخنك مع كريستيان أو غيره من الرجال يا نيكي.

أقسم لك بأنّي لم أفعل شيئًا من هذا القبيل. أردت فقط إغاظتك وإستثارة غيرتك.

- لم يعد هذا مهمًّا الآن، أحيانًا يصبح التفكير بالخيانة أقسى من ممارستها.
- نعم، لقد أخطأت بحقّك، كذبت عليك، ما قمت به بشعٌ وغير مبرّر. اعتذر..
- لا يمكننا طوال الوقت أن نعيش بقلق وتوتّر دائم، من المستحيل أن تكسبي رجلا بهذه الطريقة يا ميلِنا، فما بالك بامتلاكه وتعليبه في شقّة، أنتِ أنانية جدًّا في هذه العلاقة.
- مع كلّ هذا، أكرّر سؤالي، هل ستحضر إلى طرفي؟
- نعم سأحضر، لكن ليس اليوم، لدي رغبة بالانفراد بنفسي. في الواقع أحتاج لعلاج، لا أرغب أن يراني أحد وأنا على هذه الحالة. قد أذهب للطبيب.
- أخبرني أرجوك، ما الذي حدث؟ أشعر بالقلق؟ هل الموضوع خطير إلى هذا الحدّ؟
- لا، ليس بالأمر الخطير. تورّم في بعض الأماكن وخدوش وجروح سطحية. حكاية في منتهى الغباء، قد أقصّها عليك لاحقًا. سأراك في الغدّ، تصبحين على خير يا عزيزتي.
- هل أنت متأكد بأنك بخير؟
- تصبحين على خير.

أغلقتُ سمّاعة الهاتف وانطلقت تجاه المقهى، هناك حيث عالم كاتيا الجميل. كنت توّاقًا لرؤيتها في هذه اللحظة بالذات. في الواقع أنا لا أثق بامرأة تستمرّ بتكرار كلمة صدّقني، يصعب استجداء الثقة، لأنّها كالهرم، يُبْنى بصعوبة. قد أكون رجلا صعب المراس، لكنّي لن أتغيّر. ورغم كلّ هذه المشاعر المتباينة، لم أتمكن من التخلّص من عقدة الذنب، علاقتي بميلِنا توطّدت منذ وقتٍ قريب. لا أدري ما السبب الذي دفعني لوضع خاتم الخطوبة في إصبعها. أبدو غبيًا أحيانًا. هذه الخطوة تحتمل الكثير من الدلالات، ربّما رغبة منّي برؤية ذاتي الأخرى عبر

ميلِنا القويّة والعاطفية، كما إن رغبتها بالتملّك لا تقلّ عن رغبتي، كانت ميلِنا تتجوّل وتكتشف بسرعة ونجاح دهاليز حياتي، لكنّها أقدمت على خطوة مفاجئة بهدف صعقي وتجريدي من قدراتي الدفاعيّة أمامها. كانت تهدف لأن أركض لاهثًا خلف ظلّها. يقولون أنّ الشكّ يستثير العواطف. نعم، هذا صحيح، لكنّه يقتل الحبّ كذلك.

وقفتُ طويلا قِبالة المقهى، كأنّي أصبتُ بالشلل. ربّما حسبني البعض مدمنَ مخدّرات. لم تكن لديّ رغبة باقتحام عالم امرأة أخرى في هذه السرعة، وكأنّي أكذب على نفسي وأسخر من ذاتي، كنتُ أرغبُ أن أقول لنيكي الذي يقبع في داخلي "أخرس، أنت كاذب، لا يوجد هناك ما يمنعك من دخول المقهى ولا حتّى الموت".

- عفوًا، أبحث عن كاتيا؟

- كاتيا غادرت قبل قليل. ستحضر للعمل بعد يومين.

لا، هذا غير صحيح. بل موجودة، وأشتمّ رائحتها في كلّ مكان. استدرتُ مغادرًا المقهى على عجل. قفزتُ مسرعًا لأجد نفسي بعد لحظات على الرصيف الآخر. كانت كاتيا تقف هناك، تحدّق بي وتراقبني منذ وقتٍ ليس بالقصير. أمسكتُ بأصابع يديها، لم أكن في تلك اللحظة قادرًا على قراءة تقاطيع وجهها. رغبتي الوحيدة تركّزت بالتوحّد معها. كاتيا تجذبني كالمغناطيس، لم أفكّر وقتها بعواقب خطواتي، لأنّي كنت مندفعًا بوعي نحو قدري. تركتُ نفسي للتيار يلطمني ويقذفني كيفما شاء.

- كاتيا، مضى وقتٌ طويل قبل أن..

- أن تحضر متأخرًا خيرٌ من أن لا تحضر أبدًا. تحسّسَتْ وجهي بأطرافِ أصابعها وهمست:- لماذا سمحتَ لهم بتجميل وجهك يا نيكي؟ أنت بحاجة لعناية طبّية فائقة يا صغيري.

- أنا بحاجة لأكثر من ذلك يا كاتيا.

– أتأتي معي؟ يجب تنظيف جراحك. لا بدّ من إعادة بنائك ثانية، يبدو أنّنا أضعنا الكثير من الوقت. أمسكتُ يديها ثانية كأنّي أخشى فقدها. تحسّستُ وجهَها وشعرَها وضممتها إلى صدري.

– أفتقدُك حدّ الألم يا كاتيا.

– أشعر بقلبك يخفق يا مجنون. نيكي، تكاد تكسر أصابع يدي.

كنتُ أمسكُ بها بكلّ ما أوتيت من قوّة، لم ألاحظ بأنّي أتسبّب لها بالأذى، سارعنا بإيقاف عربة أجرة لتقلّنا إلى عشّها الذي أعرف كلّ زاوية فيه. أحضرتْ كاتيا وعاءً صغيرًا وماءً مغليًّا وبعضَ الكحول الطبيّ وبدأت بتنظيف جراحي السطحيّة، استخدَمَتْ بعض اليود ووضعت لصقة على حاجبي، أزالت الدماء المتخثّرة، تمنّيتُ أن تستمرّ هذه اللحظات إلى ما لا نهاية، رغم مشاعر الألم التي تراودني بين الحين والآخر، كانت كاتيا في تلك اللحظة ملاكي وحارسي. تعالج في الوقت نفسه جراح جسدي وروحي.

– غدًا لا بدّ لي من الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية والنفسية في ضاحية الكيلومتر الرابع. ربّما عليّ الذهاب إلى هناك الآن، لكنّي لست متأكّدًا من تمكّني من الدخول.

– تزور مَن هناك؟

– صديقي كريستيان، تذكرينه أليس كذلك؟

– نعم، الفتى المغرم بتلك الحرباء.

– نعم، تمكّنت الحرباء من إدخاله إلى هناك.

– وكيف فعلتْ ذلك؟

– هجرته بكلّ بساطة ودون سابق إنذار.

– ما زال الرومنسيون يعيشون على وجه هذه الخليقة، يصعب تصديق ذلك.

– لا، ليسوا رومانسيين بل مجانين يا عزيزتي.

- غدًا إجازتي، يمكنني الحضور معك إذا أردت ذلك؟
- لا، لن أدعك تذهبين خلال يوم عطلتك إلى مستشفى للأمراض العقليّة والنفسيّة. ابقِ في البيت، لن أتأخر كثيرًا عند كريستيان. هناك قضايا أخرى لا بدّ من إنجازها. وضعت كاتيا يدها على فمي وقالت:- اخرس، لا يهمّني الآن الغد وبعده.

جلستْ في حضني وضمّت رأسي إلى صدرها بقوّة، نظرتْ إليّ بعينين قلقتين، بدأت المسافة بين شفاهنا تقصر، شعرتُ أنّهما متوازيان يلتقيان في نقطة ما في الأبديّة، أبدية تحلّ بعد ثوانٍ معدودة. ارتجفت شفاهنا في انتظار توحّد روحين.

حان وقتُ الأبديّة، ذابت الشفاه في قبلة طويلة. لا، ليست عنيفة، بل تلامس عفويّ، للمرّة الأولى لم أفكّر بالجنس وبين أحضاني امرأة تتفجّر عنفوانًا وأنوثة، تجاربي السابقة كانت تنتهي خلال دقائق ما بين عناق ونزع وارتداء للملابس. أذهب للاغتسال ثمّ اجلس لمشاهدة أحد برامج التلفزة المملّة. لكن ليس مع كاتيا، كأنّي أمسكُ بين يديّ أيقونة أخشى تدنيسها. كاتيا امرأة رُسمتْ بحروفٍ من ذهب، وأنا على استعداد للرحيل معها لأبعاد جديدة في آفاق الإرادة والتحليق. تمنّيتُ لو أتمكّن من تحنيط اللحظة إلى الأبد، وطبعتْ ذكرى القبلة عميقًا في ذاكرتي المشروخة.

- ماذا هناك يا نيكي؟ لماذا تبكي؟
- أرجوك يا كاتيا، لا تنسِ هذه اللحظة ما حيينا.

عندها قبّلتْ عينيّ الرطبتين وشدّتني من يدي، الطريقُ إلى فراشِها مزروعٌ بالورود. أخذت أظافر يدها تحفرُ ظهري حين دخلتها، أنّت في أذني مردّدة اسمي. شعرتُ بقطرات دم تسيل على ظهري. عندها قذفتُ جيناتي في أعماق أسرارها وسالت روحي في داخل أنوثتها.

- أنت تقتليني يا كاتيا، لم تراودني مشاعر شبيهة بهذه يا مجنونة. أعتقدتُ حتّى اللحظة بأنّي أعرف المرأة لكنّك أثبتّ مدى جهلي.

- أنت تستحقّ الموت بين يديّ، إذا وعدتني أن تبقى مطيعًا فسأعمل على قتلك كلّ ليلة، ما رأيك؟
- انتبهي يا كاتيا ليس لديّ الكثير من الدماء، لكنّي على أيّة حال سأقبل بعرضك السخيّ هذا.

عندما دخلت للاستحمام شعرت بأنّي قد انتهيت للتوّ من سباق للماراتون، شعرتُ بالضعف يهاجم جسدي المنهك، استرخيتُ تحت دفق المياه الساخنة، أخذ الضباب يهاجم عينيّ. لم يكن لديّ مانع إذا كان الموت قد قرّر طرق أبوابي في تلك اللحظة، كنت على استعداد لاستقبال كافّة المفاجآت، لأنّ ما أمرّ به غير قابل للتكرار في المستقبل.

ما إن وضعتُ رأسي على الوسادة، حتى نمتُ على الفور، لم أحاول مقاومة ملاك النوم، كأنّي حجرٌ سقط من ارتفاعٍ شاهق، لم يكن أمامي خيارٌ سوى السقوط في هوّة الأحلام السحيقة. كنت متأكّدًا من أن الأحلام ستجافيني تلك الليلة وأنا الذي أحلم حتى وإن نمت لدقائق. وما زلت أتساءل، إذا كنت حقيقة قد متّ آنذاك.

استيقظتُ صباح اليوم التالي باكرًا على غير عادتي. كاتيا تغطّ في نومٍ عميق، وثدياها ناهدان يكادان يقفزان من قميص نومها الشفّاف. تركتُها تحلم بهدوء وسارعت لزيارة كريستيان. انقضى يومان منذ تركته في المستشفى وحيدًا بين مجانين ومعطوبين ومنفصمين عن شخصياتهم، تركته دون دعمٍ ماديّ أو معنويّ.

في طريقي للمستشفى اشتريتُ بعض الحلوى والبسكويت، لم أكن متأكّدًا ما إذا كانوا سيتركوني أدخل إلى المستشفى في تلك الساعة المبكرة من النهار. اشتريتُ كذلك بعضَ الموز والبرتقال لحظات قبل أن أصعد إلى عربة الأجرة. النقود هي الحلّ إذا رفضوا دخولي إلى مبنى المستشفى، وأكثر الطرق سهولة في

هذه الأصقاع. هناك مقولة "ما لا يمكن شراءه بالنقود يمكن شراءه بكثير من النقود".

من حسن حظي لم تكن هناك ضرورة لشرحٍ مطوّل، طلبوا منّي الانتظار عند المدخل حتّى حضوره، لأنّ الأطبّاء في تلك اللحظة يعاينون المرضى ويصرفون العلاج اللازم، ومن الضروري الانتظار لنصف ساعة على الأقل. حضر كريستيان أخيرًا. لحيته نمت بشكلٍ واضح، تذكّرتُ بأنّه لم يحلق وجهه منذ وقتٍ بعيد قبل أن يدخل المستشفى. بدا أكبر من عمره، وبدا عليه الهمّ والانشغال والغضب أيضًا.

- كريستيان، أعتذر، لقد حدث أمرٌ طارئ منعني من الحضور لزيارتك بالأمس، أرجوك لا تدعني الآن أشرح ما حدث، فهذا يحتاج لوقتٍ طويل.
- على أيّة حال، أشكرك لأنّك تمكّنت من الحضور. يبدو أنّك قد أحضرت ما لذّ وطاب من الطعام، هل هناك شوكولا؟
- طبعًا يا عزيزي، ما رأيك أن تضع هذه المواد في غرفتك، كي نتمكّن من التنزّه بهدوء في حديقة المستشفى؟
- نعم، لكنّي سأحتفظ بلوح الشوكولا. تناول الشوكولا على عجل ثمّ ذهب ليترك ما أحضرته في غرفته قبل التوجّه إلى الحديقة. كانت لديّ رغبة كبيرة بمعرفة ما آلت إليه حالته النفسيّة بعد أن أمضى في المستشفى يومين متتاليين.
- كريستيان، أحضرت لك ألف ليفا، تركتُ ما تبقّى من المال وديعة في البنك العقاري. وبعد خروجك معافى سنذهب للبنك لإستعادتها.
- شكرًا يا نيكي، هنا يوجد حقيقة مجانين يا صديقي، أتعلم أنّ قسم النساء في الطرف الآخر من المستشفى، يحاولن المستحيل للوصول إلينا والتعرّف إلينا.
- لا يمكن مقارنة حالتك مع هؤلاء المرضى يا كريستيان بالطبع. أنت لست مجنونًا، قد يكون هناك الكثيرون الذين يعانون من إسهال وانفلات المشاعر ويحتاجون لبعض الرعاية كي يعودوا لحالتهم الطبيعيّة مجدّدًا. لا أدري متى

يمكنك أن تغادر المستشفى، ربّما عندما تتوقّف عن نفض السجائر فوق رأسك مثلا، وقد تقرّر أنت بنفسك ذلك. عندما تدرك أنّ المصعد ليس للنزهة فقط وليس للتنقل ما بين الطوابق الأولى والأخيرة. أنا حقيقة ما أزال أشعر بالقلق حيالك.

- لقد سرقتْ وعيي ورمتني كالقتيل يا نيكي. العلاجُ الذي يقدّمونه لي مفيد للغاية، أعتقد أنّ حضوري إلى هنا لم يكن عبثًا. لا أدري كيف كنت سأتصرّف دون هذه الأدوية يا نيكي. الطبيبُ المعالج متمرّس رغم أنّه يعاني هو الآخر من بوادر جنون ما بين الحين والآخر. يبدو أنّ هذه الأمراض معدية، ومع مرور الوقت تصبح جزءًا من الوسط المحيط وتأخذ تقلّد بعض الحركات والممارسات التي قد تبدو في خارجها طبيعيّة لكنّها مريبة. لذا أجد العذر للدكتور. تصوّر، يحاول أحيانًا تقليد المريض صاحب المقصّ.
- وجودك هنا مؤقّت ولن يتجاوز الأسبوع. أليس كذلك يا كريستيان؟ إذا رغبتَ الآن بمغادرة المشفى، عليك فقط أن تخبرني بذلك وسأقوم بالواجب.
- لا يا نيكي. أنا راغب بتلقّي العلاج، أعتقد أنّ فترة أسبوع كافية لهذه الغاية، كما علينا أيضًا انتظار رأي الطبيب. أنا أخشى من نفسي ومن ردّة فعلي عندما يهاجمني طيفُها. هذه المرأة تلاحقني طِوال الوقت، أينما نظرتُ أجدُ طيفَ سيلفيا، حتّى الهواء الذي أتنفّسه يحمل عبقها، وعيي يصرخ، يجأر باسمها، يجب أن أتخلّص منها يا نيكي، عليّ القيام بذلك.
- سيلفيا قطّة جميلة وشرسة، ابقَ بعيدًا عنها يا كريستيان إذا أمكنك ذلك، يستحيل أن تجد سعادتك في حضنها.
- هل رأيتها منذ اختفت يا نيكي؟
- لا يا كريستيان، لم أرها منذ ذلك الوقت. لمَ لا تعود إلى إيطاليا، ربّما ستجد هناك سيلفيا أخرى؟ وقد تسطر قصّة حبّ في روما أو البندقيّة أكثر جمالا ونقاء.

- الأمور ليست بهذه السهولة التي تتصوّرها يا نيكي، أعيشُ في بلغاريا منذ سنوات طويلة، من الصعب عليّ أن أبدأ حياتي من الصفر حتّى في وطني. المشكلة ليست في المكان، وليس في القرن الواحد والعشرين. الثقافاتُ العالميّة باتت متشابهة ومتماهية إلى حدّ كبير. حتّى الموسيقى ذاتُ أنغام موحّدة سواءٌ بُثت من باريس أو نيويورك أو لندن أو صوفيا أو براغ. أنا أنتمي لهذا المجتمع وليس لديّ بديل عن ذلك. لكن إذا قررت تغيير مشاريعي وتوجّهاتي فستكون أنت أوّل من يعلم بذلك، ربّما لن يكون هناك شخصٌ غيرك يودّعني في بهو مطار صوفيا الدوليّ.
- كريستيان، هل سمعت بمصطلح البلقنة؟
- ماذا تقصد يا نيكي؟ تقصد عدّة دول فوق رقعة جغرافية واحدة؟ تقصد تمزّق دولة ما؟
- كلّ يشدّ الحصير إلى ناحيته، لقد أمضيت وقتًا أطول من اللازم في بلاد البلقان يا عزيزي. ضحك كريستيان للمرّة الأولى منذ زمنٍ بعيد وكان هذا فأل خير.
- هنا يا نيكي، حتى النبيذ له طعمٌ مختلف. كلّ شيء مختلف، إنّها حياتي.
- نعم، لكن صوفيا ليست روما ولا باريس، ما إن تمضي في أحد الشوارع أو الزقاق حتى تدرك ذلك. الضجيج والفوضى والبؤس متراكم في شرقيّ أوروبا. أنت تعرف جيّدًا بأنّ قطع الشارع في الممرّ المخصّص للمشاة يبدو أحيانًا شبه انتحار. اختطاف الأولويّة وحرمان المشاة من العبور على اللون الأخضر مسألة شرف بالنسبة لسائقي العربات، لا يمكن التنازل عن الأولويّة حتّى وإن كان المعنيّ بين المشاة ابن السائق. هذا مثال لطباع أهالي هذا الإقليم.

استمرّ الفتى الإيطالي يضحك، أفرحني هذا الانفراج في شخصيته. الرجل الذي يقف أمامي الآن يختلف تمامًا عن كريستيان الذي أحضرته للمشفى قبل يومين ليتناول حبوبًا مهبّطة للعزم ومنوّمة ومخلّة لتوازن الأعصاب. "أرجوك يا

صديقي حاول الإسراع بعبور هذا النفق المظلم، وكن على ثقة من أنّي سأكون في انتظارك على الطرف الآخر حيث شاطئ الأمان." لعلّه سمع رجائي، لعلّه يفعل.

- يجب عليّ أن أذهب الآن يا كريستيان، أتريد شيئًا من الحضارة؟
- لا تتركني وحيدًا في هذه الغابة لوقت طويل يا نيكي.
- طبعاً، أنا على ثقة من أنّ إقامتك في هذا المشفى لن تطول يا كريستيان. تعانقنا ومضيتُ في طريقي إلى منزل ميلِنا، كان لا بدّ من إنهاء قضية عالقة مع هذه المرأة، وقد تكون هذه زيارتي الأخيرة لبيتها، من يدري؟

استقبلتني حزينة ومحبطة وصامتة، جلستُ على مقعدي المفضّل، هناك حيث قضيتُ مع ميلِنا ساعات طويلة فوق الأريكة، تمكّنتُ خلال فترة قصيرة من الزمن أن أخلق عادات دائمة في هذا المنزل.

- لم أتمكن من معرفتك جيّدًا يا نيكي، الوقتُ هو العدوّ الأكبر للإنسان، أريد أن تعرف بأنّي أحبّك بعنف. قالت ميلِنا والحزن يملأ عينيها كأنّها تتوقّع فراقًا قريبًا.
- من يدري يا حبيبتي، قد يكون الفراق أحيانًا وسيلة لتوطيد العلاقة وبعثها ثانية.
- هل آذوك كثيرًا؟
- نعم، ضربوني بما فيه الكفاية. لكن هناك ما هو أشدّ قسوة من ألم الجسد. يفقد الإنسانُ بعد فترة من الضرب مشاعر الألم، يتأقلم معه ويصبح الضربُ عبثًا دون فائدة أو جدوى.
- وما هي الخطوة التالية يا حبيبي؟
- لا أدري يا ميلِنا، لا أدري. ضممتُها إلى صدري وتجنّبت فمَها، أعرفُ جيّدًا عواقب هذه الخطوة لهذا أحجمت، كيلا ينتهي بنا المطاف إلى الفراش ثانية. لذا، أبعدتُها عنّي بهدوء وحذر.

- تركوا لك أمانة يا نيكي. قالت ميلِنا وعيناها غارقة بالدموع.
- أمانة؟ ومن تركها؟ أجبتُ مندهشًا.
- غرباء، لم أرهم من قبل، كانوا في منتهى الوقاحة خلال زيارتهم القصيرة. بم تورّطت يا نيكي؟ هل تخفي شيئًا عنّي؟ أرجوك أخبرني، ماذا يحتوي هذا الطرد؟

أدركتُ على الفور محتوى الطرد، كنتُ في الحقيقة ساذجًا حين اعتقدت بأنّي قد أفلتّ من قبضتهم. كيف يمكن مغادرة وكرهم دون دفع الثمن، الفاتورة غالية للغاية، بل دمويّة. دفعتُ جزءًا من دمي أثناء فترة اختطافي، والآن سأدفعُ ثمن الجزء الآخر، ثمن حريّتي. العالمُ ليس مثاليًا، يزدادُ يقيني بهذه الحقيقة يومًا بعد يوم، كما إنّ آلة ضخّ وصنع المال لا تتوقّف ليلَ نهار، تحرقُ في طريقها كلّ شيء، لا تفرّق بين الأخضر واليابس، لا تعرف الرحمة ما دام المال هو الهدف النهائيّ.

فتحتُ الطردَ الذي قدّمته لي ميلِنا بحذرٍ شديد، وجدتُ بداخله لوحة صغيرة وورقة كُتِبَ عليها عنوان. لقد وجدوا في شخصي الجحش الذي سينقلون من خلاله سمومهم ومخدّراتهم. كنتُ على ثقة من أنّ اللوحة خالية من المخدّرات، اللوحة التي بين يديّ مجرّد اختبار والحبلُ على الجرّار. لهذا أعتبرُ نفسي منذ اللحظة تحت المراقبة الحثيثة لمعرفة ردود فعلي بهذا الخصوص. كان من المستحيل إرسال مادّة ثمينة والخروج على القانون لشخصٍ لم ينل ثقتهم بعد.

- إنّها مجرّد لوحة يا عزيزتي. مجرّد لوحة صغيرة.
- أنت لن تتركها هنا بالطبع؟ أقصد، هذه اللوحة الصغيرة.
- لا أبدًا، لن أتركها هنا. إذا حاولوا مضايقتك ثانية، أخبريهم بأنّي قد غادرت البيت ولن أعود إليه مجدّدًا.

- نيكي، هناك ما يجب عليك القيام به بخصوص روايتك لتجهز بالكامل. لقد نقلت ملف الرواية في هذا القرص المضغوط، بقي أمامك القليل لتضع نقطة النهاية لهذا العمل الرائع. تناولتُ القرصَ المضغوط واللوحة من بين يديها.
- ميلِنا هل يمكنني الاتصال بك بين الوقت والآخر؟
- وداعًا يا نيكي، اذهب أرجوك، كلّ واحدٍ منّا يستحقّ مصيره. كلّ إنسان يحصد ما زرعه خلال مشوار الحياة. وداعًا يا نيكي. كلمات واعية وقويّة وجميلة خرجت من فم أنثى جريحة. أشعرُ أحيانًا بأنّي الاحق الرياح، وفي أوقات أخرى أعتقد أنّ الرياح هي التي تلاحقني دون كلل.

أنا رجلٌ محاطٌ بكوكبة من النساء الجميلات، وعليّ أن أدافع عنهنّ من ذاتي وأنانيّتي المفرطة. يا لها من معادلة، كيف يمكنني تحقيق ذلك؟ الحياة تفاجئني كلّ يومٍ بما لا أتوقّع.

عدتُ بعد ذلك إلى كاتيا، جلستُ إلى جانبها ما يقارب الساعة ولم أجرؤ على الحديث.

- هل تثقين بي يا كاتيا؟ كان هذا أسخف ما صدر عنّي منذ وقتٍ طويل، تمنّيت لو أتراجع عن كلماتي.

أكرهُ هذا السؤال، ما زلنا في بداية الطريق، لماذا تسألني عن الثقة الآن يا نيكي؟ إذا كنت ترغب حقًّا بمعرفة رأيي فأنا لا أدري كيف أجيب، لا أدري إلى أيّ مدى يمكنني أن أثق بك.

عليّ أن اختفي من صوفيا لعدّة أشهر على الأقل، وربّما يطول الوقتُ لأكثر من ذلك. لهذا القرار علاقة مباشرة بخطفي وضربي، كما أرغب بحمايتك من تبعات هذه العلاقة.

- دعكَ منّي، أنا قادرة على اتّخاذ قراري والدفاع عن نفسي، ومن حقّي أيضًا تقدير مدى المخاطرة التي قد أقبل بها، لا تحاول حرماني من ذلك.

- ليس لديّ خيارات كثيرة يا كاتيا. سأتّصلُ بكَ حالما أستقرّ في مكان ما وسأدعوك للحضور إلى مخبأي. الآن فقط أصبح لحياتي معنى عندما وافقتِ الدخول إلى عالمي.
- يبدو الوضع معقّد للغاية.
- لا، ولكنّي أرغب باستباق الأحداث. أريد أن أكون ولو لمرّة واحدة على بعد خطوة على الأقل أمام الآخرين.
- كما تشاء يا نيكي، أنا فتاة كبيرة وبالغة، أعدك بأنّي لن أبكي كثيرًا. أتبعت حديثها بضحكة قصيرة وسرعان ما أخذتها بين يديّ. قبّلتها طويلا كأنّي لن أراها بعد اليوم. في تلك اللحظة شعرتُ بأنّي أمتلك أيقونة ثمينة هشّة. شعرتُ بالضعف والحنق، هل من الضروري أن تكون حياة الإنسان عابرة وانتقاليّة طِوالَ الوقت؟
- رغبتي كبيرة بالبقاء في عالمك وحواليك ومعك، أخشى هذا الفراق يا نيكي، قصّتُنا أجمل من أن تكون حقيقة وواقع. ما إن وجدتك حتى طرقَ الفراقُ أبوابَنا ثانية.
- لا، لن أسمح بأن أفقد الطريق إلى عتبة بيتك. سأزعجك في نومك وصحوك وفي كلّ خطوة تقومين بها. سأكونُ إلى جانبك حتى آخر لحظة من حياتك يا كاتيا.
- شكرًا، هذا كلّ ما أتمنّاه.
- وعندما أكبر وأشيخ سأبقى بين يديك، لن أتركك تشعرين ببهجة فراقي يا صغيرتي.
- لأنّنا سنشيخ معًا يا ساذج.
- لا، أشكّ بهذا المصير يا كاتيا، لا أظنّ بأنّي سأعيش لأشاهد التجاعيد تهاجم تقاطيع وجهك، أنتِ أجمل من أن تشيخي.
- تبدو واثقًا من كلامك.

- كيف لا، غمزتها مشاكسًا.
- لماذا لا تحضر إلى أحضاني إذًا لنستغلّ قوّة قلبك وعطائه يا شقيّ، إذا صدقَ حدسي فأنت ما زلت تنبضُ بالحياة.
- نعم، أنا حيّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. رفعتُها بين يديّ كطفلة صغيرة، ذهبتُ بها إلى الفراش، عيناها مغمضتان، تجلّت رغبتي في تلك اللحظة بمعرفة أدقّ تفاصيل جسدها حتى آخر جعدة ومنبت شعر. كنت أرغبُ بحفظِها في أعماق الذاكرة وكان لي ذلك.

***

نظرتُ إلى المرآة. النتيجة مدهشة للغاية، لم أعرف نفسي في بداية الأمر، حلقتُ شعر رأسي حتى الصفر، وضعتُ شواربَ مستعارة، غطّيتُ رأسي بقبّعة مفتوحة ظللتْ جبيني. تنكّرتُ وغيّرتُ كامل تضاريس وجهي وهيأتي الخارجيّة. أصبحتُ في لحظة من اللحظات السيد نكرة إيفانوف، أعرفُ ما يجبُ عليّ القيام به، العنوانُ الذي تركوه سهل. أخيرًا أوقفت عربة أجرة خاصّة مكتوبٌ على بابها الخارجي بالبنط العريض "SPEEDY" هذا أقصى ما كنت أتمنّاه. شعرتُ بالراحة، كان عليّ عدم التوقف عن الصراع من أجل البقاء بين جموع الذئاب المتعطّشة لنهش لحوم الأبرياء، أن ألعبَ دورَ الأسد حتى وإن كان قصيرًا للغاية، أن أختبئ عند الضرورة بل وأزأر حين أجد نفسي محاطًا بوحوش كاسرة جائعة.

هكذا وضعتُ قلمًا خلف أذني وحملتُ دفترًا، كتبتُ على إحدى صفحاته الكثيرَ من العناوين والأسماء الوهمية، ثمّ دوّنتُ العنوانَ المطلوب في نهاية الصفحة، غلّفتُ اللوحةَ الصغيرة في علبةٍ كبيرة ملفتة للنظر وانطلقت للعنوان الذي أراده خاطفي. وجدتُه بسرعة، رسمتُ على شفتيّ ابتسامة عريضة وأنا أواجه المرأة المندهشة أمامي. قلت لها بلطف:- طردٌ مسجّل لهذا العنوان يا سيّدتي، هل لك أن توقّعي هنا لو سمحت.

لم تكن هناك إمكانيّة للمرأة سوى استلام الطرد. تناولتْهُ من يدي ووقّعت في المكان الذي أشرتُ إليه. لا يمكن لأحد أن يشكّ بتصرفاتي كنتُ في تلك اللحظة ساعي بريد ناجح ومقنع، ومن العبث ملاحقتي كذلك. هكذا اختفيت على عجلٍ بعد أن تخلّصتُ من اللوحة اللعينة. بدوتُ كشبح ظهر من العدم وسرعان ما اختفى.

في مكانٍ ليس بعيدًا عن هذه الدوّامة، كانت بانتظاري عربة على وشك أن تقلّني إلى مدينةً ساموكوف حيث من المقرّر أن أختفي عن الأنظار في بيت ريفيّ طوال الوقت الذي يحلو لي. تقعُ المدينة في سفح جبال بوروفيتس، التي تعتبر من أجمل المنتجعات الشتويّة الجاذبة للسيّاح من كافة أنحاء البلاد والخارج. المكانُ بمثابة الجنّة على الأرض، وأنا على يقين من قدرتي على جمع أفكاري والشعور بالسكينة بعيدًا عن قلق العاصمة وضجيجها، وسأتمكّن من إنهاء مشروع روايتي وقطع طريق المخدّرات قبل أن يبدأ.

- كونستانتين، أرجوك دعنا نبتعد عن صوفيا لو سمحت. تقتلني هذه المدينة.
- على مهلك يا نيكي. الطريق تحتاج فقط لقرابة الساعة كي نقطعها بسرعة معتدلة، ستجد نفسك قريبًا في عالمٍ آخر، هذا وعد منّي. يمكنك هناك أن تمارس حياتك بمنتهى الحريّة. سارعت العربة بالخروج من المدينة وبعد قليل عرّجت نحو الطريق الدائري المؤدّي إلى مخارج العاصمة، والحرية تناديني وتحييني. أغلقتُ عينيّ ومرّت الحياة في تلك اللحظة أمامي كشريط سينمائيّ متسارع، فتحتُ شبّاك العربة، رغبة منّي بتحسّس تيار الهواء البارد اللاسع وهو يداعب وجهي، الشعور بالألم مهمّ للغاية، لأنّه يعمّق الرغبة بممارسة الحياة.

شعرتُ بالأمان حين شاهدتُ البحيرة الاصطناعيّة بنتشاريفو، كأنّي أراها للمرّة الأولى. عيناي ووظائفي الحيويّة تعملُ بشكلٍ مستقلّ عن وعيي. عملياتٌ كيميائيّة مختلفة تتفاعل في جسدي، والبحيرةُ خاويةً سوى من فضولي ولهفتي. لم أشاهد أبطال التجديف العالميين، كيف وقد تيبّس وتجمّد وجه البحيرة خجلا من

وقع الشتاء! سرعان ما اختفت البحيرة خلف ظهري وانبثقت في روحي كلماتٌ بدت كأنّها الشعر، لا يمنع من تدوينها سوى آلية السفر. شكرًا يا كونستانتين، شكرًا لصمتك، تركتني أتوحّد مع الطبيعة، أجترّ إحباطي وطموحي المحطّم على صخور الحياة. تركتني أتوحّد مع شموخ الجبال المرصّعة بالكثبان الثلجية البيضاء.

- نيكي، هل أنت بخير يا صديقي؟
- أشعرُ برغبة كبيرة بالبكاء يا صديقي. لم تراوذْني مثل هذه المشاعر من قبل.
- من المفيد أحيانًا أن يترك المرء العنان لدموعه ومشاعره. نحنُ الرجال نبكي أحيانًا، أشعرُ الآن بالفرح تجاهك. بدأت تعود لشخصك الحقيقيّ الآخر الذي أعرفه جيّدًا. لم تحضر منذ زمن بعيد لزيارتنا. عليك أن تكثر من ذلك.
- بل بات عليكم طردي للتخلّص منّي الآن.
- نعم، احذر زوجتي ستويانكا، ستطردك إذا لم تسمع كلامها.
- ستويانكا. يا لها من امرأة، تملك يدين من ذهب.
- نعم، وهي لا تعترف بكلمة "لا" كإجابة. عليك أن تتناول كلّ ما تقدّمه لك من طعام. هل هذا واضح؟
- لمَ لا. أنا لا أعرف امرأة أخرى قادرة على الطهي بهذه المهارة. سيكون لها كلّ ما تريد.

الحياةُ في حدود القرية تساعد على إدراك مدى رحابة العالم ووسعه. لأنّ الآفاق والمساحات تنفتح وتمتدّ دون انقطاع. لا تصطدم الأعين بحواجز معدنيّة أو سطوح منازل وأبنية عملاقة، كما إنّ الصمت والهدوء نداءٌ طبيعيّ يحثّ على الجموح والتمرّد. يمكنك في القرية أن تستمع لصوتك الداخليّ، لأنّ الزمن يمرّ بطيئًا. تشعرُ بكلّ لحظة كأنّ النهار دهر. كلّ ثانية بمثابة مقياس ثابت يتمنّى عليك معايشته حتّى اكتمال دورتها. لا سرعة أو تسارع في حياة القرى والبراري، كلّ هذه المسافات الشاسعة لا تنتهي حتى وإن ركضت ليل نهار. حاجزُ الزمن ثقيلٌ للغاية.

- نيكي، تبدو مرهقًا؟
- ستويانكا، تبدين رائعة كعادتك. اشتقتُ إليكِ كثيرًا. جميلٌ أن نلتقي ثانية يا عزيزتي. ما أن أدخل منزلك حتّى يداهمني الجوع على الفور.
- رائحةُ الطعام شهيّة لا تقاوم، اذهبوا لغسل أيديكم وسأوافيكم بما لذّ وطاب.

الحياةُ هنا تسيرُ عكسَ الزمن كأنّه توقّف على حين فجأة. الزمنُ يتوافق مع آلية الجسد البيولوجيّة، يمنعك من تخطّيه مهما حاولت ذلك. للمرّة الأولى شعرتُ بقيمةِ شروق الشمسِ والظهيرةِ والعصرِ والغروب، أمّا الليل فكنزٌ من الساعات لا ينضب. يَمكنني خلاله كتابة رواية قصيرة، وفي عدّة ليالٍ سأنجزُ عملا أدبيًّا كبيرًا. لا أثرَ هنا للإشاراتِ الضوئيّة وضجيجِ العربات وصُراخِ المارّة ورائحةِ العرق في كلّ مكان. والجبالُ تكشفُ من خلفها أفقًا ضبابيًّا يصعبُ ارتياده. تشعرُ الأعيُنُ بأنّها حرّة طليقة. تصفو الفكرة، تبدو شفّافة عارمة، والكلمةُ أكثرَ حضورًا وإقناعًا. أدركُ بأنّي أعيشُ مرحلة انتقاليّة من حياتي. لكنّها مرحلة في منتهى الأهميّة ولا بدّ من معايشتها وعليّ أن أتمتّع بها أيضًا، وعليّ أن أحتفظ برسم كاتيا وضحكتها وابتسامتها ودمعها وحزنها وحنانها.

- لماذا كلّ هذا الصمت يا نيكي؟ تعال لتتناول وجبتك المفضّلة الموساكا [4] قالت ستويانكا.
- كنت قد بدأت بتناول سلطة الخضار والزيتون والمخلّل، لكنّ كيف لي أن أرفض الموساكا.

سيزداد وزني في هذه الديار لا محالة، ليس أمامي خيارٌ آخر. كنتُ قد ساعدت كوستا في تنفيذ أحد مشاريعه قبل سنوات، واليوم يردّ لي الجميل في الوقت المناسب. تحدّثنا في العديد من المواضيع المتشعّبة، مضيفاي رائعان، فرحا بتواجدي بينهما. كانا بحاجة للمحادثة وتبادل الآراء والتجارب.

---

[4] (الموساكا: وجبة شعبية بلغارية دسمة، يُستخدم في تحضيرها اللحم والبطاطا والبصل والبقدونس والبهار، يضاف إليها طبقة من البيض والصودا والملح.)

الرتابةُ قاتلة ولا بدّ من التغلّب عليها بتغيير العادات الثابتة. ليس من السهل البقاء وحيدًا وسط هذه المساحات الشاسعة. لا بدّ أنّهما يعرفان جيدًا موقع كلّ حجرٍ وصخرة في الجوار، يعرفان مواقع المغر. للجبال أسرارٌ لا يدركها العابرون، ويجب مصادقتها لإدراك كنهها.

تقدّمَ الليلُ حثيثًا دون مقدّمات. عمّت العتمةُ فجأة في جميع الأنحاء، عتمة جريئة وحزينة وصامتة. أهالي القرى لا يشاهدون التلفاز كثيرًا لأنّ الجهدَ الجسديّ الذي يبذلونه كبيرٌ للغاية، لذا فهم يلوذون إلى الفراش في وقتٍ مبكّر. من الصعب أن تجد يقظًا بعد العاشرة مساءً، وكنتُ أنا أحد هذه الفئة القليلة في تلك القرية النائية. يستحيل عليّ أن أنام في هذا الوقت المبكّر، ليس بعد.

ترك لي مضيفاي كوخًا صغيرًا في الجوار، أسكنُه طِوال فترة إقامتي في القرية، لكنّهما أصرّا على قضاء الليلة الأولى بينهما، تركا لي غرفة في الطابق السفليّ بينما صعدا للنوم في الطابق العلويّ بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة مساءً بقليل. لم أجد بدًّا من تناول أحد الكتب لألتهم الصفحة تلو الأخرى. بعد قليل سمعتُ صريرَ السرير في الأعلى. يبدو أنّه من الصعب التخلّي عن العادات المكتسبة، عمليًّا لم يكن أمام أهل القرى ما يفعلونه قبل النوم بلحظات سوى ممارسة الجنس على عجل. حرث كونستانتين ستويانكا بعنف، سمعتُه يلهثُ فوقها، بعد لحظات صدر عنها صوت قصير شبيه باحتكاك المعدن بالأسفلت وسرعان ما انتهى كلّ شيء وخيّم صمتٌ ثقيل. بعد خمس دقائق كان شخير كوستا يملأ المكان. كيف يمكن لهذه المرأة أن تنام إلى جانبه وسطَ هذه الأنغام الصاعدة الهابطة من رئتيه وأنفه وشفتيه؟ قد يكون التعوّد أقوى ممّا كنت أعتقد.

تهتُ في عالم تشيخوف، قرأتُ بعض قصصه، ما أكثر الشخصيات المتفاعلة في عالم هذا المبدع، صادفتُ في قصصه كتّابًا، ممثلين، عمّالا، أطبّاء، محامين، متقاعدين، قرويين، متسولّين، موسيقيين، مدرّسين، خيّاطين، ضبّاطًا وغيرهم كثير. تشيخوف موسوعة إنسانيّة كبيرة، كاتبٌ يتمتّعُ بذاكرة اجتماعيّة مدهشة، لم أشعرْ يومًا بالملل وأنا أقرأه. شعرتُ أخيرًا بأنّ الوقت قد تقدّم، لم تتجاوز الساعة

الحاديةَ عشرة بعد. لكنّ التعبَ والإرهاقَ ألمّا بي، الطبيعةُ وتعبُ السفر والمشاعرُ المتباينةُ حثّتني على النوم. رفضتْ عيناي الاستماعَ لرجائي وسرعان ما غبتُ في عالم الأحلام. ما الغريب في هذا؟ تمكّنتُ من تناسي جميع النساء في ماضيّ القريب. وجهُ كريستيان وحدَه لم يفارق مخيّلتي طِوالَ الوقت، كم أتمنّى رفقته. قد يتمكّن نسيان سيلفيا لفترة قصيرة من الزمن، وأن يستعيد ابتسامته وسكينته. سيشعرُ بالقيمة الحقيقية للحياة. كنتُ مسرورًا لأنّي تمكّنت من ترك بعض النقود في حوزته قبل أن أقرّر السفر على حين بغتة. لم يفارق الكتاب يديّ حين غبت في النوم، وبعد قليل ظهرت لي الصغيرة ديانا، ابنتي ديانا. تناديني تارة وتمسك بيدي تارة أخرى وفي عينيها أسئلة لا تنتهي، تتبعني وتنظر في عينيّ كأنّها تخشى هربي والابتعاد ثانية.

ديانا يا حسنائي الصغيرة. أنا مدين لك بالكثير، مدين لك بشرح مطوّل لحقيقة مشاعر الأبّوة التي تعتمل في صدري. تعالي مع أمّك لزيارتي. ستلعبين هنا مع الريح وستطلقين العنان لقدميك الصغيرتين. ستُلاعبين الأغنامَ والأبقارَ وستركضين خلف الكلاب. ستشعرين بحريّة يصعب نيلها في المدن الكبيرة.

مع ساعات الصباح الباكر من اليوم التالي كانت الحياة تضجّ مجدّدًا. ثغاءُ الخراف ومغازلةُ الديوك لحشودِ الدجاج وخوارُ الأبقار تساهمُ في كلّ هذا البوح. استيقظَ الأهالي وسمعتُهم يحيّون بعضهم البعض. سمعتُ كذلك ذلك الصوتَ الرتيب، المرافق لحلب الأبقار في الحظائر، ومن المتوقّع أيضًا أن أشرب الحليب من مصدره مباشرة بعد غليه. سيزدادُ وزني في هذا المكان، وشهيّتي منفتحة على مصارعها، أشعرُ بأنّي قادر على التهام كلّ ما يقدّم لي من طعام وشراب. لا يمكن لأحدٍ أن يصرّح بأنّه يعرف عالم القرية إذا لم يعِش فيها ردحًا من الزمن.

نمتُ بضعَ ساعاتٍ ونلتُ الراحة المنشودة، وكان لزامًا عليّ النوم طويلا في صوفيا لأحصل على الراحة ذاتها.

صباحُ الخير يا جار. صاحت ستويانكا بجذل.

- صباحُ الخير، رائحةُ الحليب تملأ المكان.
- الحليب أولاً ثمّ القهوة وفطائر الجبن الشهيّة.
- فطيرةٌ صغيرةٌ بليفا، قلتُ ضاحكًا.
- بل صينيّة ملأى بعشرات الفطائر، دعنا نتذكّر ماضينا الجميل يا نيكي، تمضي الحياةُ وتنفلتُ من بين أيدينا ولا نشعرُ بذلك. ابتسمتُ مشجّعًا، كانت ستويانكا تمثّل في تلك اللحظة الحياةَ المنفلتة من بين الأصابع.
- من قال بأنّ الجنّة في السماء فقط؟
- دعنا من هذه التساؤلات يا نيكي.
- أخبريني يا ستويانكا، هل أنت مؤمنة؟
- نيكي، لو سمحت يا عزيزي، تعرفُ جيّدًا أنّه ولوقتٍ قريبٍ منع الشيوعيون المواطنين من دخول حرمِ الكنائس والمساجد. لذا، اختفت القيم السماويّة. الإيمانُ حسب رؤيتي واعتقادي يضعُ الحواجزَ الضروريّة لتنظيم العلاقات الإنسانيّة، الإيمانُ يقدّم للإنسان أجنحةً غيرَ مرئيّة. هل أنتَ مؤمن يا نيكي؟
- لم يبقَ أمامي شيء سوى الإيمان يا عزيزتي.
- حسنًا، يمكنك المشاركة في حفل تعميد أحد أطفال القرية نهاية الأسبوع.
- ومن هو القسّ؟

دخل كونستانتين لابسًا بنطالا طويلا بحمّالات تلتقي عند الكتفين، ومن تحته بلوزة شتويّة استعدادًا للعمل. لم يكن يشعر بالبرد، لا بدّ أنّ دورته الدمويّة نشطة فهو لم يهدأ منذ أن استيقظ في الصباح.

- القسّ إيفان، يخدم عدّة قُرى في الأنحاء. تدخّل كونستانتين في الحديث وأضاف:- في هذه الأنحاء تندر ولادة الأطفال، هرب العنصر الشاب من القرى، رحلوا نحو المدينة وهاجر آخرون إلى أوروبا بعد أن فُتحت أبوابُها. الشبابُ لا يريدون العيش في هذه القرى النائية المهجورة، لا توجد آفاق ترضي طموحهم،

كما إنّ العمل هنا شاقّ وغير مجدٍ. أغلب من تبقّى من سكان هذه القرية مسنّون، ومهما حاولوا أن يثمروا ليلا تبقى جهودهم دون طائل. كان كوستا في مزاجٍ جيّد صباح ذاك النهار، وهذا أمرٌ طبيعيٌ وليس استثناءً في أجواء القرى الساكنة، لكنّ حديثه حمل الكثير من السخرية والتشاؤم لمستقبل القرية على المستوى الأوروبي والعالمي.

شربتُ الحليب بصعوبة فقد كان كثيفًا تغطّيه طبقة من القشطة، شعرت بثقل في معدتي، لكنّي لم أرفض تناول القهوة بعد ذلك، التي حضرت مع فطائر الجبن، والبخار يتصاعد من سطح الإناء. رائحة الفطائر شهية لا تقاوم. لم أتمكن من تناول نصف ما كانت ستويانكا قد قدمته لي. لكن كوستا التهم كل شيء، فهو لم يتوقّف عن العمل منذ ساعات الصباح الباكر.

- لديك القليل من الكتب، لكنّها مجموعة جيّدة ومنتقاة بعناية.
- قرأتُها عدّة مرّات يا نيكي. ليس لديّ رغبة كبيرة بالقراءة في الآونة الأخيرة. الخرابُ المستشري في كلّ مكانٍ من حولي يقتلُ الرغبة بالقراءة. قال مضيفي بحزنٍ واضح.
- ظننتُكَ سعيدًا في هذا المكان يا كوستا. بعيدًا عن هموم المدينة وصخبها، هذه انطباعاتي الأوّلية على أقلّ تقدير.
- لن أستبدل هذا المكان بأيّة بقعة أخرى من الأرض، فأنا جزء من هذا البلد. كلّ ما يحدث هنا يهمّني بجميع تفاصيله. هناك مفهوم مخجل ظهر في الآونة الأخيرة يا نيكي، وأخذ الكثيرون يتبادلونه في كلّ مناسبة.
- يبدو أنّك شديد التشاؤم هذا الصباح يا صديقي؟
- صراع البقاء، هذا ما يتردّد على ألسنة الكثير. لم أتفوّه بكلمة واحدة فقد كان المعنى واضحًا للغاية. التعليقُ على هذا البوح الذي أدلى به كوستا عبثًا، نظر إلينا وغادر ليتابع عمله في الحقل. البقاء، يا لها من مهانة حقًا. نحن لا نتحدّث عن التطوّر والتغيير لكنّنا نتحدّث عن القدرة على البقاء.

أخذتُ مفتاح الكوخ من ستويانكا وذهبتُ إلى منزلي المؤقت، كي أرتّب فسيفساء حياتي المتناثرة في الكوخ المتواضع عند آخر الدنيا. كنت بحاجة ماسّة للتوحّد بعيدًا عن الحضارة والصخب المضني. أفهمُ القلق الذي ألمّ بكوستا ولم أنسَ الأسباب التي جعلتني أهرب من العاصمة حفاظًا على روحي وجسدي. إنّه صراع البقاء حقًّا. لديّ رغبة بإنهاء روايتي وهي بمثابة نقطة الفصل التي سأضعها عند خطّ النهاية لأخطّ بداية جديدة، وربّما حياة أخرى. من يدري؟ لا أعرف من أين أبدأ، فهناك الكثير من الشخصيات التي تشغل ذاكرتي وتنتظر قراراتي.

ليس لديّ الكثير من المتاع، رتّبتُ ما لديّ بسرعة، كان عليّ أن أستوعب هذا المكان لأصبح جزءًا منه. قمتُ بتغيير موضع الكراسي والأثاث القليل، بعد قليل أصبح هناك ما يشبه مكتبًا دافئًا ومريحًا ينتظر قلمي وحضوري في أيّ وقتٍ من الليل أو النهار. لديّ نسخة ورقيّة من العمل المكتبيّ الذي أنجزته ميلِنا، وضعته على الطاولة الصغيرة وتركتُ إلى جانبه الأقلام الملوّنة الكثيرة. يستخدمُ الكثيرون الحواسيبَ ذا البرامج المريحة المتطوّرة لإنجاز همّ الكتابة، وأنا ما زلتُ أؤمنُ بسحر الورق والقلم. هذه هي طريقة حياتي، ولا ضرورة لتغييرها، ربّما لأنّي ولدتُ رومانسيًا. وأفضّل أحيانًا إنجاز الأمور بأصعب الطرق، هذا هو أنا.

نقلتُ أحدَ الكراسي إلى الخارج، وجلستُ أستنشقُ الهواءَ العذبَ النقيّ، لكنّي سرعان ما قفزتُ إلى الداخل، خلعتُ الساعة التي أحملها على معصمي، من الغباء أن أحمل ساعة وأنا أمتلك الوقت كلّه. وضعتها على الطاولة وقلبتها كيلا أراقبها وتراقبني. عدتُ بعد ذلك إلى الخارج، شعرتُ بأنّي قد تحرّرت من كلّ العوائق لأتوحّد مع الزمن والمكان. ناظريّ يصلان الآن بسهولة حدّ الأفق دون حواجز إسمنتيّة أو معدنيّة. كنتُ هادئًا ومستقرًّا والقلم طوع يدي، سأكتب دون أن أشعر بأنّي أضايق صديقاً أو صديقة. لذا، قررتُ حفرَ الحديقة قبل الشروع بالكتابة. سأزرعُ بكلتي يديّ البطاطسَ والطماطمَ والخيارَ والوردَ وكنتُ في منتهى السذاجة، لأنّ هناك موسم للزرع وآخر للحصاد، كما أجهل طول الفترة الزمنيّة التي سأقضيها في هذا المكان. على أيّة حال، هذا لا يمنع من قلب تربة الأرض.

من المتوقع كذلك أن أشعر قريبًا بالسأم وقد أقرّر مغادرة القرية على عجل كما حضرت. من الصعب أن تجدَ رفيقًا هنا تتحدّث إليه وتتنزّه معه. كوستا وستويانكا منشغلان بأمورهما وقريبًا سينسان أو يتناسيان وجودي بينهما.

سأحفرُ الأرض بين الحين والآخر، سأكتبُ صفحات عديدة بعد ذلك. تناولتُ ملفّ الرواية وعدتُ للجلوس أمام المنزل. أمسكتُ بالصفحة الأولى وحدّقت بالعنوان، عندها أدركت أنّ عنوان روايتي مختلفٌ تمامًا عن هذه الكلمات المتراقصة أمامي. شطبت على الفور العنوانَ الذي صاحبني طوال هذه الفترة، ووضعتُ عنوان الرواية الجديد ((أرواح لا تنام)) شعرتُ عندها براحة نفسيّة كبيرة، كأنّ العنوان المؤقت هو العائق الرئيس لإنجاز الرواية. العنوانُ الجديدُ عرّى روايتي، أحيانًا يكون العنوان مجرّد هويّة عابرة للعمل الروائي، وغالبًا ما يتحوّل إلى رسالة ومعنى في الأعمال الناجحة المتميّزة.

هناك في روايتي مكانٌ لكريستيان، الفتى الإيطالي الرومانسي الحالم، القادر على العشق دون حدود، حتّى وإن كلّفه ذلك سنواتٌ من الضياع والألم والجنون. في روايتي مكانٌ لأميرتي ديانا – وردتي الصغيرة. أدركتُ أنّ تحمّل مسئوليتها والعناية بها باختياري، هو مصدر سعادة وبصيص أمل قويّ في حياتي.

"عزيزتي ليودميلا، هل اعتقدتِ أنّك قد تمكّنت من الإيقاع بي حين صرّحتِ بأنّي الأب البيولوجي لديانا؟ إذا كان الأمرُ كذلك فاعلمي أنّ هذه الخدعة الساذجة هي من أجمل الخدع التي سمحتُ بالخضوع لها. خدعة مكّنتني من الارتقاء فوق أنانيّتي". وضعتُ الملف جانبًا، أدركتُ أنّ هذه الرواية تمضي نحو مصيرها ونهايتها المحتومة، الصفحاتُ مألوفة لديّ كأنّها تكتب ذاتها. الأحداثُ التي سأنقلها على الورق تتفاقم أمام ناظريّ. لذا أخذتُ أتجوّلُ في منزلي الجديد، أخذتُ أستمعُ لمناجاة الريح تخاطب قمم الجبال، تغازلُ عنفوانها وشموخها بتحدّي. وهناك ثمّة قمّة شاهقة تدعوني لإتمام رقصة العمر في الفضاء الحرّ. عندها أخذتُ أرقصُ وأدورُ أمام المنزل ومن حوله، والموسيقى تتهادى من طبقات السماء. ها أنذا أولد من جديد، تحيا الحياة. كثيرون يرون الجبالَ كتلا هائلة من

الصخور الصمّاء العارية. يرتقون قممها ويسيرون فوق قلوبها ويهبطون إلى تلافيف أوردتها. لكنّ الجبال في تلك اللحظة كانت تحدّثني وأذرعها ممتدّة لي مهلّلة. تذكرتُ في تلك اللحظة أحمد، كان قلبي يستشعره وله في روايتي مكانٌ أيضًا. يحدّثني قلبي بأنّه متواجد في العراق. وأحمد الأسمر ذو الشعر الأجعد، ما زال يعاني من أزمة الانتماء.

الكتاب الرابع

ما هذا يا ديانا؟

من الصعب الحياة لفترة طويلة في أجواء القرية لغير القرويّ الأصيل. ها قد بدأتُ أشعرُ بالملل مع انقضاء يومي الأول. يبدو أنّ ساعتي البيولوجية قد تعوّدت نظامًا وتوقيتًا مختلفًا. لذا أخذ جسدي يعاند ويتمرّد على التقويم الجديد. أخذتُ أملأ هذا الفراغ بالعمل والحركة. أركضُ في المساحات المفتوحة حول القرية، تعرّفت إلى الكثير من أهالي القرية بعد أيام قليلة من وصولي إليها. تعرّفتُ إلى الكلاب، داعبتها وصادقتها ودعوتها لتركض معي. الكلابُ تمتلك ذاكرة مذهلة، وغالبًا ما يشاهدني الكثير من أهالي القرية أركض مع سربٍ من الكلاب. لم يعد هذا الأمر يدهشهم كثيرًا، قد يتّهمني البعض بالجنون، لكنّي لن أتوقّف عن نشاطي ولن أعيرهم كثير اهتمام. "أنا لست مجنونًا وأدرك كنه كلّ خطوة أقوم بها، بل على العكس من ذلك. أنا رجلٌ سعيد للغاية، لا أريد سوى أن يتعوّد جسدي على وقع الحياة هنا". كنت أحدّث نفسي، وهذا مفيد لتفريغ ما تراكم في روحي من سأم وعبث.

- لا بدّ انّك نيكي؟ سألني شابٌ مرح. ثمّ أضاف قائلا:- ما رأيك بفنجان قهوة، أشعر برغبة ملحّة بمحادثة شخص ما. أنا فلاديمير.
- طبعا يا فلاديمير، الرغبة مشتركة. كنّا بالقرب من كوخي وبيتي المؤقت، دلفنا إلى الداخل، دعوته للجلوس وبدأت بصنع القهوة.
- ما هي حكايتك يا فلاديمير؟
- لست هنا لكتابة رواية. نظرت إليه وكان في تلك اللحظة منهمكًا بتصفّح ملف روايتي فوق المكتب. التقت أعيننا لوهلة وأضاف قائلا:- أتسمح؟
- للأسف، المادة تحتاج للكثير من العمل. علاقتي مع الرواية أثناء فترة كتابتها عاطفيّة ووجدانيّة للغاية ويصعبُ عليّ أن أتقاسمها مع آخرين. سمحتُ

لنفسي بكذبة صغيرة، فقد اطّلع عليها كثيرون، بل كنتُ في فترة من الفترات على استعداد لإهدائها لكلّ من يمتلك الرغبة بإكمال كتابتها.

- حسنًا، كما تشاء يا نيكي، آسف.
- والآن، هل لك أن تخبرني بحكايتك إن لم تكن سرًّا بالطبع؟
- حسنًا، سأخبرك بقصّتي، أنا مدمنُ مخدّرات منذ وقت طويل. حضرتُ إلى هذا المكان بمحض إرادتي. أعملُ في الحقول إلى حدّ الإجهاد، وأعتقدُ أنّ المجهودَ الجسديّ المكثّف قادرٌ على معالجة الإدمان.
- معسكراتُ عمل مدنيّة اختياريّة، سمعتُ بهذا النمط من العلاج.
- نعم، لكن هناك فارق بسيط. اختياري ليس اعتباطًا فأنا ابن هذه المنطقة. حضرتْ بالأمسِ صديقتي إيميليا وهي مدمنة كذلك. سنبقى حتى ننتصر على حالة الإدمانَ المقيتة.
- لن يكون الأمر سهلا كما تتوقّع، إلى أيّ حدٍّ أنتم مدمنون؟
- بما فيه الكفاية.
- البداية سهلة..
- نعم، البداية سهلة للغاية، تضع السيجارة في فمك وتغيب في عالم آخر بعيدًا عن الواقع، ثم تبدأ الحياة تهرب وتنساب من بين يديك، أريدُ أن أستعيدَ حياتي يا نيكي، أريدُ أن أستيقظَ صباحًا دون أن أفكّر بجرعة اليوم، وأحتاجُ أحيانًا لأكثر من حقنة، وكثيرًا ما يصعبُ عليّ توفير ثمن الحقنة الأولى فما بالك بالثانية. أشعرُ أنّي أموتُ ببطء. أعرفُ أنّ موتي قبيحٌ، ولن يفتقدني الكثيرون. طعمُ الحياة مرٌّ للغاية، لا أستشعرُ اللذة في ممارسة طقوسها اليومية. الثمنُ الذي أدفعه لإدماني باهظٌ للغاية.
- ضريبةُ الإدمان كبيرة يا فلاديمير، لا شكّ في ذلك.

- أنتَ لم ترني بعد أتلوّى على الأرض من شدّة الألم، كالكلاب تمامًا وهي بالمناسبة تفهمني جيّدًا، لكنّها غير قادرة على مساعدتي. هذا لا يعني بالطبع أنّك قادرٌ على مساعدتي، هذه لعنة أعيشها منفردًا. يكفي أن تهزّ رأسك علامة التعاطف والفهم في الوقت الراهن.
- لكلّ منّا مشاكله ولعناته. أنا مثلك تمامًا أحاول الهرب من شياطيني. ليست المخدّرات لكنّها لا تقلّ عنها لعنة.
- نسكنُ بيتًا في سفح التلّ ليس بعيدًا عن كوخك. أرجو أن تزورنا قريبًا.
- يسرّني ذلك يا فلاديمير. سأفعل بالطبع.

يا للسخرية، كلّ منّا يهرب من شياطينه، أمارسُ الهربَ طِوال حياتي، لا أفكّر كثيرًا حين أجد نفسي مضطرًا لذلك. أهرب دون تفكير. أعتقدتُ بأنّي سأجني الكثير حال هروبي المفاجئ من صوفيا، أعتقدتُ بأنّي سأخدع الزمن والقدر والقوانين الطبيعيّة والعصابات المنظّمة، لكنّي في الواقع كنتُ أخدع نفسي، وهجرتُ المرأة التي بحثتُ عنها طويلا واشتهيتُ قربَها طوالَ حياتي، تركتُ صديقي كريستيان وحيدًا في مستشفى الأمراض العقليّة والنفسيّة. هربتُ من جبهة الحياة الحقيقيّة بحلوها ومرّها، وحضرتُ إلى الجزء الخلفي والهادئ للجغرافيا ليكتبَ التاريخُ نسياني. هذه القرية جميلة وأحبّها، لكنّ وجودي فيها قسريًا وليس عن طيب خاطر. كأنّي أنفي نفسي بنفسي. لم يكنْ وضعُ فلاديمير وإيميليا مختلفًا. نحنُ غرباء في أوطاننا، والاغترابُ بات سمة العولمة. هناك الكثيرُ من الأرواح المعذّبة المنتشرة تبحثُ عن ذاتِها وتحاولُ الهربَ من سياط الزمن، والانفلات من الأطر العامّة للحياة، والهرب من قوانين السلامة العامّة والسقف الأعلى للرواتب المصادق عليها في الصالات الرحبة للبرلمانات الدوليّة، وفي سراديب وأروقة الوزارات ومكاتب ومقرّات الأحزاب السياسية. لكن يصعب استعادة الحياة المسروقة، وعلينا التوقّف في الوقت المناسب عن الهرب العابث.

- نيكي، عليّ أن أعود. كان فلادي يحدّق بي. شعرتُ في تلك اللحظة بأنّي أنا المدمن وليس الفتى الذي يجلسُ أمامي. كان بإمكانِهِ العودة إلى حياته الطبيعية حال تحرّره من المخدّرات، لكن إدماني مختلفٌ فأنا أحترفُ الهرب.

- نعم، يمكنك العودة لإيميليا، سأراك قريبا.

عاد فلادي لحبيبته وبقيتُ أنا وحيدًا أسيرَ أفكاري وإرهاصاتي النفسيّة. لاحظتُ أنّ فلاديمير يحملُ هاتفًا جوّالا، هذه غلطة يا صديقي، لكن يمكنني الاستفادة من هذه الفرصة فيما بعد. سأخابرُ ليودميلا وأدعوها لتحضرَ برفقةِ ديانا إلى هنا. أحيانًا تتدخّلُ الصدفُ ولا تترك أمامنا أيّ مجالٍ للاختيار. ما دام هناك وعلى بعد خطوتين منّي هاتفًا إذًا فلتحضر النساء.

هل أفرطتُ في مشاعري الرومانسيّة؟ هذا صحيح، وإلا لما اعتبرتُ زيارة بريئة لابنتي برفقة أمّها حدثًا قد يغيّر مجرى حياتي. كنتُ في الواقع أتجنّبُ البقاءَ وحيدًا برفقة ليودميلا بين جدرانٍ أربعة، بل كنتُ حتّى أتجنّب النظر إلى عينيها مباشرة، وعليّ أن أبقى برفقتها طوال الوقت إذا ما وافقت على الحضور إلى القرية، هي التي لم تمانع من حضوري الرجوليّ في حياتِها من قبل. لكنّ الأمورَ الآن تبدو مختلفة، سئمتُ الغزوات العاطفيّة العابرة، والعلاقات الطارئة دون مستقبل واضح ومحدّد. الآن بعد أن تمكّنت أخيرًا من اكتشاف كاتيا ومعرفة طعم السعادة، لن أغامر بفقدان كلّ هذا من أجل نشوة مؤقّتة وليلة دافئة في حضن امرأة، حتّى وإن كانت طليقتي. أدركُ في أعماقي حجم تعلّقي بكاتيا، حبّي لها بحجم تعلقي بالحياة. أحبّ روحَها وهمسَها وغضبَها وجموحَها وابتسامَتَها الساحرة. كنت أفكّر بدعوة كاتيا في الوقت نفسه، لكنّ الأمورَ ستزدادُ تعقيدًا. يبدو أنّي على وشك إخضاع رجولتي ووفائي لامتحانٍ عسير.

المطرُ ينهمرُ في الخارج، ومن بعيد رأيتُ ستويانكا مقبلة تحوي تحمل طبقًا كبيرًا فوق رأسها. أسرعتُ لملاقاتِها ومساعدتها، هذه المرأة مثالٌ للعطاء والطيبة.

- نيكي، أحضرتُ بعضَ ما تشتهيه روحُك يا عزيزي.

- بارك الله بك يا ستويانكا، لماذا لا تدخلين لترتاحي قليلا.
- لا يا نيكي، ليس لديّ ما يكفي من الوقت الآن، لديّ الكثير من الأعمال المنزلية. إحدى البقراتِ مريضة على ما يبدو ولا بدّ من عرضها على طبيبٍ بيطريّ. نيكي، تعالَ لزيارتِنا في المساء، لا تتعذّر فلديك الكثير من الوقت هنا.
- سأحضرُ في المساء، أشعرُ بحاجة لمحادثة كوستا. سارعت ستويانكا بالذهاب، كانت تعاني وكأنّها هي المريضة وليست البقرة في حظيرتها. لا شكّ أنّها تعتبر تلك الحيوانات بمنزلة أبنائها، بل وربّما أكثر من ذلك. الحيواناتُ الأليفة هي المصدر الوحيد للحياة في هذه القرى. سارعتُ بالعودة إلى منزلي الصغير، بعد أن تدنّت درجاتِ الحرارة وقاربت الصفر. ما أحضرتْهُ ستويانكا كان شهيّاً وملأت رائحتُه المكان.

وضعتُ الطعامَ على الطاولة، لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذا النمط من التغذية متعذّر في العاصمة صوفيا، لطعم الباميا هنا مذاقٌ آخرٌ مختلفٌ وشهيٌّ، لامستْهُ يدا ستويانكا ولم تبخل عليه بالبهار والمقبّلات. أكادُ أستشعرُ النار الخفيفة الهادئة والوقتَ الذي أودعتْهُ في الطعام. للوقت دورٌ مهمّ في نضوج الحيوات. انقضضتُ على الطعام أمامي كذئب مفترس. بالقرب منّي يوجد على ما أعتقد راديو صغير، كافٍ لملء الفراغ من حولي بالحياة والحيويّة. أرغبُ بالاستماع لمحطّة إذاعيّة ما، فليتحدّث أحدهم وليغنّي آخر. صدح مطربٌ بالغناء قاطعًا حبلَ الصمت الذي يلفّ عالمي. ثمّ قررتُ النومَ لساعة من الزمن. أمتلكُ هنا 24 ساعة كاملة، لذا يمكن أن أسمح لنفسي بهذا السخاء دون حساب.

حين استيقظتُ من النومِ شعرتُ أنّ المكان سينهال فوق رأسي من شدّة وقع المطر فوق قرميد الكوخ الصغير. وقفتُ فزعًا وهرعتُ إلى الباب وما أن فتحته حتّى لطمتْني الرياحُ محمّلة بحبّاتِ مطرٍ كبيرة. الهواءُ شديدٌ وحبّاتُ المطر تتراقصُ في مهبّ الريح. تيقّنتُ بأنّي قادرٌ على البقاء وأنّ المنزلَ سيصمدُ ولن ينهارَ فوق رأسي، كلّ ما في الأمر أنّ الرياح تناطحُ المنزلَ دون عوائقٍ إسمنتيّة.

كنتُ والطبيعةُ على موعد. قرّرتُ مباشرة الكتابة، منحني العنوانُ الجديدُ ثقة كبيرة ورغبة بمتابعة الكتابة. الكلماتُ أكثرَ طوعًا بين يديّ، والكتابةُ متعة، لكنّي اقتنعتُ بعدم وجود ضرورة لكلّ هذا التوحّد والعزلة من أجل الإبداع والكتابة، وإلا لتحوّل القرويّون إلى كتّابٍ وشعراء. توحّدي الموهوم هربٌ من عجزي عن الكتابة وتفريغٌ لخزانة الذاكرة نتيجة لوقع أحداث كئيبة متتالية، بإمكاني الكتابة بالطبع جالسًا في ترام أو حافلة ركّاب أو حتّى في قطار مثلا. في تلك اللحظة أخذ أبطالُ روايتي ينادوني بأسمائهم، كلٌّ منهم على حدة. يبحثون عن الحياة ولسان حالهم يقول "نيكي، اكتُبْني أرجوك"، وأنا بصدد أن أفعل ذلك حتّى الحرف الأخير فوق الورق.

توقّفت الأمطارُ أخيرًا، وعليّ الذهاب لزيارة جيراني كما وعدت، سأذهبُ بداية لزيارة فلاديمير وإيميليا وسأتّصلُ من هناك بليودميلا وديانا. لا توجد ضرورة لتحديد موعد مسبق في هذه الفضاءات الشاسعة. انطلقتُ على الفور، طرقتُ البابَ الخارجيّ وسمعتُ فلاديمير يصيحُ من الداخل.

- ادخلْ يا نيكي، الباب مفتوح. دخلت. البيتُ متلفّعٌ بالصمت، وزجاجاتُ الكحول ملقاةٌ في الأنحاء، وهناك شخصٌ متقوقعٌ وملتفٌّ حول نفسه، كأنّه قد تعرّض لأزمة حادّة قبل لحظات، والجسد الملقى يعاني بشدّة من آلامٍ مبرّحة.

- إيميليا في منتهى الجمال، تقاطيعُ وجهها مرسومة بعناية فائقة، جسدها متناسق. في تلك اللحظة كانت تدعو الله العفوَ والمغفرة والرحمة والخلاص، أو الحصول على غرام واحد من الكوكايين على الأقل.

- يبدو أنّي قد حضرت في وقتٍ غير مناسب.

- لا يوجد وقت مناسب وحالنا كما ترى. لا عليك يا نيكي، ادخلْ أرجوك. قريبًا سيعودُ كلّ شيء إلى وضعه الطبيعي، أعطيتُها بعضَ المسكّنات، لا بدّ من الاحتيال على المجسّات العصبية المستثارة، كيلا ينفجر الجسد.

- هل هذا هو نيكولاي؟
- نعم أنا نيكولاي يا إيميليا.
- اللعنة، لماذا تسير الأمور بهذه الرتابة الجهنميّة، أموتُ في اليوم مئة مرة. قالت إيميليا والألمُ واضحٌ على تقاطيع وجهها.
- ونولد مرّة واحدة، أضاف فلاديمير بعبثيّة.
- ما زلتُما في مقتبل العمر، عليكُما تجاوز هذه المرحلة القاسية، الإدمان يقتل الروح يا إيميليا، ابحثي عن القوّة الكامنة في ذاتك لتتمكّني من تجاوز هذه العقبة. الطاقة تتحوّل من شكلٍ إلى آخر في هذا الكون الذي لا يعترف بالفراغ. أنتِ يا إيميليا في منتهى الجمال ولا ينقصك سوى تحويل طاقتك السلبيّة إلى إيجابيّة.
- كلامٌ فارغ، الجمالُ حالة عابرة، كلّ شيء نسبيّ ومرحليّ وهنا الطامّة الكبرى. أين الحقيقة يا تُرى؟ بدأتُ بتعاطي المخدّرات حتى أزدادُ جرأة وأجتذب المزيد من الإعجاب. والآن، أنا على استعداد لمضاجعة الكلاب الضالّة المسعورة للحصول على جرعة. لا أظنّك تفهم ألمي ومعاناتي.
- لكلٍّ منّا شياطينه التي تقضّ المضاجع يا سيدتي.
- اجلس يا نيكي، لعلك تشاركنا كأسًا في هذا المساء؟

حاول فلادي تهدئة روعي وخلق جوّ من الألفة، رغم الأزمة التي هاجمت صديقته إيميليا. بدأت الأمطارُ تهطل مجدّدًا وبقوّة. شعرتُ مدى تأثير الجوّ الكئيب في الخارج على نفسيّة إيميليا ومزاجها. كان من الصعب تركهم على هذي الحال، جلستُ إلى جانب فلادي على المائدة، وبقيتُ أراقب إيميليا طوال الوقت:- فلادي أحضرْ لجنًا كبيرًا وضعه أمامها، إميليا ستتقيّأ، صدّقني. سارع فلادي بإحضار لجن من المطبخ ووضعه أمامها.

- يمكنك أن تتقيّئي يا حبيبتي، افعلي ذلك إن كان هذا يريحك.

- التقيّؤ يريح المعدة، أعرف ذلك لكن ليس هناك ما أتقيّؤه، مجرّد عصارة معديّة شديدة الحموضة وطعمُها سيّء للغاية

شعرتُ بالاختناق في تلك اللحظة، وكان هدفي أن أروّح عن نفسي قليلا، لا أن أصبح جزءًا من مصائب الآخرين. أردتُ أن أشربَ كأسًا بصحبتهما، لأجد نفسي وسط عاصفة. إذا غادرتهما توًّا سيكون من الصعب عليّ العودة لزيارتهما مجدّدًا. يبدو أنّ هذه المشاهد المأساوية ستستمرّ طويلا، هذه ليست الأزمة الوحيدة التي سأراقبُها في هذا المنزل، وأنا غير قادر على تقديم العون لهما مهما حاولت.

- أخبرني يا فلادي، كيف يمكنني مساعدتكم؟ يبدو أنّ الأمور أكثر تعقيدًا ممّا كنت أتوقّع.
- أصبحَ لديّ بعض الخبرة في مقاومة الإدمان، لن أتوقّف حتى أنتصر عليه، لكنّ إيميليا توقّفتْ عن تعاطيه منذ بضعة أيام فقط. لا أدري حدود تحمّلها، يبدو أنّها أضعف بكثير ممّا كنت أتوقّع. عدا عن هذا تعوّدتْ صديقتي الأريحيّة والبذخ، وأنْ تكون محطًّا للأنظار. الكثيرون يخطبون ودّها، وها هي الآن أسيرة كوخ بائس في قرية تقع خارج حدود الجغرافيا.

لا تتحدّث عنّي بصفة الغائب يا فلادي. قالت إيميليا بغضب، وأضافت: أنا ما زلت هنا.

- صحيح، تعالي لتجلسي معنا، انسِ آلامك ولو للحظة. قلتُ محاولا تشجيعها.
- نظرتْ إليّ متوسّلة، كانت تبحث عن الدعم والحبّ ومزيدًا من التعاطف، وأخيرًا حضرت للجلوس بيننا.
- نعم، هذا أفضل، لا يجوز أن يبقى رجلان وحدهما على المائدة بينما تجلس أجمل النساء وحيدة في الزاوية كأنّها معاقبة.
- لماذا أنت وحيد يا نيكولاي؟ سألت إيميليا.

- لن تستمرّ هذه الوحدة طويلا. قريبًا ستحضر ابنتي برفقة زوجتي السابقة.
- لديك ابنة؟ سألت إيميليا باهتمام واضح.
- نعم واسمها ديانا، طفلة صغيرة في منتهى الجمال.
- كم عمرها؟
- في السادسة من العمر. في صفّها الابتدائي الأول.
- طفلة صغيرة في هذه القرية. هذا رائع، حضور ديانا سيلّطف الأجواء.

ملأ فلاديمير الكؤوس الفارغة أمامنا، وسرعان ما قطع رنينُها ثقلَ الصمت القاتل. أدركتُ أنّ حضوري إيجابيًا، يمكنهم الخروج من حالة الهذيان الناتجة عن نقص المخدّر في شرايينهم. ربّما سئموا الوحدة والمناكفة. فلاديمير مصرٌّ على الانتصار على إدمانه عكس إيميليا التي بدت متردّدة، على وشك العودة لتعاطيها في أوّل مناسبة. يقلقُ هذا الواقع فلاديمير إلى حدٍّ بعيد، يبدو كأنّه عاجزٌ عن مساعدة إيميليا بهذا الخصوص. لا أدري إلى متى سيتحمّل دلالها وتسلطها، وقد ينفصلان في وقتٍ قريب وهذا أمرٌ متوقّع.

- تعرفان بالطبع كوستا وستويانكا، أليس كذلك؟
- كيف لا يا نيكي. لكنّنا نتجنّب الاختلاط مع أهل القرية ونحن على هذا الحال. لا أظنّهم قادرون على تفهّم وضعنا، غالبيتهم على الأقل.
- فلادي، هل تسمح باستخدام هاتفك؟ أرغب بمحادثة ديانا.
- طبعا يا نيكي. طلبتُ رقمَ ليودميلا حالما ناولني فلاديمير هاتفه الجوال، لم يستمرّ الحوار طويلا. وعدَتْني بالحضور مع ديانا في نهاية الأسبوع. وفي الأثناء غادرت إيميليا المكان.
- أين ذهبت إيميليا يا فلادي؟ سألتُهُ وأعدتُ له الهاتف.
- خرجتْ لتستنشقَ بعضَ الهواء الطلق.

- لماذا لا تخرج برفقتها؟ قد تكون بحاجة إليك.
- بل هي بحاجة إلى أمرٍ آخر مختلف تمامًا..لحق بها فلادي أخيرًا، بعد قليل سمعتُ صراخَهُما وعِراكَهما في الخارج. احتدمت فضيحة عائليّة صغيرة، وسرعان ما امتدّت نارها في المكان، لكنّ الفضاءَ الرحبَ هناك قادرٌ على استيعاب مئات الفضائح الشبيهة دون حرج. أدركتُ بحدسي أنّ إيميليا قامت بما لا يحمد عقباه. الأمورُ لا تسير مؤخّرًا على ما يرام. ما أن اجتمعتُ وكاتيا تحت سقفٍ واحد حتّى تحتّمَ عليّ مغادرة المدينة والابتعاد عنها. هنا في هذه القرية البعيدة عن الحضارة، أجدُ نفسي شاهدًا على خلافٍ وعراك عائليّ. عليّ أن أتقبّل الأمورَ على علاتها، لا أحد يملك القدرة على إصلاح العالم.

أدركتُ أنّ إيميليا قد تمكّنت خلال هذه الوهلة القصيرة أن تخزّ نفسها بحقنة لتطفئ عطشها المشتعل للمخدّر. بعد قليل عاد الاثنان إلى داخل البيت، وقد ابتلّا بماء المطر المصاحبِ للعاصفة. سارعَ فلادي بتقديم منشفة لإيميليا لتمسح الماء عن وجهها وشعرها. نشّفتْ نفسَها وجلست بيننا بسرور وارتياح. ابتسمتْ وأشعلتْ سيجارة، ابتلعتْ حتّى عمق رئتيها الدخانَ الأزرقَ ثمّ أخرجته على حلقات، لم يكن هناك ضرورة لمتابعة أيّ حديث. كنّا جميعًا نشعر بالراحة والاسترخاء وقد أشبعت السيّدة رغبتها. لم تتمكّن باختصار من التغلّب على سلطان المخدّر تلك الليلة وفي الليالي والأيام المقبلة.

أنتُما على ما يبدو تخادعان نفسيكما، هل هناك ضرورة لأن تعزلا ذاتيكما عن العالم، وأن تتحمّلا هذه الفاقة والحياة المزرية ما دمتُما تحملان معكما المخدّرات التي هربتما منها؟

- هل ترغب بتجربتها يا نيكي؟ ستعجبك دون شكّ. قالت إيميليا ساخرة. بعد قليل هامت إيميليا في عالم آخر بعيدًا عنّا، وبدت غير مبالية بحضورها الفيزيائي سواءً في القرية أو في أيّ مكانٍ آخر.

- الأفضل يا نيكي أن تحصل على حصّتها اليوميّة من المخدّر بدلا من أن تصاب بصدمة عصبيّة لا يعرف أحدٌ مدى مضاعفاتها. الإدمانُ قاتلٌ يا صاحبي ومن يعاند المدمن يندم. بعد قليل، جلست إيميليا في حضنه وأخفت رأسها في رقبته.
- بصحّتك يا فلادي، عليّ أن أغادر بعد قليل. أخشى الثمل بصحبة كؤوسك المترعة.
- بصحّتك يا نيكي، ماذا لو ثملت؟ يمكنك أن تمضي ليلتك عندنا، هناك الكثير من الأسرّة الفارغة. المكان واسع كما ترى.
- أشكرك على الدعوة، لكنّي رتّبتُ حياتي بطريقة محدّدة ولا أرغب بتغيير هذا النمط في الوقت الراهن. توقفتُ عن الحديث، لا أحد يستمعُ لي. فلاديمير يمصّ شفتيها ويداه تصول وتجول في صدرها. غادرتُ المكان دون أن أودّعهما، آخر ما كنتُ أتوقّعه مرافقة مدمنين في هذا المساء. ظِلّ الإدمان مرتفعٌ ومظلمٌ للغاية، وفي طريقي نحو كوخي الصغير، شكرتُ الخالقَ على حبّات المطر التي أعادتني إلى الحياة وأيقظتْ وعيي وحواسي.

* * *

لم تغادر إيميليا القرية بالسرعة التي كنت أتوقّعها، لكنّي وجدتُها تستمتع بوجودها في المكان وتحاولُ جاهدة الاستفادة ممّا توفّره القرية. فلادي استمرّ بتقطيع الأخشاب، جهد لبناء بيتٍ صغير للكلب في حديقة منزله. فلادي يعمل طِوالَ الوقت، لم يترك نفسه فريسة السأم وهو محقّ بالطبع، تلك هي الطريقة المثلى لمقاومة غواية الإدمان. أمّا إيميليا فتتقافز هنا وهناك في أنحاء القرية، تتشيطنُ وتضحكُ وتركضُ دون أن تشعر بالحرج. كانت محطّ الأنظار وجميلة، وتزداد غرورًا وثقة يومًا بعد يوم. كانوا يقدّمون لها الفطائر والفواكه والفليفلة المحشوة بالأرز واللحم. يدعونها للزيارة ويمتدحون جمالها، وفي المدينة الكبيرة هي مجرّد إحدى الدُمى الجميلة المدمنة وما أكثرهنّ هناك.

انشغلتُ بتنظيف المنزل، خاصّة الغرفة في الطابق العلويّ حيث من المقرّر أن تستقرّ ليودميلا وديانا، ويفصله عن الطابق الأرضي سلّم ضيّق. كان لزامًا علينا أن نحني رؤوسنا عند الصعود والهبوط. حرصتُ على وجود ما يكفي من الطعام والشراب، رغم أنّ وجودهم في القرية لن يزيد على اليومين في أحسن الأحوال. كنّا مدعوون للمشاركة بتعميد صبيٍّ وُلدَ حديثًا في القرية، وأنا على ثقة من أنّ حضورهم سيكون مناسبة للفرح والتعبير عن الرغبة بالتغيير وإن كان محدودًا.

دخلتِ البيتَ دون أن تطرق الباب، عادة ما تحضر بمعيّة فلاديمير، وهذا التصرّف أراه مخالفًا لطبيعة العلاقة التي تربطني بهما.

- مرحبا نيكي، متى سيحضر ضيوفك؟
- صباح يوم الغد.
- أنا مشتاقة للتعرّف إليهم.
- اقتنعتِ إذًا بضرورة البقاء في القرية؟ ظننتك تفضّلين المغادرة بسرعة.
- سأرحل في القريب العاجل، سئمت كلّ شيءٍ هنا يا نيكي. الرتابة نفسها كلّ يوم، هذا يقتلني. أعرفُ كلّ مترٍ مربّع في هذه القرية، أعرفُ جميعَ أهاليها، والكلابَ والأبقارَ والماعزَ أعرفُها. هذا كثير، يجب أن أعود للحضارة.
- ماذا عن فلادي؟
- يسعدني أنّه تمكّن من تجاوز محنته، لم يُشفَ نهائيًا من إدمانه بعد، لكنّ ذلك سيتحقّق قريبًا. فضّلتُ البقاءَ لمساعدته. أحيانًا تهاجمه النشوة، عندها يحتاج لمجهود كبير للتغلب على لحظة الهيجان، ويصبحُ مزاجُه صعبًا وقد يلجأ لتحطيم كلّ ما حوله ليعيد بناءه وتعميره فيما بعد. أنت مختلفٌ تمامًا.
- هذا ما يبدو لك، لكلٍّ منّا خطاياه يا عزيزتي.
- لا. أنت مختلفٌ تمامًا. غريزتي الأنثويّة تُنبئني بذلك. هل انتهيت من كتابة روايتك؟

- روايتي واضحة المعالم، أنا في طريقي لوضع نقطة النهاية، ربّما أحتاج لبطلٍ آخر كي يغني أحداثها مثلك على سبيل المثال. أعتقد أنّ مثيلتك ستظهر في روايتي دون شكّ.
- احذر أمنياتك فقد تتحقّق.

فتحت إيميليا أزرار قميصها العلويّة ونظرت إليّ بإغراء يصعب إخفاءه. عندها تذكرت كريستيان. هل يعقل بأنّه ما زال في المستشفى؟ أحيانًا تصبحُ النساء قاسيات وقادرات على الهدم وإيذاء مشاعر المقربين إليهنّ. قد تكون هذه المغامرة بالنسبة لإيميليا أمرًا عاديًا. أين اختفت الأخلاق التي عرفناها يومًا ما كالإخلاص والوفاء؟ يبدو أنّني موضة قديمة في هذا العصر. الحبّ شأنه كبيرٌ في حياة الإنسان، بل وفي جميع الأوقات والأعمار. هل يعقل أنّ عجلة الحياة دارت بسرعة أودت بهذه المفاهيم ليتحرّرَ الجسد من كلّ هذه القيود، لم أشتهِ هذه المرأة رغم جمالها وشهقات الجنس المتصاعدة من أتون جسدها الفتيّ. أرفضُ أن أصبح مجرّد رقم في سلسلة العشّاق الذين تسطرهم في مذكّراتها. أنا أكبر من ذلك.

- أنت أكبرَ منّي عمرًا يا نيكي وهذا ما يفتح شهيّتي. أريد أن أكتشفَ عالمك الناضج.
- شكرًا لهذا الإطراء، لكن عليّ أن أخيّب آمالك فأنا عاجزٌ جنسيًّا يا عزيزتي. كان عليّ أن أكذب في تلك اللحظة.
- هذا أفضل من الفحولة، أنا قادرة على إحياء الرجل الميّت في جسدك، من حسن حظّك أنّك الآن بين أيدٍ أمينة يا نيكي.
- أنا لست ملكًا لأحد، في الواقع لديّ امرأة وأنا أحبّها ولا أنوي خيانتها.
- لا تخف، لن يعرف بخطيئتنا أحد.
- أنا أعرف، وهي قادرة على تحسّس خيانتي، ليس لديّ أية رغبة بخيانتها.
- خسارة، اعتقدت أنّ الرومانسيين قد انقطعوا عن وجه هذه الخليقة.

أغلقتْ بعد ذلك قميصَها وبدا الوجومُ واضح على وجهها، شعرتْ بالدهشة على ما يبدو من إقدامي على صدّها، وقد أكون الوحيد الذي تجرّأ على ذلك. لم أعرْ ذلك كثير اهتمام، قراري نهائيّ. لن أمسّ هذه المرأة، لا شكّ أنّ النساء اللواتي يعرضن أنفسهنّ بهذه السرعة نادرات أو قليلات، عادة ما ينتظرن الخطوة الأولى من الرجل. قد يلمّحن أو يغمزن لكن الدعوة للسرير يقوم بها الرجل في الغالب، هو الذي يشدّها ويباشر بخلع ملابسها بينما تتمنّع شبه رافضة أو شبه موافقة. قد تكون تحت تأثير المخدّر الآن، من يدري؟ بعد بضعة أيام اختفت إيميليا عن القرية. طائرٌ جديد سارع بالابتعاد عن عشّه الحالم وفضّل المضي نحو شواطئ أخرى أكثر دفئًا وأكثر ضوضائية. بعيدًا عن زمن بدا كأنّه مقتطع من حقبة البيزنطيين، مع أنّ الجيوش الصغيرة المسلّحة بالدروع والرماح توقّفت عن المرور من هنا منذ وقت بعيد.

هل أنا رومانسيّ؟ لا بدّ من البحث عميقًا في روحي للتأكدّ من هذه الحقيقة. كلّ إنسان يحملُ في ذاته جرعة من الرومانسية، حتى في غضبه وخنوعه وعشقه هناك رومانسية كامنة، نتوق إليها بين الحين والآخر. إيميليا رومانسيّة حين عرضت جسدها، كانت تريد أن تشعر بمذاق رجولتي، لهذا شَعَرَتْ بالإهانة لرفضي. هذه مشكلتها بالطبع. قد أكون بغريزتي متحمّس لعناقها ومعاشرتها ورشف رحيقها، لكن هناك كاتيا التي قلبت عالمي رأسًا على عقب. لو أنّها تشبه كاتيا بعض الشيء ربّما تجرّأت على امتلاكها. حسنًا، هي لا تشبهها وقد تكون أجمل منها، ما الذي يمنع من المحاولة؟ أدركتُ في الواقع، أنّي غير قادر على البقاء دون امرأة لفترة طويلة من الزمن. الغريزةُ الكامنة في أعماقي سرعان ما ستنفجر وتطالب بحقوقها المهضومة. لكن ليس إيميليا. هل أنتَ متأكّد يا نيكي؟ تساءلتُ طويلا. نعم، أنا متأكّد. في اللحظة التي تحدّثتُ فيها عن الجنس شعرتُ بالنشوة تغادر جسدي. نامَ الحيوانُ الهائجُ في داخلي. لا أملكُ رغبةً بمسّ هذه الدمية المنفوخة.

لا توجد خيارات كثيرة في القرية، سرعان ما تنتهي الجولات التفقديّة للأصدقاء والكلاب والأبقار، لذا جلست أدوّن بعض الصفحات في روايتي المتجدّدة. كنتُ مصرًّا على المضيّ بمشروع الكتابة بين الحين والآخر والانتصار على كسلي وتقاعصي. تلك الليلة ورغم تشوّقي لحضور الصغيرة ديانا نمتُ مبكّرًا. وفي اليوم التالي بقيَ النعاسُ يلاحقُني طوال النهار. لم يتركني الخمولُ بل سيطرَ على وعيي وخلايا جسدي. غريبٌ أمرُ هذه التفاعلات الكيميائيّة، حين ينام المرء لفترة أطول تزداد رغبته بالنوم، وقريبًا ستحضر ديانا وليودميلا. ديانا تحتاج لعناية خاصة، أن تركض في البراري وأن ترضي فضولها وأن تطرح عشرات الأسئلة وهكذا. ديانا شقيّة ومزاجها متقلب، ربّما لأنّها مدلّلة أكثر ممّا يجب. صنعتُ القهوة، قويّة ومنعشة وجلستُ أمام البيت لأحتسي فنجاني الذي بدا أكبر من المعتاد، كان هذا أفضل ما قمت به خلال النهار، وشعرت بالحيويّة تدبّ في جسدي مجدّدًا.

أخذتُ أشعر بالقلق، كنت مستثارًا وأنا أعدّ الدقائق بانتظار قدوم الصغيرة ديانا. شعرتُ بموسيقى تناجي أذنيّ وأنّ هناك جوقة مغنّين يصدحون من حولي. حتّى الجبل الشاهق العملاق أمامي بدا كأنّه يتراقص في تلك اللحظة.

الحياة تحدٍّ وصراع وتمرّد وعشق وارتحال وشوق. يشعر الإنسان بالرضا ما أن تتحقّق بعضَ تفاصيل حياته الصغيرة. ينشدُ البرودة في أوقات الصيف، يبحثُ عن الدفء خلال الشتاء. يصلّي من أجل هطول الأمطار، يهرب من السيول الجارفة. الإنسانُ مصفوفةٌ من المتناقضات وأكثرَ من ذلك بكثير. فجأة هاجم حواسي صوتٌ مألوف للغاية.

- أبي، أبي. دلقتُ القهوة من شدّة تأثري، يا لها من مفاجأة، يا لهذا اللقاء المنتظر. ركضتْ ديانا نحوي فاتحة ذراعيها، أخذتُها في حضني ورفعتها عاليًا بين يديّ.

- يا إلهي، ازددت جمالا يا ديدي، الفضلُ يعود إلى الألعاب التي لا تنتهي. أهلا يا شقيّة.
- لا يا أبي، أنا لا ألعب طوال الوقت، أنجزُ أوّلا واجباتي، ألن تقبّل ماما؟
- طبعا، كيف حالك يا ليودميلا؟ تسرّني رؤيتك مجدّدًا.

كانت ليودميلا تقفُ خلفَ ديانا، في منتهى الأناقة كالعادة، تضعُ مكياجًا خفيفًا دافئًا يتناسبُ مع فصل الشتاء، أظهرت الألوانُ الغامقة تقاطيعَ وجهها كما حدّد غطاءُ رأسها العريض جيدَها. كانت في منتهى الإغراء وابتسمتُ لها. حين اقتربت منّي قبّلت وجنتها، فاحت رائحة عطر فرنسيّ في مناطقَ منتقاة بعناية في جسدها، معلنة عن حضورٍ أنثويّ صارخ كأنّي أراها للمرّة الأولى. أنا الذي أعرفُ جميعَ تفاصيل وتضاريس جسدها، وتحمل بين يديها سلّة بما لذّ وطاب.

- كيفكِ يا عزيزتي؟
- كما ترى أنا بخير، أنا بين يديك ثانية.
- هل وجدت المكان بسهولة؟
- أتمزح؟ حتّى الحيوانات هنا تعرف أين يعيش الكاتب نيكولاي. قبّلتُ وجنتيها ثانية، ضممتُها إليّ، التقتْ أعيُننا لوهلة. قرأتُ شوقًا في عينيها، دعوة للرقص وحنين لما مضى من الأيام الجميلة في بلوفديف.
- بابا، أريد أن ألعب.
- حسنا يا صغيرتي، يمكنك أن تلعبي في حديقة المنزل، حاذري من الحصى، سنتجوّل في المكان في وقتٍ لاحق. سنذهبُ إلى النهر والصخور الصلدة الكبيرة. ديانا، ادخلي إلى المنزل لترتدي ملابسَ دافئة إذا شعرت بالبرد.
- طبعًا يا بابا. بقيت ديانا في حديقة المنزل لتلعب، ودخلت مع ليودميلا لشرب القهوة.

- تفضّلي يا عزيزتي، لن ترفضين فنجانًا من القهوة على ما أعتقد. ما زالت ساخنة. بالمناسبة، أما زلت تشربينها دون سكر؟
- بل سكّر خفيف لو سمحت يا عزيزي.

صببتُ لها القهوة، وأنا مدرك مدى التعب الذي لحقها من عثواء السفر. حضورُها هذه المرّة هادئٌ على غير عادتها، عطرُها وأناقتُها ومناجاتُها هامسة "عزيزي" أصابتني بالارتباك بين يديها. كانت تعلمُ بأنّها مشتهاة في تلك اللحظة، بلغت ذروةَ الإغراءِ في هذا الخواء وأضفتْ على وجهِها ابتسامة حالمة، لا ينقصنا في هذه اللحظة سوى الشموع. أخذت تدركُ حجمَ وقيمة حضورها في المكان، وفوق هذا كلّه ليوميلا أمّ ديانا، كأنّ اللوحة قد ترتّبت من تلقاءِ نفسِها، كنّا نمثّل عائلة صغيرة سعيدة واعدة. لكنّ الأمورَ مختلفة إلى حدٍّ بعيد في واقع الحال، وسرعان ما تزول هذه الغمامة الجميلة لتظهر على السطح تناقضاتُ الماضي ولعنةُ الحاضر.

شعرتُ بالمهانة، لأنّه يترتب عليّ دائمًا أن ألعب دورًا مختلفًا عن المألوف. غالبًا ما أسير ضدّ التيار، أتجاهل تلقائيّة الحياة وأعادي النهايات المنطقيّة للأحداث، كان بإمكاننا أن نعود في اليوم التالي كعائلة نموذجيّة إلى بلوفديف مثلا.

- ما هي آخر نشاطاتك يا نيكي؟ إلى أين وصل مشروع روايتك؟
- نعم أنت محقّة، يبدو أنّي أكتبها منذ الأزل. لكنّ الأعمالَ الجميلة تتطلّبُ وقتًا أطول يا عزيزتي. سأنتهي من كتابة هذه الرواية يومًا ما، بل سأنهيها في وقت قريب.
- الآن ستأكل بعض الطعام المنزليّ الشهيّ.
- منذ حضرتُ إلى هنا لم أتوقفْ عن تناول الطعام. الجميعُ هنا مهتمّون بي للغاية، لا بدّ أنّ وزني ازداد بضعة كيلوغرامات.
- دعكَ من هذه الأعذار، لن ترفض ما صنعتْهُ يداي على ما أعتقد.

- وهل يعقل أن أرفض عرضك السخيّ، ماذا تنتظرين؟ دعيني أرى ما لديك. صبّي لنا كأسًا مع الطعام.
- بالتأكيد. أخرجتْ ليودميلا ما لديها من طعام، وضعتْه على الطاولة، ثمّ ملأتْ كأسين بعرقٍ محليّ الصنع ورفعت كأسها هامسة.
- بصحة ديانا.

بصحة ديانا. أفرغتُ السائلَ الحارق اللاذع في جوفي ثمّ أعدتُه فارغًا على الطاولة. الطعامُ الذي أحضرته لذيذًا، مخلّل الخيار والباذنجان، قطع لحم مسلوقة ومبهّرة ومنقوعة في ربّ الطماطم وغيرها من الخيرات. كلّ هذه المقبّلات والأطعمة والمشروبات وأنا وهي.

- يوجد حمّام وماء ساخن إذا أردت أن تستحمّي وديانا.
- طبعًا، سنستحم في وقت لاحق مع الصغيرة. نظرتْ إلى مخطوطة الرواية على الطاولة، مدّت يدها نحوها. نظرت إليّ بعينين راجيتين وقالت.
- أتسمح؟ لم تنتظر إجابة، ربّما كانت الإجابة مرسومة على تقاطيع وجهي. أخذت تتصفّح المخطوطة، وتتعمّد التوقّف عند أحد المواضع ثمّ تسارع في تصفّح فقرات أخرى. أخذت تقرأ وتحزنُ وتبتسمُ وتتفاعلُ مع المقاطع المختلفة وأخيرًا قاطعتُها قائلا.
- ليودميلا، آلو، من قال بأنّك تتواجدين في مكتبة؟
- روايتُك في منتهى الجمال يا نيكي، هل تنوي إصدارها؟
- طبعًا وأنتُما أوّل المدعوين إلى حفل التوقيع. اذكريني في دعواتك وتمنّي لي النجاح.
- ما رأيك لو ننضمّ لديانا في الخارج، لا بدّ أنّها في منتهى السعادة، هي بحاجة ماسّة للعب والانطلاق.

- اذهبي أنتِ الآن وسألحقْ بكما بعد قليل. أشعرُ بالإرهاق والتعب، أشعرُ أنّ الهواءَ في المكان شحيح. كأنّي أختنقُ يا ليودميلا.
- نيكي، هل الأمر جادّ للغاية، أترغب بطلب طبيب..
- لا، لكنّي أفرطتُ في تناول الكحول هذه الأيام. لا يوجد ما يستدعي القلق، اذهبي أنت لرؤية ديانا وسأحضر بعد قليل.
- هل أنت واثق من ذلك؟
- أعتقدُ بأنّي أصبحتُ بخير الآن. ابتسمتُ لها، اطمأنّت قليلا وذهبتْ لمرافقة ديانا وسارعتُ أنا بالتقيؤ. لا بدّ أنّي قد تعرّضتُ للبرد، جسدي يرتجفُ ورغبتي لإسعادهما كبيرة. غسلتُ وجهي وتناولتُ حبّة أسبرين، ارتديتُ ملابسَ دافئة، وضعتُ فوق كتفي سترة شتويّة ثقيلة وذهبتُ للانضمام لديانا وليودميلا. شعرَتا بالفرح حينما رأتاني أقتربُ منهما. نعم، اجتمعت العائلة الصغيرة مجدّدًا.

هناك لحظات يشعرُ الإنسانُ فيها بأنّه يمتلك كلّ شيء في الدنيا، ولا يحتاج لشيء آخر. مجرّد القدرة على استيعاب كلّ هذا الكرم الذي توفّر دفعة واحدة. ديانا وليودميلا تلعبان في الخارج، تسرقُ الصغيرة من الأيام طفولتها بملء كفّيها، ونظراتها مسلّطة طوال الوقت نحوي.

- ديانا الصغيرة، أحبّك يا شقيّة.
- وأنا أيضًا يا أبي. تعبتْ ديانا من اللعب في الهواء الطلق البارد وقرّرنا أخيرًا الدخول إلى المنزل، ديانا متعبة للغاية، أخذتُها بين يديّ وبدأت أملّس شعرها.
- أخبريني يا ديانا ما هي المادّة المحبّبة لكِ في المدرسة؟
- الرياضيات يا أبي، للأسف هناك الكثير من المسائل السخيفة في كتاب الرياضيّات، مثل أرنبان زائد ثلاثة عصافير.
- وما هي النتيجة برأيك؟

- ديانا مدهشة في حلّ المسائل الرياضية يا نيكي. قالت ليودميلا بجدّ وحزم.
- ماذا تقصدين يا ليودميلا؟
- يمكنك أن تتحقّق بنفسك، اسألها.
- حسنًا، ما هي نتيجة جمع تسعة زائد ثمانية؟
- النتيجة 17 يا أبي، وأيضًا 17+17= 34 ، وكذلك 34 ضرب 34 يساوي 1156. ونتيجة 1156 ضرب 1156 يساوي 1336336. أرجوك يا بابا الجميع يسألونني دائمًا عن هذه المسائل، هذا متعبٌ وكلّهم يحدّقون بي بدهشة. أريدُ أن ألعب، أن ألعب. هل تفهم يا أبي؟
- حسنًا يا صغيرتي، طبعًا أفهمك. ليودميلا، يجب أن نتحدّث بهذا الخصوص. ديانا تمتلك موهبة خارقة.
- نعم، وماذا يعني هذا؟ دعها تتمتّع بطفولتها يا نيكي، ستكونُ مبدعة في علوم الرياضيات ذات يوم دون شكّ. يدركُ الجميعُ ماهيّة اهتماماتها المستقبليّة، وبصراحة أكبر، ليس لديّ الإمكانيّة الماديّة لتسجيلها في مدرسة متخصّصة سواءً في بلغاريا أو خارجها. أعتقد أنّه لا ضرورة لذلك في الوقت الحالي. سوف تأخذُ الأمورُ مجراها الطبيعيّ مع مرور الوقت. ستتمكّن من تحقيق ذاتها وستجد مكانها في المجتمع وفي الحياة.
- ما بك يا أبي؟ لماذا ينبضُ قلبك بسرعة؟ كانت ديانا قد وضعت رأسها على صدري في تلك اللحظة، في الوقت الذي تملّكني التوتّر بعد أن تيقّنت من موهبتها.
- لا شيء يا عزيزتي، لا داعي للقلق.
- بابا، لا تسمح لهم بإجباري على مغادرة البلد، لمجرّد قدرتي على حلّ مسائل الكبار، أتعدني أن أبقى بينكم يا أبي.؟
- طبعا يا ديانا، أعدُك من كلّ قلبي، اعتبري الأمر منتهيًا. لا تفكّري بذلك ثانية.

بعد دقائق نامت ديانا على صدري. مدهشةٌ هي براءةُ الصغار، يصدّقوننا نحن الكبار بسرعة. لكنّي سأحافظُ على وعدي لها. أعتقدُ أنّ كلمات ليودميلا قريبة للواقع، ماذا لو تركنا الأمور على علاتها، ديانا ستجد الطريق وستنجح، لا داعي لتعقيد الأمور أكثر من ذلك. عدا عن هذا، إذا شعرت بأنّها متميزّة عن الآخرين وتحديدًا عن عالم الصغار، قد تعاني من العزلة والجفاء والعداء أيضًا، فالموهبة سيفٌ ذو حدّين.

- نيكي لا أريد أن تصبحَ ديانا حقلا للتجارب، أعدُك أن تشارك في المسابقات الوطنيّة والدوليّة في الرياضيات، وفي مسابقات الأولمبياد، لكن لا شيء سوى ذلك.
- نعم، كان عليك أن تخبريني عن قدراتها هذه من قبل يا عزيزتي.
- اكتشفتُ موهبتَها منذ وقت قريب، صدّقني. أعلمُ منذ سنوات أنّها ذكيّة ومتميّزة لكن ليس إلى هذا الحدّ. الفضلُ يعود لمعلّمتها، وهي مهتمّة بأمرها كثيرًا، كما وعدتُ بالعمل على تنمية مهاراتها الرياضيّة بشكلٍ مستقلّ. ما رأيك لو ننقلها إلى السرير يا نيكي؟
- طبعًا، في الحال.

قبّلتُ وجنتيها في نومها قبل أن أنقل بطلة الرياضيات إلى السرير. غطّيتها ببطانية شتويّة دافئة وعدت لديانا، جلستُ قبالتها ونظرتُ إليها مستفسرًا.

- هل هناك تفسير طبّي لهذه القدرات الرياضيّة يا ليودميلا؟
- لم أستشِر طبيبًا بهذا الخصوص ولن أفعل، لكنّي قرأت في إحدى المجّلات العلميّة أنّ أصحاب المواهب الخارقة يمتلكون قشرة رقيقة حول الدماغ مقارنة بالآخرين. طبعًا هي ليست الوحيدة فهناك الكثير من الأطفال الموهوبين.
- ما أجملها وهي نائمة.

- لقد تعبت من السفر واللعب، لهذا نامت بسرعة على غير عادتها. التقت أعيُننا مجدّدًا، أعرف أنّ هذه النظرات عادة ما تؤدّي إلى غرفة النوم، أمسكتُ يدها وهمست.

- لديّ صديقة اسمها كاتيا، أحبّها ويهمّني أمرَها يا ليودميلا. أعرفُها منذ وقتٍ بعيد لكنّنا اجتمعنا قريبًا. التزمتْ ليودميلا الصمت، نظرتْ إليّ مبتسمة. وقفت بعد قليل متحفّزة وقالت.

- سأذهبُ للنوم بجوار ديانا، أشعرُ بالتعب يا نيكي. شعرتُ بنبرة حزنٍ في صوتها، عيناها رطبتان. لا أدري ماذا كانت تنتظر منّي، من الصعب عليّ استقبال ديانا دون أمّها. أنا وليودميلا منفصلان منذ زمنٍ بعيد، ولكلّ منّا حياته الخاصّة.

أعرفُ أيضًا أنّ علاقاتها العاطفية كثيرة ولا تقتصر على رجلٍ واحد. كانت تتنقّل من رجل لآخر، ربّما توصّلت لاستقرار عاطفيّ مؤخرًا. لم يكن هناك أيّ مجال للغيرة والأنانيّة بهذا الخصوص. ولا يمكنني في الوقت ذاته الحفاظ على هدوئي وبرودة أعصابي، كأنّ الأمور في منزلي المؤقت هذا تسير بشكل طبيعي.

اقتربتُ منها، كانت تنظرُ لسقفِ الغرفة. حوّلتْ نظراتُها تجاهي وهمهمت بكلمات لم أفهم منها شيئًا. وضعتُ إصبعي على فمها وقبّلتها ثم ضممتُها إلى صدري وقبّلتها بعنف مجدّدًا، شفتاي تتنقّل وتصول وتجول فوق جيدها، تمتصّ رحيقها. أمسكتُ يدها ومضيت بها إلى غرفة نومي، كدتُ أمزّق ملابسها، كنت مستثارًا لأنّي لم ألمس امرأة منذ زمن. طارحتُها غرامًا غير ملزم. وهي تدرك ذلك، تعرفُ الطريقَ إلى جسدي وأعرفُ تفاصيلَ جسدها حتّى الملل، لكنّ العمليّة لم تكن رتيبة كأيّ عمليّة جنسيّة أخرى تتمّ ما بين زوجٍ وزوجة، كان جنسًا متألقًا، ربّما لأنّها أدركتْ أيضًا أنّ هذا لن يتكرّر ثانية، لذا استسلمتْ لي كما لم تفعل من قبل.

* * *

تصرّفاتُنا دلّت في اليوم التالي على أنّ ما حدث لم يترك أيّ أثرٍ واضحٍ في مشاعرنا. جهّزنا أنفسنا للمشاركة في مراسم التعميد في الكنيسة الوحيدة هناك، وكان من المتوقّع أن يحضر حشدٌ كبيرٌ من سكّان المنطقة.

- يا للمفارقة، لقد شاركتُ قبل أيّام بتطهير طفلٍ مسلم في قرية قريبة في بلوفديف، بالأمسِ احتفلَ جامع واليوم تحتفل كنيسة.

ارتدت ديانا وليودميلا ملابسَ جميلة ذا سمة رسميّة، أطالتا الوقوف أمام المرآة، بعد حين حضرت ستويانكا للتعرّف إليهما. عندها فقط شعرتُ أنّ البيت مسكونٌ وعامر، أخذت ستويانكا تلاعب ديانا وسرعان ما هاجمني الإحساس بالجوعِ مجدّدًا كأنّه لم يفارقني طوال الوقت. كان من السهل إرضائي لأنّ الطعام متوفّرٌ في كلّ مكان إلى حدّ الترف.

انتهت مراسمُ التعميد، قدّم القسّ شهادة التعميد إلى والديّ الطفل ونال اسم القديس جيورجي. اسم ملزمٌ وواسع الانتشار في دول البلقان. بعد ذلك قدّموا الطعام والشراب احتفاءً بهذا التقليد. شعرتُ في الأثناء بالرضا لأنّي قرأتُ آياتَ الفرح في عينيّ الصغيرة ديانا. كانت تلك الرحلة بمثابة جائزة وهديّة غير متوقعّة.

- أخبريني يا ديانا ما هي النتيجة المتوقعة إذا ضربنا العدد 12 بنفسه. يصعب عليّ تذكر هذه النتيجة يا صغيرتي. نظرتُ إليها مبتسما.

- كفى يا أبي، النتيجة 144، و 144 مضروبة بنفسها تساوي 20736. هل أنت راضٍ يا أبي؟ لا أدري إذا كنت تشعر بالفخر أيضًا. انتشيتُ وشعرتُ بالدهشة في تلك اللحظة. تُرى، ماذا يقصد الخالق حين وهبها هذه القدرات الرياضيّة الخارقة؟ هل هذه الموهبة نعمة أم نقمة؟

أطرحُ الكثير من الأسئلة طِوال الوقت. يبدو بعضُها ساذجًا وعابرًا وغير ضروري أيضًا. أبحثُ عن حقيقة مختلفة عن تلك المألوفة بيننا. حقائقٌ محرجة يهرب الكثيرون من لمسها والتقرّب إليها. لن أشعر بالراحة حتى أصل غايتي،

عندها سأتمكن من العودة لذاتي والتملّص من سكتة قلبيّة متوقّعة. ألم تتنبأ ديانا بهذا ليلة البارحة.

غرقتُ بالتفكير بها دون غيرها وأنا أحمل ديانا فوق كتفيّ، وليودميلا تسير بقربي ملتصقة بي ممسكة بذراعي. وعلى حين فجأة تجسّد ما كنت أفكّر بها وأتمنّاه وأخشاه في الوقت نفسه. ظهرت كاتيا أمامي جميلة ومندهشة وقلقة ومصدومة. كاتيا تقفُ أمامي محدّقة بي، المرأة المشتهاة بلحمها ودمها، تبتلع في تلك اللحظة جرعة كبيرة من الإحباط والخيبة. لماذا كلّ نسائي محكومات بالإحباط والضياع؟ هل أنا السبب الوحيد في هذا المصير؟ ليس من العدل أن تبدو الأمورَ بهذه الصورة المرعبة، المصيبة أنّ الحقيقة التي انكشفتْ أمام ناظريّ كاتيا لم تكن سوية. من حقّ أولياء الأمور أن يجتمعوا بين الحين والآخر للاهتمام بشؤون أطفالهم. عندها صاح صوت في جوفي "لكنّك فعلتها ليلة البارحة". جامعتها وقبّلتها وأخذتها بين أحضانك وقذفت فيها مياهك وأشبعت رغباتك. هل كلّ هذا من أجل راحة ديانا؟ الحقيقة أنّ كاتيا شاهدت بأمّ عينها عائلة صغيرة في منتهى السعادة. عائلة مكوّنة من طفلة جميلة ووالدة برفقة عشيقها الشقيّ نيكي، ألا يكفي كلّ هذا لإصابتها بالإحباط؟

اختفت كاتيا بسرعة البرق عن ناظريّ، تبخّرت دفعة واحدة. لم أتمكّن حتّى من التفكير باللحاق بها، لم تكن هناك أيّة ضرورة لذلك. من المستحيل إصلاح تلك الغلطة في هذه اللحظة بالذات. لكنّي شعرتُ عندها كيف أخذ قلبي يركض خلفها، كانت تترنّح من هول الصدمة، وقلبي حارسها وملاكها يمنعها من السقوط، قلبي يحومُ حولها، يسعى جاهدًا لامتصاص آلامها وقلقها وشياطينها التي انفلتت من عقالها، تلاحقُها وتفرضُ عليها حالة من الانهيار وانخداش مشاعرها الأنثويّة. الإحساس بأنّ كلّ شيء قد ضاع وانتهى، وأنّ الحياة أصبحت بلا طعم أو رائحة. لهذا خانني قلبي وتركني مفضّلا اللحاق بها..

- نيكي، نيكي. الكثير من الأصوات تناديني وتستدعيني. رَشّوا وجهي بالماء، شعرتُ أنّ هناك حشدًا كبيرًا قد تجمّع من حولي. من الصعب عليّ التعامل

مع هذه الوضعية المحرجة. ما الذي حدث لي في تلك اللحظة؟ أدركتُ أنّ قلبي قد هرب من صدري ولا أملك الحيلة لإعادته ثانية ليصبح أسير عضلاته خلف القفص الصدري.

يصعبُ عليّ قبول هذا الموقف، من الأفضل البقاء على تلك الحالة بدلا من محاولة ضبط خفقات القلب. كنتُ نصفَ حيّ وأكثرني ميّتا، أراقبُ الخوفَ والهلع على أوجه الحشد الذي تجمّع من حولي. وفي ضبابيّة الحدث لاح لي وجه ليودميلا وديانا تبكي بحرقة، وأنا أركضُ جثّة متعفّنة بائسة، يركض الجزءُ الحيّ منّي خلف المرأة التي سدّدتُ لها خنجرًا في الظهر والصدر والوعي. أخذوا يضغطون على صدري، كرّروا تلك العملية المذلّة، لماذا لا يتركوني أركض خلف حبيبتي ويتخلّون عن التنفّس المصطنع هذا؟ أنا الخاطئ. تحدّثوا عن ضرورة الاستمرار بتدليك القلب، كلّ هذا الجهد من أجل استمرار عبثيّة الحياة. يا لها من سذاجة. يبدو أنّهم سينجحون بتنشيط آليّة عمل قلبي. حياتي بين أيديهم، لهم أن يعيدوها لي، ولهم أن يتركوني أسير غيبوبتي بغضّ النظر عن إرادتي.

- ماذا حدث؟ سمعتُ صوتي يرتفع ثانية.
- غبتَ عن الوعي فجأة، كنتَ تحمل ديانا حين سقطتَ على الأرض كأنّك شاهدت شبحًا مرعبًا. قالت ليودميلا والخوف ما زال يسيطر عليها. مددتُ يدي حاولتُ مسح الدمع عن عينيّ ديانا:- هل أنت بخير يا صغيرتي؟
- نعم يا أبي، لكنّك أنت من وقع على الأرض..لم تتمكن الصغيرة من إتمام كلماتها وفاضت عيناها بالدمع ثانية.
- أنا الآن بخير يا صغيرتي. لقد تحسّنت، أجهدت مؤخرًا على ما يبدو، أعدك أن أريح نفسي، لا تقلقي بعد الآن يا ديانا.

الضربة التي واجهها قلبي هذه المرّة ضعيفة للغاية، لم تكن هناك أيّة مضاعفات على أعضائي أو أطرافي، رغم شعوري بالعجز والشلل طِوال الوقت.

تمكّن قلب الصغيرة ديانا من التنبّؤ بهذه السكتة، لكنّ نسائي لم يتوقعن حضور سيّدة هذا القلب دون سابق إنذار في لحظة الصفاء العائلي المؤقّت. لهذا لم تكن لديّ الرغبة بتحميلهما ذنبًا لم يقترفنه، لا داعي لمزيد من المعاناة. تمنّيتُ مغادرتهما إلى بلوفديف بعد أن شاهدتا ما يكفي من انهيار الإنسان في ذاتي. أرغبُ بمعايشة فراق كاتيا بطريقتي الخاصّة. من جهة أخرى، وجودُهُما ضروريّ لتخفيف الأزمة العاطفيّة التي عصفت بي. قد أصاب بالجنون إذا بقيت أسير وحدتي، أهلا كريستيان. عندها أدركت حجم الانفجار العاطفي الذي ألمّ بالفتى وكنت على وشك اللحاق به.

يمكن لعلاقة حبّ أن تحيي وأن تميت. أحيانًا تصبح الخيارات المتوفّرة بين أيدينا محدودة بل ومعدومة. العالم كلّه بالنسبة لي الآن هو كاتيا، أرى نساءَ الدنيا من خلال عينيها. أصبحتْ هذه المرأة بالنسبة لي في تلك القرية النائية مركزَ الكون.

- يجب أن ترتاح قليلا يا نيكي، تبدو مرهقًا. قالت ليودميلا بحنان.

لديّ رغبة شديدة بالتعبير عن مشاعري وتشريح روحي أمامها، والبوح لها بأنّي على وشك خسارة الدنيا بشخص كاتيا، لكن من الصعب القيام بذلك وهي التي كانت ملك يدي ليلة الأمس، عشيقة أو مطلقة أو بحكم العادة، لا فرق. لا يمكنني أن أصرّح لها بعشقي الآخر وبتعلّقي بامرأة أخرى. كنت قد خرجت على كافّة المعايير الإنسانيّة، لا تسامُحَ في تجاذبات القلب ومفاضلاته، هناك ضرورة أحيانًا لتغييب النساء من أجل واحدة. أدركتْ ليودميلا أنّها بعيدة كلّ البعد عنّي. لن يفي المكياج الدافئ والملابس المحسورة لإغرائي، عليّ أن أعيش هذا المأزق العاطفي وحيدًا.

- لقد تحسّنت حالتي كثيرًا، يمكنك المغادرة مع الصغيرة ديانا إلى بلوفديف وقتما تشائين. رفضتُ حتى ذكر اسمها.

- هل تعدني بمراجعة طبيب متخصّص يا نيكي؟

- طبعًا، أعدك بذلك.
- بابا، لماذا لا تعود للعيش معنا في بلوفديف؟ سأهتمّ بك كثيرًا، صدّقني. أنا لا أمضي النهار كله في المدرسة. قالت ديانا ببراءة الأطفال.
- شكرًا للدعوة يا صغيرتي. سوف أفكّر بالأمر، أعدك بذلك. سأحضر إلى بلوفديف لاحقًا، بعد أسبوع أو أسبوعين.
- حسنًا، كما تشاء يا أبي.

بعد ساعات معدودة حزمت ليودميلا متاعَها القليل وانطلقت مع ديانا مودّعتان إلى بلوفديف. شعرتا بالراحة والاطمئنان تجاهي، بعد أن تمكّنتُ من كبت جماح عواطفي وقلقي واندفاع البركان المتفجّر في أعماقي.

- لن أنسى أبدًا ليلة الأمس يا نيكي، كنتَ رجلا فوق العادة. لا بدّ أن نجرّب ذلك ثانية. كان ذلك آخر ما تفوّهت به ليودميلا قبل أن تختفي عن ناظريّ. قبّلتُ وجنتيها مبتسمًا، لم يشعرني هذا الإطراء بالرضا، كنتُ مشدوهًا أكثرَ منّي فخورًا. ثمّ طوت المسافاتُ طيفها وبقي وجه ديانا يبتسم لي وهي تلوّح مبتعدة.

بقيتُ الآن وحيدًا في الكوخ الصغير، لا حياة من حولي في تلك الساعة، بعضُ العصافير تزقزقُ بين الفينة والأخرى. كنت معزولا عن العالم أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى. أمّا ستويانكا وكوستا فكانا منشغلين بأمورهما الرتيبة وهموم الحظيرة. لم أعد ضيفًا في هذه النواحي وعليّ الأخذ بالاعتبار مشاغل وهموم الآخرين. انغلق فلاديمير على نفسه بعد أن غادرت إيميليا إلى صوفيا. لم يعد ثرثارًا كالسابق، انشغل طِوالَ الوقت بمحاولة ترميم أيّ شيء أو بناء مخطّطٍ صغيرٍ آخر كجزء من العلاج. لديه خطّة واضحة للشفاء وهو ماضٍ في تنفيذها.

لن أسيرَ عكس التيار، ما دامت الحياة قد اختارت عزلي عن العالم فليكن ذلك، لن أتعرّض لحياتي مهما حدث. لديّ مشاريعَ أخرى عدا الموت في قرية نائية. عليّ أن أجد تلك المرأة الأيقونة مهما تطلّب الأمرُ من جهد. أن أشرح لها كالعادة ملابسات الحدث الواضح كعين الشمس. كنت على استعداد للزواج منها

على الفور، على استعداد لنفيي إلى سيبيريا إذا كان هذا هو ثمن عودتها. كيف تشابك تيار الزمن وظهرت في تلك اللحظة بالذات؟ لو أنّها تأخرت نصف ساعة فقط، ربّما أدركتُ بأنّ الصورة مختلفة عمّا شاهدته بأمّ عينها، لكنّها ظهرت في لحظة حرجة ولا يمكن لعجلات الزمن أن تعود، انتهى الأمر. ولو أنّها حضرت ليلة البارحة لفاجأتني بين أحضان ليودميلا، انتهى الأمر. أيّ هذه اللحظات أكثر رحمة؟ كنت وحيدًا وغاضبًا من سوء تقديري وأنانيّتي المفرطة، وكنتُ أستحق أكثر من فراق كاتيا.

سمعتُ البعض يردّدون أنّ الغيرة شعورٌ رجعيّ تقليديّ لا يتناسب مع المشاعر الإنسانيّة المعاصرة، ومن غير المقبول فرض القيود على الآخرين بطريقة بدائيّة. كلّ ما في الأمر، أنّ الإنسان يشبع ويرضي غرائزه ويمضي بعد ذلك لمتابعة أعماله ومهامه. لكنّ الحقيقة مغايرة تمامًا لهذا الطرح. وأكبر مثال على ذلك كريستيان الذي أصبح نزيل مستشفى الأمراض العقليّة والنفسيّة إثر فراق امرأة. كنتُ على شفا اللحاق بهذا الرجل في وقتٍ ما، إذا لم أتجاوز محنتي العاطفيّة.

نظرتُ إلى ملفّ الرواية، كيف بقي سليمًا حتّى الآن؟ كان بإمكاني إتلافه في أيّ لحظة مقبلة. نمَت الروايةُ شاهدةً على يوميّاتي ومعاناتي وأفراحي وإرهاصاتي الفكريّة، وكانت تتململ حين تجدني غاضبًا أو إذا ما أصابني مرض أو وعكة. كأنّ لسان حالها يقول.

- هل نسيتني يا نيكي، أم أنّ حبرك قد جفّ؟ ليس حبري وحده الذي جفّ، بل دمائي جفّت أيضًا. أنا عاجزٌ عن كتابة حرفٍ واحدٍ جديدٍ في الرواية. شعرتُ بخيانتها، أقدمتُ على ذلك بسهولة لا يقوى عليها سوى الرجال، خنتُ كاتيا من أجل متعة عابرة، استبدلتُ رحلتي الكونيّة مقابل رعشة قذفت بها الرياح في طريقي.

- نيكي تعال ساعدني في دقّ المسامير في هذه الألواح الخشبية. صاح فلاديمير بأعلى صوته.

- هل لديك مشروب؟

- وماذا يمكن أن تجد لديّ سوى ذلك؟ هناك فائض من العرق. تبدو مهمومًا للغاية، لا تكثر من الكحول هذه الأيام، فأنت لست على ما يرام. لا تنسَ أنّك كدت أن تفقد حياتك بالأمس. عليك أن تتوقّف عن تعاطي الكحول لفترة من الوقت، أنت أدرى بحالك على أيّة حال.

لم تترك كلماته أيّ صدىً لديّ، التزمتُ الصمت كصخرة صلدة صمّاء، ساعدته في بناء بيتٍ خشبي لإيواء كلب ضال. كان يعمل بديناميكيّة واضحة، لم يتوقّف عن دقّ المسامير وقصّ الخشب حتى أنهى تشييد البيت ذي بابٍ وطاقة صغيرة في أعلاه لتهوية المكان. شعرتُ بأنّي أعرف هذا الرجل منذ وقتٍ طويل. كان قد تمكّن إلى حدٍّ بعيد من تجاوز إدمانه على المخدّرات. أصبحت حركاته وتصرفاته واعية وندرت الأزمات المترتّبة على الحاجة الفائقة لتعاطي المخدّر. فلاديمير ينتمي لذلك الصنف الذي لا يتوقّف عند عقبة أو حدود.

لا أدري من كان منّا يساعد الآخر؟ لكنّي أدركت إنّ المجهود الفيزيائي مفيد في كثيرٍ من القضايا.

- بصحّتك، جرعتُ الكأس حتّى الثمالة وكان هذا كافيا لأجد نفسي مرميًا على الكنبة دون حراك. يبدو أنّي قد نمتُ على الفور، غطّاني فلاديمير ببطانيّة من الصوف ونمتُ حتى ظهر اليوم التالي.

الآن حين أنظرُ إلى الماضي بفارق زمن ليس بالطويل، أدركُ أنّ فلاديمير أنقذ حياتي. ماذا كان بإمكاني أن أفعل في تلك الليلة وحيدًا، بعد أن تخلّت عنّي كلّ نسائي دفعة واحدة؟ لم أحلم بشيءٍ كنت في حالة موت مؤقّتة استمرّت لساعات تسمّى "نوم". توقّف جسدي عن المقاومة وترك خلاياه في حالة من الاسترخاء والصمت المطلق. كأنّي أسيرُ وأخطو بخفّة فوقَ مياه بحيرة شفّافة، أكادُ أعدّ الحصى في قاعها، ودفقُ هواءٍ يهبّ من عدّة جهات يدفع مراكبي عبر مشط الثواني بحنان وتؤدة. لم تكن هناك ضرورة للتجديف. أسمعُ صوتَ كمانٍ يصدحُ

في الأجواء من حولي، ألحانه تعانقني، هذا ليس حلمًا، بل هديّة سماويّة أخلت سبيل قلقي وأعادتني إلى مخاض الحياة ثانية.

- رائحة القهوة تملأ المكان. فتحت عينيّ على استحياء لأجد على الطاولة الصغيرة أمامي فنجان قهوة ساخن. "فلاديمير، أنتَ ساحرٌ". همستُ قائلا رغم ثقتي من تواجد فلاديمير في حديقة المنزل لينجز عملا ما كالعادة، بينما كنت أرشف قهوتي شاهدتُ الكأسَ التي صرعتني ليلة البارحة. مفاصلي وظهري ورأسي تؤلمني، شعرتُ بأنّي أتواجدُ على متنِ كوكبٍ آخر. خرجت إلى الحديقة حيث فلاديمير.

- ألا ترتاح بين الحين والآخر يا رجل؟
- أهلاً بك في عالم الأحياء، لقد أنقذك النوم من كارثة.
- نعم، أنت محقّ، أشكرك على جهودك. قد لا أراك قريبًا يا فلاديمير، لقد قرّرتُ العودة إلى صوفيا. لديّ عمل لا بدّ من إنجازه، عملٌ لا يحتمل التأخير.
- ابحث عنها، هذه المرأة تستحقّ العناء يا نيكي. ابتسمتُ وغادرتُ دون أن أعلّق بكلمة واحدة. سأبحثُ عنها لكنّي لن أجدها على الأرجح. كاتيا ليست امرأة عاديّة، ستغيّر مكان إقامتها، لن تترك لي فرصة مصادفتها فهي عنيدة إلى أبعد الحدود.

اختفت كاتيا بالسرعة التي ظهرت بها. شاءت إلغاء كافّة الشواهد الحيّة على علاقتنا. لو أنّي غادرتُ القرية بالأمس، لأوديت بروايتي إلى الجحيم، لكنّ الأمور تبدو مختلفة الآن. جمعتُ أغراضي بتأن، وضعتُ الرواية في مكانٍ آمن في حقيبتي، أطرافُ أوراقِها تمزّقت، لكنّي شعرتُ بالراحة لعلمي أن الجزءَ الأكبر مخزّنٌ في قرص مضغوط. وضعتُ الحقيبة جانبًا ثمّ نظّفتُ الكوخَ الصغير من كلّ آثار حضوري الباهت. ودّعتُ المكان الذي لم يعد قادرًا على احتواء آمالي وطموحي، لم أقوَ على البقاء هناك لحظة واحدة، ولا أعرفُ وجهتي الجديدة. رغبتي الوحيدة هي البحث عن كاتيا أينما تواجدت. أريدُ أن ألعقَ جراحَها وإعادة

البريق إلى عينيها. لعلّها تدركُ أنّي إنسانٌ ومحكومٌ بالخطيئة. هل يوجد مكان للغفران؟ الخطيئة ليست قِبلتي يا كاتيا، لكنّي لست معصومًا عنها، لذا أطلبُ العفو يا صغيرتي، وأجلد ذاتي أمامك .

- كوستا، أشكرك على كلّ ما قدمتَهُ لي يا صديقي. كنتَ وزوجتُك أكثرَ من صديقين ووالدين، لا أدري كيف أردّ لك الجميل. وأنتِ يا ستويانكا، ذقتُ من يديك أشهى المأكولات. أنظري إليّ، أصبحتُ من أصحاب الفيل، ازداد وزني عشرة كيلوغرامات على الأقل. دمعتْ ستويانكا، قبّلت وجنتيّ وكانت متأثّرة للغاية.

- احرص على نفسك يا نيكي، أنت تعرف عنوائنا جيّدًا، إذا دعتك الضرورة للعودة فأنتَ على الرحب والسعة ليلا ونهارًا، صيفًا وشتاءً. أمّا المفتاح الذي أعدته فمكانه هناك تحت عتلة الشباك، تتناوله وتذهب إلى بيتك وقتما يطيب لك ذلك.

سأفتقدُ كلّ هذا في المدينة الكبيرة. المشاعر الخالصة والإحساس بكلّ وتائر الزمن الرتيبة. ودّعت أصدقائي وانطلقت أبحث مجدّدًا عن ظلّي.

* * *

ما أسرعَ وتيرة الوقت وسط صخب المدينة التي تضجّ بالملايين، تقذفُ بهم كلّ يوم صعودًا وهبوطًا في رحم مترو الأنفاق وفي الحافلات والشوارع المزدحمة المغبرّة، أصبحَ الوقتُ عدوّي اللدود، وأخذت أرحّب بقتله كيفما اتّفق.

علمتُ أنّ كاتيا قد تركت عملها في المقهى، من العبث أيضًا البحث عنها في مكان سكنها. كانت قد اختفت نهائيًا وذابت في خضمّ الحياة والازدحام في ركنٍ ما في صوفيا. ذهبتُ مع ذلك إلى سكنها السابق، لعلّها تعود للحظة لنقل متاعٍ نسيته، لكنّ حتى جرس الباب معطّل. ضربتُ الباب بشدّة دون فائدة، لَم أسمع سوى صدى طرقي في خواء المكان. كلّ ثانية أقضيها على عتبات البيت الذي احتواها ثقيلة ومؤلمة، تعيدُ لي ذكرى لم تغب يومًا عن مداركي. لم أقوَ على

الابتعاد عن باب البيت المهجور، جلستُ القرفصاء واضعًا رأسي بين يدي، أخذ سكّانُ المبنى يجتازونني بحذر كأنّي مصابٌ بالطاعون. سمعتُ بعضهم يهاتف الشرطة، لكن كيف يمكنهم معاقبة قلبي الجريح؟ لن يحضر رجال الأمن لأمرٍ تافهٍ كهذا.

في اليوم التالي عدتُ إلى عتبة الباب نفسها وفي اليوم الثالث أيضًا. لم يعد سكّان العمارة يعيرونني اهتمامًا كبيرًا، وأخذ بعضهم يشعر بالأسى تجاهي.

- ماذا هناك يا فتى؟ لماذا أنتَ حزين ومقهور إلى هذا الحدّ؟ خاطبتني امرأة عجوز تسكن في الشقّة المجاورة.
- هجرتني يا عمّة. أشعرُ أنّي قد تيتّمت من بعدها، أنا غير قادر على ممارسة الحياة بدونها. أريد أن أراها مرّة واحدة على الأقل، أن أعترف لها بمشاعري، لا شيء سوى ذلك. هل هذا كثير يا عمّة؟
- قد تكون هي الأخرى جريحة الفؤاد يا بنيّ. أحيانًا نحتاجُ نحن النساء إلى القليل من التوحّد كي ننسى، لنتعرّف على مشاعرنا الحقيقية. لا تُحبَط هكذا. لا يأس مع الحياة، اترك لها الفرصة لتتفكّر بمصيرها، يمكنك أن تبوح بمكنون صدرك أمامي. تعال معي يا بنيّ، أدخل بيتي لا تقف هنا كالذبيح، هذا لا يليق برجل وسيم مثلك.

شعرتُ بالراحة بعد أن سمعت كلمات المرأة المسنّة. كلماتُها كالبلسم، أمسكتْ يدي ومضينا نحو شقّتها الصغيرة وقد اغرورقت عيناها بالدموع. أنا ملعون، أنا قادرٌ على إبكاءِ جميع النّساء اللواتي يتعاملنَ معي، هذه حقيقة شبه مطلقة، وكانت لديّ أنا أيضًا رغبة كبيرة بالبكاء لكنّي أحجمت، صدرت عنّي حشرجة وشهقات، ربّتتِ المرأةُ على ظهري وشدّتني إلى بيتها، يبدو أنّ الدموعَ سلاحٌ قويّ يساعد على البقاء ويطيل العمر أيضًا. كثير من المشاعر السلبيّة تختفي مع الدموع المنهمرة.

لا أدري من أين ظهرت هذه العجوز، كأنّ الله بعثها لي في تلك اللحظة. ليس مهمًا اسمها على أيّة حال. كانت تعرف الطرق الخفية المؤدّية إلى الروح. امرأة تمتلك خبرة كبيرة في شؤون القلب والعشق والحياة. جلستُ على الكنبة في منزلها، صامتًا غير قادر على التركيز في موضوعٍ محدّد. أحضرتْ بعد قليل بعض القهوة والحلوى.

- ليس من عادة كاتيا أن تختفي لفترات طويلة من الزمن، تذهبُ أحيانًا لزيارة أهلها في مدينة ستارا زاغورا، لكنّها سرعان ما تعود. قالت السيّدة مستغربة طول غيابها عن المنزل.
- هذه المرّة سيطول غيابُها يا عمّة، أعرفُ هذا بقلبي، أنا السبب وراء اختفائها.
- اشرب قهوتك يا بنيّ.
- أشكرك، قهوتك طيّبة يا عمّة، أنا نيكولاي. شربتُ القهوة على عجل، تناولت بعض الحلوى وسارعت بالانطلاق.
- هل ستخبرينني إذا عادت كاتيا إلى منزلها يومًا ما؟
- بالطبع يا بنيّ، أنت على الرحب والسعة في أيّ وقتٍ، تعال لزيارتي بين الحين والآخر. لا تجلس على السلالم ثانية أرجوك. سوف أراقب بيتها حال عودتها وقد أتحدّث معها.

قبّلتُ يدَها ومضيتُ في سبيلي. نقودي على وشك الانتهاء، وفكرة إقامتي في منزل غريب تزعجني للغاية وكذلك النوم في فنادق رخيصة منفّرة. منذ وعيتُ هذه الدنيا وأنا أتساءل: "لماذا يصعبُ عليّ أن أكونَ شخصية سويّة؟ لماذا لا أكتري بيتًا صغيرًا متواضعًا كما يفعل الكثير من البشر؟ أدفعُ أجري ومصاريفي المستحقّة ثمّ أعود كلّ ليلة للنوم في بيتي. هل يصعب عليّ أن أكون مواطنًا تقليديًا إلى هذا الحدّ يا تُرى؟ إلى متى ألاحقُ الرياحَ وأبحثُ عن موطن في قلب امرأة؟

كلّ هذي الأفكار عابثة، أنا بطلٌ مجهولٌ في مسيرة الحياة، تاريخُ الإنسانيّة يعرفُ الكثيرَ أمثالي. شخصياتٌ قلقة لا تفتأ تبحثُ عن كلّ ما يخالف المألوف، وإلا لبدت الحياة مملّة شبيهة بشريط سينمائي معطوب. أمثالي هم ملح الحياة.

غادر كريستيان المستشفى وهذا خبر جيّد بالطبع، أوضاعُه آخذة بالتحسّن والاستقرار. لكنّي تعمّدتُ عدم الذهاب لزيارته آنذاك، لأنّه يرى من خلالي المخلّص الذي سينتشله من الهوّة المحدّقة بكيانه، التي كانت تبتلعه يومًا بعد يوم. كان يرى في شخصي الرجلَ القويّ القادر على امتلاك أيّ امرأة في أيّ وقت يشاء، الرجل الذي يمتلك الجرأة على هجرهنّ وقتما يحلو له ذلك، لكنّه سرعان ما سيدرك خطأ تقديره. ما الضير في هذا؟ كلّ واحد معرّض للوقوع في شباك الضعف.

مضيت لزيارة صديقي كريستيان. لستُ متأكّدًا إذا ما كنت سأجده في مقرّه الأخير، ضغطتُ مطوّلا جرس الباب الخارجي. سمعتُ ضجّة وجلبة في الداخل، أظنّ أنّ هناك أكثر من شخصٍ داخل الشقّة، وقد أكون مخطئا. من الممكن أن يسكن الشقّة مستأجرون آخرون، لكن وبعد لحظات فُتح الباب، وكانت هي ذاتها تقف مبتسمة عند المدخل. سيلفيا، كأنّها انبعثت من عالم الأموات. سرعان ما رسمت ابتسامة النصر على وجهها. سيلفيا لا تعرف حدودًا لانطلاقها وجموحها.

- سيلفيا، أهلا. ها أنتِ قد عُدْتِ ثانية. اتّسعتْ ابتسامتُها وبانت أسنانُها الناصعة. همست بأنوثة فائقة متعمّدة.
- أهلا حاج نيكولاي. غنجتْ وتلوّتْ كأفعى. لم أفهم ما قالته بعد ذلك، لكن مناداتي بالحاج كان لها الكثير من الدلالات وحضورُها ثقيلٌ للغاية. أخيرًا أدارت لي كتفيها وظهرها وعجيزتها التي رُسِمَتْ بيدِ فنانٍ بارع وصاحت منادية كريستيان.
- ضيوف يا عزيزي. وقف كريستيان أمامي مندهشًا وقال.
- نيكي، أهذا أنت؟

- نعم، الحاج نيكولاي. صرخت بصوتٍ مرتفع كي تتمكن هي من سماعي.
- لماذا تصرُخ يا نيكي، أتظننا طرش يا صديقي؟ غمزني كريستيان وأخذني بين أحضانه وأضاف:- افتقدتك كثيرًا يا صاحبي، أين اختفيت طِوال هذا الوقت؟ نظر إليّ مجدّدًا وأضاف مازحًا:- من أيّ قبر بعثت يا رجل؟ تبدو ميّتًا منذ زمن.
- إنها قصّة طويلة وسردُها يحتاج لأمسية. متى خرجت من المستشفى؟
- خرجتُ منذ وقتٍ قريب، أعتقد بأنّي قد حققت تقدّمًا جيّدًا.
- تقدّمًا ملحوظًا. أشرتُ لسيلفيا بعجبٍ وسخط.
- آه..تقصد سيلفيا، سأشرحَ لك هذه القصة لاحقًا. إلى متى ستبقى واقفًا بالباب كالغريب؟ ادخل يا رجل، تعال لنشرب كأسًا.
- بل فنجانًا من القهوة لو سمحت.
- لن أذهب إلى المطبخ ثانية، هل هذا واضح؟ قالت سيلفيا بعصبيّة واضحة. نيكي لديه الكثير ممّا يبوح به بحقّي. لن أتركَ المجال له مفتوحًا للنميمة.
- هل تظنّين نفسك مركزَ الدنيا كي تبقين دومًا محور الحديث؟ قاطعها كريستيان غاضبًا. تلك كانت من اللحظات النادرة التي يعنّفها كريستيان.
- أعتقدُ أنّه ليس بالأمر السيئ إذا ذكرناك في أحاديثنا بين الوقت والآخر. قلت بسخرية وتحدٍّ.
- أرجوكِ أن تعدّي لنا القهوة يا سيلفيا..لو سمحت. قال كريستيان بحدّة.
- اذهب إلى الجحيم أنتَ وضيفك. صاحت سيلفيا غاضبة.
- يستحيل تدجين هذه المرأة يا رجل.
- نعم، هي كذلك، ليس لديّ سوى القبول بالأمر الواقع، هذه هي سيلفيا بكلّ حسناتها وسيّئاتها. جميلة متمرّدة. لا يمكنني الاقتراب منها أكثر من ذلك، ولا

أجرؤ على فراقها. سيلفيا تمثّل كلّ التناقضات الجميلة والصعبة. على فكرة، ستصنع لنا القهوة في نهاية المطاف.

- أتظنّ ذلك؟
- أعرفُها جيّدًا، تحبّ المناكفة وإثبات الحضور.
- إذن، سامحتَها أخيرًا يا صديقي رغم خطاياها؟
- وكيف لا، من يعشقْ يُسامحْ.
- حتّى وإن أعادت الكرّة يا كريستيان؟ أعتقدُ أنّها لن تتوقّف عند أيّ حدّ.
- لا مكان للمثاليّة، وليس بيننا من هو مخلّد. الموتُ والنسيانُ نعمة يا نيكي، أمثالنا لا يعيشون طويلا، لذا سأقبلُ بالأمر الواقع. أريدُ أن تعلم أنّ سيلفيا بكلّ جنونها امرأة يصعب تجاهلها، تجاوزتُ إدمان جمالها ونزقها، روحي امتدادٌ لروحها. أنتَ تدركُ ذلك جيّدًا بحدسك، تعرفُني أفضلَ ممّا أعرف نفسي. أنا من النوع المغامر والمقامر وغالبًا ما أخسر. يستحيلُ عليّ توصيف هذه العلاقة، فهي لا تخضعُ للربح والخسارة. وبدلا من الحديث عن تهاوني وضعفي أخبرني عن هذا التغيير المخيف الذي طرأ عليك فجأة. أرى ظلالا حول عينيك، أرى تعبًا وسهرًا وقلقًا، ما الذي يحدث في عالمك يا رجل؟ كأنّ قطارًا مرّ للتوّ فوق جسدك وروحك.
- كريستيان، هل يمكنني قضاء الليلة بينكم؟
- هذا لا يحتاج لسؤال. أنتَ على الرحب والسعة، لكنّك لم تجبْ عن سؤالي.
- ربّما فيما بعد، لدينا ما يكفي من الوقت للبوح. اسمح لي الآن أن أغتسلَ وأرقدَ في إحدى زوايا شقّتك. أنا بحاجة ماسّة للنوم.
- طبعًا، كما تشاء يا نيكي. تعرفُ أين الحمّام، تصرّف كأنّه بيتك.
- نعم، أعرفُ الشقّة جيدًا، دخلتُ إلى الحمام ونسيتُ ذاتي هناك تحت دفق المياه الساخنة، الإحساسُ بالتواجد الأنثويّ في أنحاء المكان واضحٌ بين

الإكسسوارات والعطر والصابون والشامبو وغيرها من احتياجات سيلفيا. أدركتُ أنّ دورتها الشهرية في ذروتها، تمنّيتُ أن تغسلَ المياه الساخنة الخطايا التي تراكمت في جسدي المعذّب. دلّكت جلدي بشذى الصابون وهاجمَ النعاسُ عينيّ، كدتُ أغفو واقفًا في الحمام. حلقتُ ذقني، تلفّعتُ بمنشفة كبيرة وغادرتُ الحمّام. عندها وجدَ عبقُ القهوةِ طريقَهُ لحواسي. أمسكتُ الفنجانَ وشربتُ جرعة كبيرة كادتْ أن تحرقَ جوفي. شعرتُ بالراحة والسكينة وازدادت رغبتي بالنوم.

- لقهوتك رائحة الجنّة يا سيلفيا.
- اخرسْ يا نيكي، اخرس أرجوك، لا أريد سماع سخافاتك.
- لماذا هذه العصبية؟ يبدو أنّك تعانين من مخاض الدورة الشهرية.
- أزاحت بناظريها عنّي، شعرتْ بالحرج. يبدو أنّني قد تعدّيت على خصوصيّتها الأنثويّة، كنتُ متأكّدًا باستحالة إخجال هذه المرأة. لوهلة من الزمن، راودني إحساس بالذنب تجاهها.
- إلى متى سيعادي أحدكم الآخر؟ صاح كريستيان متسائلا.
- لا مكان للعداء، كلّ ما في الأمر أنّنا نتحدث بصوتٍ مرتفع ونتجادل.
- لا يمكن تسمية هذه المناكفة بالمحادثة. قالت سيلفيا بحزن واضح.
- آه، رأسي يؤلمني يا جماعة. هل نسيتم أنّي ما زلت أتناولُ العقاقير المهدّئة. كان كريستيان يتألم حقيقة، ثمّ أضاف قائلا:- أنا بحاجة للنوم، يمكنكم أن تتجادلوا الليلَ كلّه إذا شئتم. غادر كريستيان المكان بعد ذلك على عجل، وذهب لينال قسطًا من الراحة.

أتوقُ للنوم، وبدلا من ذلك أجد نفسي وحيدًا مع هذه الأفعى. قد يكون كريستيان على حقّ، فالعقاقير تحتاج لبرنامج صحّيّ يوميّ منتظم، لاحظتُ كذلك من الوهلة الأولى بأنّه قد فقد الشهيّة والاندفاع نحو الحياة، أصبح سلبيًا تصعب استثارته ولا يغضب لإهانة. تذكّرتُ ما قاله "أمثالنا لا يعيشون طويلاً" هل هذا تنبّؤ

لنهاية قريبة؟ هل كسرت العقاقيرُ القدرة على مقاومة الروح والجسد؟ لا أدري إلى أيّ حدٍّ يمكن تحميل سيلفيا مسؤوليّة هذا الخواء.

- قبل فترة لا أدري مداها، كان لديّ الكثير من الأسئلة التي تحتاج لأجابات.
- ماذا حدث لهذه الأسئلة يا نيكي؟ هل تبخّرت؟
- لا، لم تتبخّر. بل تبخّرت قيمتُها، باتت أسئلة دون معنى. لكن لديّ سؤال آخر ملحّ يا سيلفيا، لماذا عدت؟
- وأنت، لماذا هربت بعد أن بعثتَ به إلى المستشفى؟ أنتَ، صديقه الوحيد.
- أليس من الأفضل أن يبقى في المستشفى بدلا من الانتحار؟ لقد تحوّل إلى شبح إنسان معطوب العواطف والأحاسيس بعد أن هربتِ مع ساشو.
- أنت تنظرُ للموضوع من منطق رجوليّ بحت، لا يمكنك فهم امرأة بتفكيرك المحدود هذا، ستخسر كلّ نسائك نتيجة لذلك. كنتُ بحاجة لرجل قويّ يا نيكي، في تلك اللحظة بحثتُ عن رجلٍ قادر على الانتصار عليّ، رجل لا يهابُ جمالي، رجلٌ بوهيميّ مندفع، لكن يستحيل عليك فهم ذلك.
- بل أفهمُكِ جيّدًا، كان عليك أن تودّعيه قبل ذلك.
- هروب المرأة بمثابة وداع، يحملُ في طيّاته معانٍ واضحة لا تحتاج لتفسير.
- عواطفُك الجامحة تقتلته يا سيلفيا. كريستيان يتنفّس من خلالك، وأنتِ تعرفين ذلك بالتأكيد، كريستيان يرى الدنيا من خلال عينيك.
- حسنًا، أفهم ما تقول لكنّها مشكلته. لي طريقة حياتي الخاصة ولن أتنازل عنها أبدًا.
- هل تقصدين أنّ عودتك له مؤقتة؟
- لا أقصد قول ذلك، لا تنسب لي كلماتٍ لم أتفوّهها. ليس لديّ أيّة خطط، هذا ليس من طبعي، لا أدري ماذا سيخطر ببالي بعد شهر. كلّ شيء في هذه الحياة مرحليّ ونسبيّ. الحبّ والعواطف، هل تظن بأنّي رافقت ساشو من

أجل المال؟ أنتَ مخطئ في تقديرك، ساشو رجلٌ بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. اقتربتْ منّي ونظرتْ مباشرة في عينيّ وهمست:- نيكي، أعرف بأنّك رأيتني في تلك الليلة في دراغاليفسكي. أتدري ما كنتُ أريده آنذاك، حين دلفتَ أنتَ إلى الغرفة؟

- نعم، أعرفُ جيّدًا ماذا كنت تريدين، لكنّي لا أرغب بالحديث عن هذا الآن.

دعتني في تلك اللحظة حين فاجأتها مع ساشو. أدركتُ الآن السبب وراء تلك الدعوة، لم تكن رغبتها أن يدخلها رجلان، فهذا سهل بالنسبة لسيلفيا ويمكنها أن تتدبّره في أيّ وقتٍ تشاء. كانت ترغب باجتذابي لأنّي القطب المتنافر معها طوال الوقت، كانتْ ترغبُ أن تتوحّد مع نقيضها الآخر المتناحر معها أينما تواجدت. كان بالإمكان في مثل هذا الموقف أن ينصهر اثنين في بوتقة واحدة، لا توجد قوّة يمكن أن تفرّق هذا التوحّد. أنا وسيلفيا قطبان متنافران وقطبها هو الأنشط.

- والحبّ يا سيلفيا، ماذا عن الحبّ؟

- لماذا تظنّني رجعت يا معتوه؟ إنّه الحبّ.

- لو أنّ ساشو حيًا لما فكرت بهذه الطريقة.

- قد يكون كلامك صحيحًا، لكنّه مات وقضي الأمر. أنا أكره كلمة "لو"، هذا عبث لغويّ، يجب حذف هذه الكلمة. أداة شرطية تتنافى مع ديناميكيّة الحياة.

- أجيبي على سؤالي من فضلك. ماذا كان سيحصل لو بقي ساشو على قيد الحياة؟

- حسنًا، سأجيبك. لو بقي ساشو على قيد الحياة لأصبح لديّ حريمٌ من الرجال. هل سمعت بهذا المصطلح من قبل؟ لو بقي حيًّا لبقيت تلك الفراشة، أتنقّل بين زهور الرجال أمتصّ رحيقهم. أعلم جيّدًا أنّ هذا يتنافى مع سيكولوجيّة المرأة وطريقة تفكيرها، لكنّي هكذا ولن أتغيّر.

- بل على العكس،، يمكنك أن تحدثي تغييرًا إيجابيًا بسهولة، أنتِ متميّزة وتتمتّعين بأنوثة فائقة مقارنة بغيرك من النساء. الرجلُ ينجذبُ للمرأة فطريًا لأنّه المخصّب والمرأة بصفتها المتلقّية أكثرَ قبولا للوفاء والإخلاص. الرجلُ هو العنصر الجاهز دائمًا للجنس ويأتي الحبّ لديه في مرحلة متأخّرة عكس المرأة. إذا تمثّل حريمُك الرجوليّ في كريستيان الوديع المخلص وساشو الرجوليّ الفحل، فاعلمي إذن أنّ مفهومَ الحريم لدى الرجل أوسع بكثير وأشمل. أنتِ امرأة متمرّدة ضدّ ذاتك وضدّ طبيعتك الأنثويّة، وهذا ليس بالضرورة بالأمر السيئ. لكن إذا أدركتِ يومًا أنّ كريستيان هو حبّك الأكبر فهذا بحدّ ذاته إنجاز، وقد يظهر شخصٌ آخر في حياتك أكثر إقناعًا من كريستيان، من يدري؟

صمتتْ طويلا، تفكّرت مليًا في كلماتي، قلتُ الكثيرَ من الحقائق وربّما أنصافها، لكنّي في تلك اللحظة فهمتُها جيّدًا، كنتُ صادقًا في كلّ كلمة تفوّهتُ بها، لم أحمل تجاهها أيّة مشاعر عدائيّة. أخيرًا أجابت هازّة رأسها مستنكرة.

- أخبرتُك بأنّي أكره كلمة "لو" الشرطيّة. سيلفيا ما زالت متمرّدة على طبيعتها وقدرها الأنثويّ، تمكّنتُ من الولوج إلى وعيها، أغظتُها مع أنّ مشاعري محمّلة بالنوايا الحسنة.

كانت عاجزة حتّى تلك اللحظة أن تحطّ على غصنٍ آمنٍ بعد. جناحاها قويّان، يحتاجان للتحليق واكتشاف المزيد. سيلفيا تبحثُ عن غصنٍ رحبٍ كبيرٍ يتّسع لجموحها، كي تتمكّن من فرد جناحيها بحريّة.

طالَ صمتُنا كثيرًا تلك الليلة، شعرتُ بإهانتها وكنت قادرًا على قراءتها لأنّي تجاوزتُ سخطي ونقمتي عليها، قبلت بها كما هي بكلّ علاتها إكرامًا للرجل الذي فقد رشده من أجلها، حتى أنّي شعرت بالأسى تجاهها. كانت قد تعرّت من غموضها وسحرها أمامي، وأخذت تسبح في مياهها رغم حضوري دون التخوّف من الغرق.

- أنا لستُ عاهرة يا نيكي، قالت أخيرًا محاولة قطع حبل الصمت بيننا.
- لم أفكّر بهذا لحظةً واحدة، والآن اعذريني فأنا بحاجة ماسّة للنوم.
- أرجوك لا تسرع بالهرب كما يفعل 99٪ من الرجال، أنا بحاجة لمحادثتك، أنت قادر على فهمي. أنا لست تلك المرأة القويّة التي تظنّها، أشعر بالتشتّت والضياع. جلستُ على الكنبة واتّخذتُ وضعًا مريحًا قبالتها لأنّي كنتُ في منتهى الإرهاق.
- عمّاذا تريدين أن نتحدّث يا سيلفيا؟
- عن روايتك مثلا. منذ أن تعرّفتُ إليك وأنت تكتبها، هل ستنتهي قريبًا من كتابتها؟ وهل سترى هذه المخطوطة الحياة؟
- أتعرفين يا عزيزتي، لديّ إحساسٌ عميقٌ بأنّي أكتبُ حياتي، كأنّ الموتَ يتربّصُ عند ناصية الطريق ليقبض روحي حال الانتهاء منها. وإن تجاوزني لا أدري إذا كنتُ مستعدًا لكتابة رواية أخرى. لديّ الكثير من الأسئلة أسهلها في منتهى الصعوبة. هل أنا كاتب؟ حياةٌ واحدة لا تكفي للحصول على الأجوبة الأصوليّة التي أبحث عنها.
- لكنّك خبيرٌ في قراءة الأرواح. لديك المفاتيح لاقتحامها وكشف أسرارها. هل هناك شبيهة بشخصيّتي في روايتك؟ امرأة وقحة وأنانيّة مثلا؟
- لا ليس بعد، لكن شخصيتك جديرة بأن تكون بطلة رواية كاملة. هناك شخصيّة محوريّة في روايتي تحملُ الكثير من مواصفاتك. أنتِ لست بالمرأة التي يمكن لكاتبٍ أن يتجاوزها.
- هذا إطراء كبير لم أكن أتوقّعه.
- مع أنّك أحيانًا تبدين مشبعة بطاقة سلبيّة منفّرة.
- هذه الطاقة ضروريّة بالنسبة لي، أشكرك على هذا الاعتراف.

- اذهبي إلى كريستيان فهو بحاجة إليكِ، أنا أيضًا مررتُ بفترة صعبة مؤخّرًا وأحتاجُ لإراحة هذا الجسد المرهق.
- تصبح على خير يا نيكي، عند الصباح ستكون قهوتك جاهزة هذا وعدٌ منّي.
- أحسّ بنكهتها منذ الآن، شكرًا على قهوة الصباح.
- إلى قهوة الصباح.

نمتُ في الغرفة المجاورة وحمدتُ الله لإمكانيّة قفل الباب. فعلتُ ذلك وهجعتُ للنوم على الفور، كنتُ على ثقة من أنّ سيلفيا لن تحضر لطرفي تلك الليلة، لكنّي تمنّيت حضورَ كاتيا في أحلامي ولم تفعلْ. كانت بعيدة حدّ العبث.

عند الصباح نفّذت سيلفيا وعدها. القهوة وفطور خفيف كانا في انتظاري. تناولتُ الإفطار على عجل وسارعتُ بشرب القهوة الساخنة برفقة كريستيان. اختفتْ سيلفيا في المطبخ لبعض الوقت، وعندها طلبتُ من كريستيان أن يحضر معي لتسجيل النقود التي احتفظتُ بها في البنك باسمه.

- لا، ليس الآن يا نيكي، سأخبرك بالوقت المناسب فيما بعد.
- إذن سأترك لك مفاتيح الخزنة.
- لا، نقودي بأيدٍ أمينة، لا أريدُها الآن. لديّ ما يكفي من المال حاليًا.
- كما تشاء، عليّ أن أغادر. عادت سيلفيا إلى غرفة الجلوس وقالت بجدّ.
- نيكي، أنتَ على الرحب والسعة إذا أردت الإقامة عندنا لبضعة أيام.

كنتُ على وشكِ المغادرة وسيلفيا صادقة وجادّة في دعوتها.

- شكرًا على الدعوة يا عزيزتي، إلى لقاءٍ قريب.

في أثناء النهار قرّرتُ أن أرتّبَ حياتي بشكلٍ ما، انتهت فترة التسكّع، لن أستمرّ بهذه الطريقة أبدًا، وكان خلاصي المنتظر في صبّ الحديد المنصهر في كريميكوفسكي.

تحوّلتُ لذلك المواطن العادي الذي طالما تمنّيته، موظّفٌ يذهبُ إلى العمل ويمارس حياة مملّة، يستلمُ الراتب نهاية كلّ أسبوع ليصرفه على عجل. أعملُ ثلاثة أيام وأستريح ثلاثة أخرى وهكذا. استمرّ بي الوضع على هذا الحال طِوال ستّة أشهر متتالية دون أن أشتكي أو أحاول تغيير نمط حياتي، ونادرًا ما أذهب لزيارة كريستيان وسيلفيا، رغم أنّها تمكّنت من كسب ثقتي. لم تكن تسمح لي بالراحة كثيرًا حين أزورهما، كنّا نتحادث إلى وقت متأخّر من الليل في العديد من المواضيع وقضايا الساعة. هذه المرأة تكرهُ الصمت ولا تلتزم به أبدًا، وأخذت تثرثر في الشئون السياسيّة شديدة التعقيد، وإمكانيات حلّها. أشعرُ أحيانًا بأنّي صديقتها، التي تبوح لها بمشاكلها العاطفيّة، وكانت تسرّ لي أيضًا بعدم قدرتها على احترام الرجال، متناسية دون قصد أنّي رجلٌ أيضًا، تبوحُ دون أن تعير حرجي أدنى اهتمام، تفاصيلَ التعقيدات التي يتعرّض لها جسدها خلال الدورة الشهرية.

في كريميكوفسكي تمكّنت من خلق جوّ أليف من حولي. هناك الكثيرُ من الأصدقاء والعائلات الذين أحاطوني بحنانهم وحبّهم وعطفهم، وغالبًا ما أتناول الغداء أو العشاء عند أحدهم. هكذا أخذت أيامي تمرّ وفق وتيرة واحدة رغم إرادتي وهذا أفضل ما كان بإمكاني القيام به آنذاك.

اليومُ شديدُ الخصوصيّة، عملتُ جاهدًا ولم يبقَ من النهار إلا قليله. دوّنتُ كلمة "النهاية" في الجزء الأسفل من الصفحة الأخيرة من روايتي. انتهت الرواية، لا إضافات ولا تعديلات وما زلتُ على قيد الحياة. تمكّنتُ إذًا من تخطّي هذا الحاجز المرعب. وضعتُ ملف الرواية الذي قارب ثلاثمئة صفحة تقريبًا على المكتب أمامي، احترتُ لوهلة فيما أفعله بهذا الكمّ الكبير من الورق. لم أفكّر حتّى الآن بالفراغ الذي تدفّق مرّة واحدة مع نهاية هذا العمل. المخطوطة في حالتها الراهنة دون قيمة تذكر، عليّ أن أجد طريقة ما لنشرها وتسويقها، وإلا ضاع جهدي هباء الرياح. هذه الوضعيّة جديدة بالنسبة لي، ليس لديّ تجربة سابقة في شؤون الكتابة والنشر، ولا أدري إذا كان هذا العملُ يستحقّ عناء الطباعة والنشر. قررتُ

أخيرًا تقديم المخطوطة لبعض الكتّاب والنقاد ليدلوا برأيهم وكلمتهم الفصل به. وعليّ أن أدقّ أبواب بعضهم لتحقيق هذه الغاية.

- طاب نهارك سيدتي، لديّ موعد مع السيد ستانتشيف.

- نعم، من يريد مقابلته؟

- أخبريه أنّ نيكي، الكاتب نيكولاي بالانتظار.

- آه، كاتبٌ آخر. انتظر لو سمحت.

لم تكن سكرتيرة ستانتشيف ذات جسد ممتلئ لكنّ صدرَها عارم، وتنتمي لذلك النمط من الموظّفات اللواتي يُعتبرن بالنسبة لمدرائهنّ "المتنفّس للمشاكل والعوائق المهنيّة". وتدرك جيّدًا قيمتها هذه حين وقفت عند مدخل باب المدير والكاتب ستانتشيف، عادت بعد قليل لتجلس خلف مكتبها.

- السيد ستانتشيف مشغولٌ في مكالمة مع وزير الثقافة، وسيستقبلكم بعد قليل. هل ترغبون بفنجانٍ قهوة؟ فكّرتُ قليلا في عرضها، يا لها من بيروقراطيّة قاتلة، تُرى، كم ستستمر هذه المكالمة المختلقة مع الوزير؟

- سكّر خفيف لو سمحت.

إذا اعتقدتْ بأنّي سأرفض هذا العرض فهي مخطئة، شعرتْ بالإحراج لكنّها بادرت على الفور بتحريك جسدها وهزّ ثدييها لتشغيل ماكينة القهوة وتحضيرها للكاتب المتطفّل أمامها، ثمّ وضعت كأس القهوة أمامي بصمت.

- أشكرك، هذا لطفٌ منكِ يا سيّدتي.

- ماذا قلت حضرتك بأنّك تكتب؟

- أنتِ لم تسأليني ماذا أكتب، وأنا لم أجب بعد على سؤالٍ لم تطرحيه. ماذا أكتب؟ أكتب الرواية.

- تكتب الرواية، هذا جميل ورائع. ما موضوع روايتك؟

- قضايا حياتيّة متنوّعة. الكثيرُ من الحبّ والمصائر التي تبحث عن ذاتها ومآلها، أكتبُ عن القرويين والعمّال والحسناوات وعن المشاكل الصحّيّة الطارئة وعن تبعات الفقر والثراء، وهناك مطرٌ غزيرٌ وشموسٌ وأقمارٌ وأناسٌ يعانون من وحدة تنتهي لتتجدّد ثانية.
- هذا يكفي، أرجوك توقّف.
- لا يمكن وصف رواية بحكاية، للرواية مونولوج داخلي يتفاعل مع الأحداث. العملُ الجيّد يشملُ سيرًا حيواتيّة مختلفة، مليءٌ بالمفاجآت ومتغيّرات الحياة ومتناقضاتها.
- وما عنوانها؟
- أرواح لا تنام.
- عنوان معبّر وملزم يا نيكي، يسعدني أن أكون أوّل قرّاءك، سأحجزُ النسخة الأولى بعد الإصدار. أتعرف، يحضر إلينا في هذا المكتب ما هبّ ودبّ، صدّقني. لكنّك تبدو مختلفًا، أتمنّى لك النجاح من كلّ قلبي، ولست آسفة لتقديم القهوة لك. غمزت لي بطرف عينها.
- شكراً لهذا الإطراء، يبدو أنّي في أمّس الحاجة إليه، خاصّة وأن هذا العمل باكورة نتاجي. كنتُ قد شربتُ نصف الفنجان حين طلبني ستانتشيف. كان مرحًا باسمًا. رحّب بي قائلا.
- تفضّل أستاذ نيكولاي أنا مدين لك بالاعتذار لانشغالي، هذا ليس من طبعي فأنا أحبّ الالتزام بمواعيدي، أتمنّى ألا تكون سكرتيرتي قد أثقلت عليك كثيرًا، فهي مهذارة واجتماعيّة أكثرَ من اللازم.
- لا، بل هي امرأة لطيفة للغاية، تحدّثنا في العديد من المواضيع.
- إذن، حضرتُك كاتب روائيّ؟ على فكرة، أنتَ اخترت أحد أصعب أصناف الأدب، إنجازُ رواية ناجحة يحتاجُ لتجربة ذاتيّة غنيّة وثقافة واسعة.

- سيّد ستانتشيف قد تكون الرواية هي التي اختارتني لكنّي أنهيتُ دوري بعد أن وضعت نقطة النهاية، ولا أدري كيف سيتقبّل القرّاء هذا العمل.
- هل لي أن أرى إنجازك، أعطني المخطوطة لو سمحت؟
- طبعًا سيد ستانتشيف. ناولته الملف الكبير، قرأ العنوان، تصفّح بضع صفحات ثمّ وضعه جانبًا على المكتب وقال:- ليس مهمًّا عدد الكتب التي أنجزتها. موهبةُ الكاتب الناجح تظهر مع الصفحات الأولى. العنوان موفّق للغاية، عنوانك يشدّ القارئ، سأقرأ الرواية وسأكتب مقدّمتها إذا وجدتُها تستحقّ وهي كذلك على ما يبدو. هذا من جهتي، أمّا أنت فعليك أن تجد المموّل لإصدارها ولتبدأ رحلتك في دنيا الكتابة والأدب. من يدري، قد تصبح يومًا علمًا يُشار له بالبنان.
- يبدو أنّ هناك الكثير من التفاصيل بخصوص إصدار كتاب سيّد ستانتشيف.
- نعم هذا صحيح، لكنّها متاعب جميلة، المشاكلُ تأتي لاحقًا وتتعلّق بالتوزيع والتسويق. لا بدّ أنّك على علم بالتبعات السلبيّة للتكنولوجيا المعاصرة وفورة الانترنت على سوق الكتاب الورقيّ. الوصولُ السريعُ للمعلومات سرقَ الكثيرَ من عشّاق قراءة الكتاب وحبّ اقتنائه، لكنّ القراءة الورقيّة ذات خصوصيّة عاطفيّة ووجدانيّة. الكتابُ كالعشيقة والمحبوبة يا نيكي. تتصفّحُها بحبٍّ وحنان، تحاذرُ ألا تطوي الصفحة، تعشقُ مواقعَ وتتخطّى بصعوبة عن أخرى.
- أشكرك على هذا الاهتمام سيّد ستانتشيف، سأتّصل بك بعد شهر.
- طبعًا، على الرحب والسعة يا نيكي. أتمنّى لك النجاح. ودّعتُهُ وسكرتيرته.

الكثير من الكتّاب يعتدّون بأنفسهم ولا يعتبرون الكتابة مهنة رغم نجاحهم، أعتقد انّ ستانتشيف ينتمي لهذه الفئة من الكتّاب. غير أنّه غارق في المشاكل البيروقراطية التي تسرق بريق شخصيّته ليصطفّ هو الآخر في طابور الموظّفين بانتظار ترقية أو رضا وزير أو مسؤول.

لم أتوقّع أو أخطّط لتلقّط قوت يومي بممارسة الكتابة، هذا ليس واردًا في ذهني أبدًا، حتّى المقدّمة التي وعد بكتابتها ستانتشيف كانت بلا معنى ولم أشعر بحاجة إليها، لكنّ رغبته جاءت لإبقاء صدى اسمه في الأوساط الأدبيّة والإصدارات الجديدة. سأحاولُ تمويلَ كتابي ذاتيًا، لأتحرّر من الأعباء المعنويّة. سأتركُ لفخامة القارئ وللظروف تحديدَ مصير هذا الإنجاز. لا أكترثُ كثيرًا للحصول على لقب كاتب وامتهان الكتابة بشكل مستقلّ، بدا لي هذا اللقب غريبًا بعض الشيء، لم تتجاوز رغبتي طوال مراهقة الكتابة سوى تدوين دفقِ أفكاري التي تجمّعت بين دفّتيّ رواية. ليسَ من السهل الانضمام إلى فئة المفكّرينَ ذوي اللحى الذين لا تنطفئ سجائرُهم ليلَ نهار، يبحثون عن انعكاس أفكارهم أو انتكاسها في عيون الآخرين، يهيمون في عوالم أخرى. لذا اخترتُ صبّ المعادن المنصهرة لأنّها حقيقية ودرجاتُ حرارتها مرتفعة جدًّا تذكّر دومًا بلجّة الحياة. مشاعري متباينة وغير تقليديّة حين أجد نفسي بجانب الأفران التي لا تهدأ، تعملُ على مدار الساعة خوفًا من تجمّد المعادن وتوقّف دورة العمل. كفّايَ عريضة وذراعيّ قويّة لشدّة مكافحة الحديد وقهره. هل يدركُ ستانتشيف وقع وصدى هذه الواقعيّة؟

تجنّبتُ المرورَ بجميع الأماكن المألوفة لديّ، والتي من المتوقّع أن أقابلَ فيها مصادفة كاتيا أو جزءًا من عالمها وذكرياتها. أخشى الذكرى ووقعَها المخيف على روحي، كنتُ على ثقة من استحالة مصادفتها في أيّ مكانٍ من العاصمة، لكنّي قابلتُ ديانا وليودميلا أكثرَ من مرّة. كان من المقرّر حضور ديانا قريبًا للمشاركة في أولمبياد الرياضيات الوطنيّ في صوفيا. عليّ أن أعترفَ بأنّي قد توقّفتُ عن الانصياع لرغبات ليودميلا الجنسيّة، منذ تلك الليلة المشؤومة. بعد اختفاء كاتيا لم ألمس امرأة حتّى اللحظة. نحنُ لم نفترق، وربّما لن نلتقي، وقد تتقاطعُ طريقُنا في مكان ما في الأبديّة.

ذهبتُ إلى ساحة باتِنبِرْغ، جلستُ في المقهى المألوف، لم أتوقّعَ رؤية أحدًا من معارفي. أفتقدتُ الفتى العراقيّ أحمد. كان قد سافر إلى العراق ليكتشف وطنه المدميّ بين أطلال أولى الحضارات التي عرفها التاريخ.

أكادُ لا أصدّق عيني، أهذا هو المصوّر الأسمر العراقيّ أحمد؟ كنت أهمس بصوت خفيض، إنّه هو دون شكّ. اقتربت منه وصحت:- أين ذراعك يا أحمد؟ عانقته بدفء ولاحظتُ أثرَ الندوب على وجهه. سألته ثانية:- أين ذراعك يا أحمد؟

- هذه قصّة طويلة تحتاج لوقت طويل. تنهّد أحمد وجلسنا ينظر أحدنا للآخر.
- ليست أطولَ من حكاية علاء الدين والقنديل السحريّ. لديّ الوقت كلّه لسماع حكايتك. هذه ليست قصّتك فقط، بل قصّة الملايين عبر تاريخ الإنسانيّة.
- هل تعرف إلى أيّ طائفة أنتمي يا نيكي؟
- لا يهمّني كثيرًا إذا كنت سنيًا أو شيعيًا أو مسيحيًا يا رجل.
- طائفتي هي بغداد والموصل والبصرة وديانتي هي العراق كلّه.
- حسنًا، أعلن استسلامي، لم أتوقّع مثل هذه الإجابة.
- أنقذتْ هذه الإجابة حياتي يا صديقي. لا أدري ما طبيعة أولئك الذين اختطفوني. بعد أن دوّى انفجار هائل في المكان، أدركتُ بأنّي قد فقدت ذراعي كما ترى. كنت أصوّر شوارع بغداد، المدينة التي طالما أشتقتُ إليها، صوّرتُ الأنهر والهضاب والبيوت القديمة والمقاهي وشارع أبي نواس، صوّرتُ الألمَ المعتصر في قلوب العراقيين نتيجة للصراع الطائفيّ الذي أودى بالأمن والسلامة. أفقتُ والألمُ يعصفُ بكياني، كانوا قد استأصلوا ذراعي وسألوني:- سنّي أم شيعي؟ ربّما كانوا يرغبون بالتأكّد إذا ما كنتُ أستحقّ المضادّات الحيويّة التي حقنتها. يومان وأنا أردّد الجواب نفسه. العراق طائفتي الأولى والأخيرة، عندها أطلقوا سراحي.

- الحرب الأهلية هي الأسوأ، وهل يمتلك العراق خيارات أخرى لتجاوز هذه المحنة؟ سؤالي سطحيّ بالطبع ربّما لأنّي أنظر للأمور من النافذة الصغيرة التي حاول فتحها أمامي أحمد لمعرفة ما يحدث في تلك البقعة من الأرض.
- ما هي مشاريعك يا أحمد؟ إذا ما تبقّى في جعبتك شيء منها.
- سأركّب يدًا صناعيّة، لا أدري إذا كان بإمكاني العودة للتصوير في المستقبل، قد أفتتحُ ستوديو للتصوير أو أنزوي في مكانٍ ما لكتابة رواية. أنا جادٌّ في هذا الشأن.
- إذن ستكتب رواية؟ عليك أن تخوض هذه التجربة. من الصعب كتابة رواية يا أحمد، أقول لك هذا بعد تجربة خضتها لما يزيد على السنة. وتبقى الكتابة مصحوبة بمشاعر جميلة ومتباينة، تجدُ نفسك طوالَ الوقت في صراعٍ دائم ومستمرّ مع ذاتك. هل اخترت لها عنوانًا؟
- الهجرة والعراق ويوميّات الحرب يا صاحبي، لا شيء سوى ذلك.
- قد لا أقرؤها يا أحمد، تعبتُ من متابعة يوميات الحرب والألم، لكنّي سأحضرُ حفل توقيعها، سيكون هناك الكثير من الشراب والنساء. أليس كذلك؟
- مزيدًا من الويسكي؟
- ويسكي وحسناوات.
- نيكي، أنت مجنون. لم أكتب حرفًا واحدًا بعد يا رجل.
- نعم، يمكنني إقامة حفل وسيكون هناك الكثير من الويسكي والحسناوات دون الحاجة لتوقيع كتاب. على أيّة حال النساء سيُقبلن عليك بسهولة أكبر وأنت المسكين الأسمر دون ذراع. يمكنك أن تستجدي شفقتهنّ والسيطرة على مشاعرهنّ بسهولة. المهمّ أن تنتصبَ قدمك الثالثة بين الفخذين، أرجو أن لا تكون رجولتك قد أصيبت بالأذى أيضًا؟
- كاد الانفجار أن يودي برجولتي في مهبّ الريح، لكنّها نجت بأعجوبة وما زال الجهاز يعمل.

- ما حكايتك يا أحمد، هناك حقًا ما تخفيه عنّي؟ كان لديّ إحساس بأنّي أتحدّث لشخصٍ يختلف عن ذاك الفتى الذي عرفته قبل أن يغادر إلى وطنه.
- نيكي، على أن يبقى هذا الحديث بيننا، وعلى أن لا تنفجر ضحكًا حين سماع ذلك؟
- أعدك بذلك، تحدّث.
- بعد الانفجار لم أعد قادرًا على الانتصاب، فقدت القدرة على..أنت تفهم ما أريد أن أقوله، أليس كذلك؟
- ماذا تقول يا رجل، لا أفهم؟
- باختصار، أنا غير قادر على ضخّ الحياة في عضوي.
- لماذا عليّ أن أعاني مع هؤلاء الأجانب من الشرق والغرب؟ كريستيان أصيب بالجنون حين حاولت سيلفيا هجره، وها أنت تفقد رجولتك، اذهب إلى الطبيب يا رجل، جرّب الأعشاب الطبيعية والفياغرا مثلا.
- لا شيء يساعد في إحياء الميّت، نصحني الأطبّاء بعدم اللجوء للفياغرا حاليّا، لأنّ السبب نفسيّ، أخبروني بأنّ الأمور ستعود إلى وضعها الطبيعيّ بعد حين.
- غريب، أعلن إذًا مدفعُك إفلاسَه وطأطأ مقدّمته. هذا أمرٌ محزن للغاية، علينا أن نعمل على حلّ هذه المشكلة. أين تعيش الآن، ألم تغيّر عنوانك القديم؟
- لا، لم أغيّره بعد، لا ضرورة لذلك.

في الواقع ليس لديّ أدنى فكرة بهذا الخصوص. لا أعرف كيف يمكن مساعدة العنين؟ هذه البدايات صعبة وشديدة التعقيد. وفي نهاية المطاف، لكلٍّ منّا مشاكله وحياته الخاصّة. صحيح أنّ أحمد قد عانى الكثير من المشاكل وتحمّل امتحانًا عسيرًا في المواطنة والوطنيّة وفقد ذراعه نتيجة لذلك، لكنّ القوانين الدوليّة المعاصرة والقيم الحديثة ومصالح الدول الكبرى هي التي شاءت ذلك. لتحيا المجتمعات المدنيّة الخفيّة في دول العالم الثالث.

هناك، ليس بعيدًا عنّي لمحتُ شخصًا بدا لي مألوفًا. إنّه فلاديمير.

- فلادي، متى حضرت إلى المدينة؟
- نيكي، تراهنتُ وإيميليا بأنّك قد أصبحت من زبانيّة العالم الآخر.
- لا شكّ أنّكم تملكون فائض من روح الفكاهة، وتمارسوها على حسابي. لكن، أين إيميليا؟ أراك وحيدًا.
- ستحضر قريبًا.
- لماذا لا تنضمّ إلينا، تعال شاركنا هذه الجلسة يا رجل. سأعرّفك على شخصية جدليّة. هذا أحمد من العراق، قبل شهر كانت ذراعه في مكانها والآن أصبح وحيد القرن، حتّى قرنه الآخر لم يعد قادرًا على الانتصاب. ألديكَ وصفة بهذا الخصوص يا فلادي؟ صافحنا فلادي وجلس إلينا.
- تريد وصفة لامتلاك المرأة ثانية، هل أنت مجنون؟ خلاصُك من همّ النساء يعتبر بحدّ ذاته إنجازًا كبيرًا. نظر إليّ فلادي بعد أن رأى الحرج في عينيّ أحمد وقال:- أخبرني يا نيكي، ماذا بخصوص روايتك؟
- أخيرًا وضعتُ نقطة النهاية وسلّمتها لأحد الكتّاب والنقّاد لتقييمها. سأعمل على نشرها في القريب العاجل. ستجهز ربّما خلال أشهر.
- هذا جميل ورائع، هل ستبدأ روايتك الثانية؟ لا بدّ أنّ لديك الكثير لتقوله لهذا العالم المملّ؟ قال فلاديمير وقد بان السرور على وجهه.
- ليس بهذه السرعة، أرغب بداية برؤية ردود الفعل على عملي هذا. وأنت، ما هو جديدك؟ هل أنت بخير الآن؟
- نعم، لقد شفيت تمامًا. تلك القرية الصغيرة النائية أعادتني إلى الحياة.
- ما رأيكم لو نحتفل بهذه المناسبة؟ هذه الليلة مدعوون جميعكم لقضاء السهرة في منزل أحمد بعد إذنه طبعًا. هل أنت موافق يا أحمد؟ كان لديّ مخطّط صغير

وبريء وسأنفّذه رغم إرادة وحيد القرن، لا أدري لماذا أعجبني هذا اللقب، الذي يبدو لائقًا بصديقي العراقيّ.

- حسنًا موافق، سأحضر بمعية إيميليا طبعًا. وقف فلاديمير بعد ذلك لاستقبال فتاته الأنيقة الجميلة التي دلفت للتوّ إلى المقهى. تعانقَ الاثنان ثمّ انضمّا إلينا. رحّبتُ بإيميليا وعرّفتها بأحمد. بعد قليل اعتذر فلاديمير وابتعدا ليجالس صديقته في مكانٍ منزوٍ من المقهى.

لاحظت أنّ العلاقة بينهما لا تسير على ما يرام. لكن هذه قضية أخرى لا تهمّني في الوقت الراهن. إيميليا في المدينة الصاخبة تختلفُ عن تلك المرأة التي تعرّفتُ إليها في رحم القرية النائية. بالكاد عرفتني رغم سخائها وعرضها لجسدها البضّ الجميل في إحدى تلك الصباحات. إيميليا بقيت أسيرة إمبراطورية المخدّرات التي تحكّمت بمزاجها وجهازها العصبي. غالبًا ما يقودُها المخدّر إلى عوالم ضبابيّة، حيثُ تختفي الحدود وتذوب الحواجز. حاول فلادي مساعدتها ومساعدة نفسه، فشل معها لكنّه ارتقى فوق شياطينه وتخلّص من لعنة الإدمان ليولد من جديد. تمكّن من تحقيق ما فشل الكثيرون في تحقيقه. عدا عن ذلك، بقي فلادي ذلك العاشق الجميل، ولم يكن بالأمر السهل "العفو" دومًا عن هفوات وأخطاء الحبيب، من أجل نيل رضاه والبقاء بالقرب منه. كان يعشق إيميليا ليس بقلبه فقط بل بوعيه أيضًا.

- أين سرحت يا نيكي؟ قال أحمد مستغربًا.

- أنا هنا يا أحمد، صدّقني أنا هنا. أريدك أن تجهّز نفسك لجلسة صاخبة هذا المساء. أعدُك بالمستحيل يا صديقي حتى وإن كنتَ بيدٍ واحدة. ستحضر برفقتي امرأة غير تقليديّة، ممتلئة وصدرها عامر. تعمل سكرتيرة ولا أذكر اسمها أيضًا، لا أدري إذا كانت متزوّجة أم مطلقة، وقد تكون مرتبطة برجل آخر. ليس مهمّ، لكنّي أرغب بدعوتها هي بالذات. لن أشعر بالسأم معها. هل تعلم كم مضى من الوقت دون أن أقرب امرأة؟ الرجلُ في داخلي يتمرّد

ويصرخ، يريدُ امرأة من لحمٍ ودمٍّ، حياتي بعد كاتيا تغيّرت وأخذت منحىً كئيبًا رتيبًا.

- نيكي، هل تحدّثني أم تحدّث نفسك؟
- ليس مهمًّا. الأهمّ من ذلك أن تجد من يحسن الاستماع إليك عدا المرآة.
- عليك أن تعلم يا نيكي بأنّي غير قادر على تحضير أطعمة وسلطات وأنت ترى حالتي.
- لا عليك يا رجل، سأهتم بكلّ هذه التفاصيل. والآن اعذرني، عليّ أن أنجز بعض الأعمال.

اسمُها فيارا، لم أحتج لوقتٍ طويل كي أقنعها بمصاحبتي والخروج معي في تلك الليلة. بل على العكس من ذلك، شعرتُ بالفرح لأنّها تمكّنت من الفوز باهتمامي. كنتُ في هذه الوضعية لقمة سائغة بالنسبة لها ومن العبث تفويت الفرصة. توجّهت بعد ذلك إلى المكتبة العامّة، لديّ الكثير من أوقات الفراغ ورغبة كبيرة بقراءة بعض الشعراء المعاصرين، لكنّ حين وقع نظري على ديوان للشاعر المرهف يافوروف، الشاعرُ الذي لم يتوانَ لحظة واحدة عن إطلاق الرصاص على صدغه ليثبت لـ "لورا" حبّه ووفاءه، لكنّ الموت خانه وفقد بصره إثر ذلك. دخلتُ إلى عالمه ببطء، لكنّ رحلتي معه كانت جميلة. لم أشعرْ كيف مضى الوقت وانقضت الساعات الواحدة تلو الأخرى. عالمُ يافوروف شحنني بطاقة إيجابيّة خلاقة. في تلك اللحظة شعرتُ برغبة وجنوح للكتابة. لكن وبعد الانتهاء من كتابة روايتي، أشعر أنّ ذاتي خاوية من الأفكار والقدرة على التجديد. كأنّها سلبتني آخر مقدّرات الذاكرة. عايشتُ أبطالَ ورموزَ يافوروف كأنّه توائم روحي. من الطبيعي أن يجد الكتّاب أنفسهم فريسة لهذه الهواجس، كنتُ بحاجة لوقتٍ ما لأتحرّر من روايتي التي أنهيتُها منذ وقتٍ قريب، كي تتمكّن الشخصياتُ التي بعثتُ فيها الحياة أن تجد طريقَها في دروب الحياة لتتحرّر من قلمي واسمي نهائيًا. كان عليّ أن أتركهم ليمارسوا طقوسَ الحياةِ كما يشاؤون، ولهم أن يغادروا الإمبراطوريّة التي

أشرفتُ على بنائها. أنا على ثقة من تمكّني من مباشرة الكتابة من جديد في الوقت الذي أنسى فيه أسماءَ أبطال عملي الروائي "أرواح لا تنام". تختلفُ هذه المرحلة الانتقاليّة من شخصٍ لآخر. لكن يبدو أنّها ستطول لديّ، لأنّي رومانسيّ أكثر من اللازم، وما أسهل ارتباطي بحبائل الهواء.

قراءةُ يافوروف إبداعٌ بحدّ ذاتها، لكنّها تحتاجُ في الوقت نفسه لآليّة مرنة، تسمحُ بتحمّل مسؤوليّة انتقاءِ الكلمة والخوض في مداراتها. قصائدُه عبارة عن لوحات فنيّة منتقاة، أشعرُ عندما أقرؤه بأنّ كلّ مبدعٍ قادر على ترتيب كلماته وصفّها لتعطي هذا المفهوم المنطقيّ الغنيّ العميق، لكن هذا لا يتخطّى سوى الانطباع الأول. شعره سهلٌ ممتنع. الشعراءُ الذين يمكنهم بلوغ هذه المدارات السامية يعدّون على أصابع اليد الواحدة. جماليّة شعر يافوروف تكمن في بساطته وقدرته على الولوج إلى القلب بسهولة ويسر وهنا تكمن عبقريّته.

تركتُ نفسي أسيرَ جماليّة الأبيات المنداحة كموج يتهادى فوق سطح الماء في ليلة صيفيّة. استقبلتُ قصائده في قلعة محصّنة بنيتُها بصمتٍ بعيدًا عن ضجيج الحياة، وكنتُ مصرًّا على امتصاص بعض رحيق وصدى إبداع يافوروف.

أمضيتُ وقتًا طويلا في المكتبة، وحان الوقتُ لتنشقّ بعض الهواء النقيّ في الخارج. للكتب رائحة خاصّة ذكيّة، الكتبُ قادرة على فرض وجودِها وعلى تغيير مفهوم الوقت فتقتله أو تحييه كما تشاء. العالمُ خارج المكتبة يسير وفق مفهومٍ مختلفٍ تمامًا. في الشارع تلاحظُ تسارع البشر نحو مشاغلهم وأعمالهم، في المقاهي تشاهدُ حديث العيون ورنين الشجن، عينان تحدّقان في زوجٍ آخر من الأعين، هناك تتشابك الأيدي ويهذر اللسان، يكذب ويبوح ويناجي وتسمو النغماتُ الموسيقيّة تحاصرُ عتمة الليل، تشعرُ أنّ الحياةَ تحاصرك من جميع الاتّجاهات. في غمرة الحياة أوقفني شابٌ وقال مبتسمًا.

- سيّدي، قد لا تصدّقني، لكنّي أتمنّى عليك أن تعلم بأنّ ليفا واحدة فقط تفصلني عن السعادة. هذا ما ينقصني لشراء تذكرة للصعود إلى القطار والسفر نحو حبيبة قلبي التي تعيش في مدينة لوفيتش، هل تساعدني؟

الحيلةُ التي استخدمها ذلك المتسوّل بارعة ورومانسية للغاية، أعرفُ أنّه يكذب، لكنّي نفحتُه المبلغ الزهيد الذي طلبه، شكرني طويلا ومضى يبحث عن ضحيّة أخرى ليتمكّن في نهاية المطاف من جمع ثمن زجاجة كحول من النوع الرديء والرخيص، ولكن هناك احتمال ضئيلٌ جدًّا أن يكون صادقًا وراغبًا في السفر للقاء حبيبة. توجّهتُ بعد ذلك للقاء صديق أعرفه منذ وقت بعيد، يعمل بترتيب لقاءات عاطفيّة. باختصار "قوّاد". يجلس لساعات طويلة في مقهى فندق "رودينا" وتعني هذه الكلمة "الوطن"، حيث يدير معظم صفقاته وأعماله من الوطن.

- مرحبًا يا كراسيمير، مضى وقتٌ طويلٌ على لقائنا الأخير.
- أهذا أنت يا نيكي، ماذا تفعل هنا يا رجل؟
- أحتاجُ لخدمة، لن آخذ من وقتك الكثير. وقف كراسيمير وعانقني ثمّ اعتذر من الجالسين إلى الطاولة وقال:- تعالَ نتمشّى في الخارج، لا تخَفْ لن يسمعنا أحد. ذهبنا إلى مرآب السيارات الخارجي، جلسنا في سيارته، نظر إليّ بعد ذلك متسائلا.
- ما هي المواصفات التي تريدها؟ لديّ البضاعة التي تشتهي بأفضل الأسعار.
- أريدك أن تبعث بفتاة جميلة مثقّفة إلى أحد العناوين.
- تريدها لساعة أو أكثر؟
- بل لليلة كاملة يا كراسي. فكّر قليلا، حكّ رأسه وقال:- مئتا يورو.
- مستحيل، هذا كثير.
- صدّقني يا نيكي، ستنفّذ كلّ ما تشتهي وكلّ ما يخطر ببالك يا رجل.
- الموضوع لا يحتاج لكلّ هذا العناء، أريدُ أن أقدّمها هديّة لصديق، أو بالأحرى أريد أن أعيد الحياة لرجولة صديق، هذا كلّ ما في الأمر.
- هل هو عاجز جنسيا؟
- على الأغلب يعاني من صدمة. اسمعْ يا صديقي، يمكنني دفع خمسين يورو.

- خمسون يورو مبلغ قليل يا رجل. كلفة الليلة أكثر من هذا بكثير، يدفع البعض ألف يورو، وتريدها عدا عن هذا مميّزة.
- أصرّ على أن تكون جميلة.
- حسنًا، لك ذلك، الدفعُ مقدّمًا هنا في العربة. عليك أن تعلم بأنّ نصيبي صفر من هذه الصفقة، لا تنس هذا الجميل.
- طبعًا، لا توجد مشكلة، لن أنسى هذا الجميل. وضع النقودَ في جيبه على عجل وطلب العنوان قائلا.
- أنت المسؤول عن حمايتها وسلامتها. سأبعثُ لك بأخصّائية قادرة على إحياء الموتى. الاسمُ ليس ذو أهميّة. نادِها إذا شئت سوزي.
- حسنًا فلتحضر في الساعة التاسعة مساءً لهذا العنوان. كن على ثقة من أنّنا سنهتم بها كثيرًا، سنطعمها ونسقيها كما يجب. أرجو أن تتصرّف بطريقة اعتياديّة كأنّها إحدى صديقاتي، لا أريد أن يشكّ أحد للحظة واحدة بأنّها مدفوعة الأجر. اتّفقنا؟ كتبتُ العنوان على ورقة وناولته إيّاها.
- لا تخشَ شيئًا يا صديقي، جميع فتياتي ممثّلات ماهرات، خاصّة في قضايا الغرام.

غادرتُ عربة الرجل وابتعدت عن الفندق الذي ارتبط اسمه للأسف بهذا القوّاد. كنتُ خجلا إلى حدّ بعيد، لكن لا عودة عن تلك الهديّة مهما حدث، أتمنّى أن يستحق الأمر هذا المجهود.

لا أدري لماذا تصرّفت بهذه الطريقة، أحمد ليس طفلا صغيرًا وبإمكانه أن يفعل ما يشاء بحياته، هو أدرى باحتياجات جسده وليس لديه مشكلة بكسب قلوب الفتيات. عدا عن هذا لا تربطني به صداقة مميّزة، إلى درجة العمل على حلّ مشاكله الجنسيّة، ماذا إذا لم تعجبه الفكرة أو الهدية؟ من الممكن أن يكون عجزه الجنسيّ دائمٌ وغير قابل للشفاء، عندها ستكون خطوتي غبيّة بل ومحرجة. على أيّة

حال بات من الصعب التراجع عن هذه الخطوة، لم تعد تهمّني ردود الفعل، أقدمت على هذه المبادرة وكفى.

حضرت فيارا في الوقت المحدّد، لم تتأخر دقيقة واحدة، عرضتُ عليها الذهاب للتسوّق من بعض المحال القريبة والتحضير للحفلة قبل الذهاب إلى شقّة أحمد. هذا ما فعلناه وقد كان أحمد مسرورًا لوجودنا في بيته واهتمامنا المبالغ به. فيارا من النوع الثرثار ولم تتوقّف طوال الوقت عن الحديث. تحدّثنا عن الحياة والحبّ ومواضيع أخرى بتفاصيل مملّة. ذهبنا بعد ذلك إلى المطبخ، بدأت الفنانة فيارا بتحضير ما تشتهي النفس من المأكولات السريعة بمهارة فائقة. كلّ ما تعدّه شهيّ للغاية. تفاديتُ أن أطرح عليها أسئلة شخصيّة، لا يهمّني إذا كانت مطلّقة أو أرملة أو وحيدة. المهمّ أنّها قبلت دعوتي في تلك الليلة. أمّا هي فكانت حذرة ومهذّبة وتخطّت كذلك الأسئلة الشخصيّة توخّيًا للحرج. للمرّة الأولى شعرت بحريّة مطلقة رغم تواجد الكثير من حولي، كنتُ أعيش في مدارٍ خاصّ.

- نيكي يكفيك كسلا يا صاحبي، لم نحضر إلى هنا للتحديق بشاشة التلفاز. تعالَ احمل معي بعض الصحون، حرّك مؤخّرتك العريضة هذه يا رجل، ساعِدْ في أيّ شيء، تحرّك. تقمّصتْ فيارا دورَ ربّة المنزل بسرعة، وهذا يليقُ بها كثيرًا. فيارا متماهية مع ذاتها، قرّرتُ أخيرًا مساعدتها في ترتيب المائدة وصفّ الصحون والملاعق في الأماكن المناسبة.
- فيارا، من سيأكل كلّ هذا الطعام يا عزيزتي؟
- لا تخشَ هذا يا عزيزي، لن يبقى شيئًا من هذا الطعام، لا تنسَ بأنّي أشرفتُ على تحضيره.
- نعم، أعتقد أنّك محقّة.

الرائحة شهيّة للغاية، هذه المرأة خُلقت حقًا للوفاء والعطاء، لن يبقى شيئًا من كلّ هذه المأكولات المصفوفة فوق المائدة. التهامُها سيترك الكثير من الرضا والسعادة في روحها التوّاقة للاعتراف بوجودها. لامستُها أثناء تحضيرنا للمائدة.

تجمّدت لوهلة، نظرتْ إلى عينيّ مستثارة. لامستُ ثدييْها فاستجابت للعبة الأزليّة، كانت على استعداد للنزال في عتمة الليل، جسدُها واعد، وامتلاكُها بات على بعد ساعات، لحظات بعد أن ينقضي الحفل ويذهب كلٌّ إلى شأنه، فيارا ستقاسمني الفراش، وكم أتوق لتلك اللحظة بعد أن هجرتُ النساء لفترة طويلة.

- افتح الباب يا نيكي، ألا تسمع الجرس؟ لا، لم أسمع الجرس، كنت أستمع لصوتي الداخلي الصاخب.
- طبعاً سأفتح الباب يا فيارا. سرحتُ بكِ قليلا، أقصد..كثيرًا. فلاديمير وإيميليا يقفان بالباب وباقة من الورد تزيّن يديّ إيميليا، بينما يحمل فلاديمير بعض المكسّرات وزجاجة فودكا. عرّفتهم بفيارا بعد دخولهم ولم يخفوا عجبهم لوجود امرأة تبدو كأنّها تنتمي لربّات المنازل المملّة، لكنّ هذا الوضع يعجبني ويريحني شخصيًا.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى تمكّنت فيارا من تحطيم ألواح الجليد القائمة في الشقّة، كأنّ ستارًا ثقيلا ارتفع عن أجواء المكان. اختارت فتاتي موسيقى مناسبة وأخذ الدفء يملأ أجواء الشقّة. نظرت فيارا لإيميليا وقالت مشاكسة.

- أنا ممتلئة وأنتِ رشيقة، أنا ثرثارة وأنتِ تفضّلين الصمت. هذه المواصفات تصلح تمامًا لعلاقة ناجحة بين رجل وامرأة، كلاهما قادر على إتمام الآخر.
- بلا شك، هل تعرفين نيكولاي منذ زمن بعيد؟ أصغتُ السمعَ متشوّقًا لسماع جواب فيارا.

أووو، نيكي رجلٌ موهوب للغاية. بعض الأشخاص يتركون أثرًا عميقًا في الحياة. أشعر أحيانًا أنّي اعرف هذا الرجل منذ زمن بعيد.

- وهل تعشقيه؟
- أنا لست مراهقة يا إيميليا. ضحكتْ فيارا محرجة وأضافت:- العلاقة التي تربطني به أكثر رقيًا من مجرّد علاقة عابرة ما بين امرأة ورجل. أحبّ رفقته، أشعرُ بالسعادة وأنا إلى جانبه. أحاول أيضًا البقاء في مدارات كتاباته وأفكاره.

أظهرت فيارا ذكاءًا لم أتوقّعه، من الممكن ألا تكون امرأة عابرة في حياتي. من يدري..أدركتْ فيارا بأنّي أسترقُ السمعَ لحديثها مع إيميليا، لذا كانت شديدة الحذرِ في اختيار كلماتها. لكن، ما قصّة المدارات التي تتحدّث عنها؟ نظرتْ إيميليا بشكّ نحو فيارا وسألتها مباشرة.

- فيارا، من منكم يركب الآخر؟ أنتِ أم هوَ؟ صمتت فيارا بعد أن استمعت لصدى القنبلة التي ألقتها إيميليا في وجهها. رغم أناقتها وجمالها، إيميليا قادرة على بثّ مخزونٍ كبيرٍ من السمّ أينما حلّت. عندها لم تتمالك فيارا نفسها وقالت بتحدٍّ فاجأني أنا أيضًا.
- أنا أحبّ الجنس بكافّة أشكاله يا عزيزتي. أحبّ أن يعتليني نيكولاي المرّة تلو الأخرى، وأحيانًا أعتليه وأركبه كأنّه حصانٌ مطيعٌ مدجّن. أفعل بجسده ما أشاء، بل أرضي جميع رغباتي وهفواتي الجنسيّة. أحبّ التنويع والارتجال، إذا رغبتِ بتفاصيل أكثر بهذا الخصوص فمن الممكن أن نتحدّث بعد ذلك وجهًا لوجه. سأعلّمك دروسًا تخجل المرأة من الاحتلام بها ليلا، هل أنتِ على استعداد لذلك؟
- هذا غير معقول؟

لم أفهم عدائيّة إيميليا. قد يكون العداء ذو صلة بما حدث في القرية، حين عرضتْ جسدها دون استحياء، مستخدمة كلّ الإغراء الذي تمتلكه المرأة، ورفضتُها دون مقدّمات. هذه إهانة لأنوثتها من وجهة نظرها وهي محقّة خاصّة وأنّي نادرًا ما أرفض هذا النمط من العروض. هي لا تعرف هذه الحقيقة، ولو عرفت بأنّها استثناءً بين حريمي لأقامت الدنيا ولم تقعدها. والآن يا إيميليا، أما زلت ترزحين راكعة بين يديّ سلطان المخدّر؟

- كفى يا إيميليا أرجوك. تدخّل فلاديمير أخيرًا بعد أن لاحظ أنّ الأمور تزداد سوءً.

- نحن نتبادل الحديث يا فلادي، أين المشكلة يا عزيزي؟ خرجت الكلمات من فمها حادّة كالرصاص وأضافت:- لا أدري لماذا تصرّون أنتم معشر الرجال على التدخّل في شئون النساء، كلّ ما في الأمر أنّي أستفسر عن طرق الوصال المحبّبة في السرير مع نيكي.
- لا بأس يا إيميليا، إذا شئتِ فسأريكِ في غرفة النوم كيف نبدأ وكيف أصرخ أثناء الجماع حتى الذروة. قالت فيارا بتحدّ واضح، وكانت مصرّة على المضيّ حتّى النهاية في هذا الجدل والصراع مع إيميليا وأضافت:- إذا شئتِ سأعلّمك بعض الفنون وسأطلعك على المزيد من الأسرار.
- أنتِ لا تجرؤين على ذلك يا فيارا، أنت لا تعرفين قيمة من يقف أمامك. استمرّ تبادل النيران بينهما، تعكّر الجوّ وسرعان ما تركّزت الأنظار على الحديث الدائر ما بين فيارا وإيميليا.

مع بداية الصراع ذهب أحمد إلى المطبخ وفضّل عدم المشاركة في هذا الجدل. أنا بدوري لم أحتمل الجدل الأفلاطونيّ بينهما وصرختُ بعد أن ثارت أعصابي طالبًا من فيارا الحضور معي إلى إحدى غرف المنزل. حاولتُ تهدئة روعها، لكنّها سرعان ما فاضت بالبكاء، أراحت رأسها على كتفي.

- لماذا هاجَمَتْني بهذا العنف يا نيكي، ليس لها الحقّ في ذلك. ما المشكلة إذا كان جسدي ممتلئا؟ أنا امرأة يا نيكي..
- أرجوكِ يا فيارا، دعكِ من هذه المدلّلة، دمية ثريّة وغبيّة، أعتقد أنّها واقعة تحت تأثير الكوكايين في هذه اللحظة. صدّقيني، تشعرُ هذه المرأة بالفرح والسعادة حين تزعج الآخرين وتتسبّب لهم بالأذيّة والحرج. لذا عليك ألا تأخذي الأمور على محمل الجدّ يا عزيزتي، اتّفقنا؟

استمرت فيارا بالبكاء. عندها أخذتُ وجهها بين يديّ مرّرت يدي على شعرها الجميل وكانت رائحة الصابون ما زالت تفوح منها. ثمّ تاهت شفتاي في

عمق فمها، وكانت تنتظر هذه الخطوة بفارغ الصبر، انتفضتْ بين يديّ كورقة في مهبّ الريح، والأنوثةُ تفيضُ من كلّ خليّة في جسدها.

أمسكت نفسي عند هذا الحدّ، بإمكاني ضبط اندفاعي بعض الوقت، يبدو أنّي قد تمكّنتُ من النضوج ولم تعد فورة الجسد وإرضائه همّي الأوّل. نظرتُ لعينيها المغلقتين، كانت في تلك اللحظة تعيش حالة لذيذة من السكون، تمنّيت أن تبقى على حالها، لا أريد سرقتها، لتطول حمّى القبلة أكبر قدرٍ ممكن من الزمن. أعترفُ يا فيارا إنّ النساء القادرات على الحفاظ على بريقهنّ وحضورهنّ الأنثويّ الوقت كلّه نادرات، وأنتِ دون شكّ أميرتهنّ.

قبلتُها خجلة خالية من الجموح الحيوانيّ، رغم كلّ ما تفوّهت به أمام إميليا، لكنّها في تلك اللحظة كانت مستثارة. همست بعد قليل:- لا تجرح مشاعري أرجوك. أكره هذا النمط من الدعوات، لأنّ الألم سمة إنسانيّة لا يمكن تجاوزها، وستستمرّ الآلام ما استمرّت الإنسانيّة على وجه الأرض.

- عزيزتي فيارا، لقد تعرّضت لسكتة قلبيّة قبل بضع أسابيع. واجهتُ الموت مباشرة، وكانت لحظات الألم صاعقة وقصيرة. شعرتُ أنّ الهواء لا يكفي ولا يصل إلى تلافيف وخلايا رئتيّ.
- ماذا تقصد يا نيكي باعترافك هذا؟
- كلّ شيء مرحليّ ونسبيّ على وجه هذه المعمورة. الحياة والسعادة والألم مشاعر لا تدوم، لهذا استمتعي باللحظة المواتية، أنتِ الآن أجملَ النساء في نظري.
- هل هذه حقيقة؟ هل تعني ما تقول؟
- لو أنّ الأمرَ خلاف ذلك لما رافقتك هذه الليلة. دعينا ننضمّ للآخرين. عدا عن هذا ستحضر سوزي قريبًا إلى الحفلة، سوزي إحدى معارفي وأرغب بتقديمها لأحمد. أشعر أنّه غريب ووحيد في الآونة الأخيرة.

- فكرة جيدة، تألم الرجل كثيرًا وتعرّض للأذى هناك، لا أدري كيف فقد هذا الرجل ذراعه بعد نهاية الحرب؟

- يا له من سؤال يا فيارا. اطرحيه عليه بنفسك، ليس لديّ أجابة. أتدرين، من الأفضل عدم التعرّض لهذا الموضوع نهائيًا. هدفُ الحفلة نسيان أو تناسي هذه التعقيدات وتغيير رتابة حياتنا اليوميّة.

- أنت محقّ، سنتحدث في أمور أخرى. تناولت فيارا بعض الحبوب المسكّنة قبل العودة للآخرين. يبدو أنّ إيميليا قد أشبعت رغباتها في الجدل والمناكفة. نظراتُها هادئة وفارغة، أدركتُ أنّها قد تناولت مخدّر. لم تكن قادرة طوال الأمسية من التماهي مع المدعوين، ولم تنظر مرّة واحدة تجاه فيارا بعد ذلك.

- أحمد، أصحيح أنّ المسلم يتجوّز أكثر من امرأة؟ غاب أحمد في نوبة من الضحك وكاد يسقط من مكانه.

- لا أدري كيف أبدأ الحديث في هذا الموضوع يا إيميليا.

- ابدأ من الزوجة الأولى، قالت إيميليا بجدّ.

- نحن معشر الرجال بالكاد ننجح في معاشرة امرأة واحدة، فما بالك باثنتين وأكثر؟ الوضعُ العائلي الطبيعيّ يتكوّن من امرأة ورجل والأطفال. هناك استثناءات بالطبع، لكنّها باتت كثيرة في الآونة الأخيرة. يقدمُ على تعدّد الزوجات الأثرياء وأصحابُ الملايين، يستثمرون أموالهم في الجمع بين النساء، وتشريع الجنس وتنويع النساء في مراقد الحريم. لكن هذه قصة مختلفة عن سياق الحديث فالأغنياء يتشابهون في كلّ مكان، يختلفُ الإطارُ فقط بهذا الخصوص. الزواج بأكثر من امرأة هو تشريع للعشيقات ليصبحنَ سيّدات منزل قادرات على فرض إرادتهنّ على عالم الرجولة.

- وأنت يا أحمد، هل ستتزوج بأكثر من واحدة؟

- لن أرفض مجامعة امرأتين في سرير واحد على أن تكوني إحداهنّ. كان الجواب مفاجئًا وضحكنا جميعا من سرعة بديهة أحمد. لكن إيميليا سرعان ما

أضافت متحدّية:- من يدري يا أسمر، قد أشارك في هذه الدعوة إذا كنتَ جادًا.

شعر فلاديمير بالحرج الشديد، وكان الوقت قد تأخّر كي يتدخّل وينقذ الموقف، لكن جرس الباب الخارجي المفاجئ غيّر دفّة الحديث، وأنقذ فلادي من مزيد من الحرج. توقّعتُ حضور سوزي أخيرًا، وجّهتُ حديثي لفيارا:- أعتقد أنّها سوزي، أليس كذلك؟

- لا بدّ أنّها هي، سارعتُ بفتح الباب وقلت لها بسرعة:- اسمي نيكي ومهنتي عامل في صبّ الحديد وكاتب، وأنت تعرفينني منذ زمن طويل، اتفقنا؟
- اتفقنا، من هو المعنيّ هذه الليلة؟
- المعنيّ اسمه أحمد، الشاب ذو الشعر الأجعد بيد واحدة، تفضّلي. سوزي شقراء خبيرة في قضايا العشق. شقراء، يا للسخرية، أصول شعرها كستنائيّ واضح بعد أن تأخّرت بتجديد صبغه.
- مرحبًا، أنا سوزي.
- أما أنا فلا. قالت إيميليا على الفور دون تردّد. كانت جاهزة لحرق هذه المرأة وشيّها على نارٍ هادئة، أدركت الزائرةُ الجديدة أنّ إيميليا لا تهادن فيما يتعلّق بمكانتها بين النساء أينما حلّت. لكنّها لم تكن على بيّنة بتورّطها هذه المرّة مع عاهرة من الطراز الرفيع.
- لا يمكنك أن تكوني سوزي يا عزيزتي، هنا في هذا المكان توجد سوزي واحدة فقط على سنٍّ ورمح ولا مكان لسوزي غيرها، نقطة على السطر. لكن ما دام هناك الكثير من الطعام والشراب والأصدقاء فهذا يعني أنّ الوقت قد حان لممارسة الحياة. فلتسقط الأسماء، بصحتكم.
- أحمد، سوزي ترغب بالتعرّف إليك منذ وقت طويل.
- ليس التعرّف فقط، غمزت بطرف عينها بدلالة واضحة أربكت أحمد. لم يعلّق بدوره على كلماتها لكنّه شعر بالسرور للاهتمام المفاجئ بشخصه.

تقدّم الليلُ بسرعة، كما هيّأت الموسيقى الأجواء لتماس عاطفيّ ما بين الحضور من نساء ورجال. انتهزت سوزي الفرصة لمراقصة أحمد وحاولت جاهدة الغمز بجسدها هذه المرّة. استجابَ أحمد لإشارتها وأخذ يقبّلها بين الحين والآخر، لم أكنْ متأكّداً إذا ما كان حقيقة عاجزا جنسيًا أم أنّه قال ذلك في لحظة ضعف عابرة. على أيّة حال لن يتأكّد من هذا الوضع سوى سوزي، بعد الاختلاء به في غرفة النوم، والقضيّة أصبحت بحكم المنتهي.

غادر فلادي وإيميليا المكان، حاول الرجلُ الاعتذار عن تصرّفات صاحبته خلال الأمسية، هدّأتُ من روعه عند الباب الخارجي ليمضي مبتسمًا راضيًا. لي باعٌ طويل مع سيلفيا وإيميليا تشبهها في بعض الأوجه، لكنّها تختلف عنها جذريًا في الكثير من القضايا. سيلفيا واضحة مع نفسها، وغرورها متراكم كنتيجة طبيعيّة لاعتدادها الكبير بنفسها ولا علاقة لذلك بالمخدّرات والإدمان.

عند منتصف الليل أخذتُ بتنظيف المكان وغسل الأواني والصحون والكؤوس الفارغة برفقة فيارا، مضى أحمد وسوزي إلى غرفة النوم وأغلقا الباب. بينما انشغلت فيارا في أعمال التنظيف، حاولتُ استراق السمع خلف الباب الموصد، كنت فضوليًا بعض الشيء. سمعتُها تقول بغنج، "حاول أن تهدّئ أعصابك يا أحمد، لا تفكّر بشيء سواي الآن، قد يحصل هذا مع الكثير من الرجال". بعد ذلك لم أعُدْ أميّز بين الأصوات. ابتعدتُ عن الباب وأدركتُ أنّ المشكلة في طريقها إلى الحلّ.

بقيتْ مشكلتي أنا. لا أدري إلى أيّ مدى كنتُ على استعدادٍ للتقرّب من فيارا، والرجلُ في داخلي يصرخ ويحرّضني بعنف. لديّ رغبة كبيرة بامتلاكها للتوّ. كنت أنانيًّا في تلك اللحظة ولا قوّة قادرة على منعي عن المضيّ في هذه اللعبة حتّى النهاية. هكذا خُلقنا، رجالٌ قادرون على العطاء المتواصل، وبدا هذا الدور البيولوجي أكثر نضوجًا وتجلّي.

ارتجفَ جسدُها حين طوّقتُ كتفيها من الخلف، بينما كانت منهكمة فوق المجلى، قبّلتها وعانقتها، ثمّ توجّهنا لإحدى غرف النوم. شعرتُ بالخجل حين

أنهيتُ الجولة الأولى بسرعة، لكن هناك المزيد من الجولات. طال الأمرُ بنا حتّى ساعة متأخّرة من الليل، وعند الصباح استيقظنا جائعَين نعاني من شدّة الظمأ.

- صباح الخير يا حبيبتي.
- الصباح أم الظهر؟ صباح الخير يا نيكي على أيّة حال، يا لها من ليلة، لقد أعدت لي الحياة يا نيكي.
- أشعر بالجوع وبالعطش.
- وأنا أيضًا، هناك الكثير من بقايا الطعام. ذهبت فيارا لتحضير بعضه، وشرعتُ بترتيب الغرفة والسرير الذي شهد ليلة عاصفة. فتحتُ شبابيك الغرفة لتهويتها وذهبت لرؤية فيارا في المطبخ. قبّلت وجنتيها.
- أريد أن أراكِ ثانية.
- غدًا سيعود زوجي إلى بلغاريا.
- ماذا؟ أنتِ متزوّجة؟
- ولِمَ الدهشة؟
- كيف؟ لم تخبريني بذلك.
- بصراحة، خشيتُ أن لا تمضي معي حتّى النهاية، كما أنّك لم تسألني. زوجي مسنّ يا نيكي ولا يهمّه كثيرًا أمرَ فيارا. هذه ليست خيانة. أحيانًا تجتمع الكثير من الأسباب والمعطيات..سنلتقي يومًا يا عزيزي، أنتَ بحاجة لعلاقة جادّة، تحتاج لامرأة تقف إلى جانبك، لستَ بحاجة لسكرتيرة عابرة تعمل في مكتب. هناك في مكان ما امرأة أخرى تستحق امتلاكك واصطحابك ليل نهار. لقد نلتُ ما أريده بالأمس، ليلة أعادت لي ذكرى الفتاة التي كنتُها يومًا. عندها ظهر أحمد عند باب غرفة نومه متمطّيًا وقال:- صباح الخير.
- يبدو أنّك قد نمت جيدًا يا أكتع.
- نعم، بل أكثر من جيّد.

- عيناك لم تغمض ليلة البارحة على ما يبدو. كيف عشيقتك الآن؟
- للأسف غادرت العشّ مبكّرًا، سوزي هذه ساحرة. نيكي، استيقظ الرجل في داخلي. لا بدّ أنّ للصدمة التي عايشتها أثرٌ كبيرٌ عليّ.
- يسعدني أن أسمع هذه الكلمات، إذن لا خوف على رجولتك بعد الآن، أصبحتَ الآن قادرًا على رفع الراية.
- هذه الراية ليست دائمًا رمزًا للرجولة، لكن الاستعارة جميلة. أخبرني بالله عليك يا نيكي، كيف تعرّفت لهذه المرأة؟ تتقن الكثير من فنون الغرام.
- لماذا لا تجري بعض الفحوصات الطبية؟
- أنا لست ساذجًا يا رجل، أستخدم دائمًا الواقي في اللقاءات العابرة.
- إذن كلّ شيء على ما يرام. عادت فيارا إلى غرفة الجلوس وسألت.
- لا بدّ أنّكم تتحدّثون عن النساء والجنس؟ صفّت بعض الصحون المليئة بالطعام الساخن وسرعان ما هجمنا لإسكات جوعنا الشديد.
- ماذا يمكن لأعزبين الحديث سوى عن النساء والجنس يا عزيزتي، هذه المواضيع أبديّة ومشتركة بين كافّة الرجال.
- أعزبان، من تخدعان بهذه الأحاديث؟ الطعام شهيّ على أيّة حال.
- الطعام شهيّ، والجوع قاتل. قال أحمد ولم يتوقّف عن التهام الطعام أمامه.
- فيارا، هل يمكنك الطلب من السيد ستانتشيف التعجيل بكتابة مقدّمة أو تقديم دراسة سريعة عن روايتي يا عزيزتي.
- لا تقلق، ستكون بين يديك في بحر الأسبوع المقبل.
- أهذا معقول، كلّ هذا الوقت لكتابة بضعة أسطر؟
- حتى وإن كتبها الآن، سيتعمّد الانتظار أسبوعًا آخر كي تشعر بقيمته وأهميّة شخصيته. هذه هي القوانين غير المعلنة يا عزيزي. تعوّد على ذلك.
- وأنتِ، هل قرأت الرواية؟ أرغب بمعرفة رأيك.

- لا أشكّ بقدراتك، سأقرأ الرواية في وقت قريب. أعدك بذلك، عندها سنلتقي لنتحدّث بالتفصيل المملّ عن عملك. كن على ثقة، لن أوفّر صغيرة أو كبيرة، ستسمع منّي أسئلة واستفسارات محرجة عديدة.
- هل يمكنني المشاركة في هذا النقاش؟ يمكنني أن أدلي بدلوي. سأل أحمد بعد أن شبع وتوقّف عن تناول الطعام.
- طبعا يمكنك ذلك، وفي أيّ وقتٍ تشاء.

انتهينا من تناول وجبة الإفطار والغداء. ساعدنا فيارا بتنظيف المكان فيما بعد، ثم ودّعنا أحمد ومضيت معها نحو النهار. أمسكتْ يدي، أراحت برأسها على كتفي، كنّا كزوجين يقضيان شهر العسل، ولم يجانب هذا الواقع الحقيقة كثيرًا.

- فيارا، هل أنت سعيدة؟
- معك، أم بشكل عام؟
- تجيبين على سؤالي بسؤال. أتساءل عن مدى سعادتك العائليّة؟
- لا أدري كيف أجيبك، معاملة زوجي معي جيّدة وارستقراطية، إذا استثنينا خياناته المتعدّدة وسكره المتواصل رغم تقدّمه بالسنّ. أكاد لا أعرفه. تغيّر كثيرًا منذ زواجنا. يبدو الآن رجلا مختلفًا تمامًا عن ذاك الذي عرفته في بداية علاقتنا. بدأتُ مؤخّرًا بإجراء فحوصات مخبريّة، أخشى أن يصيبني بالعدوى من كثرة خياناته. لا تخشَ شيئا أنا خالية من الأمراض في الوقت الراهن. كُن على ثقة من ذلك، إذا أردت يمكنني أن أطلعك على نتائج الفحوصات.
- كيف يمكنك العيش معه وهو يعاني من كلّ هذه السلبيّات؟
- أعتقدُ أنّه قد أدمنني، لا يمكنه العيش بدوني. لا أدري كيف يمكن للرجل أن يعتبر الخيانة حقًّا طبيعيًا، تصوّر بأنّه يبكي أحيانًا على كتفي إذا فارقته أحداهنّ أو صدّته.
- لا أفهم، هل تقصدين بأنّه يبوح لك بمغامراته العاطفيّة؟ هل هذا معقول؟ وتقومين أنتِ في الوقت نفسه بتهدئته وتطييب خاطره؟

- تعوّدتُ على هذا السلوك على ما يبدو. أخشى أن أجد نفسي وحيدة حتى وإن كان ثمن ذلك إهانة أنوثتي. قد لا تفهمني الآن، لكنّ الحياة أقسى ممّا تتصوّر.
- اللعنة يا فيارا، لا أريد أن أفهم ولا أريد أن أستوعب هذا النمط من المعاناة. هذا غير مقبول بالنسبة لي. كيف يمكنك تحمّل كلّ هذه المهانة؟
- أنتَ تعوّدت هجر النساء بسرعة، ولا تعرف الحال على الشاطئ الآخر.
- أنت مخطئة، أعرف جيّدًا كيف يكون الحال على الشاطئ الآخر يا فيارا. لم أهتم بذلك من قبل، الشاطئ الآخر كان مجرّد ساحة مفتوحة للمتعة، لكنّي أدرك الآن ما يحدث للمرأة بعد أن ترفع لباسها الداخلي وتجدني قد غادرت المنزل على عجل.
- انتهتْ نزهتُنا يا نيكي، عليّ أن أستقلّ الحافلة.
- أترغبين بعربة أجرة؟
- لا أرجوك، لديّ رغبة كبيرة بمراقبة البيوت والشوارع ووجوه الآخرين. حشود الناس تمنحني إحساسًا بالأمان. أريد أن أضيع بين الزحام.
- هل أنت واثقة من ذلك؟
- أشكرك يا عزيزي، أشكرك على كلّ ما قدّمته لي. تعال لزيارتنا في المكتب في الأسبوع المقبل.
- حسنًا، إلى اللقاء يا فيارا.

* * *

تمكّنتُ من التأقلم مع الوضع الجديد بسرعة. كنت أتواصل مع فيارا بالهاتف بين الحين والآخر. لم أشاهدها منذ تلك الليلة، لكنّ الخبر الذي سرّني كثيرًا جاء من طرف ديانا الصغيرة. أخبرتني ليودميلا بحضورهما القريب إلى العاصمة للمشاركة في مسابقة الأولمبياد الوطنيّة في علوم الرياضيات وتطبيقاتها،

وكانت موهبتها تتطوّر بسرعة كبيرة. أولتْ جامعة صوفيا اهتمامًا بموهبة ديانا بعد أن علم الخبراء بقدراتها، وبعد سنوات ستتمكّن من حلّ مسائل رياضيّة شديدة التعقيد، وقد تجد حلولاً لبعض المعضلات الرياضيّة غير القابلة للحلّ. في الحقيقة بذلت ليودميلا جهودًا كبيرة لمساعدة الصغيرة ديانا، ولا مبالغة إذا قلت بأنّها قد كرّست حياتها لمساعدتها والمضيّ معها حتى النهاية.

غالبًا ما أفكّر بكاتيا "كيف حدث كلّ هذا؟" لم أعتقد أبدًا بأنّها على هذا القدر الكبير من الحساسيّة، اختفت مرّة واحدة، كان هناك بالطبع الكثير من المقدّمات. لكن إذا قدّر لي يومًا أن ألقاها، وهل يعقل ألا ألقاها؟ ما أصعب البحث عن امرأة مضت في طريق النسيان. إذا قدّر لي أن ألقاها سأحاول جاهدًا تعويضها عن كلّ لحظة مهدورة في كتاب الحبّ الذي جمعنا. لكن، هل أملك الحقّ بالبحث؟ لا أظنّ ذلك. ربّما عليّ أن أتركها في ظلّها الذي اختارته بنفسها بعيدًا عن أنانيّتي المفرطة ومشاعري الجيّاشة المؤذية. ستبقى كاتيا جرحي المفتوح لفترة طويلة من الزمن.

بعد مضيّ عشرة أيام من لقائي الأخير مع فيارا اتّصلتْ بي هاتفيًا. طلبت منّي الحضور إلى المكتب وحدّدت لي موعدًا. السيد ستانتشيف يرغب بلقاءٍ عاجلٍ معي. قالت بأنّه معجبٌ للغاية بروايتي ويعتبرُها من الأعمال القليلة المتميّزة في الأدب البلغاري المعاصر. تملّكني الفضول فكلمات ستانتشيف ذات وزنٍ كبير في الأوساط الأدبية. ذهبت في اليوم التالي لزيارته، صافحت فيارا وقبّلتُ خدّها. قالت مستثارة:- مبروك يا نيكي، كتبتَ رواية ناجحة وفي منتهى الروعة. تهانينا، يمكنك الآن مقابلة السيد ستانتشيف فهو في انتظارك.

دخلتُ لمقابلة صديقي الجديد الذي وقف لتحيتي. أخذ يدي بين يديه وشدّ عليها بحرارة. لم أتوقّع منه كلّ هذه الحفاوة:- أهلا سيد نيكولاي، تفضّل، اجلس من فضلك. جلستُ قبالته وفي الأثناء طلب القهوة والماء.

- سيد نيكولاي، تأكّد أنّ روايتك ثروة حقيقية للثقافة البلغارية. هل أنت متأكّد بأنّها باكورة أعمالك؟

- طبعا يا سيّد ستانتشيف، لم اكتب رواية قبلها، بالكاد أنهيتُها وكنتُ على وشك العدول عن ذلك لأكثر من مرّة. أعترف أنّ الكتابة كانت وما زالت تجذبني دائمًا. لكنّي الآن على يقين من أن تأليف رواية قد يحتاج لحياة كاملة. الموضوع لا يعتمد على الكمّ أبدًا. على أيّة حال، يسرّني كثيرًا أنّها قد نالت إعجابك.
- أعجبني الفصل الذي وصفت فيه السكتة القلبيّة المفاجئة، عادة ما يصفون الروح وهي تحوم حول الجسد مرتفعة ومغادرة عبر نفق نحو السماء، لكن وصفك للقلب الحارس كان رائعًا وحداثيّ. هناك الكثير من الحبّ والصدق والعواطف المتباينة في هذا العمل.
- إذن، سترى النور، أيستحقّ هذا العمل أن ينشر يا سيد ستانتشيف؟
- طبعًا، طبعًا. سأساعد في هذا الصدد، أعدك بذلك. سأحاول أن أتحدّث مع بعض المموّلين. لا تفكّر بالأمر كثيرًا. أنت وُلِدتَ كاتبًا كما يبدو. أنا على يقين أنّ الكتّاب المبدعون في هذه الأوقات الصعبة يعدّون على أصابع اليد الواحدة.

تنهّدتُ وتنفّستُ بعمق، ربّما توجّب عليّ أن أقول شيئًا ما، مثل "أشعر بالاعتراف" أو ما شابه. لكنّي أدركت بأنّي مفرّغ تمامًا، لأنّ هذا العمل أصبح خلفي، وأنا في حالة انتظار لقطف ثمار مجهودي الكبير الذي بذلته طوال الوقت في الكتابة. روايتي مزيجٌ من المعاناة الشخصية والخيال الجامح، تضمّ بين صفحاتها أحلامي وطموحي ومخاوفي، وفي الوقت نفسه كنت على استعداد لتقبّل واقع آخر، لم أكن سأدهش كثيرًا لو رمى السيد ستانتشيف بأوراق الرواية في وجهي واصفًا إيّاها بالفاشلة ولا تستحقّ تسويد كلّ هذا البياض. لم أكن سأفاجأ لو أخبرني ستانتشيف بأنّ عملي خالٍ من أيّ ذوقٍ أدبيّ، ولن أفاجأ إذا طردني من مكتبه، طالبًا عدم إزعاجه ثانية بمثلِ هذه التفاهاتِ. لكنّ ستانتشيف قرّر أن يضع اسمه في مقدّمة روايتي للتعريف بها وتقديمي للقارئ.

- سيّد ستانتشيف، كلماتك تعني لي الكثير، شكرًا على هذا الإطراء. سأعمل على استحقاق هذه الثقة. والآن ما هي الخطوة التالية؟

- تدقيق وتصحيح وقضايا رتيبة من هذا القبيل، لا بدّ من القيام بذلك، ثمّ نبدأ بالتحضير للطباعة في إحدى دور النشر والتوزيع. وحين يجهز الكتاب سنقيم حفل توقيع يليق بك. قد نواجه بعض المصاعب في التوزيع والتسويق، لكن هذا هو حال سوق الكتب في الوقت الراهن.

- كلّ ما ذكرته مثير للغاية، خاصّة وأنّي مستجدّ في عالم الكتّاب والمدوّنين، يبدو أنّ هناك الكثير من التحديّات.

- نعم، المنافسة شديدة والعقبات ما أن تنتهي حتّى تتجدّد. كلّ هذا يبقى ضمن إطار الإبداع، عليك أن تبذل مجهودًا كبيرًا كي يعترف بك زملاء المهنة لتتمكن من تبوّء مكانتك في عالم الأدب والثقافة.

- سيّد ستانتشيف، أنا لا أعاني من كلّ هذه المشاكل التي ذكرتها، لن أتحوّل لجرذ يقبع في مكتب بانتظار رحمة الرئيس، لن أتأثر كثيرًا إذا اعترف بي الزملاء أو لم يفعلوا، لن أحرّك ساكنًا حتى وإن علّقوا لي حبل المشنقة عند مدخل بيتي. أنا أعمل في صبّ الحديد والمعادن المنصهرة تحت درجات تتجاوز ألف درجة، بيديّ هاتين أقطف عنبي وأمزج عجين خبزي يوميًا، أؤكّد لك بأنّي لا أفكّر حاليًّا بإصدار كتاب آخر.

- نيكولاي يا عزيزي، لا داعي لهذه الحدّة، لقد حاولت وصف عالم الكتّاب وأنت حرٌّ في قبول كلامي أو رفضه. أعرف أنّك تتمتّع بشخصيّة متمرّدة وهذا واضح في كتابك. مع هذا أتمنّى أن يكون مصيرك في عداد الكتّاب المتميّزين. أرجو أن تترك عنوانك ورقم هاتفك لدى فيارا كي أتمكن من الاتّصال بك عند الضرورة. دخلت فيارا في تلك الأثناء وقدّمت القهوة والماء على عجل ثمّ غادرت المكتب.

- إذا أردت قراءة ما كتبته كمقدّمة لروايتك، أتركها بين يديك للاطّلاع عليها.
قدّم لي ستانتشيف الملف الذي يحتوي على رأيه وتحليله لعملي، تناولته وهدّأت من روعي قليلا ثمّ شرعت بقراءة ما كتب. حاولتُ طِوالَ الوقت رسم ابتسامة على شفتيّ، أدركت كنه مقدّمته، وصفه وتشريحه لعملي يدعو للفخر. اعتبرني كاتبًا واعدًا وقيّم الرواية عاليًا، وكتب بأنّها تستحقّ القراءة لأكثر من مرّة، وأنّني مفاجأة آخذًا بالاعتبار أنّ الرواية باكورة أعمالي..الخ.
- هذا اعتراف رفيع المستوى بعملي المتواضع أستاذ ستانتشيف. أشكرك على هذه الكلمات الجميلة، تقييمك سيلزمني بالحفاظ على مستوى رفيع في الكتابة.
- وهو المطلوب يا نيكولاي، أتمنّى لك النجاح. ودّعته وخرجت إلى مكتب الاستقبال المطلّ على مكتب فيارا، بقيتُ معها لبعض الوقت قبل أن أبتعد عن المكان.
- فيارا، أعتقد أنّ التقييم رفيع وسيساعد في نجاح الكتاب.
- أنا بانتظار الحلوان. صدّقني، كلماته ذات وزن كبير في الأوساط الأدبيّة، وستتأكّد من كلماتي بنفسك لاحقًا.
- أريدُ أن أراك على انفراد يا فيارا.
- ها أنا بين يديك، ألا تراني؟ عندها تقدّمت نحوها وهمست في أذنها.
- أريد أن أكون معك على متن موجة واحدة.

لا يمكنني اليوم ولا الغدّ، لديّ ضيوف. أصابَها الخجل واحمرّت وجنتاها. فهمت ما حاولت الاعتراف به، اتّفقنا على اللقاء خلال الأسبوع القادم، بعد انتهاء الدورة الشهرية. كانت تشعر بالعرفان لمجرّد رغبتي الصريحة بالانفراد بها. تحتاج المرأة للشعور بأنوثتها وقدرتها على استثارة الرجل في كلّ مراحل العمر، حتى وإن كان هدف الرجل غالبًا الفراش فقط.

في اليوم التالي ذهبتُ للقاء ديانا وليودميلا. ديانا كانت في قمّة الفرح حين قابلتني، رمت بنفسها في أحضاني وبقيت متعلّقة برقبتي، وهكذا مضينا نحو عربة الأجرة.

- يبدو أنّك لا تحرمين نفسك من الطعام يا صغيرتي، ازداد وزنك منذ رأيتك آخر مرّة.
- الا تعرف أنّ الأطفال يكبرون بسرعة يا أبي، وأنتَ تكبرُ كذلك، انظر إلى الشعر الأبيض في رأسك، يجب أن تفرح لأنّي أنمو وأكبر يا بابا.
- طبعًا أنا فرحٌ للغاية يا صغيرتي، لأنّي أحبّك أكثر ممّا تتصوّرين يا شقيّة. سوف أعمل على أن تكبرين أكثر خلال وجودك في ضيافتي. اتّفقنا؟
- هذا كلام جميل، لقد سئمت الحديث عن الرياضيّات.
- أنعمَ عليك الخالق بهذه الموهبة يا ديدي، عليك أن تستثمرينها جيّدًا.
- لن أشارك في الأولمبياد الغبيّ مهما حدث، هؤلاء الأساتذة مزعجون يا أبي. أريد أن ألعب مع الصغار، هناك الكثير من الملاهي المخصّصة للصغار. فاجأتني ديانا بقرارها هذا، تبادلتُ مع ليودميلا نظرات استفهام.
- لا بدّ أن تتحدّث معها فهي مصرّة على عدم المشاركة يا نيكي.
- يا إلهي، هي مجرّد طفلة صغيرة يا ليودميلا، ألا تفهمين معنى هذا؟
- خيّم الصمتُ علينا جميعًا، بعد ذلك عرضتُ عليهما الذهاب إلى أحد مطاعم المكدونالدز. غمر الفرح صغيرتي ديانا وهي تعرف بوجود الكثير من الألعاب في مراكز الوجبات السريعة. ستتناول البطاطس المقليّة التي تحبّها الصغيرة. وعدتُها أيضًا بالذهاب إلى "صوفيا لاند" حيث الألعاب المتنوّعة وبإمكانها أن تقضي هناك ساعات طويلة في اللعب والمرح.
- أنتَ أروعَ أبٍ في الدنيا، شكرًا يا ماما، سأشارك في الأولمبياد بعد أن أنتهي من اللعب في صوفيا لاند، أنا سعيدة للغاية.

كانت ليودميلا مندهشة من التغيير المفاجئ الذي طرأ على ديانا، الحقيقة أنّ الصغيرة كانت بحاجة إلى مزيد من الاهتمام لتشعر بطفولتها وتنفّذ ما نطلبه منها. لا يمكن تقييد طفولتها وإبقائها أسيرة موهبتها الرياضيّة. ربّما نسيت ليودميلا هذه الضرورة، رغبة منها باستثمار موهبتها قدر الإمكان.

قررتُ عدم الذهاب إلى العمل خلال الأيام القليلة القادمة، أمضيتُ الكثيرَ من الوقت مع ديانا، تجوّلنا طويلا في شوارع العاصمة وارتدنا المحال والأسواق، اشتريتُ لها بعض إكسسوارات الفتيات، هدايا صغيرة تضفي على يوميّاتها البريئة الكثير من الفرح الهستيريّ أحيانًا. حافظة مفاتيح صغيرة مع رسوم لتوم وجيري، ألعاب وملصقات صغيرة لفنانات ومطربات وغير ذلك. لم أذكرْ لها طِوالَ الوقتِ مسابقة الاولمبياد الدوليّة. لم نتحدّث عن الحساب والرياضيّات، وأخيرًا قالت بهدوئها الطفوليّ المعهود.

- أبي، أنت الوحيد الذي لا يطرح عليّ أسئلة رياضيّة بسيطة ومعقّدة.
- هل يتوجّب عليّ أن أفعل ذلك؟
- لا أدري، أشعر أحيانًا برغبة شديدة للهرب من البيت أو المدرسة. أتدري يا أبي إنّ التلاميذ يكرهونني بسبب تفوّقي في مادّة الرياضيّات. لا أدري ما الذي يعجبهم في هذه المادّة المملّة؟ مسائل حسابيّة تنتهي ولا تنتهي في اللامنتهي، غريب أمرهم. يجب أن يفكّروا بالألعاب فقط.
- قد يكرهون هذه المسائل يا صغيرتي لكن من الصعب عليهم أن يغفروا لكِ تمكّنك منها بهذه السهولة والعفويّة. أنتِ مختلفة والاختلاف يتحوّل في كثير من الأحوال إلى عقاب.
- لا أفهم..أنا أحبّهم، هم يتقنون العديد من الألعاب أفضل منّي بكثير.
- آه يا صغيرتي، أنت تطرحين مسائل شديدة التعقيد يا ديانا.
- أنا لست صغيرة يا أبي، لم أعد تلك الصغيرة التي تذكرها.

- بل ما زلت صغيرة يا ديانا. صغيرة للغاية، أنا لا أستطيع أن أشرح لكِ كلّ شيء في هذه الحياة، لكنّي أحاول جاهدًا القيام بذلك. الحياة شديدة التعقيد، ستدركين الكثير من الأمور حين تكبرين قليلا، من الأفضل ألا تفكّري الآن بكلّ هذا.
- هل ستحضر معي غدًا يا أبي؟
- طبعًا، سأكون إلى جانبك طِوالَ الوقت. طلبتُ من ليودميلا ألا تصرّ على نومها المبكّر وأن تتصرّف معها بشكلٍ اعتياديّ، فحدث الغدّ لا يعني نهاية العالم.
- تعالَ لتنام عندنا، هناك متّسعٌ من المكان يا نيكي. أجابت ليودميلا بدورها.

تذكّرتُ المرّة الأخيرة التي حَضَرَتْ خلالها لزيارتي في القرية، شعرتُ آنذاك بأنّي قد فقدت عذريتي للمرّة الألف مع هذه المرأة، كان بإمكاني الامتناع عن وصالها، لكنّي تركتُ نفسي أسير المتعة وهي تتقن اللعبة جيّدًا. لكنّها أصبحت قيد الماضي، كنتُ مصرًّا على أن أبقى الإنسان الذي أريده. لن أفعلها لمجرّد الحصول على لذّة عابرة. هناك ما هو أعمق من ذلك بكثير. نمتُ على الكنبة الطويلة في غرفة الاستقبال واستيقظتُ مبكّرًا صباح اليوم التالي. غسلتُ وجهي ووضعتُ ركوةَ القهوة على النار. ترك أقرباءُ ليودميلا في صوفيا الشقّة تحت تصرّفها لعدّة أيام ومضوا إلى فيلا في إحدى القرى القريبة. سخّنتُ بعضَ الحليب وأضفت عليه الكاكاو والسكّر لتشربه ديانا مع طعام الإفطار. استيقظتْ ليودميلا في الأثناء وذهبتْ إلى الحمّام لتغتسل.

- صباح الخير يا ليودميلا، هل ترغبين بفنجان قهوة؟
- وهل يحتاج هذا لسؤال، لم أتناول القهوة من يدَيْ رجل منذ زمن بعيد.
- يمكنك الاستفادة من هذا العرض، قهوة وبيض مقلي. ما رأيك؟
- أنت رائع يا نيكي.

ربّما توقّعت أن أزورها في عتمة الليل، لكنّي خيّبت آمالها. أدركَتْ أنّ الليل لم يعد مشتركًا بيننا رغم عدم ممانعتها بين الحين والآخر. استيقظتْ ديانا وتناولنا الإفطار معًا. ارتدتْ ديانا بعد ذلك بذلة أنيقة، ضمّختها ليودميلا بعطر خفيف وانطلقنا نحو جامعة صوفيا حيث انعقاد الأولمبياد.

وصلنا في الوقت المحدّد، كان في انتظارنا الكثير من الصحفيين وكاميرات التلفزة. عرفوا بمشاركة طفلة صغيرة في أعمال الأولمبياد، وكانوا على استعداد لإقامة الدنيا دون إقعادها للحصول على سبق صحفي مهما كان الثمن. تمكّنت من حماية ديانا من تطفّل الصحفيين الثقيل، دخلنا على عجل إلى رحم الجامعة. ثمّ طلب منّي البروفيسور المسئول التحدّث معي على انفراد.

- أنا البروفيسور أتناسوف مسؤول كليّة الرياضيّات، أريدك أن تعلم بأنّنا سنتعامل مع ديانا بطريقة مختلفة بعض الشيء، فهي تعدّ استثناءً في هذا الأولمبياد. نعرف أنّ إمكانياتها كبيرة وهذا أمرٌ يدعو للفخر يا سيدي. سنبدأ معها بمسائل التكامل والتفاضل ثمّ سنتابع باستخدام معادلات اللامنتهي والهندسة الفراغيّة.

- أعتقد أنّ الوقت ما زال مبكّرًا لهذا النمط المتقدّم من الرياضيّات. أجبته وقد شعرتُ بالارتباك الشديد، في الواقع لم أفهم شيئًا عمّا يتحدّثه الرجل.

- وما أدراك، دماغها يعمل بطرقة مختلفة عن الآخرين، ديانا تمتلك القدرة على المتابعة والتفكير المنطقيّ والمنهجيّ، إذا تمكّنت من تجاوز المرحلة الأولى فيمكنها الانتقال لمراحل متقدّمة من الفكر الرياضي المتفوّق. دعنا نتصرّف وفقًا لمعطيات النتائج يا سيّدي.

- لكنّي لا ادري كيف ستتصرّف حينما تجلس جنبًا إلى جنب مع المشاركين وجميعهم يكبرونها بسنوات.

- نعم أنت على حقّ، لم نفكّر بهذه التفاصيل. ماذا تقترح بصفتك والدها؟

- أقترح أن تجلس في الصفّ الأول في إحدى زوايا الصالة مع مراعاة أن تكون وحيدة بعيدة عن أنظار الفضوليين والمراقبين أيضًا، وعدم التحدّث معها ولا حتى ممازحتها.
- المشاركون في الأولمبياد مهذّبون للغاية يا سيد نيكولاي، وجميعهم متفوّقون.
- نعم، لا تنسَ أنّ ديانا تجاوزت السابعة ببضعة أشهر فقط.
- حسنًا، أنا موافق. هل هناك توصيات أخرى؟
- قدّموا لها خلال المسابقة هذا اللوح من الشوكولا وكأس من الماء. ناولته الشوكولا التي تحبّها ديانا.
- الماء متوفّر للجميع، هذه قضايا شكلية يا سيّد نيكولاي، ما رأيك لو نلتقي بعد ذلك في مكتبي لنتحدّث في بعض المشاريع المتعلّقة بموهبتها.
- يجب أن نتحدّث مع والدتها أيضًا، أنا موافق مبدئيًا على اعتماد برنامج خاصّ للتعامل مع موهبتها. بروفيسور أتناسوف، ديانا تعاني كذلك من مشاكل عديدة مع تلاميذ صفّها بسبب هذه الموهبة، أرجو أن تأخذوا القضيّة الماليّة بعين الاعتبار.
- موازنة القسم متواضعة للغاية، لكنّ ديانا تعدّ استثناءً هامًا، وسنرى ما يمكننا تقديمه لتنمية قدراتها في الجامعة.
- لا بدّ من تأمين مسكن لها ولوالدتها فهما كما تعلم تعيشان في بلوفديف.
- أنتما منفصلان؟
- نعم، لكنّنا نحتفظ بعلاقة جيّدة.
- سأبذل جهدي لتقديم المساعدة.
- وأنا سأكون بالجوار، ستجدونني في الرواق المؤدي للصالة.

دخلت ديانا بفخرٍ إلى الصالة الكبيرة، وقد بدأت تدرك أهميّتها. أعتقد أنّ الأمور ستأخذ منحىً طبيعيًا في القريب العاجل. بدأتُ بقراءة إحدى الصحف،

كنت أبادر عادة بقراءة الصفحة الأخيرة حيث عالم الجريمة. شاهدت صورة أحد رجال العصابات الذي قضى بعد أن استقرّت رصاصة في رأسه، الوجهُ مألوف لديّ، قرأت اسمه ولقبه وسيرة حياته القصيرة، عندها تذكّرت الرجل الوسيم مفتول العضلات الذي حقّق معي في البيت النائي في الغابة المظلمة. حاولوا تنظيمي في صفوفهم لتسويق المخدّرات لكنّي تمكنت من الإفلات. شعرتُ بالارتياح بعد أن تيقّنت بأن هذا الرجل الذي نظّم خطفي أصبح أحد سكان العالم الآخر، منذ عدت إلى العاصمة وأنا أفكّر بهذا الأمر. ماذا لو حاولوا البحث عنّي مجدّدًا يا تُرى؟ لكن هذا الكابوس انتهى وإلى الأبد.

بعد ساعتين خرج البروفيسور أتناسوف برفقة ديانا مبتسمًا وقال.

- لقد تجاوزت الصغيرة جميع التوقّعات سيّد نيكولاي.
- ديانا، هل المسائل صعبة يا صغيرتي؟ سألتها فرِحًا وفخورًا في الوقت ذاته.
- المهمّ أنّ كلّ شيء قد انتهى الآن، وعدتني بالذهاب إلى "لونا بارك" حال الانتهاء من المسابقة.
- طبعًا يا عزيزتي، سنذهب وأمّك إلى اللونا بارك. أنا دائمًا أفي بوعودي. نقودي على وشك الانتهاء، ولا أتوقّع دخلا أو راتبًا في وقت قريب.
- ما طبيعة المسائل التي تمكّنت من حلّها يا حضرة البروفيسور؟
- توصّلنا لبعض إشكاليات الأبعاد الثلاثة. ديانا واعدة إلى حدّ كبير.
- يسرني سماع ذلك، لكن أخبرني هل يوجد مخرج خلفي. لا أريد أيّ احتكاك مع الصحفيين.
- طبعًا، اتبعني. هناك مخرج لا يعرفه المتطفّلون.

هذا ما تمكّنت من إنجازه حاليًا. ساعدتها للتخلّص من أضواء الكاميرات والوقوع في شباك الغرور الذي قد يصاحب شهرتها، لكن بعد سنة أو سنتين ربّما لن أتمكّن من ذلك. سنترك الأمور على ماهيّتها، لكلّ شيءٍ تفسير منطقي في مسيرة الحياة. لا يمكن لأحد أن يوقف حتميّة التطوّر، نظرية التطوّر شبيهة

بالانجراف الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة أمامه، لا يتوقّف حتى يحقّق جميع أهدافه. عندها فقط يهدأ الطوفان وتأخذ الأمور بالعودة إلى مجاريها.

اقترحتُ على ليودميلا الانطلاق مباشرة إلى مدينة الملاهي، كانت متعبة ومرهقة من شدّة الضجيج والصخب الذي رافق حضورها لصوفيا، وللأضواء والاهتمام الكبير الذي أبداه الجميع تجاه الصغيرة ديانا دورٌ في ذلك. أبدت رغبة بالعودة إلى بلوفديف على الفور، لكنّها وافقت أخيرًا على تلبية رغبة ديانا. أخبرتُها لاحقًا بمجرى الحديث الذي دار بيني وبين البروفيسور بخصوص ديانا، كانت بالطبع تتوقّع هذه النتيجة لأنّها على علم بقدراتها الرياضيّة، ولم تتوقّف عن السعي لتطوير مهاراتها. من الضروري تقديم كلّ ما هو ممكن لسعادة الأطفال، أنا على قناعة من ذلك. هذا الاستثمار مجدي ومنطقي في كلّ مراحل العمر.

خذي قدر ما تشائين يا ديانا من ينابيع الحياة الصافية. صغيرتي لا تعرف التعب، صغيرتي مستثارة إلى حدّ بعيد. جرّبت الكثير من الألعاب، ركبت المصاعد السريعة، دخلت إلى أروقة الأشباح، تأرجحت وتسلّقت. ثمّ تناولنا الساندويتشات والمشروبات الغازية، أكلت الكثير من البطاطا المقليّة وشربت العصير، مارست الحياة بكلّ ما أوتيت من قوّة وأبارك لها كلّ هذا! أخيرًا قرّرنا الانطلاق إلى محطّة القطارات للعودة إلى مدينة بلوفديف، كانت ليودميلا قد جهّزت الحقائب الصغيرة قبل الذهاب إلى الجامعة.

شعرتُ طِوال الوقتِ بالرضا والحزن. كيف سمحتُ لنفسي بفقد كاتيا بهذه السهولة؟ بدأتُ أفكّر مطوّلا بهذه المرأة في الآونة الأخيرة. بل أخذتُ أفكّر بها طِوالَ الوقت. كنت على استعداد للحاق بها إلى آخر الدنيا إذا شاءت:- أعطِني إشارة من عالمك يا كاتيا، أينما كنتِ، أرجوك.

لاحظت ليودميلا الحزن على وجهي وذهولي معظم الوقت، لكنّها فضّلت الصمت. بتنا نتواجد على قمّة قطبين مختلفين ومتناقضين، كلّ منّا تائه في عالمه الخاص وأخيرًا. سألتني:- نيكي، هل كلّ شيء على ما يرام؟

- نعم يا لوسي، لكلّ منّا همومه ومتاعبه الخاصّة. فضّلتُ الصمتَ لأنّ جوابي كان أكثر من واضح. يجب ترك الشياطين الكامنة في دواخلنا هادئة وتجنّب استثارتها، من الممكن أن تصاب هي الأخرى بالعدوى. وحدها ديانا كانت قادرة على تلطيف الأجواء بين الحين والآخر.

أخيرًا وصلنا إلى محطّة القطارات، فضّلنا ركوب القطار على الحافلة، لأنّه يتيح شروطًا أفضل للحركة ومراقبة الطبيعة والحياة في الخارج. اشترينا تذاكر السفر وجلسنا ننتظر في بهو المحطّة الكبير، موعد الرحلة وعقارب الساعة تسير ببطء شديد. استمرّت ديانا تقفزُ وتلعبُ وتركضُ في كافّة الاتّجاهات. من يصدّق أنّ هذه الصغيرة تتعامل مع المسائل الرياضية شديدة التعقيد ببراءة وسهولة تتعذّر على الكثيرين. تعرّفت ديانا على فتاتين بعمرها، حين دققت النظر لاحظت أنّهما توأم. استمرّت الفتياتُ باللعب والركض. يصعبُ إيقافهم عن اللعب ولا ضرورة لذلك. يمتلك الأطفال المقدرة على البقاء والملاك الحارس دائمًا بالجوار.

حان وقتُ الفراق ثانية. صعدا إلى القطار وبعد دقائق معدودة صمّ صوت الحديد الآذان، وأعلنت الصافرة شقّ القطار للفضاء الرحب في تجاه مركز آخر من مراكز الحياة. أخذ القطارُ يزحفُ في البداية جاهدًا في تحريك حافلاته الملتصقة كأفعى وسرعان ما تسارع واختفى عن الأنظار. أكرهُ هذه اللحظة، البقاء وحيدًا عند محطّة البداية وفي الأثناء، يختفي الأحبّة بعيدًا عن الأعين نحو تفاصيل حياتهم.

بقيتُ في مكاني متسمّرًا لوقتٍ طويل، لا أدري ما أفعل بهذه الحريّة المفاجئة، لا رغبة لديّ بالعودة إلى البيت، ولا بيت لي أعود إليه. لن أذهب إلى كريميكوفسكي، لأنّ الوحدة هناك أكبر. لم يبقَ سوى الأصدقاء فهم العلاج الوحيد والمضاد الحيويّ للوحدة. المكان المفضّل هو منزل كريستيان، هناك أشعر بالأمان خاصّة بعد الحديث المطوّل الذي أجريته مع سيلفيا. غادرتُ محطّة القطارات تجاه الترام الذي سيقلّني نحو ذاكرتي ومدينتي الصاخبة. عندها رأيتُها للمرّة الأولى منذ تلك الواقعة. إنّها هي دون شكّ، كاتيا، الابتسامة ذاتها، الخطوة والحضور العارم الشبق، تسريحة الشعر. كلّ ما فيها 'كاتيا'. هي، تلك المرأة التي

تسبّبت بانفجار قلبي وصمته. المرأة التي علّمتني كيف يكون الحبّ أنانيًّا لا يقبل المساومة. صعدتْ إلى حافلة واختفت بالسرعة نفسها التي ظهرت فيها. اختفتْ عن الأنظار، وكان من المستحيل أن ألحق بالحافلة فأنا لست قردًا في غابة. أعتقدُ أنّ مصير القردة أفضل من مصيري بكثير. يكفيه أن يلمز ويلمح لأنثاه حتى تقفز دون تردّد في حجره ليفعل بها ما يشاء دون جدل أو تردّد أو وجل.

أما زال بيتها شاغرًا؟ هل تركته إكرامًا لنعمة النسيان؟ لا بدّ من التحقّق من ذلك. كنتُ مصرًا هذه المرّة على بذل المستحيل لاكتشاف الجحر الذي أوت إليه. كيف يمكن لحياتي أن تستمرّ دون حضورها اليوميّ؟ تنهّدتُ متحسّرًا وانطلقت نحو منزل كريستيان. ما أن أرى هذا البائس حتى تهون عليّ جميع مصائبي. وكنت أحبّه لشخصه ولحساسيّته ولقدرته على التسامح والنسيان. كريستيان قادرٌ على ضخّ ملايين الجزيئات الإيجابيّة أينما تواجد. أثبتَ هذا الرجل أنّه يمتلكُ قلبًا يتّسع لمحيط. ومع ذلك، توحي هذه البراءة في كثير من الأحيان بغباء وفير، يدرك هو بحدسه تقييم الآخرين لشخصه، ويكتفي بالابتسام. من الجنون استمرار علاقته مع سيلفيا ومضيّه قدمًا نحو العدميّة. لا أدري، لا يمكنني أن أحكم عنه بالنيابة، وهو الذي لا يمانع وبالأحرى لا يجد الوسيلة لمواجهة خياناتها المستمرة.

أنا على استعداد دائم لمفاجآت جديدة كلّما قررت الذهاب لزيارة كريستيان. ضغطتُ الجرس أكثر من مرّة، وأخيرًا سمعت صوت أقدامٍ تقترب. فتحت سيلفيا الباب وقالت بدهشة.

- نيكي، ما الذي تفعله هنا يا رجل؟ كانت ترتدي ثوبًا منزليًا يُظهرُ أكثرَ ممّا يخفي. ثدياها يضغطان بجهد للاندلاق خارج محيط الساتان. أدخل يا نيكي، تفضّل. لا تقف كالصنم عند الباب. وبعد لحظات، ظهر رجلٌ عاري، أشقرَ ومفتول العضلات. صرختْ عليه سيلفيا غاضبة وصاحت به آمرة، "دميان، ابتعد من هنا، غادر البيت فورًا". لاكَ الرجلُ بعضَ الكلمات لم أفهم منها

شيئًا. ارتدى بنطالا وكنزة وقال بتردّد:- سأبول وأغتسل ثمّ أغادر. حاولتُ جاهدًا أن أمسك نفسي وثورة غضبي وحنقي.

- سيلفيا، ما الذي تفعلينه في منزل كريستيان؟ هل جننت؟
- اخرس من فضلك.
- أين كريستيان؟ لوّحت بيديها غاضبة وقالت:- سافر إلى إيطاليا، سيعود بعد يومين.
- وأنتِ، سارعتِ على الفور باستثمار الفرصة؟
- وما أهميّة المكان يا نيكي؟ يمكنني أن أفعل ما أريد أينما شئت. كنتُ أذهبُ من قبل إلى بيوت عشّاقي لأرضي شهواتي، والآن، يحضرون إلى هنا للتنويع. لا تخشَ شيئًا، أنا وكريستيان ننام في سرير آخر. نيكي، لماذا تعتقد أنّ الرجال وحدهم يستحقون امتلاك الكثير من العشيقات؟
- لا أدري كيف أردّ عليك. أنا في حيرة من أمري.
- أنا بوهيميّة، ولا أخجل من ذلك. دعوتُك ذات مرّة لتشارك، أتذكر؟ أتذكر تلك الليلة في دراغاليفسكي؟ كنتُ راغبة بامتلاككما مرّة واحدة. أن أتوه بينكما.
- اخرسي، أرجوك. أخجل لمجرّد الاستماع لهذه الاعترافات. خرج دميان من الحمّام، لبس حذاءه وقال لسيلفيا عند الباب الخارجي:- اتّصلي بي غدًا. ثم غادر بكلّ هدوء كأنّه قضى في هذه الشقّة العمر كلّه، وما زلت تحت تأثير الصدمة التي قدّمتها لي سيلفيا للمرّة الألف خلال فترة تعارفنا.
- هل يعرف كريستيان بأمر خياناتك يا سيلفيا؟
- لا أدري ولا يهمّني كثيرًا إذا كان يعرف أم يجهل. وافقتُ للعودة إليه شرط ألا يتدخّل في شؤوني الخاصّة إطلاقًا.

- سيلفيا، أخبريني بالله عليك، هل تحبّين كريستيان حقيقة؟ كانت نظراتها تنمّ عن الدهشة، فكّرت طويلا ثمّ همست:- لا يمكنني ممارسة الحياة بدونه. أدمنتُه. لا يمكنني العيش بعيدًا عن حبّه ووفائه وسذاجته يا نيكي.
- لكنّك تقتلينه، تحطّمينه كلّ ساعة وكلّ يوم. قد لا يُظْهِر لك ضعفه، لكنّ جراحه عميقة يا سيلفيا، إنّه يتألّم. عليك أن تقرّري مصير هذه العلاقة في القريب العاجل، من المستحيل استمرارها على هذا النحو. خياناتك ستؤدّي يومًا إلى كارثة. الرجال أنانيّون في حبّهم.
- أكره تلقيني هذه الدروس الغبيّة. احتفظ بهذه المواعظ لنفسك يا نيكي.

ذهبتْ سيلفيا لارتداء ثيابها. كلماتي لم تأتِ من فراغ. وسيلفيا تدركُ أبعادَ ما قلته جيّدًا. رأيتُ بأمّ عيني كيف تجمّع الدمع في عينيها. وفي تلك اللحظة لم تكن دموع تماسيح، بل دموعًا حقيقيّة وصادقة. كنت قد تمكّنت من جرح مشاعرها وتوصّلت إلى سبر أعماقها. جزءٌ منّي يفهمها ويشفق عليها، والجزء الآخر يتّهمها ويحمّلها توابع خطيئتها وتصرّفاتها غير المسؤولة تجاه كريستيان. المحزنُ في الأمر أنّها لم تحاول مرّة واحدة أن تهادن وأن تنافق، بل كانت صادقة مع نفسها وروحها إلى حدّ التسبّب بالإرباك والألم والكراهية. ثقتُها فائضة وصراحتها حادّة كموسي، ولا تأخذ بالاعتبار إذا كانت هذه الطباع تناسبُ كريستيان أو تهدمه. ستنتهي هذه الحكاية، ستنتهي يومًا ما وستكون نهايتها مدوّية للغاية.

أريدُ أن أبتعدَ عن هذا المنزل، بل أريد الابتعاد عن بلغاريا تجاه أوروبا الغربيّة أو حتى آسيا وأفريقيا السوداء. هل يمكنني أن أتحوّل إلى بطلٍ في رواية كتبتُها في لحظة تائهة من الزمن. حين يتوقّف عطاء الكاتب يبقى أبطالُه مجمّدون حتى إشعار آخر، وبعد أن يحملَ الكاتب قلمه مجدّدًا يبعث عندها الحياة في الشخصيات الافتراضيّة فيفرحُ بعضُهم ويبكي آخرون. يفقرُ البعض ويثرى آخرون. يتصرّفُ الكاتبُ بأبطاله كما يشاء. قد يقرّر أن يجمع بطل روايته بحبيبة

القلب دون تردّد، وقد يقتله صعقًا بالكهرباء أو مطمورًا تحت الأنقاض أو رميًا بالرصاص. لذا، لا أثق بالكاتب كثيرًا ومن الأفضل ألا تعتمدُ تطوّرات حياتي عليه وعلى خياله الجامح. شكرًا يا حضرة الكاتب، لا أرغب أن أصبحَ ذات يوم أحد أبطالك. هذا أمرٌ محفوف بالمخاطر. فليبقَ مصيري بين يديّ حتى وإن كان متواضعًا، سأؤجّل رحيلي عبر الزمن لفترة أخرى. كلّ أماكن الدنيا متشابهة. الناس يعيشون مشاكلهم بطرق متباينة ومتشابهة، يمكن لأوروبا الغربيّة وآسيا وأفريقيا السوداء أن تنتظر.

ظهرتْ سيلفيا أخيرًا، كانت قد ارتدت ملابس أنيقة، ووضعت بعض الكحل في عينيها.

- هل ستقضي الليلة هنا؟
- لا، سأغادر بعد قليل.
- غياب كريستيان لا يعني شيئًا، أنت أقرب أصدقائه. إذا قررت البقاء هنا فلا بأس في ذلك، أم أنّك تخشى أن أغتصبك في ساعات الليل؟
- لا تفكّري بهذا إطلاقًا يا سيلفيا. أنا لست عاهر.
- هل تريد أن نتراهن على عهرك يا نيكي؟
- اهتمّي بأمورك الخاصّة، دعيني وشأني. أجبتها بحدّة واضحة.
- جميع مشاكلي تفاقمت لأنّي لا أحسن الاهتمام بشؤون الآخرين.
- ألا يكفيكِ دميان، الفتى القويّ ذو العضلات المفتولة؟
- الأغنية القديمة ذاتها بتوزيع جديد.
- شاهدتُها اليوم يا سيلفيا، شاهدتُها بعد معاناة وبحث طويل. هكذا محض صدفة، استقلت حافلة واختفت عن الأنظار. اختفت بسرعة كما ظهرت في رحم العاصمة.
- آسفة، يبدو أنّك تحبّها كثيرًا.

- قلبي ينفطر، لا أدري ما أفعل.
- إذا كنت تعرف أين تجدها فلا تتردّد لحظة واحدة بالذهاب إليها. خذها بين يديك، أعِد لروحك شفاعتها، لا يوجد هناك حلّ آخر سوى الوصال.
- آلمتُها، جرحتُ فؤادَها دون وجه حقّ.
- كم مرّة جرحتِ كريستيان وآلمته يا نيكي، أتذكُر؟ تسبّبتُ حتى بإدخاله لمستشفى الأمراض النفسية في محلّة الكيلومتر الرابع. ومع كلّ هذا عاد إلى أحضاني، لا يوجد هناك ما تخشاه، العشّاق محكومون بالمعاناة يا صاحبي.
- نعم، هذا كلام منطقيّ. لا أدري لماذا أصارحك بكلّ هذا يا سيلفيا.
- لأنّي الأنثى ولأنّي الأقوى، لا يوجد سبب آخر. أنا أقوى منك ومن كريستيان معًا. منذ أن تعرّفت عليك حتى اللحظة وأنت لا تتوقّف عن لومي ومعاتبتي. قررتَ أنتَ أن تصبح الشخص الذي لا يتوانى لحظة عن توجيه الاتّهامات لي، والآن تجدني آذانًا تصغي لبوحك والكتف التي تبكي عليها.
- اعذريني يا سيلفيا، يبدو أنّي قد ظلمتُكِ ولم أعذرك طوال الوقت. لكنّي محقّ في الكثير من القضايا، وما زلت أحمّلك مسؤولية..
- اذهب إليها يا نيكي قبل أن يتأخّر الوقت، عليك أن تركبَ الموجة على الفور. هذا أفضل الحلول الممكنة.

تركتُ منزل كريستيان شاكرًا وصامتًا وحزينًا، نفحتْني سيلفيا بعضَ الأمل والشجاعة، كان عليّ المضيّ إلى عالم كاتيا. الحياةُ مع الحبّ تبدو أكثر جمالا. أدركتُ أنّ الكرة أصبحت في ملعبي، وعليّ أن أقوم بالخطوة التالية. كنتُ أخشى مقابلتها كذلك. تذكّرتُ كيف ووجهتُ بالصمت المطبق حين وقفتُ ببابها في آخر زيارة لي، ولولا تلك العجوز لانهرت على الدرج. شعرتُ بالبرد يتسلّل إلى صدري، شعرتُ أنّ هناك حاجز كبير يفصلني عن الحيّ الذي تسكنه كاتيا. شيءٌ ما يدفعني للتوقّف وعدم المضيّ إلى بيتها. أخشى رائحة كاتيا وعطرها وحضورها

وغيابها وعينيها المليئتين بالتساؤل. أخشى نظراتَ الاتّهام والألم الذي يعتصرها وأفكارها المباشرة وذكرى لقاء شفاهنا. أجدُ عالَمها الآن قد بات بعيدًا كأنّها تقطن كوكبًا آخر. في الوقت نفسه، لا تبعد عنّي ما يزيد على شهقة.

يومٌ شاقٌ بانتظاري. نعم، صرفتُ كلّ مدّخراتي. كريستيان غادر إلى إيطاليا وسيلفيا لن تفوّت الفرصة لتضاجع دميان وأشباهه من الرجال، وأحمد المثقل بالعواطف الجيّاشة. لا، لن أتحمّل حزنه الآن. أصدقائي معدودون والنساء كُثر، لكنّي مع هذا غير قادرٍ على إلقاء مرساتي في مرفأ إحداهنّ. معظمهنّ عابراتٌ في سريري. جميعهنّ قدّمنَ لي كلّ ما يمتلكن، كلّ ما بوسع امرأة أن تقدّمه، لكنهنّ لم يتلقين منّي الكثير. حصلنَ على وعود كاذبة ومزيد من الجنس. يمكنهنّ الحصولَ على كلّ هذا وأكثر لدى الكثير من الرجال. ربّما حان الوقت لتناول فنجان من القهوة، وقطعة كبيرة من الحلوى. أتناولها لوحدي مع ذاتي هذه الليلة.

الكتاب الخامس

هناك دائمًا امرأة أخرى

بكيتُ عندما شاهدتُ شقّتها غارقة في ظلامٍ دامس ومدفأتها دون شكّ باردة. بكيتُ وأنا أقفُ تحت عمود النور في الشارع وحيدًا، وعدتُ كسيرَ الخاطر والروح. حتّى النجاح الذي أتوقّعه لكتابي الجديد لا يقدرُ على تقديم العزاء لهذا الفراق الذي بدا أبديًا. كانت كاتيا تهربُ من أيّ لقاء محتمل معي. ربّما لأنّها تخشى عواطفها الذاتيّة ومشاعرَها العميقة تجاهي. لكنّي على ثقة بأنّي سألقاها مهما طال الزمن، عندها ستدرك مدى حبّي لها.

دعاني السيّد ستانتشيف لزيارته في بيته، قال إنّ الدعوة تشمل عشاء عمل، يبدو أنّه يتوقّع نجاح الرواية ومن الممكن تسليط الكثير من الأضواء عليها، ما يعتبر نجاحًا جزئيًا له أيضًا لاكتشافي وارتباط اسمه باسمي. لم أكن قد تعوّدت كلّ هذا التقدير والاحترام. فهمتُ من حديثه أنّه قد تمكّن من العثور على مموّل لروايتي واتّفق مع بعض الشركات على توزيعها.

أغلبُ المدعوّين من مشاهير الكتّاب والشخصيّات المؤثّرة في المجتمع، لاحظتُ كذلك بأنّهم يتعاملون معي على قدم المساواة، مع أنّي ما زلت عند درجات السلّم الأولى في مجال الكتابة. "أين أنتِ يا كاتيا؟ مكانُكِ إلى جانبي، أنتِ من توقّعتِ لي النجاح والتفوّق" لم أتوقّف عن التفكير بها معظم الوقت، لكنّي لاحظتُ في لحظة عابرة أنّ هناك الكثير من الجميلات ضمن المدعوّين. وكنّ يبحثن عن طريقة لمحادثتي والتعرّف إليّ.

- أنا نيللي يشرّفني التعرّف إليك. التقت نظراتنا للحظة. "وأنا ما زلت نيكولاي يا أولاد القحبة" كانت لديّ رغبة أن أصرخ في وجهها بهذه الكلمات، لكنّي ابتسمت وأجبت بأدب جمّ.
- يسرّني التعرّف إليك سيّدتي..نيكولاي.
- سمعت الكثير عنك من السيّد ستانتشيف.

- لا بدّ أنّه يبالغ كثيرًا يا سيّدتي. أنا إنسانٌ عاديّ، كلّ ما في الأمر أنّي كتبتُ رواية وأمارسُ طقوسَ الحياة خارج إطارها.
- لا تبالغْ في تواضعك، لنر كيف سيتقبّل القرّاء والنقّاد إنجازك. بعد أن دلقت الحسناء الكأس التالي في جوفها نظرت إليّ وقالت:- ما رأيك لو تترك لي رقم هاتفك قبل أن نبتعد عن هذا المكان. لدينا الكثير من المواضيع التي يجب أن نتحدّث بها مطوّلا.

كان ذهني مشغولا ولم أتابع حديثها. تساءلتُ "ما رأيك أن نختلي في بهو الحمام؟ نفعلها ويمضي كلّ في طريقه، وكان من الممكن أن توافق نيللي على هذا العرض. لكنّي أبقيتُ على عبثيّتي ولم أنبس ببنت شفة، بل شعرتُ بدهشة من مشاعري العدائيّة المفاجئة، المرتبطة في الوقت نفسه بلامبالاة واضحة بكلّ ما يدور من حولي. شعرتُ بأنّي على وشك الانفجار في اللحظة التالية. كأنّ كميّة الأوكسجين المتواجدة من حولي غير كافية لاستيعاب الموقف والحدث.

- هل صدرتْ لكِ بعض المؤلّفات؟ سألتُها دون أن أستبدل نبرة اللامبالاة المسيطرة على طبقات صوتي. لم أسمع من قبل باسمها بين أوساط الكتّاب والشعراء، وقد تكون كاتبة هامّة وموهوبة أيضًا، ما دام ستانتشيف قد دعاها لهذا اللقاء. "لا بأس فلتكن إحدى الشخصيات الهامّة. لكن عليّ أن أغادر بيت ستانتشيف على الفور. لا، ليس الآن، ليس في هذه اللحظة". كدتُ أن أصابَ بأزمة قلبيّة أخرى. شعرتُ بدنوّها، وهذا أحد أسبابِ سلبيّتي وعدائي المفاجئ، لكنّي نجوت، رفضَ قلبي الصمتَ والإضرابَ عن العمل. فتحَ أحدُهم الشبّاك، وتدفّق هواءٌ نقيّ وعذب ملأ تجاويف رئتيّ وضخّ القلبُ الدماءَ إلى كياني ونجوت. أصبحَ لديّ خبرة في شؤون القلب. صمتُه وصراخُه وهيجانُه وإخفاقاتُه وردودُ فعله، جميعُها باتت مألوفة لي، وكأنّه كتابٌ مفتوح.

- نيكي، هل أنت بخير؟

أحدُهم يسألُ عن حالي. من يكون يا تُرى؟ أعرفُ ما يلي هذا السؤال. إذا كان لا بدّ من قضاء الليل مع امرأة فليكن سريرَ فيارا. هي في منتهى الأنوثة والعطاء. فيارا تشعرني بأنّها أمّي وعشيقتي في الوقت نفسه. لم تكن لديّ أيّة رغبة بإقامة علاقة عاطفية مع كاتبة أو شاعرة. لا أريد تعاطي الفلسفة في السرير قبل الوصال أو بعده. لا، شكرًا يا نيللي.

- شكرًا لسؤالك يا نيللي، يبدو أنّني سكرت. تُرى، من يكون الكاتب صاحب الذقن الصغيرة؟
- السيّد رادوسلاف غيورغييف. رئيس تحرير صحيفة النهار. قدّمت لي نيللي الجواب على الفور وكانت تعرف جميع المتواجدين في المكان.
- نيللي، أخبريني لماذا يصعب عليّ إقامة علاقات صداقة مع الرجال. كلّ من حولي نساء، لماذا يا نيللي؟
- لا توجد أسباب منطقيّة، هذا يثبتُ على الأقل بأنّك لست مثليًا. أرِحْ رأسك على كتفي، أرجوك لا تتقيّأ في عربة الأجرة. سنصل إلى المنزل قريبًا.

"عربةُ الأجرة، متى غادرنا الحفل؟"

لاحظتُ النظرات الناريّة التي يوجّهها لي سائق العربة بين الحين والآخر، عندها فقدت أيّة رغبة بالتقيؤ. لكن ما الذي أفعله في عربة أجرة مع هذه المرأة؟ ماذا حدث لي يا تُرى؟ لم أعدْ قادرًا على المقاومة، لا مكان ألجأ إليه حال رفضي المضيّ معها إلى الجحيم. أين أنا في هذه المدينة، في أيّ حيّ سكنيّ نتواجد؟ ما اسم هذا الشارع؟ اخرس يا أنا، واحمِدِ المولى لأنّك وجدتَ أخيرًا من يجمع شتاتك. نيكولاي ذاتي الأخرى يتحدّث/ تتحدّث، وهما يعرفان/ تعرفان جيّدًا قيمتي الحقيقية وإلى أيّ مدى يمكن لي أن أسقط في جوف الهاوية. جميع هذه المشاعر المتباينة وتمرّد قلبي المتورّط ضدّي تسبّب بهجر كاتيا. أنا نرجسيّ للغاية، المرأةُ تمتلكُ سلاحًا فتّاكًا إذا أحسنت استخدامه. ربّما كانت تتوقّع هجري، لذا فضّلت أن تهرب قبل هربي بقليل. ردّة فعل منطقيّة والحديث عن كاتيا لا يتوقّف بعد أن

أصبحتْ مركزَ الحدث بالنسبة لي، حتى وإن أنقذت هذه الحسناء رجولتي المهدورة.

ساعدَ سائقُ العربة نيللي بإخراجي من السيّارة وفجأة، صفعتني على وجهي بكلّ ما أوتيت من قوّة. تلك كانت أوّل صفعة أتلقّاها من امرأة وأنا شبه نائم، شبه حيّ. استيقظت كافّة حواسي دفعة واحدة. باختصار شديد، أصبتُ بالذهول. وابتسم السائقُ اللعينُ متشفّيًا، وأشرقَ وجهُه بعد أن تلقّى بقشيشًا كبيرًا من نيللي.

عند الباب الخارجي وقبل أن أدخل منزلها تلقيتُ الصفعة التالية. كانت مصرّة على إيقاظي وربّما تأديبي. أعادتني نيللي إلى معشر الواعين والمنذهلين من البشر. كنت قد سكِرتُ كبهيم تاه في بركة من الكحول. لم يكن القلب هو السبب الوحيد في معاناتي وصفعي ووجودي في هذا المنزل كما كنت أعتقد.

توجّهتُ إلى الحمّام، تمكّنتُ من ضرب الحائط بجسدي المترنّح مرّة أو مرتين، لكنّي تأكّدتُ من أنّ المياهِ التي تسيلُ من صنبور الماء ساخنة. قذفتُ بنفسي في حوض البانيو وبدأت الحياة تدبّ مجدّدًا في أوصالي، أدركتُ عندها بأنّي ما زلت مرتديًا كلّ ملابسي. دخلت نيللي غاضبة ووضعتْ منشفة كبيرة على مشجب الباب الداخلي وغادرتْ دون أن تلتفت إليّ ودون أن تشعر بحرج. أذكر أنّي قد شربتُ كأسين أو ثلاث. لا، ربّما أكثر من ذلك بكثير، أذكر بأنّي كنت جائعًا أيضًا، أخيرًا وقفت في حوض البانيو، خلعتُ ملابسي المبتلة في أحد أركان الحمّام، استخدمتُ المنشفة التي وضعتْها نيللي، لففتُ بها جسدي، ورأسي يكاد ينفجرُ صداعًا.

- هل لديكِ بعض المسكّنات يا نيللي؟
- آه، يمكنك الحديث إذن، ما رأيك ببعض الأسبرين مع قهوة سمراء؟
- أشكرك يا عزيزتي، لا ينقصني شيء سوى فنجان كبير من القهوة.

ذهبتْ نيللي لصنع القهوة وبدأتُ أنا بدوري إرضاء فضولي لمعرفة تفاصيل المكان، الأثاث فاخر. لا، بل فاخرٌ جدًّا، وهذه السلالم الداخليّة، إلى أين تؤدّي؟ شقّة نيللي مكوّنة من طبقتين. وقفتُ بصعوبة بعد أن غصتُ في أريكة مريحة، ذهبتُ لمعاينة المنزل وغرفِهِ العديدة. إحدى الغرف الواسعة خالية من الأثاث، باستثناء بيانو كبير وكرسي ملبّس بقماش مخمليّ يحتلان فضاء المكان. عجيب، كيف تمكّنوا من رفع هذا الجهاز العملاق وإدخاله إلى الغرفة؟ يبدو أنّها ثريّة للغاية. ولكن، لماذا أبدت هذا الاهتمام بشخصي المتواضع؟ لمَ لا؟ دخلتُ غرفةَ البيانو، ركّزتُ نظري على غطائه الثقيل اللامع. لاحظتُ أنّ الجدار الخلفي للغرفة قد تحوّل إلى مكتبة، مئاتُ الكتب ولا شيء سوى ذلك. نيللي المرأة الشابة مولعة بالمطالعة، ولا أدري إذا كانت قد تمكّنت من قراءة كلّ هذه الكتب؟ في تلك اللحظة شعرتُ بحضورها وعطرِها النافذ خلف ظهري تمامًا. استدرتُ نحوها قائلا:- الكثيرُ من الكتبِ، أراهن بأنّك لم تقرئي كلّ هذه الصفحات.

- أنت مباشر للغاية. قالت مبتسمة ثم أضافت:- لا تراهن كثيرا على المظاهر الخارجيّة فهي خادعة أحيانًا، أؤكّد لك بأنّي قد قرأتُ الكثير منها. هل ترغب حقًّا بشرب القهوة؟
- سأشربها بالطبع، لكنّي أتساءل إذا ما كنتِ ستعزفين على البيانو؟
- ماذا تحبّ أن تسمع من الألحان؟
- الموسيقى التي تفضلّين. شوبن مثلا. ما رأيك؟
- أنت صعب المراس حقًّا. هل تجيب دائمًا على السؤال بآخر؟ أم أنّك هكذا عندما تكون..
- ثملا، عندما أكون ثملا..قوليها يا عزيزتي. لا أذكر أنّي قد سكرت يومًا هكذا.
- لا أعرف الكثير عنك، أرجو ألا يكون مزاجك عكِرًا طوال الوقت. يمكنك تناول الأسبرين مع القهوة إذا شئت. ناولتني الأسبرين وجلستْ خلف

البيانو، رفعت الغطاء الثقيل وقالت:- سأعزفُ إحدى مقطوعات باخ. ما رأيك؟

- باخ صعب وكنائسيّ، لكن طقوسه مرهفة، فليكن باخ. ألحان باخ ذات خصوصية لكنّها راقية وقادرة على التحليق في مدارات يصعب الوصول إليها دومًا. ألحانُه مجبولة بالألم وصراخُه مكبوتٌ بالفرح. عزفتْهُ بدقّة وتجلّي، ورأسُها يتمايلُ أثناء العزف كأنّها هي من كتبت ألحان المقطوعة.
- أنتِ موسيقيّة إذن؟
- نعم موسيقيّة وشاعرة وثريّة. أعرفُ جيّدًا ما أريد وأعرف أفضل الطرق لتحقيق أهدافي. أنت يا نيكي نموذج مدهش ونادر من الرجال، في الواقع أنا قرأت روايتك، وجدتُ الملفَ على مكتب السيّد ستانتشيف ولم أتركه حتى أنهيتُ آخر كلمة فيه. روايتُك أبكتْني ونادرًا ما أبكي. أهنّئك وأشكرك على هذا العمل المتميّز.
- لا أدري ما أقول. إذن أنتِ هو من قرّر تمويل الرواية؟ كيف فاتني ذلك؟
- لم أصرّح بذلك لأحد، فعلتُه عن طيب خاطر، أعتقدُ أنّ الرواية ناجحة. على أيّة حال، لم أكن أتوقّع لقاءنا الأوّل أن يكون على هذه الصورة. الأديب نيكولاي يجلس أمامي ولا يغطّي جسده سوى منشفتي الخاصّة بعد صراع مع الكحول.
- أنا بدوري لم أبحث عن مواعيد، على العكس من ذلك، كنت أتمنّى أن أبقى وحيدًا أطول فترة ممكنة من الزمن. أشكرك مجدّدًا.
- لا تكن ساذجًا. سأستردّ كلّ قرش استثمرته في روايتك، بل سأحقّق الكثير من الأرباح.
- قهوتك منعشة.
- وباخ منعش أيضًا، أحبّ طقوس هذا الموسيقار الكبير.

تبدو نيللي في منتهى الذكاء والجرأة وتثق بنفسها حدّ الدهشة. أغلقت البيانو ودعتني بعد ذلك للجلوس في بهو الشقّة الكبير. في ضوء ذلك بدوتُ مضحكًا وأنا أتجوّلُ متلفّعًا بمنشفة كبيرة، الخيارُ الآخر هو أن أتعرّى بانتظار جفاف ملابسي المتّسخة. عندها صرختُ معترضًا:- ملابسي ما زالت مبتلّة على ما أعتقد؟

- ملابسك وسخة ورائحتها كريهة يا عزيزي، تستحقّ الحرق. ملابسك معبّقة برائحة الكحول والعرق. لا تخف، ستلبسها نظيفة ومكويّة عند الصباح.
- لا أدري إذا كان من الصواب أن أمضي الليل في بيتك.
- وهل ستجد سائقًا آخر يوافق على نقلك بما تبقّى لديك من أوراق نقديّة مبتلّة وملابس رطبة في مثل هذا الوقت لكريميكوفسكي مثلا؟
- من أخبرك بأنّي أعمل في كريميكوفسكي؟
- من الطبيعي أن تنسى، أنت من أخبرني بذلك قبل أن تجفّف الكؤوس أمامك، لا تنسَ بأنّي المموّل لمشروعك الروائي وأعرف الكثير عنك.
- الحياة قصيرة جدًا.
- ماذا تقصد؟
- الحياة قصيرة ولا تحتمل بدايات أخرى. أنا غير قادر على لعب دور الكاتب الناجح. أنا عامل وأصبّ الحديد والفولاذ.
- لحظة يا نيكي، من قال أنّك كاتب مشهور؟ أنت ما زلت نكرة، أعتقد أنّ التواضع ينقصك، أم أنّ ذاكرتك قد بدأت تخونك؟ أنت مشروع كاتب ناجح.
- يا لك من امرأة.
- على العكس تمامًا. أنا شخص مريع ومنفّر. أنا امرأة أنانيّة حدّ الألم. وإلا كيف سمحت لكَ بالدخول إلى شقّتي والجلوس أمامي عارٍ وحافي القدمين.

- لا يمكنك شراء كلّ شيء بالمال يا نيللي. غدًا لن أكون الرجل العاري الحافي الذي ترينه الآن يجلس بين يديك.
- وحتى يحين النهار أمامنا الليل بطوله، وحوار لا ينتهي واعترافات أوشكت على البدء، لكن أتدري يا نيكي؟ الجمال والغرور هما القادران على الشراء. الجمال يمتلك قدرة شرائيّة أكثر من المال الذي غالبًا ما ينتقل من جيب إلى آخر دون شرط أو مبرّر منطقيّ.
- غالبًا ما نشتري الجمال أيضًا. الجمالُ باهظ الثمن ومرتبط عضويًا بالمال، بالكثير من المال.
- ولم لا، من يمتلك الوسيلة يمكنه شراءه. لكنّ الجمال عدا عن كلّ هذا يضمن ثقة كبيرة بالنفس. حضورٌ وغرورٌ ورغبةٌ وهاجس. الجمالُ همساتٌ وابتساماتٌ متجدّدة. دفءٌ وفرصةٌ للظهور، الجمالُ آلةٌ لتشغيل وتحريك الأموال في هذه الدنيا.
- أنتِ شاعرة على ما يبدو، لكنّك على الأرجح سيّدة أعمال من الطراز الأول.
- أنا سيّدة تديرُ أعمالا كثيرة. لديّ شركة لتأهيل عارضات الأزياء، هذا العمل مرتبط بشكلٍ أساسيّ بالأضواء والموديلات والحفلات وما شابه. التألّق يحتاج للكثير من المال كي يبقى ويستمرّ. الجمال يُباع ويُشترى. يمكنني من خلال مسار العمل هذا إنجاز الكثير. أربحُ المالَ من العدم. أبيعُ الزهوَ والخيلاء للرجال. أبيع رنينَ المال لأحصل على الذهب.

رأسي ما زال يؤلمني، أحسستُهُ ثقيلا من كثرة الكحول التي احتسيتها ليلة البارحة. لا يهمّني الآن كثيرًا هذا الاهتمام الذي تبديه نيللي تجاهي. كانت لديّ الكثير من العلاقات العاطفيّة في السابق، لكنّ هذه المرأة من الوزن الثقيل وتخيفني. أعتقد أنّها قادرة على ترويضي بسهولة، ومن الممكن أن أستمرّ بالدوران في مداراتها. ماذا لو حقّقت مآربها. يبدو أنّ تفكيري ما زال محافظًا للغاية. طيفُ

حبّي الكبير كاتيا يظهرُ مشيرًا لي بإصبعه بين الحين والآخر أينما تواجدت، يظهرُ طيفُها في أحرج الأوقات. وعيي وقلبي يفهمان هذه الحقيقة جيّدًا. لا أبرّر إقدامها دون تردّد على هجري وابتعادها عنّي، لأبقى أسيرَ هواجسي، وتمكّنتْ هي أيضًا من الدخول إلى أصغر تفاصيل حياتي. تهديني كلّ يوم ذكرى نظرة وهمسة أو مشروع وعد للقاء بعيد، وربما فنجان قهوة وغداء وحضورًا وغيابًا. كاتيا كتلة من التناقضات الجميلة وأحبّها. لكلّ هذا تتكامل ردود الفعل في جسدي وتتراكم التفاعلات الكيميائية معها ومن أجلها وعبرها. لكلّ هذا بدا حضور نيللي البورجوازيّ باهتًا وغير مقنع.

فكّت نيللي زرّين من قميصها فبان أصلُ ثدييها، وجزءٌ من تلك التلال التي أدارت رؤوس الرجال على اختلاف أصولهم ومشاربهم وجنسياتهم وألوانهم وعقائدهم وطوائفهم. جيدُها أبيضُ، نظرتُها راضية لا تخلو من إحساس بالتعالي، شفتاها رطبتان تدعواني لقضاء نومٍ هانئ مريح، جسدُها توّاقٌ للقبل والانـدياح في خلايا جسدي. لكنّي لم أتمكّن من رفعه، أقصد ذلك العضو صانع المعجزات والقادر على قلب الليل نهارًا والنهار ليل.

– لم يبارحني الصداع، عجز الأسبرين عن التغلّب على هذا الألم الصاعق، والنوم هو الوحيد القادر على تخفيف حدّته.

أمسكتني من يدي وتوجّهت بي إلى إحدى غرف المنزل، أشارت إلى السرير الذي بإمكانه استيعاب أربعة رجال مثلي. قالت لي أنّ غرفة نومها بالجوار، للعلم طبعًا إذا ما احتجت شيئا خلال ساعات الليل الطويلة. لم أتعوّد كلّ هذه الرفاهية. لماذا هذا السرير الكبير الدافئ وقد أتوه في إحدى زواياه، أحبّ أن ألاحظ حضوري في المكان. الهواءُ في الخارج منعشٌ ولطيف، المنظرُ بانوراميّ وخلاب. أعتقدُ أنّ البيتَ يتواجدُ في منطقة قريبة من الجبل البركانيّ الخامد "فيتوشا"، قد تكون منطقة "لوزينيتس"، وهي من المناطق الثمينة ومعظم سكّانها أثرياء وحديثي نعمة:– هل تنامين وحدك في هذه المساحة الكبيرة؟

- هذا شأني الخاص، عادة ما يتواجد في هذا المكان أطيافٌ قويّة. غمزت لي إمعانًا في التلميح. كانت محقّة فهذا أمرٌ لا يخصّني، شعرتُ أنّ سؤالي خرج عن حدود اللياقة. لا أدري كيف ستهبّ الرياح، أنا لستُ كازانوفا صوفيا، لكنّي عادّة ما أحصل على مفاتيح شقق النساء بسهولة، إذا ما رغبتُ بالبقاء فيها فترة أطول من ليلة عاصفة يتيمة.
- تصبح على خير يا نيكي.
- تصبحين على خير يا فراشتي.

نمتُ للتوّ. ما إن وضعت رأسي الثقيل على الوسادة الوفيرة، كلّ ما فيّ نام وخمد. لا يعلمُ في تلك اللحظة مكان وجودي أحدٌ سوى هذه المرأة، فأنا ضيفها وحدها هذه الليلة، وأنتمي لعالمها وأحد أسرارها، رجلها المدلّل. أنا نيكولاي بكلّ حسناتي وعيوبي وغروري وضعفي، نيكولاي الذي يحسن تلويثَ الأوراق البيضاء كما يحسن الحديث والابتسام والإيقاع بالنساء، أنا رهن إشارة نيللي في هذه اللحظة. "الأنا" تمكّنَ/ تمكّنتْ من دخول عالمها. نيللي المرأة الثريّة عازفة البيانو المتمرّدة.

استيقظتُ أثناء الليل، الساعة تقاربُ الخامسة صباحًا. ذهبتُ إلى الحمام، تبوّلت طويلا. كيف تجمّعت كلّ هذه السوائل في مثانتي؟ جلستُ بعد ذلك في الصالون الكبير، الإضاءة في أنحائه خافتة، شاهدتُ ملابسي وقد كويّتْ ورتّبتْ في أحد أركان المكان. هذا النمطُ المنظّمُ من الحياةِ غريبٌ عنّي بالطبع، كلّ شيء في هذا المنزل يتواجد ويتموضع في مكان محدّد - حتّى أنا. وكانت سيدتي قد وضعت كرّاسة وقلم على الطاولة الصغيرة كأنّها تتوقّع هذه الصحوة المفاجئة. لا أدري إذا كانت كلّ هذه المستلزمات قد وضعت من أجلي أو من أجل رغباتها المفاجئة للكتابة والإبداع. على أيّة حال، ليس لديّ أيّة رغبة لكتابة سطرٍ واحد.

غريب، أين تنام هذه الحوريّة؟ اقتربتُ من غرفتِها، شاهدتُها تنامُ بعمق. كانت قد خلعت عن جسدها كلّ شيء. نيللي عارية تمامًا والأغطيةُ الخفيفةُ

انزاحتْ قليلا وبانَ من تحتِها الكثير من حُسْنِها وجمالها. عدتُ ثانية إلى الصالون، تناولتُ كتابًا وغرقتُ في القراءة، لكنّي سرعان ما نمتُ على الأريكةِ المريحة، أكثر راحة من سريري في كريميكوفسكي. أخشى أن أدمن الرفاهية.

حاولتْ أن تبقى هادئة في خطوها وسعيها في المنزل كيلا توقظني. لكن الوقت على ما يبدو تأخّر بما فيه الكفايةِ. استيقظتُ عند الظهر والكتاب ما زال بين يدي، رائحةُ القهوةِ تملأ المكان. إذا كانت الجنّة خالية من القهوة فقد أفكّر جدّيًا برفضها إذا خيّرت في ذلك. القهوة، سوطٌ يطرقُ الحواسَ ويوقظها. تناولتُ الفنجان الكبير ودلقت جرعة كبيرة في جوفي.

- صباح الخير يا فتى، سمعتُ صوتَها الرنّان بقربي:- صباح الخير يا حسنائي، لا أدري إذا كنتُ أستحقّ كلّ هذا الاهتمام. أشكرك على جهودِك التي بذلتها لتوفير الراحة لي.
- طلبتُ بيتسا، أتمنّى ألا تكون لديك حساسيّة تجاه هذا النوع من الطعام.
- لا، ليس لديّ حساسيّة تجاه أيّ نوع من أنواع الطعام. الجوع يأكلني ويجب أن أنتصر عليه بوجبة بيتسا عملاقة.
- كيف نمت الليلة؟ أرى أنّكَ قد تجوّلتَ في كافّة أنحاءِ المكان.
- لا أذكر أنّي قد نمتُ بهذا العمق منذ وقت بعيد، نمتُ كأنّي مخدّر. سمعتُ موسيقى هادئة تنطلقُ من مكبّرات الصوت الخفيّة في جدران المكان. أصبح الحديث عذباً ورومانسيًا، وبدونا عاشقَين مولّهين:- هل تنتظرين ضيوفًا؟ سمعتُ جرسَ الباب الخارجي.
- نعم، حضر الطعام.

سارعتْ نيللي بإحضار الحزمة الكبيرة التي تحوي على عدد لا بأس به من قطع البيتسا. لا عشوائيّة في هذا الكون. حتّى العشوائيّة مشروع تنظيم مؤجّل. أدركُ قدراتي ومؤهّلاتي، مشاريعٌ لا تتخطّى في طموحها حدود هذا المكان في

الوقت الحالي. أمّا الفترة الزمنيّة التي سأقضيها في هذا البيت فأمرٌ يعود لمزاجي المتقلّب.

تناولنا الطعام بشهيّة. حلّت البيتسا ضيفًا عزيزًا والجوعُ ضاغف شهيتنا. أتبعنا البيتسا كأسًا كبيرًا من الجعّة. طال الحديث ما بيننا. شعرتُ بالنعاس مجدّدًا، كنت على يقين بأنّي لن أغادر البيت هذا النهار، وسأستغلّ الفرصة لأريح عظامي وأطرافي المتعبة. أدركتُ بأنّ ردود فعلي قد انحصرت في إطار الزوجيّة، هل بدأتُ أتوقُ للانضمام لهذه المؤسّسة الاجتماعيّة؟ رغم معرفتي الجيّدة، بأنّ هذه المؤسّسة ستؤدّي لظهور الكرش وضمان المزيد من الكسل والاتّكال، وقد أكون مخطئًا.

- أنت بحاجة لمزيد من النوم يا نيكي؟ قالت متثائبة. نظرتْ إليّ بعينين تتقنان الغوص في الأعماق بحثًا عن الدرر واللآلئ. عندها شعرت بالدفء يصعد إلى عضوي الذي انتصب لدرجة لم أعد قادرًا على إخفاء وقاحته. أمسكتُ بيدِها وشددتُها نحو غرفة نومها، متمنّيًا ألا يفاجئني طيف كاتيا ثانية. سرعان ما حرّرت نيللي يدها وقالت محتدّة:- لا تشدّني هكذا، أنا لستُ بقرة جاهزة للتلقيح متى شئت.
- المعذرة يا نيللي، أنا مهيّج، لم أتمكّن من كبح جماح..مسّدتُ شعرَها ولامستْ أصابعي شفتيها ومضينا بخطوات حثيثة إلى غرفة النوم.

أعترفُ بأنّي لم أقابل امرأة بهذه القوّة. شخصيتُها طاغية وحاضرة طوال الوقت. لم تمضِ سوى لحظات على بدء جماعنا حتى اعتلتني، أخذت تنظّم شهقاتها وحركاتها بما يتناسب مع رغبتها ودفق مشاعرها الخفيّة. أظهرت نيللي معرفة بالجنس، كانت أنانيّة طِوال الوقت حتّى الإشباع. وصلنا إلى الذروة في آن واحد. أدركتُ هذا حين أغلقت عينيها وانتفض صدرها وظهرها لمرّات متتاليةً. ألقت بنفسها إلى جانبي ثمّ أشعلت سيجارتين. ناولتني إحداها، بلعت سحابة كثيفة من الدخان الأزرق لتخرجه راضية عن نفسها.

- لم أعاشر رجلا منذ زمن.

- هل هذا معقول؟ امرأة مثلك يصعب أن تبقى دون رفيق لفترة طويلة.
- أنا جادّة في حديثي، صحيح أنّ لديّ الإمكانيّة لأمضي وقتًا ممتعًا مع أيّ رجل أريد، وقتما أشاء. لكنّ الرجال الذين أرغب بهم نادرون هذه الأيام.
- وما هي مواصفات الرجل الذي تتمنّين رفقته؟
- أن يكون حسّاسًا على الأقل، أن يمتلك ما يكفي من الثقة والاعتداد بالنفس. لا يهمّني كثيرًا وضعه المالي. الكثيرُ من الأثرياء وحديثي النعمة لا يتمتّعون بمواصفات متميّزة ومقنعة، معظمهم جهلة وأميّون. الرجلُ الحسّاس يبذل ما بوسعه لإرضائي، والمعتدّ بنفسه يسعى لإرضاء رغباته في الدرجة الأولى.
- أين أنا من رجالك؟
- أنت مختلفٌ إلى حدٍّ بعيد. تفكّر كثيرًا بكلّ شيء مسبقًا. تبدو خاليًا من العبثيّة. هذا هو انطباعي الأول ولا أدري مدى صحّته.
- أنا أفضل تجسيدٍ للعبث، المصادفة تحتمل الكثير من المخاطرة، أليس كذلك يا نيللي؟ أنا مصادفة في حياتك.
- بل كنت أسعى للقائك منذ قرأتك يا نيكي. أريدك الآن أكثر، أشعر بالظمأ. حدّقت بي بشبق، أطفأت السيجارة، لتشعل في جسدي نيران جديدة.
- هذه المرّة، أنا من سيعتلي صهوة الصحان. لم أتركْ لها المجال لتفكّر كثيرًا في التفاصيل. دخلتُها بعنف وأمضينا في هذه الجولة فترة أطول. العرقُ يتصبّب منّا. أشعلنا السجائر ثانية وسرعان ما غبنا في نوم عميق.

استيقظتُ بعد العصر، شعرتُ برائحة غريبة تملأ جميع أنحاء الشقّة. كانت نيللي قد ارتدت بنطالا ضيّقًا وبلوزة فضفاضة، ووضعت مكياجًا غامق الألوان أطّر تقاطيع وجهها، لتبدو في منتهى الجمال والإغراء. لوّنتْ شفتيها بطبقة دافئة لامعة. نظرتْ إليّ والكحل يحدّد أطراف عينيها تاركًا سحرًا خاصًا وقالت:- حشيش أم ماريهوانا؟

- لا هذا ولا ذاك، أرجوكِ، أنا لا أتعاطى المخدّرات يا عزيزتي.

- تخسر كثيرًا يا فتى، يجب أن ننسى المشاكل والهموم الخاصّة بين الحين والآخر.
- لا يا نيللي، إلا المخدّرات.
- كما تشاء.
- أنتِ في منتهى الأناقة، هل ستذهبين إلى مكانٍ ما؟
- نعم، أفكّر بزيارة نادٍ خاصّ للغاية.
- وما مدى خصوصيّته؟
- بما يكفي، لا تسأل كثيرًا حاول أن تعيش حياتك بهدوء.
- ربّما عليكِ أن تعرفي بأنّي رجلٌ تقليديّ وكلاسيكيّ في ممارساتي اليومية يا نيللي، لديّ شياطيني التي تحثّني دومًا على القيام بأمور تتنافى مع المنطق، لكنّي أعرف حدودي أيضًا، يمكنني أن أتوقّف عند الضرورة. تبادلُ الزوجات والحبيبات وممارسة الجنس عند زاوية الشارع أمورٌ لا أقبلها ولا أمارسها لكنّي أتفهّمها.
- تبادلُ الحبيبات، إذا حاولتْ إحداهنّ خطفك منّي للحظة، عليها حينذاك أن تذوق سمومي القاتلة. صدّقني، لن تفلت بسهولة من أحضاني يا نيكي.
- لا، لا حاجة للسموم، أنتِ تعني لي الكثير.

أدركتُ أنّ هناك هوّة كبيرة تفصلني عن هذه المرأة المغرورة، ليس بسبب المخدّرات وتصرّفاتها المتحرّرة بالقدر الذي ترغب فيه أن تسيطر على كافّة النواحي الحياتيّة والعلاقات الاجتماعيّة. هذه النزعة السلطويّة تنفّرني وتبعدني عن عالمها، ربّما لأنّنا نتمتّع بمواصفات متشابهة، أقطابُنا متوافقة، موجبان أو سالبان. وكلّما تلامست تنافرت غريزيًا. لا يكفي الجنس وحده يا نيللي لعشرة ناجحة دائمة، ولا حتّى المال والفراش الوفير. شخصيّتي واضحة المعالم ولا يمكن أن تبقى محصورة في آفاقك، مع أنّ جيوبي فارغة ولا أملك ما يكفي لسدّ الرمق.

أقوم بشراء خاتمًا من الذهب لحبيبتي دون أن أطيل التفكير بالأمر، وقد أصبح معدمًا في اللحظة التالية لكنّي لم أكن يومًا تابعًا لأحد، كريميكوفسكي ملجأي الأخير وخلاصي من الورطات التي أقع فيها دون سابق إنذار. أمّا منطقي اليوم فيدلّ على حاجتي الماسّة لهذه المرأة، التي أجهل إصرارها على تمويل حياتي وروايتي.

كيف تعرّفت نيللي إلى الكاتب ستانتشيف وهل نشرت بعض مؤلفاتها كما تدّعي؟

- أخبريني يا نيللي هل لديك إصدارات خاصّة بك؟
- طبعًا، لكنّي أخجل أن أعرضها عليك، فأنت كاتب ذو باعٍ طويل وذائقة أدبيّة، ما أكتبه مجرّد خربشات قياسًا بنتاجك.
- يجب أن أقرأ بعض ما نشرته على أيّة حال.
- نيكي، أنا امرأة ثريّة ومن السهل عليّ إصدار ما أكتب حتى وإن كانت قيمته رخيصة. أدرك وأفهم ذلك، أرضيتُ غروري وكفى. أنا لست كاتبة. لم أعد أحاول الكتابة، انتهت هذه المرحلة إلى الأبد. صدّقني.
- حسنًا، ما دمت تصرّين على ذلك.

استمرّت نيللي بتدخين سيجارتها الملغّمة. احترتُ كيف أحلق ذقني، التي نبتت بسرعة في الفترة الأخيرة:- نيللي، هل لديك ما يمكن أن يساعد في الحلاقة، لم أعد قادرًا على احتمالها، لقد نَمَتْ بسرعة في أثناء اليومين الأخيرين.

- طبعا لديّ كلّ ما يلزم لحلاقة الذقن في الحمّام، ستجد في الأدراج شفرة مختومة ورغوة فاخرة، أحتفظُ بها لرجالي العابرين والمدعوّين والدائمين أحيانًا. اذهب لحلق ذقنك يا عزيزي.
- هل أنا مصادفة أم أحد أفراد الفئة الثانية؟
- أنتَ كما أخبرتك، مختلفٌ عن كلّ الذين مرّوا في سريري. لديّ مخطّطات كثيرة بخصوصك، وقد أخبرك إذا كنت مهتمًا.

- مخطّطات ومشاريع، وأنا جزءٌ من كلّ هذا يا نيللي، أنا بطلٌ أسطوريٌ على ما يبدو.
- يكفيك مماحكة، أسئلتك غير مفهومة أحيانًا.
- نعم، من الأفضل أن أذهب لتحسين مظهري الخارجي.

وجدتُ في الحمام كلّ ما يلزم للحلاقة تمامًا كما أخبرتني نيللي. حلقتُ ذقني على عجل، وضعتُ كولونيا ما بعد الحلاقة، فاحت بعد لحظات رائحة الرجولة المعهودة في حمّامِها الأنثويّ. عدتُ إلى الصالون حيث كانت نيللي مشغولة بتسريح شعرها. جلستُ على الأريكة التي نِمْتُ عليها خلال الليل راضيًا عن نفسي دون أن يكون هناك سبب مقنع لذلك. لم يفارقْني الصداع طوال النهار، رغم تناولي الكثير من الأسبرين وغيره من المسكّنات. أملتُ بالتغلّب على هذه الآلام حال خروجي إلى الهواء الطلق. لديّ رغبة كذلك برفض دعوتِها بالذهاب إلى النادي الليلي، من الصعب عليّ تحمّل الصخب الذي يصاحب هذه السهرات عادة، كما إنّ دخان السجائر يعدّ كارثة بالنسبة لي. في هذه الأماكن يتحوّل دخان السجائر إلى سحابات متلبّدة في الأجواء، من جهة أخرى لا أرغب بالتأثير على طريقة حياتها منذ اليوم الأوّل لتعارفنا. يبدو أنّي غير قادر على التأثير على قراراتها، ويبدو أنّها مؤهّلة للذهاب وحدها حيثما شاءت.

- يمكنني تغيير برنامجي إذا لم تكن لديك رغبة بالذهاب إلى النّادي هذه الليلة؟
- هل قرأتِ أفكاري؟ كيف علمتِ بأنّي لا أرغب بالذهاب إلى النّادي؟ لا يوجد سبب يمنعني من ذلك سوى الألم الشديد الذي يفجّر رأسي. عليّ أن أتوقّف نهائيًا عن تناول الكحول، أنا غير قادر على احتمال تبعات تعاطي الكحول يا عزيزتي، وأخشى أن أضيّع فرصة الذهاب إذا كنتِ قد خطّطت لذلك مع آخرين؟
- لا، دعك من هذا. يمكنُنا الذهاب لزيارة بعض الأصدقاء.

- يمكننا التنزّه في الهواء الطلق، كلّ ما أحتاجه الآن هو البقاء في مكان مغلق لفترة طويلة، أو التنزّه في فضاءات خالية من كتل بشريّة كبيرة. ما رأيك يا نيللي؟

نحن لا نملك الكثير من الاهتمامات المشتركة التي تمكّننا من قطع الوقت ورقع الهاوية التي تهدّد علاقتنا الهشّة. أنا معروفٌ بالثرثرة والهذر، من الصعب أن أصمت أو أحتار في اختيار المواضيع. أجدُني الآن حائرًا في جذب أطراف الحديث مع هذه المرأة. كيف الخلاص من رفقة الجمال والثراء؟ كيف الخلاص من امرأة تحمل همّي وتحاول أن تجعل نهاري مريحًا؟

- لماذا كلّ هذا الصمت يا نيكي؟
- ليس لديّ ما أقوله، أفقد أحيانًا القدرة على التعبير.
- هل أنا السبب؟
- لا أدري يا عزيزتي، لا أريد جرح مشاعرك يا نيللي. أشعر بالاغتراب هنا، حتّى أنّي غير قادر على الثرثرة، وأنا الذي لا أعرف الصمت. لكن، قد يكون هذا طبيعيًا فعلاقتُنا ما زالت في بداياتها.
- هل تشعر بالسأم معي وفي بيتي يا نيكي؟
- يبدو بأنّي غير قادر اليوم على تحريك حتّى بنصر يدي. أشعر أنّ النهار ثقيلا ومزعجًا، وأنّي أتواجدُ في حلقة معدمة، رأسي مفرغ وحضوري مغيّب. أحتاجُ إلى نهار آخر كي أعود إلى طبيعتي.
- إذن من الأفضل البقاء في المنزل، لا ضرورة للخروج هذه الليلة. أشعر بالقلق تجاهك، هل أنت بخير؟
- لا داعي للقلق يا نيللي. أحيانًا أصبحُ نزقًا، لا تدلليني أكثر من اللازم.
- هل هذا هو أسلوبك في التعامل مع باقي النساء؟ الدلال الفائض عن الحدّ. وأنتِ، هل تُجْرين كلّ هذا التحقيق المملّ مع جميع رجالك؟

- أنتَ الذي يجيب عن أسئلتي بأخرى.
- قد يكون هذا جزء من غريزة الدفاع غير الإراديّة عن النفس.
- لماذا يا نيكي؟ هل تعتبرني تهديدًا لخصوصيتك؟
- لا، ولكنّي أرجوكِ عن التوقّف عن طرح هذا الوابل من الأسئلة. ذهبت نيللي لتبديل ملابسها بعد أن أصبح الخروج من المنزل غير ممكن عمليًا من وجهة نظري. عادت بعد قليل ترتدي ثوبًا خفيفًا تركوازيّ اللون، بهذا وضعنا نقطة لكافّة المشاريع لقضاء الوقت خارج المنزل.
- هل أنتَ راضٍ الآن؟
- طبعًا يا عزيزتي، شكرًا لتفهّمك.

عند الضرورة أصبح حاسمًا للغاية، من الضروريّ إعادة ترتيب حياتي في القريب العاجل بطريقة تتناسب مع احتياجاتي الفيزيائيّة. لن تكون هناك ضرورة لشرح الأسباب التي تمنعني من الخروج أو البقاء في منزلي الوقتَ الذي أريد، وإذا ثملتُ يومًا، سأعرفُ أنّ هناك سريرًا مريحًا بانتظاري، قادرٌ على احتواء جسدي المتعب طوال الليل، دون أن يُقْذف بي إلى حوض الحمام بكامل ملابسي، لن تكون هناك ضرورة لتقديم الأعذار وشرح حساسيّتي الشديدة للسجائر، ولن أخضع لسيل لا ينتهي من الأسئلة.

أدركتُ للمرّة الألف أنّي غير قادر على احتمال وقع الكحول في جسدي. مضت ساعاتٌ طويلة وما زلتُ غير قادر على استعادة بديهتي، تركيزي مشتّت. خلعتُ قميصي وبنطالي، شعرتُ بعينيّ تنغلق تلقائيًا، أعرفُ أين تقع غرفة النوم وسرير ثلّة الرجال، وأنا قادر أيضًا على النوم في أيّ ركن من هذا المنزل. على الأريكة، في الحمّام، على الأرض وفوق كتفها أيضًا، جسمي يبدو في هذا المنزل نقطة صغيرة. لم أصعدْ إلى الطابق العلويّ بعد، أنا لست فضوليًا، مع أنّي لا أدرك الراحة دون معرفة تفاصيل المكان من حولي. أنا بحاجة للنوم فقط، ولا أرغب حتّى بمجرّد التفكير، الواقعُ من حولي لا يعني شيئًا على الأقل في الوقت الراهن.

تصبحون على خير، كريستيان وسيلفيا وكاتيا، تصبح على خير يا أحمد وأنتِ يا ميلِنا، انشغلتُ بالتفكير بهم جميعًا، أصبحتُ أسيرَ وهمي وشهوتي وضعفي وكانت نيللي تحسنُ استثمار كلّ ذلك. ما المانع؟ ما دمتُ لا أشغلُ أكثر من نقطة في حيّز هذا المكان الكبير.

هل تعرفون من كان ينتظرُني عند مدخل الأحلام؟ إنّها جرحي المفتوح – كاتيا. دائمًا تنتظر في أحرج اللحظات والأماكن، وعيناها تتحدّث وتبتسم وتضحك. كاتيا المرأة التي وقفت إلى جانبي دومًا. منحتني كلّ وآخر ما تملك دون تردّد. كاتيا المرأة التي تكاملت أنوثتُها مع رجولتي المكلومة عند حدود خيانتي وضعفي وإنسانيّتي. كاتيا تنتظرُني عند مدخل الأوهام وفي عينيها أسئلة وعلامات استفهام لا تنتهي.

* * *

استيقظتُ في ساعة متأخّرة من الليل، شعرتُ بالتعب من كثرة النوم، أدركتُ بأنّي لم أغادرْ هذا المنزل لليوم الثاني على التوالي. المنزلُ يبدو خاليًا تمامًا، بحثتُ عنها في غرفة نومها ولم تكن موجودة. بدا لي كأنّي أتواجدُ في منزل أشباح. ما المتعة في العيش في هذا المكان الواسع الكئيب الجميل؟ غسلتُ وجهي وبللتُ شعري، أحسستُ بدفق طاقة يملأ خلايا جسدي، شُفيتُ أخيرًا من الخبل، لبستُ ثيابي وعندها سمعتُ حراكًا في الطابق العلويّ للمنزل. آه، نسيتُ بأنّ هناك مكانًا خفيًّا في الأعلى. صعدتُ إلى هناك بخفّة وهدوء كيلا أزعجُها فقد تكون نائمة. لا بدّ أنّ الطابق العلوي أكثر إنسانيّة من السفلي لصغر مساحته. الصوتُ قادمٌ من غرفة بابها المُشرع. نظرتُ هناك، رأيتُها عارية تمامًا كعادتها، كم تكره ارتداء الملابس ليلا، لكنّها ليست وحيدة في السرير، هناك فتاة أخرى جميلة وشابّة وعارية أيضًا. كانتا متعانقتين وفخذاهما متشابكان، ويدُ نيللي اليمنى ممسكة بنهد الأخرى النافر. لم أتفاجأ كثيرًا، قد تدعواني للانضمام إلى هذه المأدبة من الأجساد العطشى لو أنّهما لاحظتا وجودي أقفُ عند الباب الخارجي للغرفة. لكنّي بقيت مخلصًا لرومانسيتي وفهمي الخاص للحبّ، ابتعدتُ عن المكان مسرعًا، خشيتُ في تلك

اللحظة أن أعدل عن رأيي وأعود لأنهل من جسديهما لأشبع غريزتي الكامنة في اللاوعي. قد يسارع آخرون للمشاركة في مثل هذه الولائم لكن ليس أنا وليس الآن. أفضّل أن أمسك بيد الحبيبة كاتيا لأنظر في عينيها مئة سنة على أن أتقلّب في عرين هاتين اللبؤتين. غادرتُ المسكن بصمت، الوقت متأخّر، تجاوزت الساعةُ منتصف الليل بقليل، ولم تكن لديّ فكرة عن المكان الذي تواجدتُ فيه طِوال يومين.

تقتلني الوحدة، تحاصرُني وتمتصّ طاقتي. دخلتُ في أوّل بارٍ واجهته في طريقي وطلبتُ كأسًا من الجعّة، لم ألمسْها طوالَ الوقت بعد أن تعرّضتُ للتسمّم قبل يومين. خشيتُ أن أعيد تلك التجربة المريرة دون تواجد نيللي إلى جانبي، كي تقلّني إلى برّ الأمان إذا ما سقطتُ تحت الطاولة. ما زلتُ قريبًا من منزلها ومن الممكن أن أعود سيرًا على الأقدام إلى بيتها، تحدّثتُ مع أحدِ روّاد الحانة، رجلٌ افترق عن زوجته بعد قضية طلاق طالت بينهما لما يزيد على السنة.

- بصحتك، أكره أن أشرب وحدي.

"وأنا أكره الشراب ولا أتحمّل وقعه على روحي وجسدي". رغم عدم رغبتي بمتابعة الحديث، إلا أنّي سألته:- ماذا تعمل يا صديقي؟

- أنا عاطل عن العمل، وفنّان. أرسمُ طوال الوقت، لكن وتوخّيًا للحقيقة، تستحقّ رسومي أن تُلقى في حاوية قمامة كبيرة أو في أحد أفران كريميكوفسكي.

- يمكنني تقديم المساعدة فأنا أعمل في كريميكوفسكي. وظيفتي تتطلب صهر المواد المعدنية، ومن السهل التخلّص من لوحاتك.

- تعمل في كريميكوفسكي، هذه أوّل مرّة أقابلُ شخصًا يعملُ في هذا المصنع. بصراحة أكبر، لأول مرّة أقابل إنسانًا يعمل.

رغبتُ بمماحكته، مدركًا أنّ هناك الكثير ممن يفضّلون البقاء على هامش الحياة وعدم القيام بعمل نافع للمجتمع. هذا لا يشمل بالضرورة الفنّانين،

والرجل أمامي يبدو استثناءً، فهو رائد سهر محترف، يتقنُ قتل الوقت برفقة الكأس. للمرّة الأولى أضطرّ للجلوس مع أحد العاطلين تاريخيًا عن العمل.

– هل لديك الكثير من اللوحات التي تنوي حرقها؟ يمكنني تأمين وسيلة نقل مجّانيّة إذا أردت. سأساعدك في حرق كافّة إنتاجك الإبداعي من الرسوم يا صديقي، أتدري لماذا؟ لأنّ تلك الأفران اللعينة لا تشبع وتحتاج للغذاء ليل نهار. لوحات، كتب، صور، معادن، حتّى الذكريات قادرة على حرقها والتخلّص منها. حكّ الرجل رأسه الصلعاء، يبدو أنّه ليس ثملا بما فيه الكفاية، واستشفّ لهجة السخرية القاتلة التي تضمّنتها كلماتي.

– لماذا تخاطبني بهذه اللهجة؟ إذا أردت أن تحرق شيئًا فاحرق ذكرياتك ولوحاتك وعالمك الخاص. هل هذا واضح؟

– كيف أحرق لوحاتي وأنا لا أرسم ولا أعرف كيف يكون الرسم وليس لديّ ذكريات أستغني عنها. المحرقة للأسف ليست لأمثالي، وربّما حرقت كلّ ما ذكرت منذ وقتٍ بعيد.

- ألم تخبرني بأنّك تعمل في كريميكوفسكي؟
- نعم، وهذا لا يعني بأنّي فنان.
- لم أعد قادرًا على فهم ما تقول.
- إذن، بصحتك.
- الحديثُ بيننا كأنّه يدور بين أطرش وأخرس. من منّا الأطرش ومن منّا الأخرس؟ لم يعد هذا مهمًا الآن. لذا قررتُ وقفَ هذه المهزلة الجدليّة العقيمة.
- هل لديك صديقة في مكان ما يا فتى، تنتظرك بين الحين والآخر؟
- هناك من تظنّ بأنّها تملكني، كيف يمكنني العودة إلى بيتها؟ لا بدّ أن رائحتي مرعبة. كأنّني أقيم في حقل قمامة.

- النساء صبورات يا عزيزي ويتحمّلن الكثير. لا يمكننا الاستغناء عنهنّ رغم عيوبهنّ الكثيرة. والنساء غير قادرات على الاستمرار بالحياة دوننا. هذه حقيقة.
- لا شكّ في ذلك، أنتَ محقّ. إذن دعني أعود إليها، لعلّ الوقت لم يتأخّر كثيرًا. كلّ عام وأنت بخير، هل حانت أعياد الميلاد؟ لم أعد أذكر تاريخ اليوم. سامحني، أنا أغرق.

غادر الرجلُ المكان على الفور دون تردّد، تبخّر حديثُنا عن حرق اللوحات والتخلّص منها، قرّر العودة لامرأته على عجل، وبقيتُ وحيدًا في بهو المكان، لم يبقّ من أناكده، وليس لديّ رغبة بالعودة لعشّ نيللي الدافئ. يمكنها أن تمرّغ جسدها بالفراش مع تلك اللبؤة الصغيرة ما دامت راغبة بذلك. أوشكتِ الحانةُ على الإغلاق بعد أن خلتْ من روّاد الليل، وعليّ التفكير جديًا في ترك المكان والبحث عن آخر يضمّ بقايا أشلائي المتعبة. الشوارعُ في الخارج مقفرة في مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل بعيدًا عن مركز المدينة الذي لا ينام، نظرتُ في الزوايا والظلال المعتمة من حولي. لا أحد، شعرت بالخوف والوحدة القاتلة، وهذا يفوق ما يمكنني تحمّله، لا أدري لماذا أعتبرُ نفسي دائمًا مشروع عبور، يتواجدُ إلى ما شاء الله في مرحلة انتقاليّة. أكرهُ البقاء رهينة هذا النمط من الأحاسيس. كم أتمنّى أن أجد شاطئ أمان ترسو عليه مراكبي المتعبة من كثرة التجوال والإبحار. إذا أردتُ أن أتحوّل لشاطئ فلا بدّ أن أمتلك قلبًا كبيرًا يتّسعُ لحكايا الملاحين وآلامهم وأفراحهم. عليّ أن أمتلك القدرة أيضًا على إطفاء حمم البراكين الثائرة. لكن، أنّى لي كلّ هذا؟ لم يبق أمامي سوى القدرة على ممارسة الحلم وشتم الوحدة.

روحي متمرّدة، روحي متحفّزة، تبحثُ عن آفاق وحقائق جديدة، مهما كان الثمن. وعادة ما أدفع غاليًا ثمن بحثي وهيامي من احتياطي خلاياي العصبيّة واقتطاع نتفًا حيّة من حشاشة القلب. أدفع لأسير ضدّ التيار دون أصدقاء ووجهة وبوصلة.

أتعتقدون أنّي قد تردّدتُ كثيرًا بالعودة إلى بيتها؟ لا أبدًا، جميعُ الطرق تقودني إلى هناك، فعلت ذلك دون تردّد. سأعود إلى بيتها حتّى وإن كانت آخر المساحقات خلال القرن الواحد والعشرين. تمكّنتُ بسهولة من العثور على الطريق المؤدّية إلى مركز بيتها، ليس بعيدًا عن مركز الدنيا. لديّ ذاكرة بصريّة قويّة، تعرّفتُ على منزلها عن بعد، أتذكّر جيّدًا تفاصيل المكان. البابُ الخارجيّ للمبنى مغلق، وهذا أمرٌ طبيعيّ في أحياء الأثرياء. لا أملكُ مفتاحًا، كما العادة ولا أميّز جرس شقّتها. نظرتُ إلى الأعلى هناك، حيث من المفروض أن تكون شرفتها، وكانت هناك، رأسُها يطلّ من الأعلى وتحدّق بي، ورغم العتمة إلا أنّي قرأتُ قلقًا وتأنيبًا وغضبًا في نظراتها. صرختْ من عليائها "ادخل لعنة الله عليك". دلفتُ إلى داخل المبنى، ضغطتُ على المفتاح الكهربائي وأضأتُ الأروقة. السكّان نائمون في مثل هذا الوقت، ونيللي روحٌ أخرى وحيدة لا تنام، تعيشُ في رحمِ هذا العالم المتسارع، تسعى جاهدة لتجذبني لعوالمها، تفهمُني جيّدًا ولا أفهمها فما زالت لغزًا بالنسبة لي، مع أنّي حاولتُ جاهدًا أن أدلفَ إلى فضاءاتها وفهم العراك الدائر في أعماقها. هناك سرٌّ في التركيب الفسيولوجي للمرأة يصعبُ علينا النفاذ إليه ورؤيته بالعين المجرّدة.

صعدتُ إلى الأعلى حيث كانت تنتظرُ عند مدخل شقّتها وقد غلبها النعاس، مرتدية ثوبَ نومٍ خفيف. كنت قد تعرّفت على ثنايا وأسرار جسدها خلال الفترة القصيرة التي قضيتُها في مهجعها، الانحناءات ما بين إبطيها وأصل نهديها الفتيين. لكنّ المرأة قادرة دائمًا على الكثير من المفاجآت، حين ترتدي أو تخلع عن جسدها لباسًا جديدًا أمام رجلها. أمسكت بي من يدي وهمست قائلة:- ما هذه الحركات الصبيانية؟ إلى متى يستمرّ هذا التسكّع يا نيكي؟ ما إن تمكنتُ منك حتّى بدأت تمارس لعبة الهرب ثانية.

- كنت بحاجة لبعض الهواء الطلق. جلسنا في غرفة الاستقبال، تجنّبت النظر لعينيها طِوال الوقت، كأنّ لسان حالها يقول أنا أعرف بأنك تعرف، أعرف

أنك رأيتني وأنا ملتحفة بها في السرير". لكنّها مع ذلك فضّلت الصمت، وأخيرًا قالت:- حان وقت النوم.

- نعم يا نيللي، أشعر برغبة كبيرة في النوم.

كم تحبّ سماع صدى اسمها على شفتيّ، وتبتسم دائمًا عندما أردّده. تساءلتُ "هل سأنفذُ هناك حيث جالت شفاه تلك اللبؤة قبل ساعات؟ كأنّي أنفذُ فيهما مرّة واحدة". افتقدتُ مخطوطة روايتي التي أمضيتُ وقتًا طويلا في تسطيرها، مخطوطة ضمّت بين دفّتيها تفاصيل حياتي اليوميّة وملجأي حين أجد نفسي وحيدًا وسط عالمٍ مشبع بالأبواب المغلقة.

انطلقتْ أمامي إلى غرفة النوم، نظرتْ إليّ حين خلعت ثوب نومها واختفت في فراشها الدافئ. لوحة في منتهى الجمال، كرمٌ أنثويّ بلا نهاية. قد يكون هذا جلّ ما يتمنّاه الكثير من الرجال. غيّبتُ جميع أفكاري الفلسفيّة المعقّدة ومضيتُ نحوها. لم أخلع ملابسي الداخليّة حين لامس جسدي جسدَها، أمسكتُ بيدها ونظرتُ إليها طويلا.

- أنتَ غريب الأطوار يا نيكي، طائرٌ غريبُ الأطوار يا حبيبي، لماذا لم تدخل إلى السرير هناك؟ كنّا بانتظارك.

- أدركتِ إذن وجودي.

- شعرتُ بحضورك حين وضعت قدمك على الدرجة الأولى، وكانت هي مستسلمة لكلينا. كنّا بمثابة ذئبين، وهي أضحية العيد يا غبيّ.

- لستُ ذئبًا بما فيه الكفاية على ما يبدو. ضحكتْ ونظرتْ إلى سقف الغرفة ثم همست قائلة:- خذْ كلّ ما يمكنك الحصول عليه، تعلّم أن تكسب.

- أنا لا أعتبرُ نفسي جهازَ إخصاب، ولا أضعَ نصبَ عينيّ امتلاك أكبر عدد ممكن من النساء، هذا ليس هدفي. أنا لستُ ذئبًا وليس لديّ طموح لأصبح دون جوان المرحلة.

- هذه أمنية جميع الرجال يا نيكي. امتلاك امرأتين في سرير واحد.

- أكتفي بأقلّ من ذلك بكثير.
- لا داعي لترديد هذه الاسطوانة، أدركُ اختلافك وتميّزك.
- لماذا طلبتِ منها الحضور؟ هل المرأة أكثر شهيّة من الرجل في السرير؟ ألا يكفيكِ الرجال من حولك؟ يبدو أنّي قد فاجأتها بكلّ هذه الأسئلة.
- إذا كنت تقصد نفسك كنموذج رجوليّ فأنتَ قد قمت بالواجب ويزيد.
- لا أقصد نفسي، لكن من الواضح أنّك مساحقة منذ زمن بعيد.
- نعم. أنا كذلك، الأمر لديّ مختلف لأنّ المرأة تعرف كيف تعطي، بينما يلجأ الرجل لنهبها بكلتي يديه. المرأةُ كتلة من العطاء والنعومة، تعملُ المستحيل لإرضاء شريكها بعيدًا عن العنف. باختصار، قادرة على مرافقتي حتى القمّة بشفتيها وأصابعها. يستحيلُ عليك فهم ذلك، فأنتَ رجل. هذا ليس مخالفًا للطبيعة بل جزءًا من الغريزة خلافًا لما يعتقده الكثيرون. العشقُ بين النساء مثيرٌ للغاية.

لم أشأ اختلاق خلاف وعراكٍ فكريّ معها، أرفض هذا النوع من الجنس وكفى، لأنّ العلاقة ما بين الرجل والمرأة مقدّسة:- لا يمكنني التعليق على حديثك، فأنتِ مقتنعة تمامًا بمعتقداتك، لكنّك تشتهيني أيضًا، أليس كذلك؟

- أحدهُما لا يلغي الآخر.
- إذن تفضّلين تذوّق جميع أنواع الفاكهة بما فيها الممنوعة؟
- لا أبدًا. الأمر مختلفٌ تمامًا. أنا أرضي احتياجاتي الفيزيائيّة.
- لكنّك طلبت منها الحضور وأنا ما زلت في سريرك، ما معنى هذا؟ ألا تكفيك رجولتي؟
- بل هي التي رغبت بأنوثتي، قررت الحضور ولم أقوَ على منعها، وهي التي تلبّي دائمًا دعواتي وترضي رغباتي.

- لا أدري طبيعة مشاعري تجاهك، لكنّي على أيّة حال لا أرغب أن أشاهد امرأتي تتلوّى في السرير مع أخرى، قد تعتبرين قناعاتي بالية لكنّها مرآة ذاتي ولا يمكنني أن أكون سوى ذلك.
- سآخذ كلماتك بعين الاعتبار.
- لا توجد ضرورة لتغيّري نمط حياتك، كما ظهرتُ على حين فجأة في حياتك قد أختفي بالسرعة ذاتها. لذا، مارسي حياتك بالطريقة التي تريحك.
- اخرس، تعال إلى حضني.

أعتقدُ أن حديثي أزعجها قليلا، لكنّي فضّلتُ الصراحة والمباشرة، رفضتُ ممارسة طقوس الحياة اليوميّة مع مساحقة، وكان قراري نهائيّ. على عكس تلك اللوحة الهادئة التي قرأتُها عبر جسديهما في الطابق العلويّ، بدت نيللي كحيوان مفترس بين ذراعي وعنيفة للغاية، ربّما لتعوّض شكوكي وتأنيبي. لم توفّر جهدًا لإرضائي. كانت كتلة من لهب كأنّ التي شاهدتُها قبل ساعات شخصٌ مختلفٌ تمامًا. لم تكن هناك ضرورة لبذل جهد كبير، فأنا أشتهيها بعد أن شعرتُ بالغيرة من الأخرى التي تمكّنت من سرقة جسدها خلال ساعات نومي. أشتهيها منذ اللحظة التي تدلّت بنصف جسدها من الشرفة لتناديني إلى عالمها شديد الشفافية، كأنّ باطنَها أصبح كتابًا مفتوحًا يدعوني كلّ لحظة لقراءته ونهش أسراره. اشتهيتُها بعد أن رأيتُ مسحة الحزن والوحدة ترقد فوق تقاطيع وجهها، ولم تتمكّن من إخفائها، رغم الملاءات البيضاء الناعمة وكلّ هذا الترف. لكلّ هذا تمنّيتُ قربها، وقبلتُ بحضورها كما هي دون رتوش. لا أريد مزيدًا من الشروط والارتباطات وفرض المواعيد وتكرار الأسئلة أين ولماذا وكيف؟ كوني كما أنتِ يا نيللي، لا تنقلبي بسرعة أمام خياراتي. لكنّها جَبُبَتْ وانتصرْتُ أنا كالعادة، مقابل أن أبقى خاتمًا طيّعًا في يدها. لم تتغيّري يا كليوباترا رُغم القرون الطويلة التي انقضت منذ وفاتك. هذه هي صفات وطباع المرأة التي رضيتُ أن أقاسمها غرفة نومها ومن الممكن أن أجدها بعد أيام برفقة رجل ثاني وثالث، من يدري؟ لا أعرف كيف

ستكون ردّة فعلي في تلك اللحظة، الغريب أن الكثير من الرجال لا يعتبرون السحاق خيانة.

- هل هناك غيري، أقصد رجل آخر أو عشيق؟ سألتُها بحذر. شعرتْ نيللي على الفور بقلقي وقالت بصوت هادئ وبنعومة متصنّعة.
- من الصعب العثور على أوفياء مثلك يا نيكي، كن على ثقة بأنه لا يوجد آخر في حياتي، ولن يحدث ذلك خلال المئة سنة المقبلة. نيكي، عليك أن تستيقظ مبكّرًا في الغدّ، لديّ موعد عمل هامّ للغاية، فأنا مشغولة بتنظيم مسابقة ملكة جمال صوفيا.
- نعم، سننطلق معًا عند الصباح.
- سأكون في الطوابق العليا لقصر الثقافة الوطني، يمكنك أن تحضر لاصطحابي في المساء، بعد العاشرة وقبل منتصف الليل، سأنتظرك.
- حسنًا. تصبحين على خير.

لم أطلب مفتاح شقّتها ولم تعرضه عليّ. هل يعني هذا بأنّي لم أتمكن من الحصول على مفاتيح قلبها بعد؟ تعلم نيللي جيّدًا بأنّي صيدٌ يصعب الاحتفاظ به، وغالبًا ما أطير مغادرًا العشّ على عجل دون سابق إنذار. أدركتْ ذلك بحدسها الأنثويّ، هناك حاجزٌ واضح بيننا، بل هناك جبلٌ من الجليد يذوب ببطء شديد، هذا أمرٌ طبيعيّ ومتوقّع. يصعب بناء علاقة عاطفيّة جديدة وقويّة، حتى وإن كان الجنس هو المدخل، للروح متاهاتها وغرفها ودهاليزها المعتمة التي تصعب إضاءتها إذا كان الآخر حاضرًا بجسده دون روحه، فهل من الممكن أن نجد المفتاح القادر على إضاءة فضاءاتنا؟

عليها أن تذهب باكرًا إلى العمل، ما يعني مغادرتي لمنزلها عند الصباح. قالت بأنّها ستكون في الطوابق العليا لقصر الثقافة لوقت متأخّر من الليل دون أن تحدّد المكان والزمن، كلّ شيء تقريبيّ كأنّها تخشى تسليم مفاتيح حياتها مرّة واحدة لعابر سريرها - أنا، لكنّها تركت كوّة شبه مغلقة وشبه مشرعة لأدلف

مجدّدًا إلى عالمها. هذا ما قصدته بالجبال الجليدية التي يصعب إذابتها إذا بقيت الأفئدة متباعدة، يمكنني إذًا زيارتها بعد تحديد موعد مسبق تمامًا كما تفعل لبؤتها الصغيرة. هذا يعني أيضًا اختفائي من نهارها أو ليلها بعد انتهاء اللعبة الأزليّة، وفي أفضل الأحوال قد أتناول فنجان قهوة معها على عجل. نمتُ وأنا أعاني من بلبلة فكريّة عقيمة، ورجوت الله أن يعفي خلايا دماغي من هذا الأرق الفكري الذي لا يعرف لحظة راحة وسكينة. لم أحلم بشيء في تلك الليلة، لم تراودْني الكوابيس، لم تزُرْني كاتيا، جسدي غاب عن الوعي طوال ساعات الليل بأنانيّة مفرطة.

عند الصباح كان الثلج يتساقطُ ويتهادى جميلا وعملاقًا بحجم الحياة في بياضه الناصع، راقبتُ رقائقَ الثلج مسحورًا، كأنّها كريّات من الكريستال تتمايل مختالة أمام أعمدة الإضاءة. عليّ أن أحصل على تقاعد مبكّر، ربّما بسبب حالة الجمال التي أمرّ بها طوال حياتي. وقد أطالبُ يومًا بتعييني حارسًا أسطوريًا للسماء، كي أتمكّن من نفح أقلام الشعراء والكتّاب والأدباء بالحياة في مثل هذه اللحظات. بالمقابل، ما زلتُ أسعى للحصول على راتب رمزيّ وامتلاك بيت صغير مريح حتى وإن كان عند حافّة الدنيا. بيت نيللي يخيفني، يقتلني لأنّه كبير وواسع وقد يضيعُ بعضي عن كلّي في محيطه، وقد يتوجّب عليّ وضع بعض أجهزة الرقابة في الطابق العلويّ كي أتمكّن من الاستماع والتواصل مع أطرافه. لديّ رغبة بحضور إنسانيّ دافئ، أرغب ببعض الضجيج والفوضى.

- علينا أن نسرع يا نيكي، هيّا يا عزيزي. قطعتْ نيللي حبل أفكاري كعادتها.
- نعم، أنا على أتمّ الاستعداد.
- لماذا لا تقوم بزيارة السيد ستانتشيف، اسأله عن روايتك. ربّما أصبحت جاهزة للنشر.
- قد أزوره بعد ظهر اليوم، لكن لديّ صديق حميم اسمه كريستيان، أريد أن أراه اليوم أيضًا، أشعر بالقلق تجاهه.
- حسنًا، سأكون بانتظارك في قصر الثقافة مساء اليوم.

- سأحضر قرابة العاشرة، لنعود سويًّا للبيت.
- يمكنك أن تستقلّ عربة الأجرة في الطريق إلى قصر الثقافة.
- الطقس في الخارج في منتهى الجمال.
- ماذا قلت؟ أين الجمال وسط هذا البرد يا نيكي؟ تعرف جيّدًا كيف ستبدو الشوارع عند ذوبان هذه الكتل من الثلوج. لا، شكرًا. لا أريد التفكير بكلّ هذه القذارة.
- نعم، لكنّ الجوّ في الخارج الآن منعش للغاية يا حبيبتي.
- كما تشاء، لن أجادلك كثيرًا، الجمال الذي تتحدّث عنه لن يدوم سوى ساعات، ثمّ يبدأ البرد والصقيع والتجمّد وتراكم الوحل وهكذا كلّ شتاء.
- أنتِ على حقّ، الجمال عمره قصير، لذا علينا أن نستغله في كلّ لحظة ممكنة.
- أفكارك الفلسفيّة بلا نهاية، دعنا ننطلق، تأخّرنا كثيرًا.

قطعنا المسافةَ إلى قصر الثقافة خلال فترة زمنيّة قصيرة لا تتجاوز عشر دقائق، ودّعتُها وتسللت وحيدًا إلى شوارع صوفيا، لم تكن لديّ أيّة أهداف محدّدة، مجرّد ارتياد زخم المدينة وحرق فضولها تجاه وجودي المرتبك. أحبّ التجوّل والعبث بندف الثلج المنثال على الأرصفة وفوق قبّعات الرجال والنساء الملتحفات بكنزات وشالات الصوف الناعم الدافئ. لم تتوقّف ندف الثلج عن الذوبان على وجهي، وأخذ الثلجُ في الأثناء يغطّي أسقفَ العربات والأكشاك ومعالم الحياة في المدينة. دخلتُ أحد المقاهي وما أكثرها في شوارع المدينة القديمة، تناولتُ قطعة كبيرة من فطائر الجبن وفنجان قهوة، ثمّ توجّهتُ لزيارة خبير النصوص السلافيّة ستانتشيف. هناك حيث السكرتيرة الودودة فيارا، التي لم تتخلّ لحظة واحدة عن مرحها وانفتاحها على الحياة وتحدّياتها.

- نيكولاي مرّة واحدة، هذا غير معقول. بل هذا كثير يا ربّي. أين اختفيت طوال هذه الفترة؟
- كنت في الجوار يا فيارا، كنت في الجوار.

- السيد ستانتشيف يرغب بمقابلتك يا عزيزي. ما رأيك بفنجان قهوة؟
- طبعًا، هذا لا يحتاج لسؤال، لا أرفض قهوة من صنع يديك. أنت شقيّ.
- هل يمكنني أن أدخل الآن لمقابلته؟
- تفضّل، هو بانتظارك.

وقف السيد ستانتشيف حين رآني أدخل مكتبه، أخذني بالأحضان. استقباله دافئٌ للغاية:- سرقتك النساءُ منّا، سرقتك نيللي يا أستاذ نيكولاي.

- أنت المسؤول عن هذه الخطيئة بالكامل، لأنّك من قدّمني إليها. نيللي من العيار الثقيل وتصرّ دائمًا أن تكون كلمتها هي الأخيرة.
- التحضير لإصدار روايتك في المراحل النهائيّة، قمتُ بإجراء تصحيحات وتعديلات ضروريّة هنا وهناك. لا أدري ما رأيك بهذا الخصوص، أرجو أن تلقي نظرة أخيرة على مخطوطة الرواية قبل أن تدخل المطبعة.
- ألم تقل إن التصحيح الذي أجريته ضروريًا؟
- نعم، بالطبع.
- لا ضرورة لمراجعة ما أجريته من تعديلات، ولا أرغب بالعودة إليها مجدًّدا. أعتقدُ أنّ هناك مسافة كبيرة باتت تفصلني عن هذا العمل، أتفهمني يا سيّد ستانتشيف؟
- أخذتَ تشعرُ بالملل بهذه السرعة يا نيكي. عليك أن تتعوّد مراجعة أعمالك في المستقبل لمرّات عديدة كي تصبح صالحة للنشر ولتفادي الوقوع في أخطاء قاتلة ومسيئة، للأسف مهنتنا تتطلّب هذا وأكثر.
- ما زلتُ على برّ الأمان، لم أحترف الكتابة بعد.
- بل أنتَ محترف شئت أم أبيت، لكن وعلى أيّة حال، هذه روايتك الأولى وسنكون متسامحين معك إلى حدٍّ بعيد. كن على استعداد خلال الشهر

المقبل، لبعض الغرور والحضور أمام المرئيّات والصحف ووسائل الإعلام خلال حفل التوقيع، سأبذل جهدي لتبرز وتصبح جزءًا من طبقة الكتاب والمثقّفين في البلد. أنت تستحقّ هذا الشرف، أعتقدُ بأنّك ستجني الكثير من النجاح.

كلمات ستانتشيف مشجّعة للغاية، تلا ذلك فنجان قهوة دافئ ومنعش قدّمته فيارا، وضعته أمامنا متسلّحة بابتسامة عريضة ولم تنسَ أن تغمزني عند مغادرتها المكتب. يا لها من امرأة، تفيضُ حبّا وحيويّة طوال الوقت.

- أخبرني يا نيكي، أين تريد أن نقيم حفل التوقيع؟
- لا أدري، سأترك الخيارات لك فخبرتك طويلة في هذا المجال، لديك دراية بالصالات والمعارض والمسارح والمنابر المناسبة.
- نعم، سنقيم الحفل على الأرجح في بهو أحد مسارح العاصمة، أظنّ ذلك مناسبًا وبداية جيّدة لمسيرتك الأدبيّة.
- لماذا تقدّمون كلّ هذه المساعدة لشخصي سيّد ستانتشيف؟
- لا بدّ من شخصٍ ما للقيام بهذه المهمّة، لقد ساعدني أحد الكتّاب في بداياتي الأدبيّة. عدا عن هذا، أنا أراهن على حصانٍ رابح بالتأكيد. أعذرني لاستخدام هذه الاستعارة، لكنّ الكتب الجميلة نادرةٌ.
- نعم، هذا إطراء كبير.
- لا، هذه هي الحقيقة دون تحيّز. أخبرني الآن، ما هي مشاريعك المستقبليّة؟
- مستمرٌّ بالعمل في كريميكوفسكي، لا أظن أنّ كتابًا واحدًا قادرٌ على تغيير مجرى حياتي بهذه السرعة، لن أتخلى عن طريقة حياتي الحاليّة.
- نعم، تفكيرك عقلانيّ. لكن ستطرأ الكثير من التغييرات على مجرى حياتك في القريب العاجل، ستلاحظ بأمّ عينك ما يترتّب على حضورك في عالم الكتابة.
- الحياة مليئة بالمفاجآت سيّد ستانتشيف.

ألا تفكّر برواية ثانية؟

- أفتقد الكتابة كثيرًا، لكنّي حين أتذكّر المخاض العسير الذي عانيته لإنهاء روايتي الأولى، أفضّل ترك القلم جانبًا. أحتاج لمزيدٍ من الوقت كي أتشجّع لكتابة عملي التالي، لا بدّ قبل ذلك أن أتحرّر من أبطال هذه الرواية. أشعرُ أنّهم يلاحقونني في حياتي اليوميّة وفي أحلامي أيضًا.
- نعم، شعور مألوف.
- قد أتشجّع ثانية للكتابة، حين أرى روايتي بين أيدي القرّاء. أخبرني سيّد ستانتشيف بالمزيد عن نيللي هذه. لا بدّ أنّ لديك تصوّر ما عن هذه المرأة.
- نيللي تتمتّع بخصوصيّة كبيرة، امرأة قادرة على النجاح وتحقيق الأهداف المرسومة، وقادرة على تكوين علاقات واسعة بسهولة، ويمكنها تقديم المساعدة لك. للأسف، ليس لديّ الكثير لأخبرك به لأنّي لست الشخص الذي يطارحها الفراش، ولا تربطني بها أية علاقات جانبيّة. سمعتُ بعضهم يردّدُ بأنّها شرسة في السرير ولا ترحم عشّاقها، أنت من يمكنه أن يخبرني ببعض التفاصيل عن هذه المرأة.
- نعم، هناك شيء من الصحّة، لكن ليس هذا هو الأهمّ في علاقتنا.
- بل هو الأهمّ للكثير من الرجال.
- لماذا وافقتْ على تمويل روايتي؟
- ولِمَ لا؟ نيللي ساعدت الكثير من الكتّاب والمبدعين وأنتَ أحدهم، بإمكانها أيضًا أن تحقّق أرباحًا من هذا النمط من النشاطات، رغم تفرّغها في أعمالها الخاصّة. سأخبرك بحقيقة أخفيتُها عنك سابقًا، نيللي معجبة بك وربّما وقعت في حبّك، أحسستُ بذلك حين قدّمتُ لها روايتك، قالت إنّها وجدت ذاتها بين صفحات الرواية.
- تمكّنت منّي بسرعة، لكن من الممكن أن يقتل الجنسَ الحبّ يا سيدي.

- اندماج جسدين لا يعني بالضرورة الحبّ، في الوقت الراهن على الأقل. من يدري، قد تعود المجتمعات للانغلاق ثانية، ويصبح الجنس صعب المنال دون قواعد وأسس أقلّها مؤسسة الزواج. الحبّ هو اندماج روحين في بقعة بعيدة من الضوء، تائهة في عمر الزمن ومكثّفة كإحدى الثوابت النظريّة، التي يمكن تسميتها بالفضاء الحميم أو الشرارة المتبادلة بين شخصين. لذا، أرى أنّ التمارين التي تقومان بها في السرير لا تعني حبًّا بالضرورة.
- هذه هي المرّة الأولى التي تتحدّث بها بكلّ هذه الصراحة. ظننتُك طِوالَ الوقت جرذًا يحتلّ مكتب. أعذرني لهذه المقارنة، لكنّي أفضّل الصراحة والمباشرة.
- بل انتَ على حقّ يا صديقي. أنا حقًّا مجرّد جرذ يحتلّ مكتب، أتواجد الآن على الشاطئ الآخر من الإبداع، وأنت لم تغرق بعد في مستنقع المهنة، لم تأكل الملفّات والجاملات روحك. أنا نقيضك يا نيكي. روايتُك أرغمتني على النظر في أعماق روحي مجدّدًا، شاهدتُ هناك للحظة الكاتب الذي كنتُه يومًا، عندما كنتُ سيّد الكلمة، وليس مجرّد محرّر يكتب لإرضاء بعض الفئات. أتمنّى أن تفهم ما أرمي إليه.
- أفهمك جيّدًا يا سيدي، لكنّك أنت من قال بأن كلّ إنسان يتبع مصيره.
- نعم، أنا تحوّلت للسيد ستانتشيف، كانت تلك رغبتي وتحقّقت. أنا الآن أملك مكتبًا مريحًا وسكرتيرة رائعة مطيعة. أنا أمثّل إطار لوحة فقدت رسمَها الأصيل. الإطارُ لا يعني شيئًا، حتّى وإن كان مصنوعًا من الذهب الخالص. الإطار لا يعني شيئًا دون لوحة الفنّان التي أغرق روحه فيها. الفنانُ الذي سهر ليالٍ طويلة ليبثّ في لوحته رمزيّتها الخالدة. فرشاةُ الفنّان تحملُ بين طيّاتها الشّوق والأمل والاشتياق والانعتاق من الواقع والكآبة. هذا ما أفتقده الآن، لذا يستحيل عليّ أن أكتب رواية متحرّرة من القيود كما فعلت أنت. أعتقدُ بأنّي قد فقدت لوحتي وسأحاول جاهدًا أن أرسم أخرى، استمدّها من بقايا الروح والمداد في شراييني. أنا أحسدُك يا نيكي، حتّى وإن لم تسطر كلمة

أخرى، لأنّك تمكّنت من الوفاء لذاتك الأدبية المتمرّدة. تمكّنت أن تظهر للعالم صدى نداءك. كلّ إنسان يحملُ طيّ خريطته الوراثيّة، رسالةً يعمل على إيصالها لهذا العالم منذ ولادته. قلّة هن يتمكّنون فهم هذه الحقيقة في الوقت المناسب، لأنّهم بذلك يتوحّدون مع الوعي المطلق، يتوحّدون مع الخالق في كلّ تجلّياته.

- لماذا تعتقد بأنّك قد فقدت رسالتك؟ للمرّة الأولى خاطبته كزميل دون تحفّظ، يبدو أنّنا قد كسرنا وتخطّينا جدار الجليد ما بيننا.

- منذ أصبحت السيد ستانتشيف، بات الذين يعرفوني باسمي الأول أنطوان يعدّون على أصابع اليد الواحدة. أنطوان فنّان وكاتب مبدع، لكنّ السيّد ستانتشيف هو ذاك الجرذ الذي ذكرته. لا أخفي عليك، أعجبني هذا الدور لفترة طويلة، لأنّي أصبحتُ هامًا يهابني الكثيرون. استبدلتُ المحبّة بالاحترام المفرط. نعم، هكذا سارت الأمور حتّى فاجأني عملك الروائيّ المتمرّد. عملٌ كُتبَ بمداد الروح من كاتب غير معروف اسمه نيكولاي ويقف أمامي الآن. عفوًا، أرجو أن تعذرني، أحتاج للتوحّد لو سمحت. شكرًا لك. شكرًا لأنّك اخترتني أوّل قراءك.

- أنطوان، هناك دائمًا متّسعٌ من الوقت ليستيقظ القلب يا صديقي. يحتاجُ الإنسانُ أحيانًا لجرعة من الهواء ليستردّ قواه، يحتاج للنوم لبعض الوقت، وعندما يستيقظ مجدّدًا يبدأ القلب يخفقُ كما كان، شابًا ومتمرّدًا. قلبك الآن يستيقظ يا أنطوان. فرشاتك تنادي فلا تخذلها ثانية.

الكتاب السادس

الغرور والمذبح

نيللي تفي بالغرض. هذا هو واقعي الآن ولديّ رغبة شديدة بمهادنة نفسي ثانية للبقاء على شاطئ الأمان لفترة طويلة. هذه محاولة للاستمرار بنسيان طيف كاتيا، أعرفُ هذا جيّدًا. بدأتُ أنساها، افتقدُ تقاطيعَ وجهها، تبدو كأنّها غريبة عنّي. للفراق الذي استمرّ طويلا أثرٌ كبيرٌ على نفسي، رغم أنّ عشقي لها قد ذاب في خلاياي الجذعية، في النخاع الشوكيّ، حيث يُصنعُ الدمُ وتُحتكرُ ذاكرةُ الحياة. حيث تتمكّن الجسيمات المجهريّة من التوغّل في الأعماق، حاملة معها رغبة جامحة في البقاء والاستمرار.

نيللي تفي بالغرض، انتهى ونقطة على السطر. نيللي تمتلكُ سقفًا يقيني غدر الدنيا، يجمعني مع امرأة معاصرة وجميلة وتائهة. لا بدّ أن تلتقي متوازياتُنا في نقطة ما قبل النهاية. كنت غارقًا في تيه البحث عن الذات حين همست نيللي قائلة:- لا تحضرْ عشيقات إلى منزلي من فضلك، هذه أكبر إهانة لي، لا تفعلها، أرجوك. بعد لحظات من الصمت أضافت:- انظر إليهنّ، مخلوقاتٌ في غاية الجمال، كيف لا يفكّر المرء بامتلاكهنّ. ابتسمت ولم أبادلها النظر خلال حديثنا ثمّ قلت بحزم.

- أنا أنانيّ في الحبّ يا عزيزتي.

- هل يعني هذا أنّك تحبّني بما فيه الكفاية؟ هي على حقّ. علاقتنا غريبة إلى حدّ بعيد، ولا يمكن إدراجها ضمن المفهوم التقليديّ للحبّ. من الممكن تسميتها محاولة للتكيّف والانسجام الروحي والجسدي.

استمرّت عارضاتُ الأزياء بالترجّل والتمطّي أمامنا جيئة وذهابًا، يظهرنَ أجسادًا متناسقة بحفاوة لا تخفى على وجوههنّ الصارخة الجمال. وجوهٌ أخفيت أدقّ عيوبها بمهارة بطبقات مختلفة من مستحضرات التجميل. أشعرُ كأنّ نظراتهنّ مليئة بفراغٍ رغم انشغالهنّ المملّ على مسارح الغرور. انتهى العرض بعد قليل،

وبدأت المجاملات والابتسامات والإطراء بين الحضور. أحاديثٌ عابثة، وقهوة وكؤوس الشمبانيا وأطيافٌ من الأجساد الجميلة ووعود لا تنتهي من خلف الكواليس.

- عزيزتي، أنا مرهق. ما رأيك لو نعود؟
- لِمَ العجلة؟ ما رأيك أن نتناول طعام العشاء في أحد المطاعم.
- حسنا، لكن بعيدًا عن هذا المكان، أرجوك. كانت هي دائمًا صاحبة المبادرة، هي التي تدعو، والتي تصرّ على دفع الفاتورة، وأنا أوافق وأدفع فواتير من نمط آخر.

نيللي قادرة كذلك على خلق جوٍّ من الراحة والدفء والأمان. لا تنسى الشموع، والشموع تصنعُ الظلال الغامضة حول العينين. ظلالُها خمارٌ يتراقص كإكليل من الغار بيننا، يزيّنُ المرأة لتصبح محطّ الأنظار في لحظات. إنّه الوهم الذي يشتهيه كلّ إنسان.

- أحبّ تناول طعام العشاء معك يا نيكي، لديك شهيّة تُحسدُ عليها، تُصيبني بالعدوى وتجبرني على تناول أكثر من طاقتي.
- ببساطة أنا جائع. غرقتْ في الضحكِ بعد أن أدلت بملاحظتها. ما دامت طريقتي في التهام الطعام تعجبها، إذا فالعالم بخير.
- أمّا أنا فلا يعجبني صراخُكِ ليلا ونحنُ منشغلان بالحبّ، كأنّك على وشك الموت.
- نعم، هذه حقيقة، الفرنسيون يسمّون ذروة الحبّ بالموت الصغير.
- الطعامُ في هذا المطعم فاخر.
- -هل ستبقى معي أم ستسارع بالهرب، أشعر بوحدة قاتلة يا نيكي.

عالمُك يصيبني بالحيرة، كلّ ما في عالمك يشير إلى أنّك تستمتعين بتفاصيل حياتك اليوميّة. أنت مسكونة بالحياة.

- غالبًا ما تنخدعُ العينُ بظاهر الأمور. المظاهرُ لا تعكس الواقع دائمًا. طريقة حياتي هي التي تجعلني أشعر بالوحدة إلى حدٍّ بعيد. أحسدك أحيانًا على تيهكَ وحياتِكَ غير المستقرّة، روحك تتمتّع بحرّيّة عارمة، مع أنّي أشعرك بعيدًا عنّي وعن هذا العالم بسنواتٍ ضوئيّة. أنت أحجية.
- أنتِ صريحة حتّى الألم يا سيدتي الجميلة، هناك نجمٌ يعيش في أعماقي يرفض أن ينطفئ بهذه السرعة.
- لا أفهم يا نيكي، النجوم الميّتة وحدها تنطفئ بعد ملايين السنين من انقضاء حياتها. إنها المساحات الشاسعة التي تفصل عوالم الموت والحياة.
- صحيح، النجم الذي يسكنني يرفض أن ينطفئ.

أرغبُ بمزيد من الصراحة، وها أنا أستخدم لغة غير مفهومة مجدّدًا. كنتُ على وشك أن أخبرها بأنّ نجم كاتيا هو الذي لا ينطفئ، لا يرغب أن ينسحبَ ليتركَ المكانَ شاغرًا في جوّانيّة القلب لامرأة أخرى قد تكون نيللي أو غيرها من النساء. لكن الحديث استمرّ في التعقيد لدرجة أنّنا لم نعد نفهم أنفسنا. كاتيا لغزٌ لم أتمكّن من فهمه، لم تكن هناك حاجة لحضورها على هذه المائدة. كانت كالقلم في يدي حاضرة دائمًا، كالنجم في السماء يستحيلُ الوصول إليه خلال مسيرة الحياة القصيرة للغاية.

لا بدّ أنّ نيللي أدركت بأنّي أتحدّث عن أخرى، لكنّها فضّلت عدم الفهم، كيلا تدفع فاتورة فضولها من كرامتها واعتزازها المفرط بأنوثتها. قد تتمكّن هذه المرأة من مسح ما تبقّى من ذكرى كاتيا، كانت على ما يبدو تسعى جاهدة لخلق عاداتٍ مشتركة بيننا، أن أدمن حضورها اليوميّ في نهاري. لا أدري إذا كان هذا كافيًا للتعويض عن مشاعر الحبّ وجلد الذات واستحضار الآخر الغائب بشكلٍ دائم.

- فلنذهب يا نيللي، أنتِ الليلة ملكة أحلامي.

قد يكون بوحي محكومًا بتأثير الكحول والنبيذ الذي احتسيته خلال العشاء، لكنّي وللمرّة الأولى شعرتُها قريبة منّي كما لم تكن يومًا من قبل. بدأت الأمورُ تأخذُ مجراها الصحيح، يبدو أنّ التعوّد وإدمان شخصٍ ما كما هو الحال مع نيللي قد أخذ بالتطوّر والتنامي، ونيللي من النسوة اللواتي يتعلقن برقاب الرجال ولا يتركنها حتى امتصاص ما تبقّى من مقاومة في شرايينها وعضلاتها.

نمنا تلك الليلة متعانقين، لم نمارس الجنس سوى مرّة واحدة، استنفذ التعب كامل قوانا، تبادلنا النظرات طويلا. نامت أرواحُنا قبلَ أجسادِنا. في تلك اللحظة بالذات ولدت فكرة روايتي الجديدة. العنوان ليس مهمًا لكنّي أدركتُ مسارَ الرواية وأخذ لساني يثرثر نيابة عن الشخصيات الجديدة، تشكّل العمود الفقريّ والوعي الذاتي للعمل لتكون الحكاية من جديد.

الإبداعُ كائنٌ عضويّ، يحتاج أن يتنفّس كي ينجو رغم الغبار وثقل الوقت والنسيان. هذا هو النمط الروائي الذي يشدّني دومًا. استيقظتُ باكرًا صباح اليوم التالي، أمسكتُ بالقلم وأخذتُ أكتبُ وأكتب، شعرتُ بأنّي أولد من جديد، أمارسُ الحياة بعد موت. قدّم لي فعل الكتابة طاقة عارمة لمواجهة المزيد من دفق الأيام، كي أواجه ذاتي وأعصر ما تبقّى من ذاكرتي ومقدرتي على القفز عبر الزمن حتى حواف سفينة نوح.

تجنّبتُ في مخطوطتي الجديدة حشر شخصيات كثيرة في مكان واحد كما هو الحال في عملي السابق، لديّ رغبة كبيرة بضمان أكبر قدرٍ ممكن من الحريّة لشخصيّاتي كي يتمكّنوا من تخليد بصماتهم.

سوّدتُ الكثير من الصفحات، مضى وقتٌ طويلٌ وأنا منكبٌ على الكتابة، استيقظتْ نيللي أخيرًا، وجهُها منتفخ لطول ساعات النوم. كانت فرحة حين أدركت بأنّي قد تخطّيتُ مرحلةَ العقم الأدبيّ الذي ألمّ بي منذ انتهاء عملي الأول. يبدو أنّ نشاطي الأدبي قد أوحى لها بتأويلاتٍ عديدة. أدركتْ بحاسّتها الأنثويّة أنّي بدأتُ أدمن وكرَها وبيتَها. وبتّ على شفا خطوات لنسخ عادات جديدة مشتركة بيننا، والحصول كذلك على مفتاح شقّتها.

- أعرف جيّدًا أنّ الكتّاب يكرهون أن يقرأ آخرون أعمالهم قبل الانتهاء منها.
- لماذا تسألين ما دمت تعرفين ذلك؟
- هناك دائمًا استثناءات. أجابت مبتسمة.
- طبعًا، لكن اليوم خالٍ من استثناءات، ما زال الوقتُ مبكّرًا لقراءة أعمالٍ جديدة غير ناضجة، شخصيات روايتي دون هويّة واضحة يا عزيزتي.
- بعد حفل توقيع "أرواح لا تنام" سأقرأ ما تكتبه حتّى وإن كان في مراحله المبدئيّة. هل أنت موافق؟
- حسنًا، كما تشائين، لكنّي أتشوّق لتذوّق قهوتك.
- آه، يا لك من رجل كسول، أنتم معشرّ الرجال تتقنون فنون الشكوى والتململ. ستنال قهوتك بعد قليل. قالت بمرح ظاهر، وكانت تعني كلّ حرفٍ محمّل في كلماتها المجنّحة. أخذنا نتصرّف كأعضاء عائلة واحدة. أخذ طيف كاتيا يختفي تدريجيًا من ذاكرتي، بات حضورها مقلا في الآونة الأخيرة، تعوّدتُ غيابَها، وقد أصاب بصدمة إذا ظهرت أمامي صدفة، أشعر كأنّ تيارًا كهربائيًا يهزّ خلايا جسدي كلّما مرّ طيفُها في مخيّلتي. أدركتُ الآن نعمة النسيان وأهميّته. ذكرياتُها باتت نادرة، ودفعتُ بدوري ثمن النسيان باهظًا. كنت قد مارست الخيانة كما يتقنُها الرجال، مارسها جسدي ومارستها روحي أيضًا، بإملاءات أنثويّة وشاءت هي ألا تسامح.

"ألا يمكنك أن تسامحيني يومًا ما يا كاتيا؟" لا أريدُ أكثرَ من ذلك، حاولي أن تخلّصيني من لعنة الشعور بالذنب طِوالَ الوقت.

- القهوة من فضلك. قطعت نيللي حبل أفكاري ووجومي بحضورها الوديع.
- رائحة القهوة تنعش القلم. شكرًا لكِ يا ألطف خلق الله.

تخلو القهوة من طعمها المميّز إذا لم يرتبطْ حضورُها بطقوسٍ يوميّة دائمة. الابتسامةُ والنظرةُ وحبّ الهال المطحون، كلّ هذا يجعلُ من تقديمِ القهوة حدثًا مميّزًا. القهوةُ ذاتُها تتمتّعُ بنكهات مختلفة إذا شربت في أوقاتٍ مختلفة وأماكن

مغايرة. لكنّ الفنجان الذي قدّمته نيللي سطرَ بداياتِ قصّته ومشواره، ولا أدري لماذا تصرّ نيللي على كشف جزءٍ كبيرٍ من صدرها حين تقدّم لي القهوة، كأنّها ترغبُ بربط هذا الطقس بصدرها الحَميم والمألوف لكلّ حواسي، وتغمزُ أيضًا بطرفِ عينها. تماحكني كلّما تمكّنَت من ذلك، تبدو أحيانًا مضحكة، لكنّي تعوّدتُها وأدمنتُها وهذا ما كنتُ أخشاه لحسن حظّها.

- نيكي، هل لي أن أخبرك بشيء؟
- نعم، قولي كلّ ما يخطر ببالك.
- أنت جذّاب حين تكتب.
- دعكِ من هذا العبث يا نيللي، حين أكتبُ أتحوّلُ لشخصٍ آخر. أصبح معلّمًا أو بروفيسور مملّ وأنانيّ. أتجاهلُ كلّ من حولي وأصاب بالكسل، أتفادى القيام بأيّ عمل طِوال الوقت. كيف يمكن أن أكون جذّابًا حين أكتب؟
- هل تجادلُ بمشاعر أنثى؟ إحساسي نافذ ولا يحقّ لك أن تعترض.
- حسنًا، ما دمتِ تصرّين على ذلك.
- أريدُك ان تثقَ بي يا نيكي، أرجوك.
- هذا أمرٌ مضحك ومحرج، هل هناك ضرورة لكلّ هذا الإصرار على الثقة والتسليم بالأمر الواقع؟ أنا لا أفهم وربّما لا أريد أن أفهم.
- أنتَ الخاسر في نهاية المطاف.
- حسنًا يا عزيزتي، لا تغضبي. أنا جذّاب ما دمت مصرّين على ذلك.
- جذّاب حين تكتب.
- فهمت، حين أكتب.

نيللي كانت مهتاجة طوال اليوم، لأنّها تؤمن كثيرًا بالإشارات والإيحاءات، وتعتبر ممارستي للكتابة والإبداع في بيتها إشارة ما، وأنا في حيرة من أمري. لا

أدري كيف عليّ أن أتصرّف تجاه نزواتها هذه، كلّ ما هناك أن لحظة الكتابة باغتتني هنا في بيتها، وهذا طبيعيّ فأنا أعيش معها وأقاسمها الفراش، النساءُ أنانيّاتٌ للغاية بكلّ ما يتعلق بعلاقاتهنّ العاطفية، كلّ شيء أو لا شيء.

تذكرتُ الليالي التي قضيتُها في الفندق الرخيص، حين داهمتني رغبة عارمة بتوزيع صفحات مخطوطة روايتي على الملأ قبل الانتهاء منها ليكملوا الحكاية. لكنّ الأمور تغيّرت كثيرًا، بقيتْ تلك الذكريات طيّ التاريخ. أنا الآن إنسانٌ مرتّب وأصرّ على ذلك. أفكاري ومشاعري أصبحت هي الأخرى مرتّبة أيضًا. هذا البيت الكبير يكفي لتخزين متاعي القليل دون التخوّف من ضيق المكان. أمامي هنا مساحاتٌ شاسعةٌ حدّ البذخ.

للمرحلة الانتقاليّة ما بين عملين آثارٌ عديدة، سلبية إيجابيّة تمدّ الكاتب بطاقة وحيويّة غير مسبوقة، لكنّها ضروريّة للغاية. لديّ رغبة وقناعة في الوقت الراهن للبقاء في ظلّ هذه المساحقة، ولا يمكنني عمل الكثير إزاء ذلك. يمكنني فقط القبول بهذه المرأة كما هي، والتأقلم مع هذه الوضعيّة دون الشعور بالدونيّة. كنتُ واثقًا من قدرتها على طرد شبح كاتيا حتّى الهاوية وما بعد ذلك. لكن إذا ما ظهرت يوما كاتيا محض صدفة في مكان ما..عندها، كيف سأتصرّف؟ هذا تحدٍّ كبيرٍ لمشاعري ولن أفكّر به كثيرًا، لم أكن بحاجة لخلق عادات مشتركة مع كاتيا، كلّ شيء بقي في حكم العفويّة. لم تكن هناك حاجة لمقدّمة، لقبلة أو لشهقة، كأنّ العالم بين يدينا تحدّث من تلقاء نفسه، ومع هذا، اختفتْ ولم تظهرْ منذ أن انفطر قلبي.

- لماذا تسهو وتسرح هكذا دون سابق إنذار يا نيكي؟ سمعتُها تقول عاتبة. أتحدّث إليك بمواضيع عديدة، أصارحك بكثير من الأمور وفجأة، تختفي بعيدًا عن الحدث والواقع. ما الحكاية؟ يختفي كيانُك ونظراتُك ويبقى جسدك مفرّغًا من حواسه وحيويّته. إذا كنت بحاجة لمساعدة يمكنك مصارحتي. أنا قادرة على تفهّمك أكثر من أيّة امرأة أخرى.

- المعذرة يا نيللي، لم أتمكّن من التخلّص من كلّ كوابيسي.
- كوابيسُك أكثرَ من كوابيسي، دعنا نجمعهم معًا في بوتقة واحدة ونمضي إلى جهنّم ما دمت ترفض جنّتي.
- لكنّي لا أبحث عن جنّة، بل أبحثُ عن مطهر. لا أريد التوجّه إلى جهنّم، وما زال الوقت مبكّرًا على الجنّة. يولدُ الإنسانُ محمّلا بخطايا أجيال سابقة ليورّثها لخلفه.
- لا، هذا كثير. دعِ الأطفال والأجيال في سلام آمنين، هؤلاء ليسوا جزءًا من جحيمنا ومطهرك.
- أنتِ لا تفهمين، قصدتُ أمرًا مختلفًا يا عزيزتي.

لماذا لا تكفّ عن فلسفة الأمور حتى التعقيد دائمًا؟ الحياةُ أبسطُ من هذا بكثير، دعنا نعيشها كما هي يا عزيزي.

- أنتِ محقّة، لكنّ عظمة الإنسان تتمثّل في محاولته الغوص في أعماق الأمور وسبر أغوارها. ولولا هذه المقدرة لما تمكّن من تطوير ذاته، والتسبّب بإشعال ثورات فكريّة.
- حذّرَتْني أمّي من المفكّرين وهي محقّة، سأدعُكَ تكتب الآن. بصراحة، بدأتُ أشعرُ بصداعٍ شديد بعد كلّ هذه الأحاديث. كلّما شعرتُ بأنّنا على وشك إذابة جبال الجليد بيننا، أتفاجأ بأنّ المسافة التي تفصلنا ما زالت كبيرة للغاية.

ستتركُ نيللي الغرفة على عجل بهدوء وكآبة، شرط أن تضمن بقائي في نهاية المطاف في هذا البيت، بغضّ النظر إذا ما كنت قد نمتُ بعيدًا عن أوراقي أو فوقها. المهمّ أن أبقى جزءًا من يومياتِها، لدرجة أنّها لم تتجرّأ على تكرار تجاربها الجنسيّة المثليّة، وكان من الصعب عليها أن تريكني لو قررت القيام بذلك ثانية.

فضلتُ الجلوس والصمت وشرب القهوة، أرهقني فعلُ الكتابة وجدليّتها المعقّدة. أصبح لديّ أخيرًا أبطالٌ جدد يؤرّقون راحتي ويفرضون وجودهم ويحثّون قلمي على زراعة الكلمات والمضيّ بالحكاية حتى النهاية. انتقلَ أبطالُ الرواية

للعيش في هذا المكان الشاسع، لكنّه بدا ضيّقًا لا يتّسع لهذا القدر الكبير من الشخصيّات المتفاعلة. أسماؤهم لامعة وخاضعة للتلميع، الشخصياتُ الافتراضيّة ترجوني الإسراع بتفعيل أدوارها المنتظرة. كلّ واحد يرغب ويصرّ على إظهار مواهبه الفريدة، في الوقت نفسه تخشى قلمي، كيلا أحوّلها لشخصيات عابرة، وهي بالطبع على حقّ، بوسعي محوَها وتحنيطها وتجميدها في عامل الزمن إلى ما شاء الله. بعضُها يعرفُ جيّدًا بأنّه مجرّدَ سائق عربة أو حمّال أو فنان أو محامي، لكنّهم لا يمانعون في ذلك، لأنّ الحياة جميلة حتّى في قاعها. هناك من سيتمكّن من الارتقاء ليصبح أميرًا للبلاد أو حاكمًا أو كاتبًا شهيرًا، أو ممثلا في أحد مسارح العاصمة أو حسناء تسلبُ ألبابَ الرجال، كلّ منهم يتوق أن يلعب دوره المرسوم والفضل لقلمي.

لكلّ هذا لم أشعر بالملل، كم هو جميل وصاخب أن تسطر بدايات رواية جديدة. لكن وبعد المضيّ في كتابة بعض فصولها، من الممكن أن تنقلب الأمور فجأة، قد يُصابُ القلم بالجفاف، ويصمت الحوار وتبقى الحسناءُ متعلّقة بشفاه حبيبها غير قادرة على تقبيله. كلّ شيءٍ في هذه الحياة يسعى للوصول إلى نهاياته، حيث السكينة الأبديّة، وأبطالي ليسوا استثناءً بأيّ حالٍ من الأحوال. لذا، تركتهم يتمرّدون في محاولة للمطالبة بخطط جديدة للبقاء على صفحات مخطّطي. قريبًا سيحلّ الهدوء المرتقب، ستخمدُ العلاقاتُ فيما بينهم، لكنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

* * *

أخيرًا حلّت الأمسية الموعودة ورأيتُ الكتاب بين يديّ، تصفّحته طويلا، أخيرًا حلّت اللحظة التي فصلتني عن أوّل كتبي وهو بمثابة ابن أو ابنة لي. الغلافُ الخارجيّ من الكرتون الخفيف، أمّا الصفحات فناصعة البياض مصقولة ثقيلة، صورتي في المربّع العلويّ الأيسر على الغلاف الأخير. تملّكتني لحظاتٌ من الغرور، أنا وروايتي. كائنان يغازلُ أحدُنا الآخر. لحظاتٌ خالدةٌ من الصراحة والتواصل، قصيرةٌ عابرةٌ لكنّها لا تُنسى وستبقى محفورةٌ في تجاويف الزمن.

حضر الحفلَ ثلّةٌ من الأصدقاء والمعارف الذين تربطني بهم علاقات جيّدة، وكانت ابنتي ديانا وليودميلا ما بين الحضور المتألّق، تتجولان جيئة وذهابًا. توقّعت حضورَ ستويانكا وكوستا أيضًا، ستويانكا التي اعتنت بي كما تعتني بحديقة وردها في أصعب لحظات حياتي، وكوستا الحاضر دومًا عند الضرورة، رجلٌ صلبٌ كجبل يعرف كيف يهادن الزمن ويهزم الريح عند الضرورة، ولا يتوانى لحظة عن تقديم المساعدة. كريستيان وسيلفيا لم يكونا بحاجة لدعوة، فهما من طاقم منظّمي الحفل. ميلِنا التي عصرتني كحبّة ليمون وجدت في نفسِها الشجاعة لتحضر وتشاركني فرحتي. أحمد ذو الشعر المتجعّد تضمّخ بعطرٍ قويّ بين الحضور، يرتدي قميصًا أبيضَ كأنّه هو الآخر يسعى للخلاص والصفاء، لكنّه لم يتخلّص من مسحة الحزن المستقرّة فوق تقاطيع وجهه كنقشٍ فوق عملة معدنيّة. جلس في مقعده في الصفّ الأوّل، ولم يتخلّ عن ابتسامته الباهتة والصادقة طوال الأمسية. اصطحب أحمد معه سيّدة تركت أثرًا في حياتي. إنّها فيارا. رافقها كيلا أخرج مع نيللي، وكنتُ مصرًا على حضورها بشكلٍ أو بآخر. تُرى، هل من الممكن أن تشعر نيللي بالغيرة من نسائي اللواتي لم تتمكن صفحاتُ النسيان من طيّهنّ؟ الوحيدةُ التي تربّعت سدّة الغياب هي كاتيا. الوحيدةُ التي تمنّيتُ حضورَها دون الآخرين هي كاتيا. أسعدني كذلك حضور العديد من الصحفيين وبعض وسائل الإعلام وقنوات التلفزة. بهرني هذا الحشد، جميعهم حضروا ليشاركوني فرحي ونشوتي وانتصاري الصغير.

انشغلتُ قبل يومين من الاحتفال بترتيب الكثير من الأمور الرتيبة، كنقل الكتب إلى الصالة، وتحضير كلمة أخاطب بها وأرحّب بأصدقائي وأحبّتي في الصالة. كلّ هذا الغرور والنشوة المصاحبة لتوقيع الكتاب كان أمرًا جديدًا بالنسبة لي. لم يكن لديّ تصوّر مسبق عن عدد الحضور، لكن هذا ليس بالأمر المهمّ. نيللي انشغلت طوال النهار، لم تتمكّن من الحضور حتّى الساعة الثالثة بعد الظهر. كانت هي متوتّرة أيضًا. رجتني ألا أذكر مساهمتها في تمويل الكتاب، علاقتُنا تطوّرت بسرعة كبيرة، رغبتْ أن تبقى في الظلّ أطول وقتٍ ممكن، ولم تكن علاقتنا

العاطفيّة سرًا على أحد. معظم الأصدقاء والمقرّبين يعرفون أنّي أقاسمها الفراش وأعيش معها تحت سقفٍ واحد. أصبحتْ جزءًا من يومي وحاضرة في فرحي وآهاتي، وهذا الواقع مريحٌ لها إلى حدّ بعيد، ربّما لأنّها أصبحتْ واثقة من أنّ رجلها يمضي أوقاتًا طويلة في بيتها، يتناول وإيّاها طعام الغداء والعشاء، أما الإفطار فموضوع يحتاج للدراسة والتمحيص، وذلك لاختلاف أوقات الاستيقاظ من النوم.

حضرتْ نيللي بعد الظهر وقبلها حضر العديدُ من الأصدقاء، وأنا اتحرّق شوقًا لمقابلة ديانا وليودميلا، اللتان حضرتا بالأمس للمشاركة في حفل التوقيع. أمضتْ ديانا وليودميلا الليل عند أقربائها في صوفيا، أخبرتني ليودميلا أنّ الصغيرة ديانا مرّت بوعكة صحيّة، لكنّها الآن على أحسن ما يرام، ومصرّة على مشاركة أبيها فرحته.

ارتدتْ ديانا ثوبًا بدت فيه أميرة صغيرة، حضرتْ على حين غفلة ورسمتْ فوق شفتيها ابتسامة أشرقت في كنف المساء البارد. الكثيرُ من الحضور يعرفون جيّدًا قدراتها الرياضيّة المميّزة، أحاطوا بها على الفور، عانقوها وأثنوا على جمالها وبراءة طفولتها، طرح عليها البعضُ أسئلة رياضيّة، لكنّها تمكنت من الهرب من بين أيديهم طلبًا للخلاص عندي.

- مرحبًا نيكي، مبروك يا بابا.
- أهلا بقمري الساطع. رفعتُها بين يدي:- أخبروني بأنّك مريضة يا صغيرة؟
- عندما أراك يغيب المرض يا أبي. أصبتُ بلفحة برد وتحسّنتُ كما ترى بعد أن شربت الأدوية.
- أنتِ إذًا من يهدّئ من روعي. كان عليّ أن أزورك وأهتمّ بك خلال مرضك يا صغيرتي.
- أريد أن أرى روايتك الآن لو سمحت.

- طبعًا، سأكتب لك بعض الكلمات، بهذا يصبح الكتاب ملكك وحدك. اتفقنا؟ كتبت لها كلمات ستفهم معناها يومًا ما، قرأتْها وكانت في منتهى السعادة، ثم انطلقت نحو ليودميلا المنهمكة في حديث متشعّب مع بعض المعارف في أحد أركان الصالة.

قبل الافتتاح بقليل جلس الحضور في أماكنهم، وكذلك مندوبو وسائل الإعلام والصحافة. أصرّتْ إحدى الصحفيات على إجراء لقاء صحفيّ قبل بدء الافتتاح، لعدم تمكنّها من الانتظار حتّى النهاية، سألتني عن فحوى الرواية وطرحت أسئلة أخرى شخصيّة وعامّة تدلّ على أنّها تقوم بعمل رتيب مملّ. لاحظتُ صعوبة إجراء حوار منطقي ثريّ مع إعلاميّ لم يقرأ العمل ولا يعرف الكثير عن حياة الكاتب. وزّعنا العديدَ من النسخ على مراكز الصحافة والمهتمّين وتولّت نيللي هذه المهمّة فهي خبيرة في مجال الترويج والإعلام، والفضلُ يعودُ لها لحضور هذا الحشد الكبير من الإعلاميّين. كنتُ على ثقة من أنّهم لم يفتحوا الكتاب إلا لماما لانشغالهم أو لمجرّد فرض التغطية الإعلاميّة، لذا تراني أجد العذر لهم.

السيّد ستانتشيف كان ضمن الحضور، وتأهّب لإلقاء كلمة، على الأرجح سيقرأ ما كتبه ونُشِرَ على غلاف الكتاب الخلفي. بحث الإعلاميون عن السيّد ستانتشيف وقدّم هو بدوره الكثير من المقابلات السريعة، تحدّث خلالها عن روايتي وامتدحني كثيرًا، جرع الرجلُ كأسين من النبيذ، تناول بعض الحلوى ثمّ جلس في المقاعد الأماميّة من الصالة.

جهّزتْ نيللي سيناريو عاجل ورائع، افتتح السيّد ستانتشيف الحفلَ بكلمة موجزة، ثم دعت نيللي إحدى الممثلات لقراءة بعض الفقرات من الكتاب، وعزف صديق فنان مقطوعة موسيقية على البيانو، قدّم فقرة مرحة ثمّ أتبعها بأخرى عاطفيّة. الحفلُ متكامل ومتنوّع، وقفتُ أنا بعد ذلك أمام الحضور، شكرتُ السيّد ستانتشيف وجميع الذين صاحبوا مراحل كتابة روايتي، ثم تركتُ

المجال لمن يريد التحدث أمام الميكروفون بكلّ حريّة، على أن يتبع ذلك تناول المشروبات والحلوى والبدء بشراء الكتاب وتوقيعه للراغبين.

في تلك اللحظات شاهدتُ الطفلَ الذي كنتُه واجمًا ينظر لهؤلاء الطارئين في حياتي. ظننتُهُ اختفى نهائيًا من حياة الرجل الناضج في ذاتي، المرهق الرحّالة والباحثُ دومًا عن سراب ظنّه حقيقة. الطفلُ في ذاتي يرغبُ بالحديث والبوح، انهمرتْ من عينيه دمعتان، تذكّرتُ والديّ اللذين لسببٍ ما لم يكونا ضمن المتواجدين في يومياتي، متى انقطع حبلُ الوصالِ يا ربّي؟ كنت قد نسيتهم في لجّة الواقع الخانق، وحيدان وغريبان بعد أن داهمتهم الشيخوخة. ما شأن كلّ هذا الحزن القائم في لحظة التجلّي هذه؟ هما يعيشان حياة هادئة مقارنة بحالة عدم الاستقرار التي ترافقني. أكره البقاء في الظلّ، أكره البحث طويلا عن ذاتي الأخرى، تلك التي تسعى لحو الاستقرار والسكينة، لأنّي باختصار ولدت متمرّدًا.

يبحثُ الإنسان جلّ حياته عن بعض التناسق بين الشخصيّات المختلفة التي تعيش في داخله:- نيكي، هل أنت بخير؟

نظرتُ في عينيّ متحدّثي وكان كريستيان، الفتى نفسه الذي بالكاد تفادى كارثة شخصيّة قبل حين. عاشقٌ مولّه غرقَ في عالم امرأة لا يعرف قلبُها رحمة، امرأة لا تشبعُ من هتكِ أفئدة الرجال. رغم سهولة التخلّص منها فالنساء كثيرات من حوله، لكنّ من الصعب عليه أن يستبدل عالمها الصغير العابث، من المستحيل على كريستسان أن يطوي ذكراها.

- أين سيلفيا يا صاحبي؟ هل هي بخير؟
- سيلفيا دائمًا بخير. نيكي، عليك أن تصعد ثانية إلى المنصّة، هيّا يا صديقي إنّهم توّاقون لسماعك.
- نعم، حان وقت الظهور، كأنّي مررت خلال هذا النفق الطويل من قبل.

- هيّا يا صاحبي، أتمنّى لك التوفيق. اعتليتُ المنصّة، نظرتُ إلى الأعين الأليفة التي تحدّق بي، جميعهم يبتسمون، ديانا تبتسم بين الحضور، معجبة وفخورة حدّ الجنون بوالدها.
- بحثتُ طوال حياتي عن شخوص ولحظات حميمة مليئة بالصراحة المباشرة، أكذب عليكم بجدارة إذا أخبرتكم بأني أحبّكم فقط، هكذا مجرّدة. تربطني مع كلّ واحد منكم علاقة قويّة بل ومقدّسة. أحيانًا تكون ضعيفة غير مرئيّة كالشعرة، وأحيانًا أخرى أجدها قويّة كالجلطة، كانفجار القلب أو أشدّ من ذلك بقليل. الحبّ يبني الجسور ويخنقنا في الوقت نفسه. القلبُ الجارف قادرٌ على عصرِ جينات الفكر البشريّ ببضع ليترات من الدمّ، السائل الأحمر الممتدّ عبر الأوردة الدمويّة للجسد. أحبّكم وأكرهكم ذات الوقت، لأنّكم لستم عابرون في حياتي. هذه هي المشاعر البشريّة الحقيقيّة. يجمعُنا أكثرَ من هذا الكتاب، لكنّه بدوره ترك لنا الفرصة لنعيش لحظة خالدة في عمر الأبديّة. هذه اللحظةُ ستحملُ عبرَ الزمنِ المرتحلِ عواطفَ وأفكارَ وغرورًا واعترافاتٍ لا تنتهي. كلّ هذا في مكان واحد الآن وهنا. أعذروني، لا شكّ أنّي تفوّهتُ بالكثير من سقط الكلام، فانا عاطفيّ ومستثار بفعل هذه العلاقة المتوثّبة. هذا العملُ الإبداعيّ كان عبئًا كبيرًا عليّ. لكنّي لم أتوقّع كلّ هذا الاهتمام. محضُ أنانيّة مفرطة إذا لم تحوِ دفّتا الكتاب رسالة لكلّ قارئ ولكلّ واحد منكم، وإلا، لا مبرّر لكلّ هذا الغرور. ارتقائي لهذه المنصة أمامكم ملزمٌ، فأنا رجعُ القارئ من حولي. حضوركم شرف كبيرٌ لي، فأنتم من شحن هذه الرواية بالحياة. هي ابنتي التي لم تلدها امرأة لكنّها جاءت بعد مخاضٍ عسير طويل. امرأة بل قافلة من النساء اللواتي قدّمنَ لي كلّ ما يمكن تقديمه. النساءُ في منتهى العطاء والسخاء الإنسانيّ، ليودميلا، ديانا، فيارا، نيللي، أنا رجلٌ محظوظ وسعيد للغاية. أحاطتني النساءُ طوالَ حياتي كجوقة موسيقيّة نسّقت مدارات حياتي. نساءٌ في منتهى الجمال، يملأن إحداثيات الوقت بالحنان والثقة والحبّ، وأنتَ يا أحمد، جرحُك هو جرحي الغائر، أرجو أن يتمكّن

عراقك يومًا من إيجاد الطريق نحو الخلاص، أتمنى أن يتوقّف يومًا عن النزف. كريستيان يا رفيق العمر، أشكرك من عمق قلبي على سعة صدرك وطيبتك العارمة، إذا كان لا بدّ لي أن أشكر كلّ من يستحقّ فلن تكفي هذه الأمسية بطولها، ستشعرون بالملل، لهذا أفضّل أن أترككم بصحبة الموسيقى، وهي أفضل تعبير منّي دون شك.

غادرت المنصة وسط تصفيق حار، انبهر الحضور بخطابي وليتهم عرفوا بأنّه خطابهم غير المدوّن في قلبي. لم أدرِ ما أقول في بداية كلمتي، شعرتُ بحرج كبير، لكنّ الكلماتِ انطلقتْ بعفويّة حينَ رأيتُ أعينَ الأصدقاء والحضور متعلّقة بي دون رقيب. لديّ ما أقوله لكلّ واحد منهم على حدة. جلستُ بعد ذلك في إحدى زوايا الصالة، كانت لديّ الرغبة أن أمسح دمعي بعيدًا عن هذا الجمع.

حتّى في هذه اللحظة أفتقدُها. هي الوحيدة التي كان يجب أن تكون جالسة في المقعد الأول ُكاتيا". المرأة التي لم تغادر مخيّلتي لحظة واحدة طوال الأمسية.

أحبّك يا كاتيا، إذا لم يكن قد قدّر لي أن أراك في هذه الدنيا فلا بدّ أن أقابلك في فضاءات الآخرة ما بعد الأبديّة. إذا قدّر لي أن أصلَ مداخل الأبديّة قبلك فاعلمي أنّي بالانتظار. لن أدخل هناك دونك، سأتحدّى أجنحةَ الملائكة وأستغيثُ بالأنبياءِ لأبقى على حدود الآخرة حتى حضورك. لا تستعجلي الحضور إلى هناك، أتمّي مشوار حياتك برونقِه وعبقِه. تحلّي بنعمة النسيان، لا تفكّري بي كثيرًا، لقد سمحت لنفسي بخطيئة لا تكفي حياة واحدة لدفع ثمنها، لهذا أكملي مشوار الحياة بدوني.

انتهى الأداءُ الموسيقيّ، عندها أبدى كريستيان رغبة بالحديث. كان منفعلا وبالكاد خرجت الكلمات من فمه. للمرّة الأولى سمعتُه يتحدّث بلكنة مفجعة، لكنّه تحدّث بصراحة وصدق. صفّقنا له طويلا وكان أوّل المطالبين بالحصول على الكتاب وتوقيعه من الكاتب مباشرة.

حصل كريستيان على الكتاب، لكنّي استغربت حين شاهدته يترك قطعة مالية كبيرة القيمة. بيعت الكثير من النسخ وكنتُ أرغبُ بتوزيعها مجانًا، لكنّ قلة رضوا بذلك. تمكّنت من توقيع بعض العقود لتوزيع الكتاب في المكتبات وعبر الانترنت. وضعت تلك الليلة نقطة البداية لمهنتي ككاتب متفرّغ.

انتهى كلّ شيء، ذهبتُ مع المقربين إلى نادٍ قريب لنكمل احتفالنا بظهور الكتاب إلى دائرة الضوء. اجتمعنا وديانا ولوسي ونيللي وكريستيان ومجموعة أخرى من الأصدقاء، كنتُ في منتهى السعادة، بعد أن أصبحتُ أبًا لمولود جديد، أصررتُ على أن تكون ديانا أميرة السهرة حسب مفاهيمها، رجوتُ الجميعَ أن يتركوها وشأنها، وألا يشغلوها بالرياضيات والمسائل المعقّدة، أمّا هي فحصلت على عشاء فاخر وكوكتيل كبير من الفراولة والشوكولا.

أخبرتني لوسي بأنّ ديانا تعوّدت أن تنام مبكّرًا. وافقتُها الرأي، ودّعتا الجمعَ وانطلقتا بعيدًا عن النادي. كان عليهما أن يغادرا إلى مدينة بلوفديف صباح اليوم التالي. لوسي لم تدرك بالطبع الآثار التي تركتها زيارتها إلى القرية، ولا يمكنني تحميلها ذنب فراق وهجر كاتيا. لكنّي حرصتُ على أن تغادر عالمي الرجوليّ نهائيًا، وأن لا تتجاوز دورها كوالدة ديانا.

أعصابي متوتّرة طوال الوقت، قد تكون ردّة فعل طبيعيّة بعد المرور بتجربة الظهور وتسليط الأضواء بكثافة على شخصي، الكتابُ هو طفلي الحقيقيّ الأوّل، وكانَ للحدثِ دور كبير في المستقبل المنظور. عليّ أن أحذر الكحول إذا أعلن جسدي استقالته وتمرّد هذا المساء، وعلى وعيي البقاء متحفّزًا طوال الوقت، كي يبقى أثر هذا الحدث أطول وقت ممكن. لكنّ كأسين من النبيذ كفيلتان لتغييب هذا الحضور وتنشيط النعاس في خلايا جسدي. رقصتُ بعد أن تناولت النبيذ، تحدّثتُ بكلماتٍ غير مترابطة، لكنّ الآخرين كانوا في وضع أسوأ منّي.

تقدّم الوقتُ ولا بدّ من إنهاء الأمسية، نيلي كانت لطيفة طوال السهرة، وحريصة على تلبية كافّة طلباتي. تجلّت رغبتي في تلك اللحظة بالعودة إلى البيت وممارسة النوم حتى وقت متأخر من الأيام التالية. استمرّت نيللي بمداعبتي، كأنّي

عريسٌ متوّج، كأنّنا لم نلتقِ منذ قرن من الزمان، أخيرا سمعتُ أحدَ الحضور يتفوّه بكلمات انطبعت في ذاكرَتي طويلا "الزمنُ يقتلُ العاطفة". من قالها؟ نظرتُ في وجوههم ولم أتمكّن من معرفة صاحب هذه العبارة. لكنّ سلطان النوم تبخّر على الفور. هناك من استنفذ عاطفته وطاقته وهذا نذير شؤم. تُرى، ما الذي يخبّئه نهار الغد؟

بعد لحظات سمعتُ كريستيان يردّد العبارة بصوت خافت، قرأتُها على شفتيه. ذاك الفتى اجترّ علاقة غراميّة قتلت في روحه مشاعرَ الوفاء والراحة وبات أسير عادات محبوبته قاسية القلب. نظرتُ إليه وقلت:- يا لها من حكمة يا كريستيان.

- هذه ليست حكمة، بل حقيقة وواقع. من الأفضل أن ندرك ذلك مبكّرًا نحن معشر الرجال يا عزيزي الكاتب.

يبدو أنّ كريستيان يمرّ بأزمة عاطفيّة حادّة، وقد يتواجد على شفا أزمة جديدة من الجنون. هل يمكنه النفاذ من هذا المأزق ثانية؟ قد أكونُ واهمًا في شكوكي، لكنّ شيئًا ما يعتمل في روح هذا الشاب ويخيفني.

- دعنا نمضي يا كاتبي المفضّل. قالت نيلي ووقفت لتوديع الحضور على عجل. كنّا مرهقين جميعًا وبحاجة للحصول على قسط من الراحة، وقبل أن ننطلق، نظرتُ إلى عينيّ سيلفيا، تلك الأفعى الحسناء التي تمارسُ طقوس الحياة والخيانة دون حرج. رأيتُ شيطانًا يطلّ بوقاحة من عمق عينيها.

بعد أمسية كهذه، كان من المتوقع أن نخلد فورًا للنوم، لكن اتّضح لي بأنّ أفعى أخرى تتوق لإخماد شهوتها في حدائقي، بدت نيللي مستثارة، وبعد الانتهاء من الجولة الأولى طالبت أن نعيد الكرّة، لكنّي رجوتها بنظرة طويلة. عندها ضحكت وقالت "تصبح على خير، جهّز نفسك لنزال الصباح". نامتْ للتوّ دون تردّد، أدركتُ ذلك حين سمعتُها تشخر. لا، لن أتمكّن من فهم النساء أبدًا، ستبقى الأنوثة لغزًا معقّدًا لمدارك الرجال.

نهضتُ من السرير، وقفتُ عند الشرفة، الغيوم متلبّدة في أصلِ السماء، والرياح تهبّ شمالية، ومن بعيد، أخذ المطر يطرق الشوارع وسقوف البيوت. لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى وصلت الأمطار إلى حيّنا. المطرُ يهطلُ بزاوية منفرجة بفعل الريح، يلفحُ الوجهَ ولا تنفع المظلات تجاهه. لماذا غالبًا ما تعاندُ الطبيعة رغبتنا بالحياة والحصول على حزمة من أشعّة الشمس؟ ترغبُ السماءُ أن تخبرني شيئًا ما غاب عنّي آنذاك، ربّما وفي تلك اللحظة تحاول جاهدة الإجابة على أسئلة كريستيان الوجوديّة، "الوقتُ يقتلُ العاطفة". قد أكونُ مخطئًا، لكنّ كلمات كريستيان كانت مرتبطة برقصة الشيطان العابثة في بؤبؤ سيلفيا.

حاولتُ الاتّصال بكريستيان، لكنّ الطرفَ الآخر بقي صامتًا. لا أحد يجيب على مناجاتي ومخاوفي. عندها تذكّرتُ بأنّي أملكُ رقم هاتف سيلفيا الجوّال. سألتُها برهبة:- لماذا لا يجيب كريستيان على مكالماتي؟ هل أنتما بخير. عندها قالت سيلفيا وسط عاصفة من البكاء والعويل.

- كريستيان انتحر ولا أدري إذا كان بالإمكان إنقاذ حياته.
- ماذا! هل أنت جادّة فيما تقولين؟
- نعم، ألقى كريستيان بنفسه من الشرفة. حاولتُ عندها أن أتذكر رقم الطابق الذي يقطنه كريستيان. إنّه الطابق الرابع، هذا سيّء، لكن من الممكن إنقاذ حياته.
- أين أنتما الآن؟
- حضرت سيارة الإسعاف على الفور. نحن الآن في قسم الطوارئ، كريستيان يتواجد حاليًا في غرفة العمليات.
- سأحضر على الفور.

***

تركتُ رسالة قصيرة لنيللي وسارعت بالذهاب إلى قسم الطوارئ في صوفيا. تملّكني إحساس قويّ بأنّنا قد خسرنا كريستيان. الغريبُ أنّه أخفى عنّا

مظاهر العاصفة التي تجتاح قلبه في الآونة الأخيرة. بدا الأمر وكأنّه مجرّد اكتئاب ومشاعر سوداويّة قد تكون عابرة، لكنّ الانتحار كان مفاجأة كبيرة يصعب قبولها. كريستيان تعامل بحكمة مع طريقة حياة سيلفيا التي استمرّت تقتله ببطء يومًا بعد يوم. كيف لم تلحظ سيلفيا هذه البوادر؟ كانت غارقة في أنانيّتها المفرطة، وغير قادرة على رؤية وتمييز الطريق الوعر أمامها، فاتها التعرّف على العلامات الفارقة من حولها. عيناه تحدّثتا وباحتا بالكثير ليلة البارحة، لكنّها أمسيتي وفقدت القدرة على التنبّؤ بالعاصفة القابعة على مدى ساعات معدودة.

- لماذا فعلتها يا كريستيان؟ الانتحار مرفوض يا صديقي. طرحتُ الأسئلة الواحد تلو الآخر، لكن دون فائدة. لا إجابات في الأفق وباتت حياته رهن الأنابيب وأجهزة التنفّس الاصطناعي. رغبتُه بالموت والخلاص على ما يبدو كبيرة. الوقتُ بات متأخّرًا لتقديم المساعدة، فعلها دون أن يفسح لنا المجال لذلك.

جلستْ سيلفيا في الرواق الطويل في مركز الطوارئ، واجمة صامتة ومفجوعة. وما إن رأتني حتّى ألقت برأسها على كتفي مختنقة بالدموع، بكاؤها لم ينقطعْ طوالَ الوقت، قالت بعد لحظات حسبتها الدهر كله.

- لماذا يا نيكي؟ هل من الضروري وقوع هذه المأساة؟ لا أريد أن أفقده. الألم يعصرني، أنا أتألّم يا نيكي، أنا أختنق. بحثتُ في ذاتي عن كلمات تقدر على تهدئتها وتطييب خاطرها، لكن كيف يكون لي ذلك وقلبي يعتصر ألمًا أيضًا.
- كيف هو الآن يا سيلفيا؟
- يؤكّد الأطباء بأنّ فرص نجاته ضئيلة للغاية. الأمل بين يدي الله، وقع كريستيان على رأسه ورقبته وتآذى كثيرًا..
- متى أدخل إلى غرفة العمليات؟
- منذ قرابة الساعتين. هناك طاقم طبّي مختصّ يجري عمليات جراحية للعديد من أعضاء جسده، لكنّ رقبته..هدأت سيلفيا قليلا، ثمّ واصلت البكاء بصوت خافت، وتقوقعت عند زاوية المقعد الخشبي الطويل.

- سيلفيا، عليّ أن أسألك، هل أنتِ السبب في هذه الفاجعة؟ أعرفُ أنّ الوقت غير مناسب لطرح مثل هذا السؤال. لم أتمكّن من تمالك نفسي، رغبتي شديدة لمعرفة المزيد. نظرتْ إليّ عاتبة، لكنّها سرعان ما طأطأت رأسَها. كانت تبحثُ عن كلمات مناسبة للدفاع عن نفسها، أو للتعبير عن ذاتها، بعد أن فات الأوان لحماية كريستيان.
- هل تريد أن تجعلني أشعر بالذنب؟ أنا مجرمة وقاتلة، هل يرضيك هذا الاعتراف؟
- لا أدري. أخبريني، هل أنتِ السبب وراء انتحاره؟ لماذا عدت إليه يا سيلفيا؟
- أنا صاحبته منذ سنوات. هو يعرف جيّدًا خطاياي ونقاط ضعفي ومخاوفي، أنا لست مثاليّة، لكنّي غير قادرة على تغيير نفسي. أنا هكذا، أحيانًا أكون رقيقة طيّبة وأحيانًا أصبح شرّيرة. لكنّي لست قاتلة، لستُ وحشًا في ثوب امرأة، هل تفهمني؟ المصيبة أنّ شخصيّته ضعيفة وحالته النفسيّة غير ثابتة. كريستيان يعاني من أمراض وعقد نفسية عديدة..
- كفى يا سيلفيا، أرجوك. هذا الرجل يعشقكِ حتّى الفناء، وها أنتِ ترين بأمّ عينك نتيجة هذا التعلّق، بات الطريقُ للفناءِ مفتوحًا أمامه.
- أنا أحبّه، أحبّه. أقسمُ على ذلك.
- نعم، أفهمك جيّدًا. دعينا نشرب القهوة بعيدًا عن المستشفى. كريستيان سيبقى في غرفة الإنعاش على ما يبدو لفترة طويلة بعد الانتهاء من العمليات الجراحيّة.

ابتعدنا عن المستشفى وجلسنا في مقهىً قريب. كنتُ أجهل في تلك اللحظة حقيقة مشاعري تجاهها، وإذا كنت أكرهها أم آأسف لحالها، يبدو أنّها قد أدركت حجم خسارتها حين تيقنت بأنّها قد خسرته إلى الأبد. ماذا سيتبقّى منه إن بقي على قيد الحياة؟ جسدٌ مشلولٌ معطوب، شبهُ إنسان. يا لها من نهاية لقصة حبٍّ عاصفة.

- كريستيان هو حياتي يا نيكي، الآن أدركتُ حجم خسارتي حين بات بعيدًا عنّي. مضى كريستيان وحيدًا في طريق الأبديّة.
- خلال ساعات معدودة لاحظتَ أنّ سيلفيا قد شاخت وبلغت قدرًا من الحكمة المتأخّرة والباهظة الثمن، فقد بؤبؤا عينيها بريقهما المتأجّج، فقدت جموحَها الذي لم يغادرها لحظة. يقف أمامي إنسانٌ محطّمٌ وروحٌ خاوية.
- سيحقّقون معك يا سيلفيا.
- أنا التي قتلته يا نيكي، سأعترف بكلّ شيء. اعتقدتُ أنّ لعبة الحبّ سهلة وعابرة، قتلتُه قبل أن يقرّر رمي نفسه من النافذة بوقت طويل. جرعتْ سيلفيا كأس الفودكا دفعة واحدة، خشيتُ أن أطلبَ لها المزيد، لكنّها لم تنتظرني أن أفعل ذلك، بل طلبت كميّة مضاعفة هذه المرّة.
- لن تتمكّني من رؤيته ثملة، لن يسمحون لك بدخول المستشفى وأنت على هذا الحال.
- تقصد لأرى ما تبقى من كريستيان، حتّى لو تمكّن من العيش مجدّدًا لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه. انكسرَ الكثيرُ في رحلة العمر، اليومَ حلّت اللعنة على روحي. أنا من سيحترق في الجحيم وليس كريستيان. أنا من يجب أن يدفع الثمن في العالم الآخر. هكذا فقط يمكنني أن أشتري خطيئة حياته أو مماته.
- يبدو أنّ الكحول قد أثّرت كثيرًا على وعيك، أنتِ ثملة وما تقولينه كلام فارغ لا معنى له يا سيلفيا.
- كنتُ ثملة في الماضي، الآن فقط استيقظتُ من غيبوبتي. ليتني أقدرُ على فقدِ ذاكرتي أو التخلّي عن هذه الصحوة.
- حسنا، هذا يكفي، دعينا نذهب لنرى ما استجدّ في المستشفى. لا بدّ أن العمليّة الجراحيّة قد انتهت. شددتُها من يدها وانطلقنا مغادرين المقهى، يبدو أنّ الكثير من أيّام التعب والإرهاق والقلق بانتظارنا، حتّى توضّح حالة

كريستيان. بقينا في الانتظار ما يقرب نصف الساعة في الرواق المؤدّي إلى غرفة العمليات. بعد ذلك، تقدم أخصّائي الجراحة وقال:- مرحبا، هل أنتم أقرباء الشاب؟

- أنا خطيبته، كريستيان شاب إيطالي وليس له أقارب في البلد. لم أتمالك نفسي وسألته.
- هل سينجو يا دكتور؟ نظر إلينا بصمت وكآبة وأجاب.
- سقط على رأسه وإصابته بالغة. هناك تفسّخ في الأوعية الدمويّة، على أيّة حال فعلنا ما بوسعنا لإنقاذه، لكن عليكم أن تعرفوا أن فرصة نجاته ضئيلة للغاية، هذا إذا تمكن من العودة إلى وعيه.
- غيبوبة؟ إلى متى يا دكتور؟ صاحت سيلفيا بقلق.
- نعم، هو الآن في حالة غيبوبة عميقة، وربّما أسوأ من ذلك بكثير. كريستيان من الناحية العمليّة ميّت، يتواجد في حالة موت سريري، وسيبقى على قيد الحياة بفضل الأجهزة فقط. لا بأس أن تخبروا أهله في إيطاليا ليقرّروا ما يجب القيام به بهذا الخصوص. ما اسمك سيّدتي؟
- سيلفيا غيورغييفا.
- عليك أن تملأي بعض البيانات لو سمحت. سيقوم رجل الشرطة المناوب باستجوابك، لا تغادري قبل ذلك. أعتذر، لكن لا بدّ من هذه الإجراءات.
- هل يمكنني البقاء معها يا دكتور.
- طبعًا، من الأفضل أن تتناولي بعض المسكّنات. سيساعدك هذا على تحمّل وقع المأساة. في الأثناء طلب طاقم المستشفى من الطبيب الأخصّائي الحضور على الفور، لإنقاذ زوجان تعرّضا للحرق وتنشّقا الدخان إثر اندلاع حريق في منزلهما. زوجان فاجأهما انفجار اسطوانة غاز وهما نائمان في السرير ولم يشعرا بالحريق المشتعل في المنزل، وقد يكون الحريق الداخلي المعتمل في روحيهما وجسديهما أكبرَ وأعظم.

تملّكتني رغبة بأن أسألهما إذا ما أطفآ رغبة الامتلاك والتوحّد قبل الحريق أو في أثناء اندلاعه، وبقي الزوجان أكثر المصابين تحبّبًا للطاقم الطبّي، حتّى رجال الإطفاء كانوا يأتون بين الحين والآخر لزيارتهما في المستشفى. تمكّن الفريق من إنقاذ حياتهما رغم حروقهما الخطرة.

- مرحبًا يا كريستيان، فعلتَها أخيرًا. شعرتُ لأكثر من مرّة بأنّك أصبحت على مسافة قريبة من مداخل العالم الآخر. أعرف أيضًا أنّك تسمعُني جيّدًا يا صديقي.

حدّثته مطوّلا وسيلفيا قابعة إلى جانبي متجهّمة صامتة، تمسح وجهه بيدها الرقيقة ودموعها تسيل ساخنة على خصلات شعره. كان لديّ إحساس بأنّ كريستيان سيفتحُ عينيه في لحظة عابرة ليهمس مندهشًا "أما زلتِ هنا يا سيلفيا؟ مرحبًا من فضلكم" تلك كانت عبارته المفضّلة. لكنّ صمتَه استمرّ طويلا، لا بوادر ليقظة مبكّرة. كنّا نستمع واجمين لصوت الجهاز يرتفع وينخفض ضاخًّا الهواء إلى رئتيه، ثم يسحب ثاني أكسيد الكربون من جسده.

الغيبوبةُ هي الوجه القبيح للموت، الغيبوبة تتركك معلقا ما بين عالمين دون وعود محدّدة. ذهبتُ للطبيب طلبتُ منه أن يخبرني بحقيقة حالة كريستيان. تنهّد الطبيبُ بحرج قبل أن يجيب.

- تأتينا في هذا القسم كلّ لحظة الكثير من الحالات الصعبة والحرجة، ما بين حرق وإصابة بطلق ناري أو غرق في مياه مسبح. يزيد من حجم المأساة وللأسف، تأقلمنا مع حدث الموت، تقبّلنا له واعترافنا به جزءٌ من مسلمات المهنة.

لم يجبْ عن سؤالي مباشرة لكنّ ملاحظته كانت كافية للدلالة على حالة كريستيان المرضيّة. الطبيبُ بالطبع لا يمكنه أن يقدّم شهادة بالموت أو الحياة ولا حتّى ضمانات بتطوّرات وضعيّة مريضه الغارق في الغيبوبة، يمكن فقط تقديم توقّعاته بناءً على البيانات. قام الطبيب بكلّ ما هو مطلوب، وما تبقّى محض

كيمياء وبيولوجيا ويد القدر النافذة. لا أدري إذا كانت روحه راغبة بالعودة لإحياء خلايا الذاكرة التي أنهكته فترة طويلة، أم إنّها تفضّل المضيّ نحو الأبديّة.

التغيّر الذي طرأ على شخصيّة سيلفيا كبيرٌ للغاية، كانت تمضي ساعات طويلة إلى جواره دون حراك أو شكوى، دون أن تطلب شيئًا، كأنّها على وشك الرهبنة. أصبح لحياتها أبعاد جديدة، وكأنّها ترفض ممارسة الحياة الطبيعيّة دون كريستيان. كانت تعرف أنّه من المستحيل أن تجد رجلا آخر قادر على القبول بكلّ عيوبها وإيجابيّاتها وخصوصياتها وخياناتها، سيلفيا ستبقى ملكته غير المتوّجة حتّى في غيبوبته. اعتبرت سيلفيا علاقتهما مجرّد لعبة شدّ حبل، هي الطرف الرابح المدلل دومًا في هذه المقامرة. أسقتْهُ أكثرَ من مرّة كأسًا مُرًّا، عذّبته، جلدتْهُ، بل تجسّدت آلة التعذيب البشريّة التي لا تعرف الرحمة، لكنّها فُجِعَتْ حين فضّل رفيق دربها المضيّ نحو الأبديّة بدلا من البقاء إلى جانبها. قفز نحو الجحيم أو المطهر أو النعيم بعيدًا عن ظلّها. تخلّى عنها وأبقاها متعلّقة به خلال رحلته التي استمرّت لعدّة طوابق. أخبرها بصراحةِ الموتِ بأنّه لم يعد قادرًا على قبول فهمها للحبّ. ترك لها جسدًا يذكّرها بحضوره، لكن وعيه بات بعيدًا عن عالمها الأنثويّ. كان كريمًا معها حدّ الألم، غفرَ لها كلّ هفواتها وتصاحَبَ مع رجالها وعشّاقها، قبلَ هذا الهوان دون جدال، لكنّ العبء العاطفيّ قضى عليه مع سابق إنذار تعذّر عليها وعلينا قراءته. كان من المستحيل أن يتحمّل هذا القهر خطوة أخرى إلى الأمام.

انكسرتْ سيلفيا كزجاج مرآة تحطّم على أرض صلبة، وعليها منذ اللحظة جمع كِسَر وجهها لسنوات طويلة، أن تحاول أن تنسى، تنسى. جسدُها يذوي، أنكرت الابتسامات، حرّمتها على وجهها، أبعدت جميع الرجال عن حياتها، لاذت بالصمت ناذرة نفسها لما تبقى من كريستيان. أليس هذا غريبًا أن تعلن الوفاء والإخلاص له بعد أن ركب سفينة الغياب. البردُ يحاصرُها، قلبُها تحوّل إلى قطعة من الجليد، لن تطوّق يداه الباردتان جسدَها، لن يمتلئ كيانها الأنثويّ بالدفء لحظة واحدة بعد الآن.

- كريستيان، أجِبْني، أنا العاهرة الغبيّة، لم أجد الشجاعة لأحميك منّي، من ذاتي الأنانيّة. هل يمكنك أن تعود لحظة واحدة، يومًا واحدًا إلى عالمي؟ لا أريد الكثير يا كريستيان. أنا التي كنت قادرة على تحريكك كبيدق، أصبحتُ غير قادرة على سماع كلمة واحدة من فمك يا حبيبي. لن أقبلَ باختفائك هكذا بهذه السهولة، كأنّك دفق ماءٍ سال من ارتفاع شاهق وتبعثر على صخور مدبّبة. لا تفعلها يا رفيقي، عُد يومًا إليّ بعد عام أو عشرة، عُدْ يوما واحدًا إلى حضني البارد الميتّم، أرجوك.

ربّما سمع كلماتها ورجاءها، لكنّ المكان الذي يتواجد فيه الآن أكثر دفئًا من عالمها، اتّخذ قراره ولا عودة عن ذلك. من الصعب أن تعيده كلماتُها وصلواتُها ودعواتُها.

زاره العديدُ من الأصدقاء، دون أن يتحدّثوا معه، اكتفوا بالتعبير عن أسفهم، أمضوا بعض الوقت، عشر دقائق، نصف ساعة أو أكثر ثمّ مضوا إلى أعمالهم ومشاغلهم بعيدًا عن حرم المستشفى دون عودة في أغلب الأحيان.

اتّصل فيما بعد صديقُنا المخرج أنطونيو، طلبت منه أن يخبر أهله في إيطاليا بحقيقة ما جرى لكريستيان. كان لا بدّ من اتخاذ القرار المناسب.

أنا في حيرة من أمري. تُرى، ماذا يمكنني أن أفعل إذا أسلم كريستيان الروح؟ هل ندفنه هنا في صوفيا أم نعيد جثمانه إلى إيطاليا ليُدفن في مسقط رأسه. تسبّب لي كريستيان بعناءٍ كبير في حياته وفي غيبوبته وفي مماته على الأرجح. لم يستشِرْ أحدًا حين قرّر المضيّ في طريقه وحيدًا، لم يأخذ بالاعتبار هواجسَنا وتخوّفاتِنا واحتجاجاتِنا ومحبّتِنا له، وكنّا دون شك رافضين رحيله حتّى اللحظة الأخيرة.

تعرّفتْ نيللي على كريستيان منذ فترة وجيزة، لكنّها تمكّنت من فهم روحه الشفّافة. ما حدث كان صدمة لنا جميعًا، لكن ومع مرور الوقت بدأنا نتعوّد

اختفاءه من حياتنا رغم وجوده في المشفى على بعد دقائق بالسيّارة. طلبَ أقرباؤه إعادته لإيطاليا، لكنّ سيلفيا تمكّنت من إقناع الطبيب بإبقائه في غرفة الإنعاش، لأنّ نقله كان يعني باختصار الإعلان الرسمي لوفاته. على أيّة حال، لا بدّ من اتّخاذ قرار نهائيّ بخصوص وضع كريستيان القانوني. بقاؤه في هذه الوضعيّة مكلفٌ من الناحية الماديّة، وسيلفيا على استعداد أن تبيع كلّ ما تملك للحفاظ عليه كما هو. وكانت تردّد مطنبة بين الحين والآخر:- أرجوكم، دعوا الأجهزة تعمل.

***

سرعانَ ما نسينا وضع كريستيان وغيبوبته الدائمة في المستشفى. أمّا سيلفيا فقد رهنت حياتها لخدمة ما تبقّى من حياته الدنيويّة. في الوقت نفسه أولت وسائل الإعلام اهتمامًا كبيرًا بشخصي بعد نشر الرواية، أخذتْ قنواتُ التلفزة تدعوني للمشاركة في العديد من البرامج الثقافيّة والاستعراضيّة، تجنّبتُ طوالَ الوقتِ الحديث عن علاقاتي العاطفية، لتأكّدي من أنّ كاتيا باتت على معرفة بنجاحي وتعرف كيف تجدني بسهولة إذا رغبت بذلك. كنتُ على ثقة من أنّها قادرة على الحصول على رقم هاتفي إذا شاءت. تركتُ في أحد البرامج عنواني الالكتروني رغبة منّي بتسهيل مهمّتها، ورغم أنّ بريدي امتلأ بمئات الرسائل صباح اليوم التالي إلا إنّ الرسالة المنتظرة لم تصل أبدًا. أعرفُ أنّها على قيد الحياة وتتواجد في مكان ما في الجوار. رأيتُ ظلّها وهي تهبطُ من الحافلة قبل مدّة بالقرب من محطّة القطارات. يا لكِ من عنيدة يا كاتيا، انكسرَ الإناءُ وتعذّر إصلاحُه. استغلّت نيللي بالطبع هذه الفرصة وأخذت تظهر هي الأخرى معي في العديد من البرامج. نيللي الواثقة من نفسها تعرف من أين تُؤكل الكتف، استثمرَتْ شخصي وكتابي وجنت الأرباح المرجوّة. لم تهتمّ كثيرًا لسوق الكتب، لأنّ العقود المصاحبة لترويج روايتي مكّنها من توقيع العديد من العقود الإعلاميّة والاستعراضيّة.

- متى ستنجز كتابك الجديد؟ جميعهم يطرحون عليّ هذا السؤال، حتّى سيلفيا بالطبع، ويضيفون "لا تكتفِ برواية واحدة، كيلا ينساك القراء".

- يا إلهي، لا يمكنني الكتابة وفقًا لرغبة الآخرين، هذا مستحيل. سئمتُ الهوس الإعلاميّ. أشعرُ بالخجل، لم تطأ قدمي مجمّع كريميكوفسكي منذ زمن. لا أريد أن ألعب دور كاتب متميّز يعمل في مصنع يتطلب طاقة جسديّة هائلة. في كريميكوفسكي يعملُ مواطنون طيّبون، مكافحون لا يريدون سوى العيش بكرامة، وسعداء للغاية. إذا سألني صحفي عن هذا الشأن فسأقطع وريده، يكفي عبثًا يا صحافة.
- أنتَ محقّ يا نيكي، عليك أن ترتاح لبضعة أيام، لكن يجب أن تعرف بأن الغرور والعبث هما العاملان اللذان سيدفعان بك نحو القمة، وإلا فلن تسوّقَ أبدًا. أضافت نيللي قائلة "أنتَ بالطبع لا تريد أن تبقى مجرّد كاتب طارئ، يجب أن نلمّع اسمك، لا تنسَ أنّ هناك مشروع ترجمة لهذه الرواية، امتطِ الموجة وامضِ نحو القمة يا أديبي".

كيف أجادلها؟ منطقُها قويّ للغاية. الحياةُ تسيرُ بهذا الترتيب، قد يكون من الضروري أن أختفي في الكوخ الصغير عند كوستا وستويانكا، لكنّ ذكرى كاتيا مزروعة هناك، وكافية للقضاء على ما تبقّى من لهفتي. لا يمكنني أن أنغلق على نفسي في مكان غارق بذكريات حميمة، ولا حتى لليلة واحدة.

- سيترجمونك للإنجليزية. قالت نيلي، وأضافت:- رأيتُك تكتب قبل أيام، أعرف أنّ لديك الرغبة بالمضي حتى نهاية هذا الطريق.
- كلام فارغ، لا يمكن أن تكون الكتابة طريقة حياة دائمة، يصعب شرح بعض القضايا بكلمات بسيطة.
- حسنًا حاول أن تشرحها بكلمات أكثر تعقيدًا لو سمحت.
- لا يمكن إخضاع كل شيء في هذه الحياة للمنطق وأنا لست استثناءً.
- أرجوك، كُن عَلَمًا في عالم الأدب، أنت قادر على ذلك، وتستحقّ مزيدًا من النجاح والتألّق.

- هل ترغبين بهذا الاستحقاق من أجلي أم إرضاءً لغرورك؟ صمتتْ بعضَ الوقت لكنّها صوّبت نحوي نظرات غاضبة.
- كان عليك أن تصمت يا نيكي، أنا أمتلك كلّ شيء يا غبيّ.
- هل أنتِ متأكّدة من ذلك، لا يمكن لأحد أن يمتلك كلّ شيء طِوال الوقت، وأنا لا أقصد المال والمركز فقط.

كان عليّ أن أصمت، إذا تمكّنتُ من التفوّق في مجال الأدب والكتابة فإنّ الفضل يعود إليها بالطبع. لكن، لماذا أبالغ في كلّ شيء، ما المانع في النجاح وتحقيق ظروف معيشية جيّدة. الحقيقة يا نيليٰ أنّ أبطال روايتي وشخوصها ولدوا وأنا رهن إشارة كاتيا. توالت الأحداث وأنا أحلّق في فضاءاتها وأنامُ إلى جانبها، سموتُ وأنا أشربها بعينيّ أنتظر النهار في محيط ساعاتها ودقائقها. كيف لكِ أن تفهمي جنوني هذا يا نيللي؟

لم تدركْ نيللي حاجتي لبركان كي أمضي في الكتابة، الأمر لا يتعلّق فقط بنسج حكاية والتلاعب بمصائر شخوصها، أنا لا أقصّ وقائع يا حبيبتي بل أعيشها مع شخوصها حتى نقطة النهاية. ينقصني مقارنة بما سبق جمع الملاليم الأخيرة من جيبي لتقديمها لكاتيا بعد أن أفرغ من تناول فطيرة وفنجان قهوة، تنقصني نظراتها، عطفُها، حنانها الذي يحرقُني ويرمي بي نحو مدارات غير مألوفة؛ وهذا البيت المرتّب الثمين الغارق في الرفاهية يقتلُ الكاتبَ في أعماقي.

من الصعب عليّ أن أقبل انكسار روح سيلفيا بهذه السهولة، تحوّلت هذه المرأة إلى راهبة، بعد أن أهملت جسدها وشعرها، لم يعد وجهُها يحظى بالكحل وأحمر الشفاه. افتقدتُ أيضًا العراقيّ المتمرّد على واقعه. الحياةُ في الواقع قصيرة للغاية، لا يمكنُنا أن نعيش مصائرَ الآخرين. سأكونُ سعيدَ الحظّ إذا عشتُ مصيري الذاتيّ حتّى القطرة الأخيرة التي أرغب بجرعها في مشوار حياتي طال أم قصر.

أكرهُ أن تكون نيللي على حقّ والمرأة التي آوتني في سفح جبل فيتوشا دائمًا على حقّ. عدا عن كلّ هذا تعدّ نيللي سيّدة أعمال ناجحة، وسيّدة أعمالي أيضًا ومفتاح نجاحي المهنيّ.

- دعينا نمضي في إجازة إلى البحر يا نيللي؟ ننسى كلّ شيء في العاصمة الكئيبة، ما رأيك؟ تفاجأتُ أنا نفسي من هذا العرض غير المتوقّع. نظرت إليّ متسائلة وقالت هامسة.
- هل تمتحن إرادتي؟ هل تريد أن تعلم مدى جنوني وجموحي؟ حسنًا، لكن عليك أن تعلم بأنّنا سنسبح ونستحمّ في مياهه حال وصولنا إلى الشاطئ، مهما كانت المياه باردة. هل توافق؟
- يبدو أنّكِ مصرّة على امتحان إرادتي.
- نيكي يا عزيزي. أدركُ بأنّ هناك ما يقلقك، قد لا يكون لهذا علاقة مباشرة بي، أفهمُ مشاعرك فأنا الآن خارج عالمك، وأفهمُ جيّدًا عدم رغبتك بمصارحتي. هذا حقّك، يمكنك أن تحتفظ بأسرارك كما تشاء. كلّ ما أرجوه أن تتوقّف عن جرح مشاعري. أرجو أن تخبرني حين تكون جاهزًا للانطلاق نحو البحر.

أنهتْ كلماتها واختفت على عجل، دون حتّى أن تنظر إليّ. كانت محقّة بالكثير ممّا قالته، وكنتُ مصرًا على حماية بعض أسراري كأنّها آخر قلاعي. لم تكن لديّ أيّة نيّة أو رغبة بجرح مشاعرها أو العبث بحياتها. احتفظتُ بهذه الأسرار القليلة لأنّي بدأت أدمنها وأدمن طريقة حياتها المنطقيّة.

الحبّ هو الصورة المثلى لأيّة علاقة، لم أجرؤ على طرح هذا السؤال "هل أحبّها حقًّا؟" نيلي صيدٌ سهل أو هكذا تهيّأ لي، فقد سارعتْ بعرض كلّ ما تملك على عجل لشخصي، آمنتْ بموهبتي وقدرتي على النجاح. لكنّ يبدو أنّها تفكّر بالطريقة ذاتها وتعتقد بأنّي الصيد الأسهل. كم هو مغلوطٌ ومعكوسٌ هذا المنطقُ الرجوليّ الغارقُ في الأنانيّة. في الواقع لم يتعيّن عليّ أن أخوض معركة لكسب

امرأة ونيللي ليست استثناءً. أعتقدتُ بأنّي أمتلكُها وكنت على خطأ. ماذا بعد الجسد؟ إنّها الروح وامتلاكها يتعذّر في أغلب الأحيان.

لحسن حظّي لم تصرّ على المضيّ إلى الساحل. تركتِ الكرةَ في ملعبي ومضت. ماذا يمكنُ أن يحدثَ لجسدي الهشّ ولقلبي الذي انفطرَ قبل أشهر، هل من الممكن تحمّل حمّام المياه المتجمّد في هذا الوقت من السنة؟ حتّى في الربيع تكون مياه البحر الأسود شديدة البرودة، فما بالك في شهر شباط أو آذار.

طالعتُ مشروع روايتي الجديد. كنت قد أنجزتُ بضعَ صفحات فقط، قد أتمكن من كتابة رواية جيّدة، لكن كلّ شيء يعتمدُ على الحياة الداخليّة لهذه الحكاية، وكيفيّة معايشتها بشكلٍ شخصيّ. إذا لم أتمكّن من معايشة هذه الرواية فهذا يعني أن أكتبها قطرة قطرة، وسيبدو المضمون عقيمًا، لذا فضلتُ عدم تمزيق أوراقي الجديدة والاحتفاظ بها كجنين قادر على النمو لاحقًا. لكن يبدو أنّ هذا الجنين وقحٌ للغاية ويرغب بالانعتاق من رحم أوراقي ليرى العالم بسرعة. هذا الجنينُ أخذَ يطالبُ بالغذاء كلّ يوم وكلّ ساعة من الزمن. أبطالُ روايتي الأولى بقوا سجناء وعي الكاتب، أشعرُ بإلحاحهم للانعتاق من وعيي والبدء بالتجوّل في الشوارع والحدائق علهم يلقون غايتهم التائهة.

- مرحبًا أحمد.
- هل ما زلت يقظًا يا صديقي؟
- نعم، يبدو أنّ النوم قد جافاني.
- أشكرك على اتصالك، غدًا سأعود إلى العراق.
- هل أنت مجنون يا رجل؟ العراقُ الآن أقرب إلى الجحيم. لن تتمكّن من ممارسة الحياة بأمان، الوضع في منتهى الخطورة.
- نعم لكنّه عراقي. سأعود إلى هناك وليمضِ قدرُ الله فينا فهو أعلم بأمورنا ونفوسنا. لا يمكنني مقاومة الحنين أكثر من ذَلك، إذا كُتب عليّ الموت هناك فليكن. سأتّصل بك بين الحين والآخر، واعلم أنّ صمتي إذا طال يعني..

- أخبرني يا أحمد بالله عليك، هل ما زال رمز رجولتك قادرٌ على القيام بواجباته؟ ليس من العدل أن تحرم النساء وصالك يا صاحبي، أمامك الكثير من الحياة يا رجل.
- ساعدَني الأطباءُ إلى حدّ كبير، أعتقد أنّي قد تجاوزت هذه المرحلة، ربّما حان الوقت لأختيار امرأة واحدة فقط بين حشود النساء. اطلق أحمد ضحكة حزينة.
- متى تغادر الطائرة غدًا؟
- في العاشرة صباحًا. أرجوك، لا تحضر إلى المطار، أريد أن أسافر دون وداع، هذا حافز كبير لي للعودة يومًا ما إلى صوفيا.
- لا، لن تسافر دون وداع، هذا مستحيل.

أغلقتُ الهاتف وشعرت بحيرة شديدة، تُرى، ماذا كان بإمكاني أن أفعل لو كنت مكانه؟ هل سأفضّلُ البقاء بأمان في صوفيا، بدلا من مراهقة الحياة في الوطن، مهما كان هذا الإجراء خطرًا؟ مفهومي للوطنيّة حتّى اللحظة سطحيّ للغاية. معتبرًا ذلك مجرّد تضحية دون الغوص في أعماق هذا المفهوم، وكنتُ مخطئًا باعتناقي لمفاهيم مريحة للذات. ليس من السهل أن تتنازل عن راحتك ومقدّراتك مرّة واحدة، دون هدفٍ يستحقّ التضحية.

وصلتُ قبله إلى صالة الانتظار في المطار الدولي صباح اليوم التالي، صوّرتُه مطوّلا بجهاز هاتفي المحمول، بدا الدمعُ واضحًا في الصور الأخيرة التي التقطتها له.

- احذر يا أحمد، صوّر بعدستك إحداثيات الوطن، دعِ العالم يرى بعينك عراق الأحجية.
- أشعر هناك بسعادة بالغة يا نيكي، أشكر حضورك. أرجوك، تحدّث مع سيلفيا، أخبرها أن تدع كريستيان يمضي في طريقه، اتّخذ الفتى قراره ومضى وهو الآن يتعذّب.

- لا أظنّها جاهزة لقبول فراقه الأبديّ، ستدرك ذلك قريبًا بنفسها.
- تعانقنا طويلا، ثم أخذ دوره في الصفّ الطويل أمام مكتب التفتيش، ختمَ الموظّفُ جوازَ سفره. لوّح بيده واختفى خلف الحاجز الأخير، كان يبدو سعيدًا إلى حدٍّ كبير.

دخلتُ بدوري إلى مقهى المطار، اشتريت فطيرة بالشوكولا وفنجان قهوة، جلستُ في مقعدٍ ناءٍ، أخرجتُ بعضَ الأوراق وشرعت بالكتابة، روايتي على وشك الانطلاق، والقطارُ المحمّل بحمّى الأحداث والفرح والتجوال وصراع الدراما الأبديّ بالانتظار.

هذا ما حدث مع عملي الأول، كتبتُ في كلّ الأمكنة التي راقت لي والمنفّرة أيضًا، رفضتُ ترك الكلمات أسيرة للوقت، استخدمت أحيانًا محارمَ الورق فوقِ الموائد، كتبت على صدور النساء وعلى متنِ الهواء، كتبت مصائر تلك الشخصيات.

بدأ أبطالُ روايتي مسيرتهم، وصلت بهم الوقاحة حدّ التعارف، وأنا راضٍ وأبتسمُ والكلماتُ تتراقصُ فوق الورقَ منتشية. قصة حبّ هنا وفراق هناك. أكبر هدايا الكاتبَ أن يعتق أبطال روايته ويعلن بدء حياتهم رغمًا عن أنفة الركود القابع بين الأصابع، لا تتوقف عن السير يا قلمي.

أخيرًا انتقلت ديانا ولوسي للعيش في العاصمة صوفيا، تعهّد البروفيسور أتناسوف بتقديم الدعم والمساعدة الماليّة لتطوير موهبة الصغيرة ديانا، التي أخذت تكبر وتنضج بسرعة مع مرور الوقت، أتيقّنُ من ذلك كلّما أراها بين الحين والآخر، أضمّها إلى صدري طويلا، أقبّل وجنتيها وأمشّط شعرها الطويل بأطراف أصابعي.

- لن أسألكِ عن الحساب يا ديانا، دعينا نتحدث في أمور أخرى، ما رأيك؟
- هذا يعني بأنّي أصبحتُ المعنية بطرح الأسئلة يا أبي.

- حسنًا، اسألي ما تشائين.
- أتعرف يا والدي ما يشغلني الآن؟
- وكيف لي أن أعرف ما يدور في رأسك الصغير يا ديانا؟
- يشغلني مصطلح في الرياضيات "ما لا نهاية" خطّان متوازيان يلتقيان في اللانهاية يا أبي أليس كذلك؟
- أنتِ تعرفين هذا أفضل منّي يا عزيزتي.
- هل هذا ينطبق على قوانين الحياة أيضًا؟ هل من الممكن لروحين أن تلتقيا في اللانهاية إذا تعذّر التقائهما في الحياة الدنيا يا أبي؟
- هل تقصدين شخصًا محدّدًا يا ديانا؟
- لا، ولكن ما فائدة الرياضيّات إذا لم تطبّق في ميادين الحياة؟ مجرّد أرقام.
- متى بدأت التفكيرَ بهذه الطريقة يا شقيّة؟
- حسنًا، أعنيك أنتَ وأمّي بهذا الحديث.
- ديانا يا صغيرتي، أعتقد أنّه من الممكن التقاء روحين في اللانهاية. لكن عليك أن تريحي رأسك الصغير من هذه الهموم والأفكار. اتّفقنا؟
- كيف هذا يا أبي؟ هذه الأفكار تجلب لي السعادة، لماذا تريد أن تحرمني منها؟

تبادلتُ النظرات مع لوسي، لم أكن قادرًا على فهم ما يحدث لابنتي. كأنّها نضجت قبل الأوان بكثير، لكن عليها أن تعيش طفولتها بعيدًا عن متناقضات الحياة وتعقيداتها اليوميّة.

- إنّها شديدة الحساسيّة، الصغيرة تفتقدُك كثيرًا، صدّقني. قالت لوسي بصراحة.
- لا أدري ما أقول يا لوسي، كلماتُ ديانا تعني الكثير وتبدو محيّرة للغاية.
- على العكس من ذلك، أجاباتُك رائعة، ألا ترى كيف هدأت أعصابها الآن.
- أرجو ألا تنقلب موهبتها ضدّها يومًا ما.

- هذا مصيرها ولا يمكنها الهرب من قدرها، لقد ولدت مع هذه الموهبة ولا رجعة عن ذلك. ديانا تعيش مع الأرقام وإذا تمكّنتْ من التوصّل إلى معادلة ناجحة ما بين موهبتها ومتطلبات الواقع فستتمكّن من العيش بسعادة وهدوء.
- لا بدّ أن تلتحق بإحدى المدارس على أيّة حال.
- الأمور معقّدة كثيرًا، أتناسوف مهتمّ بها كثيرًا، سيبذل جهده للتوفيق ما بين متطلبات الجامعة والتحاقها بمدرسة مناسبة، على أيّة حال نحن نسير في الاتجاه السليم. تمكنّا من حلّ مشكلة السكن وتأمين بعض الدخل في العاصمة.
- هل يمكنني أن آخذها بين الحين والآخر، أعيش الآن عند صديقة، تعرفينها، كانت في حفل التوقيع.
- نعم، تقصد نيللي، يمكنك أن تفعل ذلك بالطبع، أنا أيضًا على علاقة مع رجل، لا ادري كيف ستتطور الأمور بيننا.
- ألهذا سألتني ديانا عن إمكانية التقاء الأرواح في العالم الآخر الذي سمّته باللانهاية؟ يبدو أنّها تشعر بالغيرة، لكنّها ستتعوّد هذا الواقع لاحقًا.
- يجب أن توليها اهتمامك، هي مرتبطة بك إلى حدّ بعيد.
- وأنا أيضًا، صدقيني. أعشقُ هذه الصغيرة حدّ الجنون. هل أنتِ سعيدة حقًّا؟
- لماذا هذا السؤال الآن يا نيكي؟ السعادة قضية نسبيّة للغاية. أنا مرتاحة في هذه الوضعية، جورج أيضًا يعيش في صوفيا. جميعُنا يمتلكُ ماضٍ وتاريخ، نحنُ بحاجة للقليل كي نبلغ حدود السعادة. عدا عن ذلك، حصلتُ على وظيفة مدرّسة في مدرسة قريبة من المنزل. أنا قانعة بما حقّقته في الوقت الراهن، ماذا عنكَ أنت، هل تشعر بالسعادة معها؟
- من الصعب الإجابة على هذا السؤال، لكنّها تعني لي الكثير، نيللي تفي بما أصبو إليه الآن، يبدو بأني وإيّاك نتواجدُ في مواقف متماثلة.
- أما زلت تكتب؟

- أحاول، أفتقد الحافز لذلك أحيانًا، روايتي الجديدة تسير ببطء شديد.
- قد يكون عامل الزمن هو السبب. لم يمضِ وقتٌ طويل على انتهاء عملك الأول. ربّما عليك الانتظار قليلا.
- لا، الأمور أكثر تعقيدًا مما تتصوّرين.
- غزوة عاطفية أخرى قد تساعد في إطلاق سراح قلمك، ربّما عليك اقتحام عالم امرأة أخرى، أعرفُك جيّدًا. التجديد وهدم صرح امرأة سيبثّ بك الحياة.

"وربّما عودة امرأة أخرى اسمها كاتيا يكفي لإشباع روايتي بالحياة"، عدت للتفكير بها دون غيرها من النساء في تلك اللحظة. لوسي تعرفُ جيّدًا أنّي ضعيفٌ أمام النساء، وتمكّنتْ من استغلال هذا التعلّق لأكثر من مرّة. لكن، يبدو حنيني لحبّي الكبير قد فاق شهواتي وشجوني.

- ألستُ محقّة يا نيكي؟ قالت لوسي متسائلة.
- ليس تمامًا، الرجالُ ينقلبون على طباعهم أحيانًا.
- هناك الكثير من المأساة في روايتك، لكنّ شخصيتك مطابقة لما جاء فيها، أنت حزين مستثار وتائه دائمًا. هل تذكر لقاءاتنا الأولى؟
- وهل عليّ أن أنساها؟
- لا، لم أقصد ذلك، لكنّي أتساءل إذا ما كانت حيّة في خزائن ذكرياتك.
- اللقاءاتُ الأولى تبقى عالقة في الذاكرة إلى الأبد. لحظاتٌ في منتهى الجمال يا لوسي. لكن لماذا تطرحين كلّ هذه الأسئلة؟ أنتِ تعرفين أنّ ما بيننا قد بات جزء من الماضي.
- أريد أن أعرف لماذا تجاوَزَنا القطار يا نيكي؟ كيف افترقت طرقنا هكذا؟
- أحيانًا ينفلتُ زمامُ الأمور من بين أيدينا ويخرجُ عن إرادتنا، لكنّي متأكّد أنّنا قد قلنا كلّ شيء بيننا. وصلتِ الحكايةُ إلى نهايتها الطبيعيّة. يصبحُ الفراقُ

أحيانًا علاجًا لا غنى عنه. علينا أن نفكّر بطريقة لمساعدة الصغيرة ديانا، أنتِ تعرفين أنّ مسيرة التميّز مليئة بالأشواك.

تجنّبتُ تذكيرها بأنّي لست والدها البيولوجي، ولن يقف هذا حجر عثرة أمامي باعتبارها ابنتي الوحيدة، تلك التي حلمت بي وأرادت أن أبقى إلى جانبها دومًا. طفولتُها مرّت بين يدي، الولادة والأمراض العارضة والحصبة وآلام المعدة، حديقة الأطفال وقصّتها الطويلة مع الرياضيّات. كنتُ على قناعة من مقدرة ديانا على أن تستقلّ ذات يوم بحياتها، وستحقّق النجاح المنتظر وهي حقيقة تفوق عمرها بسنواتٍ عديدة، لكنّها في أمسّ الحاجة إلى وسط قادر على استيعاب حضورها وطاقاتها وموهبتها دون أن تفقد طفولتها. من جهة أخرى، تدرك ديانا جيّدًا استحالة تعايشنا نحن الثلاثة تحت سقف واحد.

الحوارُ صعبٌ للغاية، أعادنا نحو البدايات وكنّا نحاول جاهدين الهروب منها، أعادنا نحو حقولٍ متصحّرة ترفضها أرواحنا، الروحُ تهرب بعيدًا عن التصحّر وتبحثُ دائمًا عن ركنٍ دافئ هادئ لتنزوي فيه وتخلد للراحة.

"اتركيني يا لوسي وحيدًا فعالمي مثقلٌ بالهموم والخطايا، أريد أن أبقى على حدة مع ضميري دون رقيب. ضميري أضحى المفتاح نحو الغد".

لم ألحظْ متى اختفت لوسي، غادرت المكان وأنا غارقٌ في أفكاري وعالمي الداخلي. كنت على ما يبدو أنظر عبرها، وربما اعتقدتُ لوهلة بأنّي قد متّ، ولم أكلف نفسي مشقّة وداعها بعينيّ حين اختفت خلف الباب. أصبحُ وقحًا شرّيرًا حين يحاولُ أحدٌ ما احتجازي في ركن ضيق. هذه ليست أنانيّة لكنّها فطرتي ومكنوني الباطنيّ المصرّ على النجاة والحفاظ على الذات. كأنّي غادرت عبر الفضاء الذاتي. مضى وقتٌ طويلٌ دون أن أشعر بهذه الذات قريبة إلى هذا الحدّ المثير، وإلى وقتٍ قريب لم أكن أبالي، أين سأقضي ليلتي ومع من؟ لكنّي أصبحت الآن شخصية متّزنة ترحّب بالامتيازات بعد أن رتّبتُ بجهد كبيرٍ عتباتِ حياتي.

اتّصلتْ بي إحدى القنوات المرئيّة الخاصّة للمشاركة في مناقشة صاخبة. أصبحتْ وسائلُ الإعلام أكثرَ كرمًا معي، أخذتُ بسهولة أحصل على بعض الأتعاب، حسبتُها من قبل وهميّة، لكنّها طريقة طريفة لتلقّط الفتات، الذي لا تفتأ وسائل الإعلام تنثره لتبقى على رأس قائمة القنوات الأكثر مشاهدة. أرتديتُ ملابس رسميّة أنيقة. بدوتُ أكثرَ وسامة، ازدادت ثقتي بعد أن تآلفتُ مع الكاميرات، وارتفعتْ معدّلات مشاركاتي وظهوري يومًا بعد آخر. وأخذتُ أشاركُ في حفلاتِ الاستقبال المختلفة وما أكثرها، لكنّي سرعان ما شعرتُ بالسأم من هذا النمط المملّ. شعرتُ بحاجة ماسّة لشعلة تضيءُ هذا النفق الرتيب.

"ما هي مشاريعك الأدبية المقبلة؟" يا لها من أسئلة. جوابي دائم ومستمرّ، "أعمل على إنجاز روايتي الثانية، ترقّبوا عملي الإبداعي الثاني". هذا ليس الوسط الذي أريده وأتوق للبقاء فيه، بدأتُ أشعرُ بفعلِ الغرق الكريه في مستنقع قذر ويتمنّاه الكثيرون.

- بصحتك. صاحت إحداهنّ.
- من أنت بحقّ الله؟
- ألم تعرفني يا نيكولاي؟
- عفوًا، لا أذكر أنّي قابلتك يومًا. لا أذكر حتّى اسمك يا عزيزتي. هل أنت إيلينا، إيميليا، فانيا، إليزابيث وربّما كراسيميرا؟ دعيني وشأني أرجوك، أغربي عن وجهي.

هكذا ابتعدتُ عن ذلك الوسط المتعب. لا تَدْعوني بعد اليوم إلى حفلاتكم المقيتة، لأنّها تنالُ من روحي وتحرقُ ما تبقّى من جهازي العصبي. هذا الوسط يودي مباشرة إلى حافّة النسيان.

لاحظتْ نيللي عزلتي وانقطاعي الطويل في بيتها، ليس هذا فحسب، بل انغلقت على ذاتي. قالت لي عصر أحد الأيام قلقة.

- هل أنا السبب يا نيكي؟ أخبرني أرجوك.
- لا يا عزيزتي، لا تفكّري بهذه الطريقة. يبدو أنّي قد دخلت مرحلة من الكآبة تسبقُ عادة فيضَ الكتابة. على أيّة حال، أنتِ تعرفين بأنّ العديد من أصدقائي غادروا بعيدًا عن أفقي. أحمد اختفى في العراق، وكريستيان صعد إلى القطار السريع في طريقه نحو الأبديّة. أرجوك اعذريني.
- لكنّك تتجنّبني في الآونة الأخيرة، أشعرُ بالجفاء والقطيعة يلقيان بظلالهما في كلّ أنحاء بيتي وعالمي. أشعر بأنّي شخصٌ غير مرغوب به، ربّما أصبحتُ عبئًا عليك، هل مشاعري هذه صادقة؟
- عذرًا يا نيللي، ربما انغلقتُ على نفسي أكثرَ من اللازم.
- إذن، ظهور زوجتك الأولى في حياتك ليس السبب في تغيّرك الأخير؟
- نيلي، هل هذا معقول، أنت تغارين.
- نعم، أغارُ عليك، لستُ على استعداد لمقاسمتك مع امرأة أخرى.
- يا إلهي، كيف غاب عن ذهني بأنّك قادرة على الغيرة؟
- لا تنس بأنّي أنثى.
- أحبّك يا نيللي، أحبّ ملابسك الأنيقة وتسريحة شعرك والطريقة التي تتناولين فيها الإفطار بكسل ودلال. أحبّك وأنت تتمايلين في سيرك أمامي متعمّدة ذلك. أحبّ غرورك ولسانك الحادّ الناقد الصريح، أحبّ وقاحتك وجنونك وأفكارك المفاجئة. أرجوك لا تجعليني أشعر بالحرج أكثر من ذلك. لا تنسِ بأنّك رتّبت دواليب وعيي. هل عرّيتُ روحي أمامك بما فيه الكفاية؟
- نعم، بعد كلّ هذا البوح، لا يمكنني سوى الاعتذار. أمسكت نيللي برأسي وقبّلتني بعنف، مزّقتْ قميصي، كانت على عجل لتحويل بوحي إلى لقاء حميميّ وفقًا لمفاهيمها الأنثويّة.

"عفوًا يا كاتيا". الغريب أنّ طيفها بقي يلاحقني حتى في أكثر اللحظات حميميّة. لا أدري إلى متى سيلاحقني هذا الطيف. لديّ رغبة بالتخلص من هذا العبء إلى الأبد. يبدو أنّ مداراتنا باتت متوازية ومتباعدة ولن تلتقي أبدًا.

"فضّلتِ يا كاتيا الاختفاءَ في جحر، هربتِ من ذاتِك أكثرَ من هربك منّي. ما هذا الغرور؟ لماذا كلّ هذه العزّة الكاذبة؟ بإمكانك أن تجديني وقتما تريدين، غالبًا ما أتعمّد ذكر إحداثيات عنواني وبريدي الالكتروني في وسائل الإعلام. لم يبقَ معتوهٌ إلا وحاول الاتصال بي، اتّصل بي مؤخّرًا مندوبون عن مؤسّسة للمثليين الجنسيين، طلبوا منّي دعمهم في نضالهم للحصول على حقّ الزواج واختيار قسّيس مثليّ لمباركتهم. وعدتُهُم بزيارة اجتماع كانوا سيعقدونه في اليوم التالي، لكنّي لم أذهب بالطبع، لأنّ هدفي الإعلامي مختلفٌ تمامًا، تمنّيتُ أن ترسلي لي خطابك المنتظر لكن دون جدوى. اضطررتُ لتغيير رقم هاتفي فيما بعد، وهناك فتاة أخرى تلاحقني بشكلٍ متواصل، حتّى أنّ نيللي رجتني لأكثر من مرة أن أغلق الهاتف، بعد أن أخذ يرن كلّ عشر دقائق. شعرتْ بالضيقِ من هذه المعاكسات وهي على حقّ. لا أدري لِمَ تصرّ هذه المرأة على أنّي رجل حياتها ولن تتراجع عن ذلك.

من أجلك يا كاتيا سأعلن رقم هاتفي مجدّدًا، أمّا بريدي الإلكتروني فيعجّ بآلاف الرسائل المهملة والفيروسات.

هل تعثّرتْ برجلٍ آخر؟ رجلٌ قادرٌ على تدفئة قلبها، بعيدًا عن المشاكل والمنغّصات والهموم وكلّها عنوان حياتي. شعرتُ بالضيق لأنّي أخذتُ أشعر بالغيرة تجاه كاتيا. هذه كارثة، فأنا آخرُ من يملك حقّ الغيرة بعد أن عبثت بحياتها طويلا. يبدو أنّه مكتوبٌ عليّ أن أبقى في ظلّ إحداهنّ طوال عمري. نيللي ملأت هذا الفراغ الروحيّ في حياتي، لكنّها لم تتمكن من مسح ذكرى وحضور كاتيا من ذاكرتي. كيف لي أن أنسى تلك اللحظة، حين أدركت كاتيا بأنّي لا أملك قرشًا واحدًا في جيبي في المقهى ذات صباح؟ بذلتِ المستحيلَ لإرضائي، كانت على استعداد للسرقة. لن أنسى تلك النظرة الحزينة في عينيها كلما رأتني برفقة أخرى،

مع أنّها على معرفة بأنّ هدفي لا يتعدّى قضاء ليلة عابرة. ما الذي حدث بعد ذلك، هبّت عاصفة طارئة أطاحت بسقف حياتي بعيدًا ورمتني بالقرب منها، جعلتني جزءًا من حياتها.

"أخبريني يا كاتيا كيف أتخلّص من طيفك وخيالك وذكراك؟"

أطلقتُ لحيتي، أكثرتُ من التجوّل في شوارع العاصمة متعمّدًا المرور في المناطق التي قد أقابلها فيها. من الممكن أن تراني وأن تسارع بالاختباء رغبة منها بإنهاء الحكاية.

"تعرفين يا كاتيا طريقي وأماكن تواجدي، يمكنك في أيّ لحظة أن تحدّدي مداراتي، لا تختفي في قوقعتك أكثر من ذلك، هل لكِ أن تقومي بالخطوة الأولى؟"

أوشكتْ إحدى العربات على دهسي، كنتُ أعبرُ ممرًا للمشاة، والإشارة حمراء في تقاطع مزدحم خطر. "هل تنوي الانتحار؟" صاح أحدهم. على العكس من ذلك، أنا متشبّث بالحياة من أجلك يا كاتيا، لأنّك ما زلت متواجدة فوق هذا الكوكب.

أرغبُ أن أكون شاهدًا على تعافي كريستيان أو موته. وكم أتوقُ لسماع أخبار مطمئنة عن أحمد في العراق، الذي فضّل العيش في أوضاع متفجّرة بدلا من الهدوء والأمان في العواصم الأوروبيّة. أرغبُ أن أبوح بكلّ ما يعتمل في نفسي، كنتُ في تلك اللحظة بمثابة بركان على وشك الانفجار، أبحثُ عن نقطة الضّعفِ في القشرة الخارجيّة لتنطلق الحممُ متدفقّة من أعماقي، تلك هي الطريقة الوحيدة التي سأتمكّن من خلالها ترك بصماتي فوق صفحات التاريخ.

***

دعيه يذهب يا سيلفيا.

استمرّت بالجلوس إلى جانب سريره لأوقات طويلة. لاحظتُ قبل أيام هدوءًا مقيمًا على تقاطيع وجهه، لم أقرأ أيّة علامات لعودة الحياة إلى جسده، كان غارقًا في غيبوبته، لكن لا أثر للقلق على تقاطيع وجهه، وهذا أحد الأسباب الذي

دفعني لأطلب من سيلفيا بأن تدعه يذهب:- دعيه يذهب، كريستيان يرغب بذلك، أرجوك.

- أتعتقد بأنّ هذه الخطوة سليمة يا نيكي؟

تغيّرتْ هذه المرأة إلى حدّ بعيد، ضوى جسدُها، فقدتْ تألقَها وجمالَها، برزت عظامُ وجهها، بانت الظلالُ واضحة حول تجاويف عينيها. توقّفت عن وضع مواد التجميل، لم تعرفْ عيناها الكحل منذ أشهر، لكن بقيت هناك مسحة من الجمال تذكّر بماضيها الجميل العامر.

الروحُ لغزٌ كبيرٌ يصعبُ فكّ أسراره. المرأة ذاتها التي خانته في كلّ مناسبة، تفضّلُ البقاءَ أسيرة جسد الحبيب الهالك، جسدُ رجل أخلصَ لها طوال حياته الواعية.

- وداعًا يا كريستيان، وداعًا. همستُ بحزن.

تحدّثتُ مع الأطبّاء، أخبروني بأن حالته غير قابلة للشفاء. أخيرًا تحمّلتْ سيلفيا مسؤوليةَ التوقيع على الوثائق الطبيّة الضروريّة لإبعاد جهاز التنفّس الآلي عن وجه كريستيان، ما يعني إعلان موته رسميًا. وكان أهله قد أوكلوا سيلفيا للقيام بما تراه ملائمًا لمصير كريستيان، وأرسلوا لها توكيلا خاصًا.

- لديّ إحساس بأنّي أقتله للمرة الثانية، لكن هذه المرّة بمحضِ إرادتي، وبوعيي الكامل. قالت سيلفيا وعيناها تحدّقان بزجاج النافذة خلفَ سرير كريستيان، تلك كانت من أصعب لحظات العمر، علينا اتّخاذ قرار مصيريّ. ويا له من قرار.

- أريدُكَ أن تبقى في الغرفة إلى جانبي حين يوقفُ الأطبّاءُ أجهزة الحياة. أرجوك يا نيكي، ساعدني كي أقوم بذلك.

- لن يشعر بألم، لن يتغيّر شيئ بالنسبة لوضعه الفيزيائيّ ولوعيه أيضًا يا سيلفيا، أعتقد أنّ روحه وحدها هي التي ستتحرّر نهائيًا.

- نعم، أعرف هذا، أرغبُ أن تحومَ روحَهُ فوق جسدي، ستدركُ مدى تعلقي به ومحبّتي له ورغبتي الكبيرة بالغفران. سيدركُ بأنّي أحبّه كما لم أفعل من قبل. أحبّه بطريقتي الخاصّة، وسأخلص له ما حييت.

تذكرتُ كلماتِ الصغيرة ديانا حين سألتني عن الأرواح، وإذا ما كانت قادرة على أن تلتقي هناك في اللانهاية. تمكّنت الصغيرة من فهم المستحيل والمطلق بطريقتها الرياضيّة الخاصّة، وبلغت الفهمَ الفلسفيّ رغم صغر عمرها، كلّ منّا يحتاج إلى لانهاية تخصّه كي يتمكّن من الخلاص من آلامه ومعاناته ومشاعر الإحباط.

تمكّن الخالق من تخليد الإنسان بحرمانه من الأبديّة، بهذا سعى الإنسان إلى تخليد ذاته عبر أعماله وحضوره في دفاتر التاريخ.

لا أدري ما الذي شعرتْ به سيلفيا حين توقّف الجهازُ عن العمل، الشيءُ الوحيدُ الذي يمكن ملاحظته من الناحية الفيزيائيّة والبيولوجيّة هو قابليّة جسد كريستيان منذ هذه اللحظة على التحلّل إلى عناصره الأوّليّة والانعتاق في جوف الطبيعة. هذا ما كانت تصبو إليه روح كريستيان، التحرّر من قفص الجسد الهالك. مرّت لحظاتٌ قاسيةٌ طويلةٌ من الصمت، كنّا قد تعوّدنا على صوت الجهاز يضخّ الأوكسجين إلى جسده. جهازٌ رتيبٌ لكنّه يعني بشكلٍ ما إحدى صور الحياة، عندها فقط أدركنا أنّ للموتِ وقعٌ ثقيلٌ مهما حاولنا فلسفته وتلطيف وقعه. طُويتْ سيرةُ إنسانٍ كافحَ طويلا من أجل أن يكون صادقًا مع نفسه، فانتحر كما فعلها ارنست همنغواي. ربّما تحتاجُ الإنسانيّة إلى بعض التواطؤ والكثير من التنازلات لتصبح الحياة ممكنة.

- عفوًا كريستيان، هذه نهاية مفجعة، لكنّك أنتَ من وضع بداية النهاية. انحنيتُ فوقه، قبّلتُ وجنتيه ومضيت.

ذهبَ الفتى نحو الأبديّة، ودّعناه بدورنا إلى الحدّ اللائق المسموح به، لم نحاول تجاوز هذه الحدود كي نضمن عودتنا لنهارنا المملّ مجددًا.

عانقَتْهُ سيلفيا طويلا. عانقته وكانَ الوداعُ الأخير. عدتُ إلى الغرفة، شددتُها من يدها بعنف وخرجنا من هناك. لا بدّ من الاستعداد لدفنه. طلبتُ من نيللي البقاء برفقة سيلفيا طوال الوقت، وأن ترافقها إلى المنزل عند الضرورة. خشيتُ عليها من ذاتها ومن حالة الصمت القاتلة التي تعيشها. في المساء، كانت لي مشاركة تلفزيونيّة، تحدّثتُ خلالها عن الحياة والموت وعن الأدب والثقافة والحبّ والموسيقى. كان طيفُ كريستيان يتماثلُ أمامي طوالَ الوقت، كرّستُ تلك الأمسية من أجله، لعله استمع لي قبل أن تنفذ روحه إلى السماء. لعلّ هناك مزيدًا من الرحمة للأرواح المعذّبة.

حين عدتُ إلى المنزل شاهدتُ سيلفيا جالسة وحدها في إحدى زوايا المنزل ملتفّة بالصمت:- سيلفيا. هل أنتِ بخير؟

- الآن فقط أدركتُ بأنّه قد مضى إلى الأبد، ذهب دون رجعة. أشكرك يا نيكي على كلّ ما قدّمته لنا.
- كلّنا سنطرق يومًا أبوابَ الأبديّة، هذه حقيقة لا تقبل الجدل.
- لا يا نيكي، هذا غير صحيح. يحتاجُ المرءُ لجرأة كبيرة وإرادة قويّة، كي يغادر الحياة بمحض إرادته. الحياة مشروعٌ في غاية التعقيد لكنّه جميل. ما الذي كان يشعرُ به كريستيان حين أقدم على ذلك؟
- ربّما لم يكن قويّا بما فيه الكفاية.
- أنا التي تسبّبتُ بهذا الضعف، كيف لم أتنبّه لمعاناته ووحدته الخانقة. كنت منهمكة بذاتي، المرآة خطفتني بعيدًا عنه.
- يكفيك لوم نفسك، انتهى كلّ شيء يا سيلفيا، تحتاجين لمزيد من الراحة، لم لا تخلدين للنوم قليلا؟
- نعم، أريد أن أنام من أجله، قد يزورني في منامي ويسامحني. هو قادر على ذلك، لأنّ قلبَه كبيرٌ بحجم الحياة التي فارقها بمحض إرادته.

- أنت على حقّ، اذهبي للنوم لعله يزورك في أحلامك. كانت لديّ رغبة كبيرة بالتخلّص منها، هذه المرأة التي يتمناها الكثيرُ من الرجال، أرغب الآن بتجنّبها والابتعاد عنها كأنّها الطاعون.

أخرجتُ مسودّة روايتي الجديدة وكتبت على الصفحة الأولى، **"الإهداء إلى كريستيان"**.

الإهداء بمثابة المحرّك الرئيس لروايتي، حالة الموت التي قدّمت قدرًا كبيرًا من الحياة لكتابي الجديد. أشكرك يا صديقي، كم أنتَ كريمًا في حياتك ومماتك أيضًا.

بقيت أكتب حتى وقتٍ متأخّر من الليل، راقبتُ أبطال روايتي وقد دبّت فيهم الحياة، أخذوا يهذرون ويتعارفون ويرسمون خططًا مستقبلية للحياة وربّما للموت.

عانقتني نيللي، أدركتُ بأنّها تحتاج لمزيد من الانتباه والاقتراب. نسيتُها في خضمّ العراك الذي خضته مع نهاية حكاية كريستيان. انغلقتُ على نفسي في هذه المرحلة ولم أسمح لأحد بالاقتراب منّي. وحريقٌ كبيرٌ يشتعلُ في داخلي، وكنت على استعداد لقذف كلّ ما يثقل روحي في أتون هذا الحريق. الحريق يطهّر الذات والضمير، يفتح المعابر المغلقة نحو الجنون والرغبة والعطاء.

الآن فقط تمكّنتْ نيللي من الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة في ذاتي، أدركتْ بأنّ عليها أن تبتعد لبعض الوقت كي تبلغني وتتوحّد معي. عبرتْني في لحظة مواتية لتصبح جزءًا من كياني. كانت على استعداد لأن تحترق بناري إذا كان ثمن ذلك انصهار روحينا "أهلا بك حبيبتي، أتوّجك الآن ملكتي".

انصهرنا في بوتقة واحدة، شعرتُ بنبض الحياة في أوردتها، نيللي نامت بين يدي كطفل رضيع، لم أعايش لحظة وجدانيّة مع امرأة كهذه اللحظة سابقًا. لم تتملّكني رغبة جنسيّة، أدركنا بأنّ لحظة التوحّد التي نمرّها نادرة واقتنصناها دون تردّد. ليس من السهل أن تقرّر امرأة أن تعمّد رجلا في منزلة قريبة من الإله، لتصبحَ روحُها رهينة بين يديه. لم أحاول إزاحتها لتنام على السرير. كنتُ بالنسبة

لها قاربُ نجاة. لتبقى بين أحضاني قدر ما تشاء، يستحيل أن تتكرّر هذه اللحظة في عمر الزمن.

فاجأنا مطرٌ غزيرٌ، تدفّقَ من السماء في ساعات الليل وليس من المتوقع أن يتوقّف قريبًا كالعادة، ما يعني وداع كريستيان ودفنه وسط سيلٍ من المياه. كان الفتى يعشق المطر، يا لك من رجل محظوظ، حتى مراسيم دفنكَ يصاحبها دفق المياه.

- لا أقدر على الحلم حين تكون بجانبي يا نيكي.
- ظننتكِ قد نمت يا فتاتي.
- نعم، نمتُ بعمق، لكنّي شعرتُ برأسي ثقيل فوق ذراعك. أنتَ قلق وأنا أحبك، أنتَ الوحيد الذي يحرمني من الأحلام بخيرها وشرها. ما معنى هذا يا تُرى؟
- الأحلامُ ضرورة وتوقّفها يدعو للقلق.
- لكنّ هذه الوضعيّة مريحة للغاية.
- متى ستقدّمين لي عارضة أزياء عارية عربون المحبة؟
- سأقتل أيّ امرأة تحاولُ مقاسمتك معي.
- ما هذا التغيير الذي طرأ على مفاهيمك يا نيلي؟
- أنا لست ساذجة إلى هذا الحدّ، حاولتُ اختبارك آنذاك.
- كان بإمكاني أن أنخرط في لعبتك.
- نعم، لكن الوضعَ اختلف الآن، ابتعدنا كثيرًا عن الشاطئ. اخرس أرجوك.
- لماذا؟ هل ستعاودين النوم؟
- لم تعد لديّ أية رغبة للنوم، هل تريد قهوة؟
- أفضّل النبيذ. تمطّت نيللي واقفة، ثمّ لاحت منها نظرة على مسودة روايتي الجديدة. قرأت الإهداء وقالت:- يبدو أنّك كتبت الكثير.

- نعم، الموت بداية لحيوات جديدة.
- سيلفيا تألمتْ كثيرًا لفراقه.
- لا أعتقد أنّ هناك رجلا آخر يمكنه تحمّل عبثها، كريستيان تعلّق بها وأحبّها بكل جوارحه. أعتقدُ أن حياتها قد انقلبت رأسًا على عقب. لكن يكفينا الحديث عنها، أعتقدُ بأنّها قادرة على إنقاذ نفسها. ليس من المتوقع أن تعود تلك المرأة التي عرفتُها قبل رحيله، هذه قوانين الحياة ولا رجعة عنها.
- أتساءلُ أحيانًا يا نيكي، من هو حبّك الأكبر؟
- كنتُ أتمنّى ألا تطرحي عليّ سؤالا كهذا.
- انتظر لحظة، سأعود على الفور. اختفت نيللي بسرعة أدهشتني. بعد قليل عادت وفي يديها كأسان من النبيذ، جرعتُ كأسي دفعة واحدة. ابتسمتْ هي بدورها وذهبت لإحضار الزجاجة.
- قد تصبح الحياة أحيانًا رهن شخص واحد. لا أؤمن بالحبّ الأعمى والوفاء المطلق. الحبّ الأعمى يشلّ الروح.
- قد تكون على حقّ، كلّ إنسان ملزم بمرور هذه التجربة. هناك فارق كبير ما بين الغرام والسعادة، ليس بالضرورة التقاء هذين المفهومين في مكان وزمان واحد.
- ها قد بدأتِ أنتِ الأخرى بوضع التعريفات والتفلسف. دعينا من هذا الجدل يا عزيزتي.
- هل أنتَ جائع يا نيكي؟
- لا، ولكنّي أفكّر بالغد.
- لن تطول مراسيم الدفن، انتهت الحكاية وما تبقّى سرابٌ وتراب.
- لكلّ عملية دفن مميزاتها، غدًا سيرقد صديقي مترين تحت الأرض.
- يبدو أنّك لا تحتمل وطأة الكحول كثيرًا.

- أنا قادر على الوقوف على قدميّ، هذا يكفي. اعترافي غبيّ دون منطق.
- دعك من النبيذ يا نيكي، أنت غير قادر على ربط المعاني، دعنا ننام.

كانت على حقّ وقرّرتُ طاعتها، يبدو أنّ تجربة الحياة المركّزة خلال اليومين الماضيين وحضور سيلفيا السلبيّ ضاعف من شعوري بالتيه.

نمتُ على الفور، عكس نيللي. لم تتوقف الأحلام عن التدفّق إلى وعيي. حلمتُ بكوابيس كثيرة ودماء دافقة وصراخ ومطاردات، وفي نهاية حلمي زارني كريستيان باسمًا هادئًا كالعادة، ولوّح لي في نهاية نفق طويل.

* * *

عبرتُ طريقًا طويلة لأصل لأحد المقابر العاديّة المنسيّة. اعتملَ في داخلي الكثيرُ من البوح والصراع النفسيّ والقلق والحبّ والجنون. وسرعان ما انتهى كلّ شيء تحت وطأة صمت المقبرة الثقيل.

شعرنا نحنُ الأحياء بطول المراسم، أمّا بالنسبة لكريستيان فقد كانت لحظة عابرة في عمر الأبديّة، ربّما شعر للمرّة الأخيرة بحضور أحبّته وأصدقائه، شعر باللحظات الأخيرة لدفق الحياة من حوله. كلّ هذا اختفى حين انهالَ الترابُ فوق القبر المفتوح كفم حوت. لم تسمح لنا الأجواءُ الماطرةُ بالشعور بنشوةِ الفراق والوداع الأخير، لم تتوقّف الأمطارُ عن الهطول منذ ليلة البارحة. حتّى الطبيعة يا صديقي محتدّة ورافضة لما تجرّأت على القيام به.

سارعنا بدفنه هربًا من الأمطار الغزيرة. كنّا نرغب بالانتقال إلى الدفء والطمأنينة. سارع عمّال المقبرة على إنهاء عملية الدفن وردم القبر على عجل وتسويته وكنت أنا في الطليعة. كنتُ قريبًا منه خلال الحياة وها أنا أقربُ إليه في لحظاته الأخيرة فوق وجه الأرض، ليتحلّل إلى عوامله الأوّلويّة في التراب. سوّوا القبر ووعدوا أن يعودوا ثانية للاهتمام به بعد انقطاع المطر. كان عليّ أن أحضرَ له شاهدَ قبر يؤرّخ تاريخ ولادته ووفاته. قلّ عدد أصدقائي وأحبتي، انقطعت أخبار الكثير منهم، مضوا واحدًا تلو الآخر كلّ بطريقته الخاصّة.

التقيت بعد ذلك بأنطونيو، أشعلَ شمعة في كنيسة بالجوار إكرامًا لكريستيان ومضينا بعد انتهاء المراسيم إلى مقهى قريب. أخبرني بعد ذلك بأنّ الفيلم الذي شاركت به جاهزًا للعرض، ولديه رغبة بعرضه في بلغاريا وإيطاليا في وقتٍ واحد. أخبرَني بأنّ المقاطعَ التي شاركتُ بها ناجحة وملفتة للأنظار، قال أيضًا بأنّي أصلح للعمل في السينما وقد أصبحُ نجمًا. دعاني أخيرًا للمشاركة في فيلمه القادم، أخبرتُه بدوري عن كتابي الجديد والنجاح الذي حققه في الأسواق.

- هل يوجد في كتابك مكان للحياة السينمائيّة؟ كان يفكر طوال الوقت كمخرج سينمائي، كلّ شيء في وعيه سينما، الحياة بالنسبة له تحوّلت لشريط متواصل من العرض السينمائيّ.
- عليك أن تقرأ الرواية بنفسك وتقرر يا سيّد أنطونيو.
- أنا لا أعرف البلغاريّة، لكنّي سأطلب من أحد أعواني أن يكتب لي ملخصًا عن روايتك ثمّ نقرّر.
- في اليوم التالي فاجأتني سيلفيا قائلة:- كريستيان يريدني أن أذهب لزيارته.
- أعرف هذا، أنتِ من يقرّر الذهاب الآن أو الانتظار حتّى يحين الوقت المناسب لذلك. لم تكن لديّ أيّة رغبة في الجدال، لا أدري إذا كانت تعني ما تقول، أم أنّ حديثها مجرّد هواجس عابرة.

كريستيان سيدعوها دائمًا للحضور حيث يتواجد، أو على الأقل ستعتقد أنّ الأمر يبدو كذلك. من الممكن أن يُفقدها هذا الهاجس وعيها لتسارع بالدقّ على أبواب الجنون أو الإقدام على الانتحار. لا أحد يرغب بتكرار هذه التجربة. حياتُها ملكُ يديها، لا يمكن لأحد منّا مساعدتها أكثر من ذلك، لا يمكن وضع رقيب على أفكارها. كنتُ أتجنّب البقاء معها أو النظر إلى عينيها، أدركتْ هي كذلك رغبتي بالانعتاق من حياة مثقلة بهموم الماضي. عادت سيلفيا بعد أيام إلى مسقط رأسها في بيرنِك. كانت بحاجة لعزاء أمّها وأقربائها لتتحرّر هي الأخرى من ثقلِ الحدث الذي هزّ كيانها.

أحيانًا تبدأ الحياة بالسير إلى الوراء نحو البدايات، عندها تبدو الولادة أو أيّ احتفال صغير كافٍ لملء الذات بفيض من المشاعر. كلّ ذلك لا يكفي لتغيير وجهة دوران الكرة الأرضية. قد تكون حياة سيلفيا قد تغيّرت جذريًا منذ وفاة كريستيان، إلا أنّها ما زالت ترى كلّ شيء من حولها بعينيه. قد ينطبقُ هذا الأمر عليّ أيضًا فأنا متعلّق بنيللي. أتنفس عبرها، هي وعيي وحاضري ويمكنُها أن تكون غدي أيضًا. نيللي مشبعة بألوان الحياة الرتيبة، يمكنُها أن تقدّم لي الكثير من المفاجآت، وترفض الجمود والبقاء رهن اللحظة الآنيّة فقط. نيللي واقعيّة خلافًا لكاتيا التي فضّلت أن تبقى وميضًا أضاء فضاءات حياتي ليخبو وينطفئ بسرعة.

الملاحون يعرفون متى يرسون بمراكبهم على الشواطئ، يفضّلون في لحظة من اللحظات العيش بالقرب من البحر بعيدًا عن لجّة أمواجه. يرغبون دون شكّ بالاستماع إلى صخب البحر وأمواجه المتكسّرة، لكنّهم يهجرون قلبه لتستمرّ الحياة في قلب قبطان جديد، يتقاعدون من أجل الأسطورة ويبدأون بقصّ حكايا أعالي البحار على الصغار باشتياق.

أعلمُ أيضًا أنّ البحرَ لا يحبّ الموتى ويفضّل لفظهم بعيدًا عن أعماقه. قد يبتلعهم طويلا، لكنّه في نهاية المطاف يقذفهم إلى الشاطئ، إلا إذا قضوا في أفواه الأسماك المتوحشة، لتنهش وتلتهم ما تبقّى من أجسادهم، لتخلصهم من آثار الذكريات الزرقاء العميقة.

أجلسُ مباشرة تجاه جبل الفيتوشا، لا يمكنني أن أتصوّر إحداثيات يوميّاتي دون مراقبة القبّعة البيضاء التي اعتمرَ بها هذا الجبل البركانيّ الهامد. يذكّرني البردُ الذي هاجمني من الشرفة بهربي من أوهامي التي طالت. لماذا يفضّلُ الرجالُ يا تُرى البقاءَ عند شفا موجة؟ كأنّهم غير قادرين على بلوغ السكينة للحظة. تناقضاتُنا هي التي تخلق حكمة الكون، أشعرُ أنّ المجرّة على عظمتها تحتاجني، كأنّ أحد أدواري في هذه الحياة إرشادها إلى طريق النجاة، كيلا تتوه وتبتلعُها الثقوبُ السوداءُ العملاقة.

أجلس قبالة مدينتي الغارقة بصمتِها وهمّها وقصصِها وحنينِها وغفوتِها وأسرارِها، كم قطعتُ تلك الشوارع جيئة وذهابًا. قالت:- كن جزءًا من حياتي، أعشقُ حتّى صمتك.

- أنا أكره الصمت الآن، أنا كبير الثرثارين.
- هل هناك مكان لي في حكايتك يا نيكي؟
- الحكاية مستمرّة. كيف لها أن تتوقّف يا نيللي. عليك فقط أن تسبحي ضدّ التيار، لا تخشي الغرق يا صديقتي الجميلة. أغمضتْ نيللي عينيها ونامت بعمق.

روحي قلقة لا تعرف الراحة. انطلقتُ نحو النهار دون هاتف جوّال، دون هاتف داخلي. تجوّلتُ في الأماكن المألوفة المحبّبة، شربتُ القهوة وأكلت الكثير من الحلوى. لا أخشى الحاضر، أتوق للغد وما بعده. جلستُ على إحدى المقاعد الخشبية، حرًّا منتشيًا. توقّفَ المطرُ وسطعت الشمسُ في أصلِ النهار. رفعتُ رأسي ببطء إلى السماء، صوّبتُ ناظريّ إلى المارّة. لم أصدّق عينيّ حين رأيتها، كانت هي بلحمِها ودمِها. كاتيا تقفُ على بعد خطوات منّي.

كتب عن الرواية في نسختها البلغارية

محاولات للهرب من الواقع

بتكو براتينوف

نائب رئيس اتحاد الكتاب البلغار

يتمثّل المرضُ الكبيرُ الذي تعاني منه الحياة المعاصرة في الرغبة الجامحة للإنسانيّة للتوصّل إلى طريقة ما لتحقيق الرغبات المتفجّرة.

كلّ واحد يسارع لإنهاء دراسة ما أو إتقان مهنة. يسارع على الفور كسب المال الوفير والعيش في رفاهية، بهذا يتمكّن من الحصول على كافّة مميزات الحياة الثريّة المنعّمة. الجنس والطريقة البوهيمية في ممارسة الحياة وارتياد المطاعم الفاخرة والعيش في الشقق الثمينة والسفر عبر البحار والمحيطات وتسلق الجبال في القارّات المختلفة.

غالبًا ما يخرقُ الإنسانُ الكثيرَ من قوانين الطبيعة حين يصرّ على المضيّ في الطريق المؤدي لتحقيق جميع هذه الأمنيات. لكن ومهما تقدّم الوقت أو تأخر لا بدّ للإنسان أن يدفع ثمن مغامراته والثمن باهظ للغاية.

قوانينُ الطبيعة لا تسمح بالقفز بهذه الطريقة العابثة، لا يمكن لشجرة تفاح أن تنوّر في الخامس من شهر نيسان، ولا يمكن أن نجني ثمارها الناضجة في العاشر من الشهر نفسه. هناك مراحل لنموّ الشجرة، وعقد براعم ثمارها ثم نضوجها. ويجب أن تتوفّر هذه المراحل لدى الإنسان أيضًا، لكنّ البشريّة نادرًا ما تعتبر نفسها مثالا يحتذى به في الطبيعة، لأنّ الإنسان يعتقد نفسه قويًا وخارقًا. هذه الجهالة الروحيّة لا تبشّر بالخير.

راودتني كلّ هذه الأفكار عندما قرأت رواية الأديب خيري حمدان "أرواح لا تنام".

الكاتب الذي يتحدث بلسان حاله في هذه الرواية يتناول تفاصيل حياة بضعة شخصيات محوريّة من كلا الجنسين. هو بذاته يتحوّل لمركز تتمحور من

حوله شخصيات الرواية الرئيسيّة من نساء ورجال، باختلاف مفاهيمهم الفلسفيّة في الحياة وعلى اختلاف إمكانيّاتهم الماديّة.

الشخصية الرئيسيّة للرواية تعيشُ حياة تتّسم بالفوضى، لكنّها تدريجيًا تتمكّن من تحقيق الهدف – كتابة رواية في نهاية المطاف. البطلاتُ من حوله بما فيهم تانيا ولوسي وكاتيا وسيلفيا ونيللي وفيارا يرسمهم الأديب خيري حمدان بقلمه بحدود وعلى عجل. الكاتب لا يرسم شخصيات محزنة متوترة لكنه يعتمد في سرده على تطورات الأحداث، كما إنّ المادة الأدبيّة في هذا النص لا تدعو للملل. الأحداث مفاجئة والحلول التي يطرحها الكاتب ليست منطقية دائمًا مع أنها ممكنة.

الشخصياتُ الرجوليّة في هذه الرواية وتحديدًا شخصية كريستيان والعراقي أحمد شخصيات وفيرة مميّزة. سلوكّهم تتابعيّ منطقيّ، رغم أنّهم في نهاية المطاف محكومون بقدرهم المحتوم.

رواية "أرواح لا تنام" للأديب خيري حمدان مبنيّة على مستويين، الأول هو الرداء أو القشرة الخارجية للرواية، المليء بالمتعة. أما المستوى الآخر فهو البعد الداخلي للرواية الغارق بالاضطرابات النفسيّة.

بهذه الرواية يثبت الأديب خيري حمدان موهبته الأدبيّة ونحن بانتظار المزيد من مؤلفاته القيّمة.

نديالكو يوردانوف

نديالكو يوردانوف – شاعر وموسيقي ورجل مسرح بلغاري صديق مقرّب من الأديب خيري حمدان.

رواية تستحقّ القراءة

سيسحركم الكاتب مع الصفحات الأولى لهذه الرواية، لن يدعكم تتركونها حتى تتّموا قراءتها. ستجدون كل شيء في طيّها، الحبّ، الإغراء والديناميكية

والحركة أيضًا. لكنه قبل ذلك سيترك بين أيديكم بوحًا لقصة إنسانيّة. صريحة للغاية ومؤلمة في صدق بوحها.

رجلٌ معاصرٌ يسردُ علينا قصة حياته ويوميّاته. يتحدثُ عن مهنته وآماله وخيبته، يتحدّث عن طموحاته أيضًا. إنّه كاتبٌ كالأديب مؤلّف الرواية، لكنّه ليس مثيله، ليس بشكل كاملٍ على الأقل.

خيري حمدان إحدى عجائب الطبيعة. الفلسطيني الذي أتقن بمهارة فائقة اللغة البلغاريّة كأنّها لغته الأم.

خيري حمدان الذي يكتب بالبلغارية منذ ما يزيد على 15 عامًا. كتب الشعر والرواية وله عدّة كتب مطبوعة.

أنا أقدّر هذا الكاتب، ويمكنني القول بأنّنا أصدقاء أيضًا.

أؤمن بموهبته، وأقدّر إرادته على النجاح والبقاء، كما أحني رأسي تحيّة وتقديرًا لمعاناة وطنه وشعبه. هذه الرواية تستحقّ القراءة دون شك.

خيري حمدان

صدر للكاتب خيري حمدان العديد من الأعمال الأدبية باللغتين العربية والبلغارية.

باللغة البلغارية

روايات:

- أرواح لا تنام – 2005
- أوروبي في الوقت الضائع- 2007.
- مذكّرات موسومة بالعار- تحت الطبع.

شعر:

- ديوان - مريمين - 2000
- مجموعة - عيون العاصفة - 1995
- ويصدر له قريبا مجموعة "نسرٌ في العين" - في شعر الهايكو .

مسرح

فازت مسرحيته "هل يسمعني أحد" بجائزة المسابقة الأوروبية للمسرح المتخصّص باللجوء/ عرضت على مسرح "الدارة الحمراء في صوفيا عام 2008".

أعمال باللغة العربية

- فازت روايته "انعتاق" بجائزة دار نشر "الألوكة" السعودية.
- رُشّحت مسرحيته "دعني أعِش، دعني أمُت" للنشر في المجلّد الأول للمسرح العربي المعاصر عن دار نون المصرية للنشر والترجمة.
- نشرت روايته "شجرة التوت" في المواقع الإلكترونية على حلقات.
- صدر له مجموعة قصصية بعنوان"غواية منتصف العمر" عن دار "أزمنة" 2014.
- نشرت له روايات "مراكبي"، "مذكرات موسومة بالعار"، ورواية "أرواح لا تنام" التي ترجمت إلى العربية 2015.

في مجال الترجمة إلى اللغة العربية :

- مجموعة قصصية للأطفال بعنوان "كم أنت رائع يا تينو" للأديبة البلغارية نيللي بيشيروفا.

- رواية "هدايا شهرزاد السبعة" للمستشرق البلغاري إميل غيورغييف.
- نقل للبلغارية العديد من الأعمال الشعرية لكلّ من محمود درويش، سميح القاسم، راسم المدهون، حيدر محمود وغيرهم.
- يعمل حالياً على إنجاز "مختارات من الأدب البلغاري المعاصر" وتشمل ترجمة لقرابة 30 شاعراً بلغارياً.
- لديه مشروع ترجمة وإصدار العديد من الأعمال النثرية لكتّاب عرب.

يعيش الكاتب ويعمل في العاصمة البلغارية صوفيا، ويراسل العديد من الصحف والمواقع الأدبية المهتمة بالترجمة والإبداع الأدبي.

أرواح لا تنام

أعتقدتُ بأنّي أفهم النساء حتى تلك اللحظة، أعتقدتُ أنّ سلطتي بلا حدود على أرواح وأجساد النساء، لكن ها أنذا أجد نفسي ضعيفًا وعاجزًا عن امتلاك نفسي أمام امرأة بلا أثداء. أكثرَ ما فاجأني في هذه الدراما شبه العائلية ردّة فعلي القاصرة. كنت أنا الضعيف المكبّل، وجدتُ نفسي طِوالَ الوقت في وضعيّة الدفاع عن النفس. ألم يكن من الممكن أن أعبّر عن رفضي أو حتّى أن أصفعها وأمضي في طريقي؟ لا، لم أفعل ذلك. للمرّة الأولى تتمكّن امرأة من الانتصار عليّ في معركة الرجولة الأبديّة، كنتُ أنا الفارس المقهور، أقفُ أمامها بلا حولٍ ولا قوّة، أتوسّلُ إليها وأتمنّى عليها ألا تطردني. سأصلحُ كلّ أخطائي. كانت هي الخائنة وأنا الذي يطلب الصفح والمغفرة من معذّبتي.

خيري حمدان



البيروني ناشرون وموزعون
BEYROUNI
Email:beyrouni.publisher@gmail.com

